# هود

# من وحي القرآن والسُنّة


تأليف

أ د عقيل حسين عقيل



القاهرة

2017م

المحتويات

المقدّمة ........................................................... 5
هود من وحي القرآن .......................................... 28
تطور الفكر بين القوّة والإرادة: ....................................... 72
إنعام الله على قوم هود: ................................................ 95
تكذيب هود: ................................................................ 95
مصير عاد: ................................................................... 97
العبادة والحضارة: ......................................................... 98
هدف رسالة هود: ........................................................ 111
الجدل بين هود وبين قومه: ............................................ 117
تطوّر الفِكَر جدلا وحجّة: ............................................. 129
صفات النبي هود ........................................................ 143
1. نبي رسول: .............................................................. 143
2. متوكلّ على الله: .................................................... 160
3. مفطور: ................................................................... 200
4. ناصح: ..................................................................... 206
5. أمين: ....................................................................... 262
6. ناج: ......................................................................... 265
7. مستغفر: .................................................................. 267

8 ـ مجادل: ........................................ 272
النبي ........................................ 284
هود من السُنّة........................................ 284
الشهيد هو الحي القيوم:........................................ 289
الشهيد هو العدل: ........................................ 293
الشهيد هو الرقيب:........................................ 297
الشهيد هو الحافظ:........................................ 300
الشهيد هو الكريم: ........................................ 304
الشهيد هو الوكيل: ........................................ 306
الشهيد هو العليم:........................................ 308
إعادة الحقّوق: ........................................ 321
ردع لفساد والظلم: ........................................ 322
من صفات النبي هود: ........................................ 429
دعوة هود: ........................................ 431
هود متوكّل متحدّ:........................................ 434
منهج هود الدعوي: ........................................ 435
مساكن قوم هود: ........................................ 447
هلاك عاد: ........................................ 447
هود مجاب الدّعاء: ........................................ 448

نسب هو بين عربّ وعاربّة: ........................................ 449
معجزة هود: ...................................................... 450
وصية النبي هود: ................................................. 451
وفاة هود: ....................................................... 452

## المقدّمة

العربّ ينقسمون إلى قسمين: قسم يعود إلى يعربّ بن يشجب الذي ينتهي نسبه إلى هود عليه السّلام، وهؤلاء هم الذين يسمون العربّ العاربّة. وقسم آخر ينتهي نسبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم[1].

ويقول ابن هود:

أبونا نبي الله هود بن عابر.......... ونحن بنو هود النبي الطهر

لنا الملك في شرق البلاد وغربّها... ومفخرا يسمو على كلّ مفخر

فمن مثل كهلان القواضب والقنا... ومن مثل أملاك البرية حمير

وقوم هود، هم:

. أوّل أمّة عبدت الأصنام بعد الطوفان الذي أصاب قوم نوح.

. أوّل حضارة ذكرها القرآن الكريم.

. وصفها القرآن الكريم بأنّها لم يخلق مثلها في البلاد.

. وصفوا أنفسهم بأنّهم أشد النّاس قوّة.

لقد قصّ القرآن علينا أنباء عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم كانوا قبلنا، لا نستطيع أن نحدد الزّمن الفاصل بيننا وبينهم، سكنوا هذه الأرض وعمروها، وحرثوها وزرعوها، وكانوا أوّلي بأس وقوّة وشدة، فكذبوا المرسلين غرورا بما لديهم من قوّة، وما عندهم من علم، فأخذهم الجبّار أخذ عزيز مقتدر، فأصبحوا أثرا بعد عين وعبرة للعالمين، قال الله تعالى: {أَوَّلَمْ يَسِيرُوا

---

1 شرح فتح المجيد للغنيمان، 66، ص 8.

فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قوّة وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ}2.

كان منهم عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، وكانوا يسكنون الأحقّاف ما بين عمان وحضرموت، قال تعالى: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحقّافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}3.

فقوم هود صلّى الله عليه وسلّم خلفاء وراثة لقوم نوح صلّى الله عليه وسلّم وليسوا خلفاء استخلاف، وأنهم جاؤوا من بعدهم وساروا على منهجهم في الشرك، ولذا لم يكن هناك اختلاف في دعوة هود عن دعوة نوح صلّى الله عليهما وسلّم، ليس من قبل العقيدة والتوحيد، ذلك أن عقيدة التوحيد هي واحدة لجميع الأنبياء والرّسل، وإنما في القضية التي بعث هود عليه الصّلاة والسّلام من أجلها في قومه وهي عبادة الله وحده ما لهم من إله غيره، حيث قال تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ ربِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ ربّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}4.

---

2 - غافر 21، 22.

3 - الأحقّاف 21.

4 - الأعراف 65- 69.

فنبي الله تعالى هود صلّى الله عليه وسلّم لا يختلف في دعوته لقومه ومنهجه فيهم عمّا جاء به نوح صلّى الله عليه وسلّم لقومه.

ويبدو لنا أنّ هذا الأمر في اقتراب دعوة نوح وهود صلّى الله عليهما وسلّم، يصلان حدّ التطابق، لأنّه لم يعالج كلّ منهما سواء مسألة الشرك والدعوة إلى التوحيد.

إنّ جميع الرّسل صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين الذين بعثهم الله تعالى إلى أممهم وأقوامهم نستطيع أن نقول إنهم على قسمين:

الأوّل: يحمل قضية كلّية هي دعوة التوحيد كنوح وهود.

الثاني: يحمل قضية كلّية هي دعوة التوحيد وجزئيات أخرى كشعيب وموسى.

فالأنبياء والرّسل صلّى الله عليهم وسلّم مكلّفون في المبدأ بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، وعدم الشرك به، فذلك هو المنهج الأساس للرسل في دعوتهم الأمم الأقوام التي يبعثون فيها ويرسلون إليها.

وقد كان نبي الله هود صلّى الله عليه وسلّم منهجه الأساس من تكلّيفه في دعوة قومه إلى توحيد الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، وكان ينذرهم بأس الله ويضربّ لهم المثل بقوم نوح، ويذكرهم بنعم الله تعالى عليهم حيث زادهم في الخلق بسطة وجعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح، وبوأهم أرضا مثمرة تدرّ عليهم الخير الكثير، وتنبت لهم الزرع الذي يعيشون به، والكلأ الذي تعيش به أنعامهم وماشيتهم، فأخبرهم بواجب الشكّر تجاه هذه النعم التي أصبحوا بها أوّلي قوّة، وهنا يكون الواجب عليهم أن يستعملوا هذه القوّة التي خولهم الله إيّاها في طاعة الله، ولم يعطها لأحد سواهم، وأن يستعملوا عقولهم التي هي إحدى نعم الله عليهم، بأن يفكّروا بها ليتبيّنوا أن ما يعبدونه من دون الله لا يملك لهم ضرا ولا نفعا، وأن الذي ينفع ويضر

هو الله وحده الذي خلقهم وأعطاهم القوّة التي يفتخرون بها، وهو الذي بيده إحياؤهم وإماتتهم، وأنهم إذا تابوا إليه ممّا سلف من الكفر تاب الله عليهم وأغدق عليهم نعمه ظاهرة وباطنة وأمدّهم بقوّة إلى قوتهم وبزيادتهم عزا إلى عزهم، وهو لا يطلب منهم جزاءً ولا أجرا، وإنّما أجره على الله، ولا يطلب منهم حمدا ولا شكّورا، وإنما الحمد والشكّر منهم لله تعالى الذي خوّلهم ما هم فيه، وهذه سنن النبوّة والرسالات أنّ الأنبياء والرّسل صلّى الله عليهم وسلّم لا يطلبون أجرا ولا مالا ولا زعامة، وإنما دعواهم خالصة لله والدار الآخرة، ولكنهم سفهوه وكذّبوه وتجاهلوا الحجج التي جاء بها من الله تعالى والبراهين القاطعة التي أقامها على صدق ما يدعوهم إليه، فكانت إجابتهم: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}5.

دع هود قومه إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام، وقد ذكّر هود قومه بنعم الله عليهم ليوصلهم إلى وجوب شكر المنعم بتوحيده، ومن هذه النعم استخلافهم بعد قوم نوح وزيادة أجسامهم بسطة في الطول والقوّة وإرسال المطر وغيرها من النّعم، ولكن كل هذا التذكير بنعم الله عليهم وبقوم نوح من قبلهم الذين دمرهم الله بشركهم وكلّ التخويف من بأس الله لم يزدهم إلا استكبارًا وعنادًا للحقّ {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة}6. ومن هنا كانت السفاهة فيهم حتى أنّهم قد وصفوا هودًا عليه السّلام بالسفاهة وأنّ بعض آلهتهم أصابته بسوء، وأنّهم لن يتحوّلوا عن دين آبائهم.

ويبين لهم هود عليه السّلام أنّ هذه الأصنام ليست إلا مجرّد أسماء ولا حقّيقة لمسمياتها وليس لها صفة الألوهية؛ لأنّها من اختراع آبائهم فيقول

5 – هود 53.

6 فصلت 15.

لهم: {أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}7. ومع ذلك أزداد قومه عنادًا واستكبارًا عن الحقّ؛ فتحدّاهم هود عليه السّلام وتحدّى أصنامهم معلنًا براءته منها؛ لأنّه متوكّل على الله المتفرّد بالألوهية: {قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}8. وهكذا أستمرّ قوم هود على عنادهم وفرارهم من التوحيد متمسّكين بأصنامهم إلى أن أنزل الله بهم العذاب بالرّيح العاتية الشديد بردها وصوتها وهبوبها: قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاس كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}9. وهكذا كانت النهاية رحمة للمؤمنين، وهلاك للكافرين10.

وعليه:

أرسل الله عزّ وجلّ نبيّه ورسوله هودا عليه الصّلاة والسّلام إلى قومه عاد وكانوا يسكنون الأحقّاف. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "وادٍ بين عُمان وأرض مَهْرَه". وقال ابن إسحاق: "الأحقّاف رمال فيما بين عُمان إلى حضرموت". وقال قتادة: "الأحقّاف رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن". ولا خلاف بين هذه الأقوال، فهي تدلّ على مكان واحد جنوب الجزيرة وقربّ حضرموت. وقد ظهر فيهم الشرك بالله تعالى وكانوا أوّل من أظهره وعبد الأصنام بعد هلاك قوم نوح عليه السّلام

7 الأعراف 7.

8 هود 54، 55.

9 القمر 19 . 21.

10 عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، ص، ص 211.

بالطوفان، فأرسل الله تعالى إليهم رسوله هودا عليه السّلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهاهم عن عبادة غيره"11.

ومن هنا فهود عليه السّلام مفطورا، أي أنشأه الله على الفطرة نشوءا، والفطرة هي ما يُجعل عليه المخلوق جعلا؛ فالذي فطر هود صلّى الله عليه وسلّم هو الله تعالى الذي بيده أمر المشيئة للشيء إن شاءه فلن يكون إلا كما شاءه جلّ جلاله، ولهذا كان هود على المشيئة رسول كريم.

قال تعالى: {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ}12.

وهنا وقفة لابدّ منها في قوله (على الذي فطرني).

فلم يقل إنّ أجري إلا على الذي خلقني علما أنّ الذي فطره هو الذي خلقه.

قال هود صلّى الله عليه وسلّم: (الذي فطرني) وهو أوّل نبي من الأنبياء والرّسل يذكر فطرة الله تعالى التي فطر عليها خلقه، والفطرة لها معانٍ منها:

المعنى اللغوي:

فقد جاء في كتاب العين: "وفطر الله الخلق، أي خلقهم، وابتدأ صنعة الأشياء، وهو فاطر السماوات والأرض، والفطرة التي طبعت عليها الخليقة من الدين، فطرهم الله على معرفته بربّوبيته، وانفطر الثوب وتفطّر أي انشق، وتفطّرت الجبال والأرض انصدعت"13.

---

11 حماية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حمى التوحيد، ص، 65.

12 - هود 51

13 - معجم العين، ج 7، ص 418

وقال الجوهري في الصحاح: "والفطرة بالكسر: الخلقة. وقد فطره يفطره بالضم فطرا، أي خلقه. والفطر أيضا: الشق. يقال: فطرته فانفطر. ومنه فطر ناب البعير: طلع، فهو بعير فاطر. وتفطر الشيء: تشقق. وسيف فطار، أي فيه تشقق. قال عنترة:

وسيفي كالعقيقة فهو كمعي.... سلاحي لا أفل ولا فطارا

والفطر: الابتداء والاختراع. قال ابن عباس رضي الله عنه: كنت لا أدري ما فاطر السماوات حتى أتاني أعربّيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي أنا ابتدأتها"14.

ولذا كان هدف رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم أن ينتشل قومه من براثن الكفر والشرك، وأن يضعهم على جادة الصراط المستقيم بالهداية والرشاد وصولا إلى التوحيد.

إن الله سبحانه وتعالى بعث الأنبياء والمرسلين لهداية النّاس، وكلّ نبي أو رسول يكون له مهمة إمّا:

. في الخصوص.

. وإمّا في العموم.

. وإمّا للكافة.

ولما كان هود صلّى الله عليه وسلّم رسول في قوم عاد فإنه من رسل الخصوص لهداية قومه إلى الحقّ في التوحيد والعقيدة، وفي كلّ ما يتصل بها أو يتفرع عنها من القيم والمبادئ، وفي كلّ ما يتعلق بتنظيم الحياة الإنسانية، بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والخالق عزّ وجلّ، ثمّ تخليص هذه

14 – تاج اللغة وصحاح العربيّة، ج 2، ص 781

الحياة من كلّ مسببات الفساد والإفساد، ومظاهر الانحراف أيّا كان نوعها أو حجمها أو امتدادها في مجالات الحياة.

إن دعوة هود صلّى الله عليه وسلّم، وإن كان عمقها يتمثل في الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، إلا أننا لم نقف من خلال قصة هود صلّى الله عليه وسلّم على شريعة كان يحملها لقومه على غرار الشرائع التي أتى بها الأنبياء من بعده، كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلّى الله عليه وسلّم وعليهم أجمعين.

ومع هذا فإنّ دعوة التوحيد لهود صلّى الله عليه وسلّم وإن لم تحمل شريعة من الأمر،

غير أنّ جميع الرّسل أرسلهم الله تعالى بمبدأ واحد لا اختلاف فيه من حيث الزمان أو المكان أو الأقوام والأمم التي أرسلت إليها الرّسل، حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كلّ أُمَّةٍ رسولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حقّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}15.

فعبادة الله تعالى هو جانب الخير الذي تحمله جميع الرسالات وأمرت باتباعه، واجتناب الطاغوت هو جانب الشرّ الذي أمرت جميع الرسالات بتجنبه والابتعاد عنه.

وعليه: قوم هود صلّى الله عليه وسلّم قد غرتهم قوّتهم، وبطروا نعمتهم، فرانت على قلوبهم الغفلة، واستحكم فيهم الطغيان، فعميت أبصارهم عن رؤية الآيات، وصمت آذانهم عن سماع دعوة نبيهم ووعيها، فلم يتعظوا بما كانوا يوعظون، بل استكبروا واستهزؤوا وجاهروا بالعصيان وكذبوا هودا صلّى الله عليه وسلّم، ولم يخافوا نقمة الله ممّا كانوا به سادرين فقالوا لهود

15 - النحل 36

صلّى الله عليه وسلّم: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}16.

فقد بلغت جرأتهم على الله تعالى مبلغا شنيعا ما سبقهم به من أحد حين قالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قوّة وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}17.

وكان عذرهم في عدم استجابتهم للحقّ أقبح من ذنبهم؛ إذ تذرعوا باقتفاء آثار السالفين الضالين من آبائهم، وعدم التخلي عن سبيلهم الذي اختطوه، ودينهم الذي ارتضوه ولو كان ضلالا وشركا: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}18.

واتهموا هودا صلّى الله عليه وسلّم بالجنون كما هو دأب المكذبين مع أنبيائهم، والمفسدين مع مصلحيهم، بأن يرموهم بكلّ نقيصة وباطل لصرف النّاس عن الحقّ.

ثمّ زعمت عاد أن جنونا أصاب هودا صلّى الله عليه وسلّم بسبب العزوف عن عبادة أصنامهم: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ

16 - الشعراء 136- 138.
17 - فصلت 15، 16.
18 - الأعراف 70.

إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ}19.

كان لهود منهجا واضحا وأسلوبا ميسّرا سلكه في دعوة قومه، حيث كان يضرب لهم المثل بما أصاب قوم نوح من قبلهم، وما وقع منهم من عناد ومكابرة، وإصرار على الزيغ والضلال، وكيف دمّر الله عليهم سعادتهم حينما بغوا وتجبّروا، وأصروا على الباطل والاستكبار، مذكرا إيّاهم بنعم الله عليهم، إذ زادهم في الخلق بسطة، وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}20، وذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم محاولا إقناعهم بالرجوع إلى طريق الحقّ، مبيّنا لهم أنّ الله تعالى جعلهم وارثين للأرض من بعد قوم نوح، الذين أهلكهم الله بذنوبهم، وزادهم قوّة في السلطان وفي الأجسام، وذكّرهم بإعطائهم الخيرات الجليلة من الأنعام والبنين، والحدائق والمياه، وخوفهم من العذاب الأليم، وانقلاب النعمة إلى نقمة إذا لم يؤمنوا بالله وحده.

ومن منهجه عليه السّلام القول اللين، والخطاب الجميل، وعدم مقابلة الأذى بمثله، ويتضح ذلك عندما رماه قومه بالسّفه والكذب، حيث ردّ عليهم قائلا: (يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن ربّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رِبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ).

وقد استعمل معهم أسلوب الجدل عندما أصر زعماؤهم على عبادة الأوثان، وقالوا للنبي هود عليه السّلام أنّه لم يأتهم ببيّنة واضحة على صحّة ما يدعو إليه، وقالوا له: إنّهم غير تاركي آلهتهم، ولن يؤمنوا به، وزعموا أنّ آلهتهم قد مسته بضرّ، فصار يتكلّم بأقوال باطلة، فأجابهم هود عليه

19 - هود 53- 55.

20 الأعراف 69.

السّلام بأنّه يشهد الله، ويشهدهم بأنّه بريء من الشّرك الذي هم فيه"21، فقالوا له: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}22، ولما ضجرت عاد من نبيها هود عليه السّلام، تحدوه أن يقع فيهم إنذاره ووعيده، عند ذلك قال لهم هود عليه السّلام لابدّ أنْ يقع عليكم غضب من الله تعالى فانتظروا عذاب الله، وإنّي معكم من المنتظرين. قال تعالى: {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ"23.

وعليه فالمنهج هو نتاج التدبّر الفكري والعقلي الذي به يتمّ الاسترشاد بما يجب إلى ما يجب، ومن هنا ترك النبي هود منهجا عقليا وفكريا فيه من الحوارات والمجادلات ما يكفي لمن أراد أن يتجنّب الوقوع في الأخطاء أو المخالفات أو الجرائم والمعاصي والمنكرات إذا أراد أن يبني له مستقبلا يمكّنه من بلوغ الغايات ونيل المأمولات.

ومن ثمّ فبالمنهج تتضح الرّؤية، عمّا هو كائن وعمّا يجب أن يكون، مع تقديم بدائل وفقا لكل أولوية ولكل تداخل وتتابع في الفكرة والكلمة والجملة والنصّ أو الخطاب.

21 منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 181.

22 هود 53 . 57.

23 منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 181.

فالمنهج لا يستقل عن النصّ بأيّ حالة من الأحوال، ولهذا لا يمكن كتابة المنهج فالمنهج لا يُكتب ولكن يكتب عنه. مثلما نفعل الآن نكتب عن المنهج لنُعرِّفَ به الآخرين مثلما عرفنا نحن ممّا ترك النبي هود عليه السّلام.

ولهذا؛ فالمنهج لا يمكن أن يستقل بذاته عن غيره رسالة أو نبأ أو نظرية أو نصٍ أو خطاب، ولذا مع أنّ المنهج لا يُكتب، إلا أنّه يُكتب عنه.

به تُستبين المسارات الفكرية والاتجاهات المحمولة فيها، وبهذا فهو الكيفية التي بها تتم صياغة الموضوع وكيفية تقديمه للقراء والمستمعين أو المتعلمين حتى يتمكنوا من استنباطه ومعرفته عن كتب، وهكذا يتم إدراك المنهج استقراء واستنباطا بما يُكتب به وبما يُكتب عنه.

ويكون المنهج متينا بقوّة رسالته وترابط أفكاره وبناء قواعده، ويكون ضعيفا بتفكك أفكاره وبنيان قواعده، فالمنهج هو الذي يمدّ المفكرين والباحثين بما يُمكِّنهم من استقراء الفكرة وما تدل عليه وما تحمله من متوقّع وغير متوقّع سواء أكان سالبا أم موجبا، ويمدّهم بكيفية التمسك بما هو موجب والحياد عمّا هو سالب.

إنّه ناظم المعلومة في الفكرة وناظم الفكرة بالمعلومة، وناقلها بها إلى الطريقة المترجمة له في كل خطوة من خطواتها في الحجّة والفعل والسّلوك.

وهنا؛ فالمنهج هو الكيفية التي بها يتمّ توليد الفكرة من الفكرة، وتوليد الحُجَّة من الحُجة، من أجل رؤية المستقبل والتطلّع له قبل وصوله، كما كان يجادل النبي هود من أجل حياة آمنة وعادلة ومستقبل كلّه جنّة، وهكذا يكون المنهج من أجل التطوُّر والتقدم إلى ما هو أفضل وأجود وأنفع.

وبما أنّ المنهج هو الذي به تُفكك المعلومة وتُركَّب. إذن فهو الذي به يتم الانتقال من الكلّ إلى الجزء ومن بعده يتم الانتقال إلى المتجزئ. وبناء على هذه القاعدة كان جدل هود عليه السّلام من أجل معرفة الحقّيقة الكامنة

في الكلّ والحقّيقة الكامنة في الجزء والحقّيقة الكامنة في المتجزئ. وعليه أصبح البحاث يمتدون في تقصيهم المعرفي من كلٍ إلى جزءٍ إلى متجزئ منه، وحسب خصوصية كل موضوع وكذلك منهم من يمتد في بحثه بداية من المتجزئ إلى الجزءٍ ومن ثم إلى الكل.

والمنهاج هو الذي يُعلِّمنا:

.كيف نفكّر؟

.كيف نتعلم؟

.كيف نشاهد ونتابع عن وع؟

.كيف نُلاحِظ ونستقرأ الفعل وردود الفعل؟

. كيف نربّط علاقة بين متغيرين أو أكثر، أو كيف نكشفها للآخرين ونيسّرها لهم؟

ولهذا؛ فالمنهج لم يعد كما يظن البعض قالبا ثابتا لصهر الأفكار مثل القوالب التي تُصهر فيها المعادن تحت درجات حرارة عالية، بل أصبح المنهج اليوم قواعد معيارية يُمكن أن تقاس به الأقوال والأفعال والسلوكيات، وتحدد على ضوئه الاتجاهات وتستقرا نتائجها المستقبلية ممّا يجعل البحاث يرسمون لها الخطط في دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع). ولهذا فالمناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع لتبحث فيها، هذه المناهج اجترارية، فهي كمن يَلُكَّ العِلكة أكثر من مرّ ثم يرى غيره ليلكّها من بعده، فهذه المناج لا تُمكِّنَ الباحث من توليد الفكرة من الفكرة، والمعلومة من المعلومة، والأحدث من الحديث، والأجد من الجديد، والأنفع من النافع. فالمناهج التي تُمكّن من كل هذا هي التي تجعل المجتمع بأسره في حالة حركة متجددة، وفي حالة تسابق ومنافسة

وتطلّع من أجل بلوغ أمانيه وغاياته بكلّ رغبة مع أخذ الحيطة والحذر من كلّ انتكاسة.

ومع أنّ لقوم هود حضارة وقد تميّزت في التاريخ وتصدّرت الحضارات، ولكنّهم كانوا لا يرون شيء يقدّس إلّا المادة، وهناك انشغلوا فيها وكانوا يظنون أنّهم يمتلكون القوّة التي لا تقهر، حتى أنّ النّاظر إلى مدينة الأحقّاف بعد اكتشافها، يرى أنّ هذه المدينة بما فيها من بيوت وتماثيل من الفيلة والأعمدة وتيجانها والنقوش والزخارف وغيرها، لا نقول أنّها قدّت من الصخر، وإنّما قدّ الصخر عنها حتى بدت على هذه الصورة والشكّلّ من البناء والعمران، وهذا ما يميّز حضارة عاد عن غيرها من الحضارات الإنسانية، ولنا أن نقول، أنّ الحضارات القديمة في بلاد الرافدين ومصر والإغريق والرومان والحضارة الهندية وسواها إنّما كانت تأتي بالصخور والأحجار لتصنع منها ما تريد من الأشكّال.

فالذي يميّز حضارة عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، أنّها على العكس من تلك الحضارات، بأنّها كانت تأتي إلى الجبل فتزيل الصخور التي لا تريدها، لتخرج الأشكّال التي تريدها، وهي من هذا الجانب مدرسة الحضارات الإنسانية، ومع ذلك ما كان هذا ليغني عنهم من الله شيئا، ولم يجاريهم في هذا الأمر غير ثمود الذين ربّما أخذوا ذلك عنهم قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ ربّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ ربّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ ربّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}24.

وقد شهد الله لهم بأنّ إرم لم يخلق مثلها في البلاد.

24 - الفجر 6- 14.

ومن هنا كانت قوّة عاد وجبروتهم مشهورة حتى أنّهم لما جاءهم هود صلّى الله عليه وسلّم بالإنذار استهانوا به واستكبروا عليه: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة}25.

وأن نبيّهم صلّى الله عليه وسلّم وصفهم بأنّهم عتاة متجبرين بقوله: {وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}26.

لقد بلغ من قوّتهم وشدّة بأسهم أنّهم بنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدل على الطريق كيلا يضل السائرون في تلك الرمال المتنقلة التي تمحو الآثار، واحتفروا الآبار وشيدوا مصانع للمياه أشبه ما تكون بالسدود تجمع ماء المطر في الشتاء ليشربّ منها المسافرون وينتفع بها الحاضرون في زمن شحة الأمطار، ثمّ أنهم بنوا حصونا وقصورا على أشراف ومرتفعات من الأرض، وإشارة إلى هذا قال لهم هود صلّى الله عليه وسلّم: {أَتَبْنُونَ بِكلّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}27.

وعليه؛ فلا قوّة إلّا لله تعالى، وما دونه مهما قوي وتجبّر فلا يستطيع أن يخلق مستحيلا ولا يخلق معجزا، ولذا فالقوي هو "الكامل القدرة على الشيء تقول هو قادر على حمله فإذا زدته وصفا قلت هو قوي على حمله وقد وصف نفسه بالقوّة فقال عز قائلا إنّ الله هو الرزاق ذو القوّة المتين"28.

25 - فصلت 15.

26 - الشعراء 130.

27 - الشعراء 128- 131.

28 تفسير أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 54.

القوي اسم من أسماء الله الحسنى والقوّة صفة لازمة للذات الإلهية وهي صفة أزلية أبدية مطلقة اختص بها الله سبحانه وتعالى وهي من متممّات القدرة القاهرة التي يسير بها الكون وما فيه من أجرام وكواكب سيارة وما في السماوات والأرض من مخلوقات صامتة وصائتة. فالمخلوقات الصامتة كالجبال والبحار والرياح والسحاب والأرض وما أقلت والسماء وما أظلت وما بينهما من أمطار وعواصف وأعاصير وهذه الكوكب ومداراتها والنجوم ومساراتها وتقلب الليل والنهار إن هي إلا مُسيَّرة بقدرة القوي الذي أنزل في الكتاب العزيز قوله: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النّاس وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كلّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[29] وأما المخلوقات الصائتة فالإنسان والحيوان والطير وما دبَّ على الأرض وما طنَّ في السماء وما انساب في الماء بإذن ربّه فهي قوّة نسبية سخرها الله لمخلوقاته لقضاء حوائجهم وإعمار الأرض وإقامة الدين سواء أكانت قوّة مادية تتجلى في الجهد والسعي والعمل أم قوّة معنوية كالعقل والفكر والتأمل التي تدرك بها قوّة الله المطلقة وعظمته وبقية صفاته جلّ شأنه حتى يعلم الإنسان أنّ الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فهو جلَّ شأنه ليس كمثله شيء لا في العلم ولا في السمع ولا في الإبصار ولا في القوّة بل ولا في جميع صفاته التي يكون العلم بها عن طرق ثلاثة هي الحس والعقل والخبر.

1 . الحس: وهو الشعور بالحرارة والبرودة وسير الرياح وشدتها.

2 . العقل: الذي يدل على أنّ وجود الموجود لابدّ له من واجد.

---

29 البقرة 164

3 . الخبر: وهو النبوءات التي جاء بها الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وهذه أدلة قطعية على إدراك القوّة المطلقة لله تعالى، سواء أدرك البشر ذلك أم لم يدركوا لأن صفات الله تعالى ثابتة لا تتوقف على العلم بها ومن هنا نستطيع القول أن العقل ليس أصلا لإثبات صفة من صفات الذات الإلهية، ولا معطيا لها صفة لم تكن، ولا مفيدا لها صفة كمال، وهذا يعني أنّ صفة القوّة مطابقةً للمعلوم المستغنى عن العلم به تابعة له ليست مؤثرة فيه، ولهذا فإنّ علم الله صفة لازمة غير مؤثرة على عكس القوي التي هي صفة لازمة مؤثرة مدركة وإن جحدها الجاحدون أو لم يعلموا بها؛ ذلك أن عدم العلم ليس علما بالعدم وإنما هو جهل بالعلم.

فالله سبحانه وتعالى دلل على وجوده وقوته بآياته التي خلقها للناس من أجل التفكر والتدبر للوصول إلى حقّيقة الوجود الإلهي أوّلا ومن ثم إدراك قوّة الله تعالى من خلال هذه الآيات قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأوّلي الْأَلْبَاب}30.

ومن هنا فمظاهر القوّة الإلهية متعددة وتظهر في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النّاس وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كلّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} يدلل على السموات والأرض وما هما عليه من إبداع مع ما فيهما من أعاجيب العِبَر وبدائع الصنع تعجز عن فهمها عقول البشر وهي دلالة أيضا على قوّة الله وقدرته في إبداع خلقه، لاسيما إذا علمنا أن الابدّاع هو الخلق على غير مثال يحتذى، فهو لا ينقل عن سابق ولا يقلد مثالا ولا يشاور عاقلا ولا يستنير برأي، وإنما يبدعه فيكمل خلقه

30 آل عمران 190.

على أحسن صورة لهذا الخلق المراد، لأنّ أي تبديل أو تغيير أو تحوير أو تطوير أو تجميل فإنّه سوف يكون ناقصا لا محالة.

إنّ مجتمع عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، بنى حضارة عظيمة من حيث البناء والعمران، وقد أتاهم الله تعالى من الغنى والثراء والشدّة ما جعلهم مجتمعا حضاريا.

وأيّ مجتمع يكون فيه العامل الاجتماعي هو الأساس المكون للعامل الحضاري من طريقة التنظيم الاجتماعي التي تختلف من مجتمع لآخر ومن بيئة لأخرى، يؤثر في ذلك المحيط الخارجي بحيث تكون هناك دوائر متعددة للحضارات، فلا توجد دائرة واحدة تستوعب شخصية الإنسان في كلّيتها، ولكن هناك دوائر متعددة تستوعب الشخصيات الإنسانية. بمعنى أنّ المواهب التي تتمتع بها الإنسانية لا يمكن أن تجتمع في إنسان، وإنّما هي في الإنسان نفسه كنوع، ولذلك يكون انبثاق المكونات الحضارية من إنسان المجتمع المتعدد المواهب الذي يكوّن الحضارة من مفردات كثيرة منها:

. الفكر والثقافة.

. العلوم والفنون.

. الشعر والموسيقى.

. الآداب.

. النحت.

. العمران والبناء.

. الإدارة والتنظيم.

. النتاج الحضاري.

فالفكر والثقافة ينبثق عنهما كلّ المعطيات التي تؤدّي إلى النتاج الحضاري الذي يسعى إليه الإنسان.

وعلى ما تقدم فالإنسان يجد نفسه عضوا متداخلا في عدّة دوائر غير متداخلة، بمعنى أنّه يمكن أن يكون الإنسان نحاتا وإداريا، وشاعرا وبناءً، فهذا الذي يجعله متداخلا في دوائر مستقلة غير متداخلة، لذلك يشعر بولاءات مختلفة مع بقاء الدائرة على ما هي عليه من الاستقلال.

ومن خلال الولاء للموهبة أو الفن أو المهنة للإنسان في داخل المجتمع، تتعدّد الولاءات لديه، أو أنّها تكون منفصلة عن بعضها البعض، فيكون ولاؤه الاجتماعي منفصلا عن ولائه العقدي كما هو حال قوم هود.

إذ أنّ هذا الانفصال لديهم أدى إلى زيادة الوعي بالذات المادّية التي أغفلت الجانب الرّوحي الذي تمثله العقيدة بما تحمل من فضائل تحكم القيم التي يقوم عليها الجانب الحضاري، ذلك أن الفضائل العقدية تمثل سلطة واحدة تهيمن على الشخصية بضابط الأخلاق، وعلى هذا لا تكون دعوة هود صلّى الله عليه وسلّم لهم: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ}[31]، هي دعوة إلى العبادة المحضة، بمعنى التوحيد والصلاة فقط، وإنما العبادة في أوجهها المتعددة بما تحمل من الخير للذات وللآخرين، بحيث تضمن حقّ الذات وتمنع ظلم الآخر، وما لم يأخذ الإنسان بجميع الأسباب التي توصله إلى العبادة التي يريدها الله تعالى فهو بعيد عنها وإن صلّى وصام.

إنّ العبادة التي دعا إليه هود صلّى الله عليه وسلّم قومه إليها، وكذلك جميع الأنبياء الذين دعوا أقوامهم، يترتب عليها أعمال كثيرة من أجل الوصول إلى عبادة الله تعالى، أو أن يقبل الله تعالى هذا الإنسان أن يكون له عبدا.

---

31 - هود 50.

فمن أجل أن يكون الإنسان عبدا لله تعالى، وجب عليه أن يأخذ بمستلزمات العبادة التي تمثل الفضائل الحضارية التي تحكم القيم الحضارية منها:

. الأمر بالمعروف.

. النهي عن المنكر.

. الإحسان للآخرين.

. عدم الاستكبار.

. العدل وعدم الظلم.

. إحقّاق الحقّ.

. عدم سفك الدماء بغير حقّها.

فالحقّ والعدل والمعروف والإحسان وما إلى ذلك من فضائل أتت بها العقيدة، من الله تعالى الذي خلق هذا الإنسان ويعلم ما يصلحه، هذه الفضائل هي الضوابط الأخلاقية التي تحكم القيم الحضارية، من أجل إنشاء حضارة إنسانية، وإذا ما تخلى المجتمع عن هذه الفضائل أو رفضها كما رفضها قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ هذه الحضارة ستكون وبالا على أهلها كما كانت حضارة عاد التي لم يخلق مثلها في البلاد.

ولذا؛ فإنّ عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم عندما رفضوا الجانب الرّوحي الذي تحمله العقيدة التي تمثل الفضائل، هيمن عليهم الجانب المادّي وطغى على شخصية الكيان الاجتماعي فقالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة}32.

32 - فصلت 15.

الأمر الذي ترك حيزا كبيرا من الحرية المنفلتة من الطبيعي أن يتجاوزوا بها على حرية الآخرين بما امتلكوا من القوّة والسلطان، ممّا جعل حضارتهم حضارة دنيئة، وليست متدنية.

فالإنسان الذي يريد أن يصل إلى الحضارة الإنسانية، يكون ذلك من خلال استيعاب القيم الحضارية التي يحملها والقيم التي تحيط به، شرط أن يحكم تلك القيم فضائل لا يختلف عليها اثنان، وهذه الفضائل التي لا تكون محل خلاف، لا يمكن أن يكون مصدرها الإنسان بوجه من الوجوه، بحث تكون هذه الفضائل للنتاج الحضاري أيضا.

إنّ الوصول إلى الحضارة وانقيادها للإنسان، يؤدّي إلى كمٍّ كبير من القيم المعنوية وتراكم مادي، فالقيم المعنوية تتمثل في الجانب الأخلاقي الذي تعكسه الحضارة على التصرف والسلوك والتعامل، والتراكم المادي الذي يكون فائض الحاجة يجعل المجتمع مترفا، فإذ كانت القيم المادية التي يمثلها السلوك والتصرف النابعان من الأخلاق، غير محكومة بفضائل تقيدها وتضعها بها على الجادة مثل:

. الحلال والحرام.

. الحقّ والعدل.

. الأمر والنهي.

. الأخذ والمنع.

فإنّ الانفلات الحضاري يسود المجتمع من تضافر التراكم المادّي الذي يؤدّي إلى الترف مع التسيب الأخلاقي الذي لم يأخذ بالفضائل أو تخلى عنها.

ولما كان حال عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم وصلوا إلى درجة من الحضارة والعمران اللذين أديا إلى الغنى الفاحش والقوّة المفرطة، ولم تحكم هذه الحضارة الضوابط الأخلاقية التي تجمعها الفضائل المنبثقة عن العقيدة، طغت حريتهم على حرية الآخرين حدّ الاستعباد، ومن هنا قال لهم هود صلّى الله عليه وسلّم: {وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}33.

فهذا الجبروت الذي وصفهم به، أو الذي هو صفتهم على الحقّيقة، هو استخدام تراث الحضارة الذي صنعته أيديهم، بشكّلّ غير حضاري، وهذا حال أي مجتمع عندما لا يحسن التصرف الحضاري، وليس البناء الحضاري، لأن كثيرا من المجتمعات تحسن البناء الحضاري، ولكن قلة منها تجيد التصرف الحضاري.

نخلص من هذا إلى القوّة المادّية التي تتولّد عنها حضارة لا تحكمها فضائل، يجد الإنسان نفسه فيها يواجه بشكّلّ مستمرّ عالما من الأشياء الحضارية المتنوّعة والمتعددة والمتجددة، التي يجب عليه أن يستوعبها في التعامل، ولكنّه يفشل في ذلك نظرا لتنوّعها وتعددها وتجددها رغم أنّها نتاجه ومن صنع يديه، فلما ينفلت صاحب الحضارة أو من ينتمي إليها من طوق العبادة التي تمثل أعلى درجات الفضائل بما تحمل من ضوابط في تقنين التعامل مع هذه الحضارة ومع الآخر، هنا يميل إلى البطش والطغيان، ولذا فإنها تصبح بعد قليل غريبة عنه ومصدر خطر على هويته، بل على كينونته الإنسانية. ولذا، تكتسب هذه الحضارة المنفلتة سمة الغرابة وتواجه الإنسان (الذي صنعها) باعتبارها هي الآخر، وتصبح المواجهة بينه وبينها حتى يصل حدّ السأم الحضاري لوجود الفراغ الروحي.

33 - الشعراء 130.

إنّ حضارة هذا شأن بانيها، يجد الإنسان نفسه فيها، أنه يزداد قوّة وتقدما وهيمنة لا يحسن معها التصرف الحضاري، وبهذا يجد نفسه محاطا بعالم من الأشياء التي تقهره وتهيمن عليه على حاجاته ورغباته لأنه لا يمكنه استيعابها ولا السيطرة على تراكمها، في الوجه الذي يجب أن توجه به بما استخلفه الله فيه، فيلجأ ساعتئذٍ للبطش.

ذلك أنّ تلك الحضارة التي ابتعدت عن جادة الصواب بعدم الأخذ بالعبادة التي تؤدّي إلى التوازن في المعادلة الحضارية بين:

. الأنا والآخر.

. المادي والمعنوي.

. الروحي والبدني.

. التجريدي والواقعي.

فعند فقدان التوازن الحضاري على الرّغم من وجود الحضارة، فإنّ هذه الحضارة تولّد لدى المجتمع:

. معرفة لا ضرورة لها.

. معرفة لا قيمة لها أحيانا.

. معرفة لا فائدة منها.

ولذا، قال هود صلّى الله عليه وسلّم لقومه: {أَتَبْنُونَ بِكلّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}34. والحمد لله ربّ العالمين

أ د عقيل حسين عقيل

---

34 – الشعراء 128، 129.

# هود

## من وحي القرآن

في بحثنا هذا عن قصة هود صلّى الله عليه وسلّم مع قومه عاد، نريد أن نقف وقفة تاريخية من خلال النصوص القرآنية مع عاد قوم هود، ذلك أنّهم:

. أوّل أمّة عبدت الأصنام بعد الطوفان الذي أصاب قوم نوح.

. أوّل حضارة ذكرها القرآن الكريم.

. وصفها القرآن الكريم بأنّها لم يخلق مثلها في البلاد.

. وصفوا أنفسهم بأنّهم أشد النّاس قوّة.

لقد قصّ القرآن علينا أنباء عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم كانوا قبلنا، لا نستطيع أن نحدد الزّمن الفاصل بيننا وبينهم، سكنوا هذه الأرض وعمروها، وحرثوها وزرعوها، وكانوا أوّلي بأس وقوّة وشدة، فكذبوا المرسلين غرورا بما لديهم من قوّة، وما عندهم من علم، فأخذهم الجبّار أخذ عزيز مقتدر، فأصبحوا أثرا بعد عين وعبرة للعالمين، قال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قوّة وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[35].

---

35 - غافر 21، 22.

كان منهم عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، وكانوا يسكنون الأحقّاف ما بين عمان وحضرموت، قال تعالى: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحقّافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}36.

وزمنهم بعد نوح صلّى الله عليه وسلّم، إلا أنّ أحدا لا يعلم الفترة الزّمنية التي تفصلهم عن نوح ومن آمن معه بعد الطوفان، قال تعالى: {أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ ربّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}37.

فهم أوّل أمّة اضطلعت بالبناء والحضارة والعمران بعد الطوفان الذي أغرق المكذبين من قوم نوح صلّى الله عليه وسلّم.

عاد أشد النّاس قوّة:

لقد أنعم الله تعالى على عاد بكلّ مقومات الحياة من العيش والقوّة والعمران، هذه الأمور التي ذكرهم بها هود صلّى الله عليه وسلّم ليشكّروا نعم الله عليهم في قوله لهم: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}38.

فجعلهم الله تعالى خلفاء من بعد قوم نوح يرثون الأرض بما فيها من خيرات ورزق ونعم، وزادهم في الخلق بسطة بما تحمل هذه الكلّمة من الوفرة والسعة في الابدّان والنعم، فالله تعالى زادهم قوّة في عقولهم وأجسادهم، وسلّمهم من الآفات والعاهات.

36 – الأحقّاف 21.

37 – الأعراف 69.

38 – الأعراف 69.

وكان من بسطة خلقهم وقوتهم أنّهم أوّل من أقام حضارة على الأرض، فالبناء والعمران في الأرض إنّما يشيد بقوّة أجساد البنائين، وعقول المشرفين على البناء، والصناعات لا تزدهر إلا بذلك، حتى أنّ الناظر إلى مدينة الأحقّاف بعد اكتشافها، يرى أن هذه المدينة بما فيها من بيوت وتماثيل من الفيلة والأعمدة وتيجانها والنقوش والزخارف وغيرها، لا نقول أنها قدّت من الصخر، وإنما قدّ الصخر عنها حتى بدت على هذه الصورة والشكّل من البناء والعمران، وهذا ما يميز حضارة عاد عن غيرها من الحضارات الإنسانية، ولنا أن نقول، أنّ الحضارات القديمة في بلاد الرافدين ومصر والإغريق والرومان والحضارة الهندية وسواها إنما كانت تأتي بالصخور والأحجار لتصنع منها ما تريد من الأشكّال.

فالذي يميز حضارة عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، أنّها على العكس من تلك الحضارات، بأنها كانت تأتي إلى الجبل فتزيل الصخور التي لا تريدها، لتخرج الأشكّال التي تريدها، وهي من هذا الجانب مدرسة الحضارات الإنسانية، ومع ذلك ما كان هذا ليغني عنهم من الله شيئا، ولم يجاريهم في هذا الأمر غير ثمود الذين ربّما أخذوا ذلك عنهم قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ ربّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ ربّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ ربّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}39.

وقد شهد الله لهم بأنّ إرم لم يخلق مثلها في البلاد.

39 - الفجر 6- 14.

ومن هنا كانت قوّة عاد وجبروتهم مشهورة حتى أنّهم لما جاءهم هود صلّى الله عليه وسلّم بالإنذار استهانوا به واستكبروا عليه: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة}40.

وأن نبيّهم صلّى الله عليه وسلّم وصفهم بأنّهم عتاة متجبرين بقوله: {وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}41.

لقد بلغ من قوّتهم وشدّة بأسهم أنّهم بنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدل على الطريق كيلا يضل السائرون في تلك الرمال المتنقلة التي تمحو الآثار، واحتفروا الآبار وشيدوا مصانع للمياه أشبه ما تكون بالسدود تجمع ماء المطر في الشتاء ليشربّ منها المسافرون وينتفع بها الحاضرون في زمن شحة الأمطار، ثمّ أنهم بنوا حصونا وقصورا على أشراف ومرتفعات من الأرض، وإشارة إلى هذا قال لهم هود صلّى الله عليه وسلّم: {أَتَبْنُونَ بِكلّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}42.

وعليه؛ فلا قوّة إلّا لله تعالى، وما دونه مهما قوي وتجبّر فلا يستطيع أن يخلق مستحيلا ولا يخلق معجزا، ولذا فالقوي هو "الكامل القدرة على الشيء تقول هو قادر على حمله فإذا زدته وصفا قلت هو قوي على حمله وقد وصف نفسه بالقوّة فقال عز قائلا إنّ الله هو الرزاق ذو القوّة المتين"43.

40 - فصلت 15.

41 - الشعراء 130.

42 - الشعراء 128- 131.

43 تفسير أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 54.

القوي اسم من أسماء الله الحسنى والقوّة صفة لازمة للذات الإلهية وهي صفة أزلية أبدية مطلقة اختص بها الله سبحانه وتعالى وهي من متممّات القدرة القاهرة التي يسير بها الكون وما فيه من أجرام وكواكب سيارة وما في السماوات والأرض من مخلوقات صامتة وصائتة. فالمخلوقات الصامتة كالجبال والبحار والرياح والسحاب والأرض وما أقلت والسماء وما أظلت وما بينهما من أمطار وعواصف وأعاصير وهذه الكوكب ومداراتها والنجوم ومساراتها وتقلب الليل والنهار إن هي إلا مُسيَّرة بقدرة القوي الذي أنزل في الكتاب العزيز قوله: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النّاس وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كلّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[44] وأما المخلوقات الصائتة فالإنسان والحيوان والطير وما دبَّ على الأرض وما طنَّ في السماء وما انساب في الماء بإذن ربّه فهي قوّة نسبية سخرها الله لمخلوقاته لقضاء حوائجهم وإعمار الأرض وإقامة الدين سواء أكانت قوّة مادية تتجلى في الجهد والسعي والعمل أم قوّة معنوية كالعقل والفكر والتأمل التي تدرك بها قوّة الله المطلقة وعظمته وبقية صفاته جلّ شأنه حتى يعلم الإنسان أنّ الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فهو جلَّ شأنه ليس كمثله شيء لا في العلم ولا في السمع ولا في الإبصار ولا في القوّة بل ولا في جميع صفاته التي يكون العلم بها عن طرق ثلاثة هي الحس والعقل والخبر.

1 . الحس: وهو الشعور بالحرارة والبرودة وسير الرياح وشدتها.

2 . العقل: الذي يدل على أنّ وجود الموجود لابدّ له من واجد.

44 البقرة 164

3 . الخبر: وهو النبوءات التي جاء بها الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وهذه أدلة قطعية على إدراك القوّة المطلقة لله تعالى، سواء أدرك البشر ذلك أم لم يدركوا لأن صفات الله تعالى ثابتة لا تتوقف على العلم بها ومن هنا نستطيع القول أن العقل ليس أصلا لإثبات صفة من صفات الذات الإلهية، ولا معطيا لها صفة لم تكن، ولا مفيدا لها صفة كمال، وهذا يعني أنّ صفة القوّة مطابقةً للمعلوم المستغنى عن العلم به تابعة له ليست مؤثرة فيه، ولهذا فإنّ علم الله صفة لازمة غير مؤثرة على عكس القوي التي هي صفة لازمة مؤثرة مدركة وإن جحدها الجاحدون أو لم يعلموا بها؛ ذلك أن عدم العلم ليس علما بالعدم وإنما هو جهل بالعلم.

فالله سبحانه وتعالى دلل على وجوده وقوته بآياته التي خلقها للناس من أجل التفكر والتدبر للوصول إلى حقّيقة الوجود الإلهي أوّلا ومن ثم إدراك قوّة الله تعالى من خلال هذه الآيات قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[45].

ومن هنا فمظاهر القوّة الإلهية متعددة وتظهر في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النّاس وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كلّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} يدلل على السموات والأرض وما هما عليه من إبداع مع ما فيهما من أعاجيب العِبَر وبدائع الصنع تعجز عن فهمها عقول البشر وهي دلالة أيضا على قوّة الله وقدرته في إبداع خلقه، لاسيما إذا علمنا أن الابدّاع هو الخلق على غير مثال يحتذى، فهو لا ينقل عن سابق ولا يقلد مثالا ولا يشاور عاقلا ولا يستنير برأي، وإنما يبدعه فيكمل خلقه

45 آل عمران 190.

على أحسن صورة لهذا الخلق المراد، لأنّ أي تبديل أو تغيير أو تحوير أو تطوير أو تجميل فإنّه سوف يكون ناقصا لا محالة من جانبين:

1- جانب الخلق المتكامل من حيث الشكّلّ والصورة أي من الناحية الجمالية لهذا الشكّلّ، فأي نقص سيكون تعطيلا للمهمة أو لجزء من هذه المهمة التي أبدع من أجلها هذا الخلق.

2- ولهذا فإن الله تعالى أعطى كلّ شيء خلقه فأحسن إبداعه وتصويره، وكان في أعلى مراتب الخلق حيث قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}46 وأحسن تقويم هو تقويم الشخص أو الإنسان نفسه وليس المقصود هو عملية مفاضلة بين إنسان وإنسان أو بين رجل ورجل أو بين امرأة وامرأة، وإنما هو الشخص نفسه في الهيئة التي خلقه الله عليها من الشكّلّ والصورة واللون والبنية والطول وتناسب الأبعاد، فإن طرأ على هذا الشكّلّ طارئ تغيرت هذه الأبعاد والنسب ممّا يؤدّي إلى تشويه الصورة التي جعلها الله في أحسن تقويم لها، وسواء أكان هذا الطارئ طبيعيا كقطع يد أو جدع أنف أو فقيء عين، أم كان مقصودا مثل ما نشهده في هذه الأيام من عمليات التجميل، لا لعلة مرضية وإنما لتغيير خلق الله تعالى بإتباع الشيطان وأمره مصداقا لقوله تعالى: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا}47

إنّ الآيات تدل المتأملين والمتفكرين على قوّة الله وعظمته في الخلق والتمييز بين أنواع هذه المخلوقات وجواهرها ومعادنها وما لهذه المخلوقات من تباين

---

46 التين، 4.

47 النساء17-18

حتى في اللفظ، فقد جمع السموات وافرد الأرض، لأنّ كلّ سماء ليست من جنس الأخرى، ولذا فلك كلّ واحدة غير فلك الأخرى والأرضون كلّها من جنس واحد وهو التراب، واختلاف الليل والنهار، أي في تعاقبهما في الذهاب والمجيء يخلف أحدهما صاحبه إذا جاء أحدهما جاء الآخر خلفه أي بعده وفي الزيادة والنقصان والظلمة والنور وهذه الفلك التي تجري في البحر لا ترسب تحت الماء وهي ثقيلة كثيفة والماء خفيف لطيف وتقبل وتدبر بريح واحدة أي تجري مصحوبة بالأعيان والمعاني التي تنفع النّاس فإنهم ينتفعون بركوبها والحمل فيها للتجارة فهي تنفع الحامل لأنه يربّح والمحمول إليه لأنه ينتفع بما حمل إليه فهذه سمات ومظاهر القوّة المطلقة التي اتصف بها الله تعالى ولا يمكن السؤال عن أسبابها لأنه ينتفي فيها الكم والكيف على عكس الخليفة الذي يختاره الله لإعمار الأرض فيجب أن يكون قويا وأن يأخذ بأسباب القوّة لنصرة الحقّ وإقامة العدل فإن عارضه معارض أو عانده معاند كان معذورا إن انتفض لإعادة الأمور إلى نصابها ووضع الموازين في أقساطها إذ أنه من حقّ الخليفة أن يستنهض جميع أسباب القوّة المادية والمعنوية لأن يردع كلّ من خرج عن طاعة الله سبحانه ولو بإعلان الحربّ واستحضار القوّة التي منحها الله تعالى للخليفة من أجل إقامة العدل وبسط سلطانه، ودحر الظلم والجور وإزهاقه، وبهذا يكون الخليفة قد أدى ما عليه من حقّ الله تعالى في إطاعة أوامره باستخدام هذه القوّة بما يحبه الله ويرضى عنه ويرضى هو عن نفسه بإقامة العدل وإعمار الأرض وصلاح العباد ونشر الأمن والطمأنينة في نفوس البشر وفي ديارهم وبلدانهم، وبهذا يكون أدى ما عليه من حقّ هذه القوّة المستمدة من قوّة القوي العزيز بالكلّمة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن تم الأمر بهذه الوسائل فقد كفى الله المؤمنين القتال، وإن كان غيره فبالقوّة القاهرة وإعلان الحربّ حتى يعود الحقّ إلى نصابه.

وليس شيء أجل من الحربّ، لأنه يبين فيها فضل القوّة والتدبير، وفضل الرأي وفضل الحزم، وفضل الاحتياط، وفضل التعبئة، وفضل المكيدة، وفضل الاحتراس، وفضل النجدة، وفضل البأس، وفضل الجلد، وفضل الشجاعة، وفضل جميع ما ذكر من الشمائل لأن جميع هذه الصفات والقيم إنما تعبر عن شكّلّ من أشكّال القوّة، فمن عدم من شيء من هذا عرف موضع تقصيره لأن خطأها لا يستقال، والعجز فيها متلف للمهج، والجهل مبيح للحمى، وترك الحزم ذهاب الملك، وضعف الرأي جلب للعطب، والتقصير سبب الهزيمة، وقلة العلم بالتعبئة داعية الانكشاف، وقلة المعرفة بالمكيدة تهور إلى الهلكة، وترك الاحتراس نهزة للعدو، فإن أصاب ظفر وإن أخطأ هلك، فمن أخذ بهذه الأسباب فقد امتلك مجامع القوّة ورأس هذا كلّه وعموده الذي يقوم عليه هو قوّة الإيمان ولهذا يجب أن يكون الخليفة قويا يستمد قوته من إيمانه بصاحب القوّة العزيز الجبار الذي أوكلّه بإعمار هذه الأرض والدفاع عنها ومنع المارقين من إظهار فسادهم في الأرض وإن اقتضى ذلك أن يجمع لهم الجموع وأن يسير لهم الجيوش وذلك من أجل منع الإفساد في الأرض وقهر الذين يحاربّون الله ورسوله فهذا من أوّليات مهام الخليفة القوي ذي السطوة على أعداء الله الذين لا يريدون للأرض إصلاحا ولا للعباد صلاحا قال تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}48 ومن هنا يمكن أن نستنتج أن المحاربّة مع الله تعالى غير ممكنة فيجب حمله على المحاربّة مع أوّلياء الله، والمحاربّة مع الرّسل ممكنة، فلفظة المحاربّة إذا نسبت إلى الله تعالى كانت

48 المائدة 33 -34.

مجازا، لأن المراد منها المحاربّة مع أوّلياء الله، وإذا نسبت إلى الرّسول كانت حقّيقة فلذلك استمد الخليفة القوّة والسلطان من صاحب القوّة حتى يقيم العدل ويبسط الأمن في الحفاظ على مصالح الرعية الدنيوية والدينية في الأوّلى والآخرة ويعمر الأرض بهذه القوّة وهي قوّة مسخرة لفعل الخيرات ودحر المنكرات وإعلاء كلّمة التوحيد ورفع راية الإيمان وبسط سلطان العدل الذي أمر به القوي المتين والذي جعل من قوته عونا لأوّليائه وحربّا على أعدائه: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}49

وانظر إلى قوّة القوي العزيز في إيضاح القوّة المتنامية لخلقه بالتدرج من الأدنى إلى الأعلى حتى تبلغ الأوج والقمة، بحيث لا تكون هذه القوّة الممنوحة للخلق دفعة واحدة، وإنما هو الذي يتولاها ويرعاها وبعد ذلك تأخذ بالانحدار حتى تتلاشى وتعود إلى خالقها ومانحها، ويقربّ الله تعالى لنا هذه الصورة بأن ضربّ مثلا من الأرض الهامدة حتى إذا ما أصابها الماء اهتزت وهذا الاهتزاز إنما هو قوّة مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَربّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}50

فمن مظاهر القوّة التي يضفيها الله على مخلوقاته بثّ الحياة في أنواع النبات الذي يقوم على سوقه خضرا نضرا من الأشجار والزروع على وجه الأرض ثابتا قويا يصمد في وجه الرياح والعواصف وبث فيها هذه الحيوانات المتنوعة من كلّ دابة ومن كلّ حيوان يدب على وجهها من

49 الحج 40

50 الحج 5

العقلاء وغيرهم وهو إن بث الدواب يكون بعد حياة الأرض بالمطر لأنهم ينمون بالخصب ويعيشون بالمطر حالهم حال هذه النباتات والزروع وكذلك تصريف الرياح بهذه القوّة العجيبة أي في تقليبها في مهابها إقبالا وإدبارا وشمالا وجنوبا وفي كيفيتها حارة وباردة وفي أحوالها عاصفة ولينة وفى آثارها عقما ولواقح وفي إتيانها تارة بالرحمة وتارة بالعذاب وهذا من أعظم مظاهر قوّة الله وقدرته أنه جعل السبب الواحد أصلا للمتناقضات فقد قال الله تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ}51.

ومن مظاهر القوّة التي يمد بها الله خلفاءه في الأرض وأوّلياءه وعباده الصالحين موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ قوما يفضلونه على أبي بكر الصديق فوثب مغضبا حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيه صلّى الله عليه وسلّم ثم قال: "أيها النّاس سأخبركم عني وعن أبي بكر أنه لما توفي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ارتدت العربّ ومنعت شاتها وبعيرها فأجمع رأينا كلّنا أصحاب محمّد صلّى الله عليه وسلّم أن قلنا له يا خليفة رسول الله إن رسول الله كان يقاتل العربّ بالوحي والملائكة يمده الله بهم وقد انقطع ذلك اليوم فالزم بيتك ومسجدك فإنّه لا طاقة لك بقتال العربّ فقال أبو بكر: أوكلّكم رأيه على هذا؟ فقلنا نعم. فقال والله لئن أخّر من السماء فتخطفني الطير أحب إليّ من أن يكون رأي هذا ثمّ صعد المنبر فحمد الله وكبّره وصلّى على نبيه صلّى الله عله وسلّم ثم أقبل على النّاس فقال: أيها النّاس من كان يعبد محمّدا فإن محمّدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت أيها النّاس أئن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب

51 الحاقة 6 . 8.

منكم الشيطان هذا المركب؟ والله ليظهرنّ الله هذا الدين على الأديان كلّها ولو كره المشركون قوله الحقّ ووعده الصدق {بَلْ نَقْذِفُ بِالحقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}52 وقال تعالى: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}53. أيها النّاس والله لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم الله والله خير معين"54. فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه خليفة الله في الأرض وخليفة المسلمين الذي كان يسمع نشيجه من شدة البكاء عند تلاوة القرآن من خلف صفوف المصلين رقة وضعفا وخشية ورحمة ينتفض طودا عاليا وبحرا عاتيا قويا صلبا لا تأخذه في الحقّ لومة لائم مستمدا قوته من القوي العزيز.

ومن مظاهر قدرة الله إبراز تلك القوّة في زلزلة الساعة وما فيها من قوّة تأخذ بالعقول وتذهب بالأبصار وتحير كلّ ذي لب في رسم مشاهد يوم القيامة من تصوير ذلك الهول العظيم وشدة الموقف وذهول الخلائق من قوّة الله وقدرته وبطشه وجبروته حتى يذعن الخلق لإرادته فقد جسد ذلك في قوله جلّ جلاله: {يَا أَيُّهَا النّاس اتَّقُوا ربّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كلّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كلّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النّاس سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ وَمِنَ النّاس مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كلّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ يَا أَيُّهَا النّاس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ

52 الأنبياء 18.

53 البقرة 249.

54 تهذيب الكمال، ص 8.

الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَربّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}55.

إن من أعظم مظاهر القوّة والقدرة في امتلاك الشأن والأخذ بنواصي جميع المخلوقات العاقل منها وغير العاقل والأرض والجبال والبحار والسماوات والكواكب والأجرام والنطف المخلقة وغير المخلقة ولا يرد بأس الله عن خلقه إلا رحمته سبحانه وتعالى وتقوى من اتقى وخشي الرّحمن بالغيب لأن التقوى منجاة من بطش الله وجبروته التي تتمثل في صفة القوي باجتناب محارمه والإقبال على طاعته ففي هذا دليل على أن الإنسان يكون قويا بطاعته لله ضعيفا بمعصيته له وعلى هذا فإن التقوى من أبواب القوّة التي منحها الله للعبد.

واعلم أنّه تعالى أمر النّاس بالتقوى فدخل فيه أن يتقي كلّ محرم ويتقي ترك كلّ واجب وإنما دخل فيه الأمران، لأن المتقي إنما يتقي ما يخافه من عذاب الله تعالى فيدع لأجله المحرم ويفعل لأجله الواجب، فإذا تصور زلزلة الساعة يكون أشد خشية لله وأكثر تقوى له وهو بالتالي أشد قوّة في تمسكه بالإيمان رغبة ورهبة من زلزلة الساعة وخاصة أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا وهي التي يكون معها طلوع الشمس من مغربها. وقيل هي التي تكون معها الساعة. وروي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حديث الصور "إنّه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعقة، ونفخة القيام لربّ العالمين، وإن عند نفخة الفزع يسير الله الجبال وترجف الراجفة، تتبعها الرادفة، قلوب يومئذ واجفة، وتكون الأرض كالسفينة تضربها الأمواج أو كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح"56 فالقوي

55 الحج 5.

56 تفسير ابن حاتم، ج 5، ص 136.

هو القادر على الفعل العظيم، ويقوى على الفعل حقّا من غير عجز ولا ضعف، ويقدر على غيره من الأفعال الكبيرة شأنا وقدرا.

والله تعالى هو الْقَوِيُّ حقّا: لأنّه هو القادر النافذ أمره ولا معنى للعجز وللضعف في ساحة قدسه وملكه في حال من الأحوال، والله تعالى له القدرة المطلقة التي لا تحد ولا تأخذه سنة ولا نوم، فهو القوي والقادر على كلّ شيء ولا يعجزه شيء لا في تكوين خلقه ولا في هدايته وإيصال نعمه له ممّا يقويه، ولا في إتمام حجته البالغة على عباده، ولا ضد يمنعه، ولا عظيم خلق ودقة يعجزه عن إيجاده ونفوذ أمره فيه، وهذا كلّ شيء في الوجود مجرات وكواكب وسماوات وأرضين وما فيهما من الخلق الكبير والصغير حتى الذرة وما فيها من خلقه يشهد له بوجوده وبكلّ صفاته وأفعاله إن خالقه هو الله القوي القدوس ومالك الملك. فالله تعالى وحده لا شريك له هو القوي وذو القوّة المتين: لأنه له العلم والقدرة والخبرة والحكمة في خلق كلّ شيء وهدايته ومَده بنعمه وتقويته ليبقى ويفعل لغايته، ومع دقة الصنع والمتانة المتناهية، في إحكام وجود كلّ شيء. ومن منحه الله القوّة وتجلى عليه بالاسم الحسن القوي بالتجلي الخاص يكون له الهمة المتعالية النافذة في معرفة هدى الله وبإيمان راسخ لا يزيله شيء، وعنده الدليل المحكم على تفنيد أقوى الشبه، ويكون قوي بتطبيق دينه وإطاعة ربّه لا يعجز ولا يضعف عن كثرة العبادة لله تعالى، كما تكون له قوّة بدنية لا يطيقها أحد ولا يستطيعها أحد لأنّ هذه القوّة من الله القوي من أجل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل ودحره بحول الله وقوته حيث لا حول ولا قوّة إلا بالله القوي المتين.

والخليفة: قوي في دينه له إيمان راسخ لا يزول، وقوي في تطبيق تعاليم الله وإقامة العبودية لله وبإطاعته بكلّ أوامره، وقوي في مقاومة الشبهات عن معرفة، وقوي في مقاومة الشهوات والمغريات عن يقين، وقوي في مقاومة

زينة الحياة الدنيا وقوي في جهاد أعداء الله، وبهذا يُعرف أنه قد تجلى عليه اسم الله القوي، وإلا من يرى في نفسه ضعف إيمانٍ أو عجزٍ في تعلم دينه ومعارفه، أو عنده تساهل في تطبيق الدين والطاعة والعبودية لله وأمام أعداء الله؛ عليه أن يتوجه لله القوي ويتوسل باسم الله القوي القادر حتى يقويه في دينه وبدنه ليخلص له العبودية والدين، كما لابدّ أن يتعلم من الأقوياء في دينهم وطاعتهم لربّ العالمين ويتدبر بأقوالهم بأنّه الله القوي هو صاحب القدرة التامة البالغة الكمال غالب لا يغلب فقوته فوق كلّ قوّة والحمد لله ربّ العالمين.

القوي: ورد في قوله تعالى: {إِنَّ ربّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}57.

ومعناه: ذو القوّة التامة الذي لا يلحقّه العجز في حال من الأحوال.

الله تعالى له القدرة المطلقة، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل. وهذا ليس لأحدٍ سواه سبحانه وتعالى القوي المتين.

القوي المتين من أسماء الله تعالى جل شأنه، وورد في الحديث النبوي الجامع لأسماء الله الحسنى وفي أكثر من آية قرآنية.

والقوي المتين اسمان من الأسماء الجلالية لله تعالى والتي تشير إلى معاني السلطان والعظمة والجبروت والقهر والغلبة والقوّة، وجميعها تذكر لله تعالى على سبيل الإطلاق، فلا حدود لها ولا قيود عليها. والجمع بينهما فيه تأكيد؛ لأن لله –عزّ وجلّ– القوّة المطلقة والمتانة المطلقة والقدرة المطلقة والتي بها يدبر الله أمر الكون وينظم حركاته وسكناته وظواهره، الجليل منها والدقيق.

---

57 هود 66.

فالله تعالى هو وحده الذي خلق كلّ ما في الكون وبيده وحده الأمر كلّه، لا يشاركه في ملكه أحد ولا ينازعه فيه أحد، فلابدّ أن يكون قويا متينا قادرا على كلّ شيء؛ لأنه إله واحد وخالق واحد ومدبر واحد، وهذا كلّه ليس لأحد غير الله –سبحانه وتعالى– القوي المتين الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. فإذا أراد شيئا ما كبر أم صغر فإنه يقول له كن فيكون؛ لأنّ له القدرة والقوّة المطلقة الشاملة لكلّ شيء والخارقة التي عجز الواصفون عن وصفها والمتانة المطلقة التي بها يخلق ما يشاء كيفما يشاء.

والقوي يدل على القدرة التامة، والمتين يدل على شدة القوّة، والجمع بين الاثنين يدل على العظمة اللامتناهية، فالله تعالى من حيث انه بالغ القدرة تامّها قوي، ومن حيث انه شديد القوّة متين. وذلك كلّه يرجع إلى عدة معان من أهمها القدرة، وكذلك معاني السلطان الأعظم والجبروت الأكبر والقهر الأجل والكبرياء المطلق والعزة السامية والجلال المحكم، وهي جميعها ليست إلا لله وحده على سبيل الإطلاق والانفراد، فالله القوي المتين انفرد بقوته وقدرته وسلطانه وتنزه عن كلّ مخلوق، فهو قدوس سبوح ربّ النّاس والملائكة خالق الإنس والجن ومسيّر الكون بما فيه.

ولكي نفهم معنى القوي المتين لابدّ من أن نفهم معنى القدرة وهي عبارة عن المعنى الذي به يوجد الشيء مقدرا بتقدير الإرادة والعلم، فالله تعالى قوي متين قادر إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

القوي المتين. هذان الاسمان بينهما مشاركة في أصل المعنى، القوّة تدل على القدرة التامة، والمتانة تدل على شدة القوّة والله القوى صاحب القدرة التامة البالغة الكمال، والله المتين شديد القوّة والقدرة والله متم قدره وبالغ أمره واللائق بالإنسان أن لا يغتر بقوته، بل هو مطالب أن يظهر ضعفه أمام ربّه، كما كان يفعل عمر الفاروق حين يدعو ربّه فيقول: (اللهم كبرت سني وضعفت قوتي) لأنه لا حول ولا قوّة إلا بالله، هو ذو القوّة أي

صاحبها وواهبها، وهذا لا يتعارض مع حقّ الله أن يكون الخلفاء في الأرض أقوياء بالحقّ وفي الحقّ وبالحقّ.

هو تعالى كامل القوّة عظيم القدرة شامل العزة قال تعالى: {إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}58 وقال تعالى: {إِنَّ ربّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}59 فمعاني العزة الثلاثة كلّها كاملة لله العظيم.

1-عزّة القوّة الدال عليها من أسمائه القوي المتين، وهي وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوّة المخلوقات وإن عظمت. قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}60، وقال: {وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}61 وقال عزّ وجلّ: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ}62 وقال تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا}63 وقال عزّ وجلّ: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ}64.

2- وعزّة الامتناع فإنّه هو الغني بذاته، فلا يحتاج إلى أحد ولا يبلغ العباد ضره فيضرونه، ولا نفعه فينفعونه، بل هو الضار النافع المعطي المانع.

3 - وعزة القهر والغلبة لكلّ الكائنات فهي كلّها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما

---

58 يونس 65

59 هود 66

60 لذاريات 58

61 الممتحنة 7

62 الأنعام 65

63 الكهف 45

64 القمر 55

لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوّة إلا به. فمن قوته واقتداره أنّه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون: {مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}65 وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}66.

ومن آثار قدرته أنك ترى الأرض هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربّت وأنبتت من كلّ زوج بهيج، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين والكفار الظالمين من أنواع العقوبات وحلول المثلات، وأنه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم ولا جنودهم ولا حصونهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربّك، وما زادوهم غير تتبيب، وخصوصا في هذه الأوقات، فإنّ هذه القوّة الهائلة والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدرة هذه الأمم هي من إقدَار الله لهم وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أن قواهم وقدراتهم ومخترعاتهم لم تغن عنهم شيئا في صد ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلكة، مع بذل جدهم واجتهادهم في توقي ذلك، ولكن أمر الله غالب، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوي والسفلي. ومن تمام عزته وقدرته وشمولهما: أنه كما هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعاتهم ومعاصيهم، وهي أيضا أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقا وتقديرا وتضاف إليهم فعلا ومباشرة على الحقّيقة، ولا منافاة بين الأمرين، فإن الله خالق قدرتهم وإرادتهم، وخالق السبب التام خالق للمسبب، قال تعالى: {والله خلقكم وما تعلمون}67.

---

65 لقما ن 28

66 لروم 27

67 الصافات 96

ومن آثار قدرته ما ذكره في كتابه من نصره أوّلياءه، على قلة عددهم وعدَدِهم على أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العدد والعدة، قال تعالى: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} 68 ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النّار ولأهل الجنّة من أنواع العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي لا ينقطع ولا يتناهى. فبقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبّرها، وبقدرته سوّاها وأحكمها، وبقدرته يحي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسنين بإحسانهم والمسيء بإساءته، وبقدرته يقلب القلوب ويصرفها على ما يشاء الذي إذا أراد شيئا {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}69

والقوي خلاف الضعيف، وهو الذي يَغلب ولا يُغلب، والقوي المستمر بالقوّة دون تعب أو نقصان ممّا يجعل قوته عزّ وجلّ مغالبة لكلّ قوّة.

والقوي هو اسم من أسماء الله الحسنى، يثبت لله كمال القدرة على الشيء فلا يستولى عليه العجز في حال من الأحوال، وهو إحدى صفات العظمة والكمال الدالة على القوّة والجبروت ولقد سمى الحقّ تبارك وتعالى نفسه القوي فقال تعالى: {وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}70 فإن حملنا القوّة في حقّ الله تعالى على كونه كامل التأثير في الممكنات كان معنى القوّة هو القدرة، وإن حملنا القوّة في حقّ الله تعالى على كونه غير قابل للأثر من غيره كان معنى قوته هو كونه واجب الوجود لذاته، وذلك لأنه كلّما كان واجب الوجود لذاته كان واجب الوجود من جميع جهاته، وكلّ ما كان كذلك لم يقبل الأثر من غيره البتة، لا بتحصيل شيء فيه كان معدوما، ولا بإعدام شيء كان موجودا، فكمال حال الشيء في أن يؤثر يسمى قوّة، وكمال حال

68 البقرة 249

69 يس 82.

70 الشورى 19.

الشيء أن لا يقبل الأثر من الغير يسمى أيضا قوّة فهو اسم يوحى بالغلبة والمنعة والسلطان التام، ونفاذ الأمر في جميع المخلوقات بلا رد، ولا معارضة، ولا تعقيب وقد ورد اسم القوي في القرآن الكريم مقترنا ومصاحبا لاسمه تعالى المتين قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}71.

وهذه المصاحبة تؤدّي معنى ثبات هذه القوّة ودوامها، فهو يؤثر ولا يتأثر، يغير ولا يتغير، مع الرفعة والتنزه وقد ورد مصاحبا لاسمه تعالى العزيز في عدة مواضع، يقول تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}72 وقال تعالى: {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حقّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}73.

وقال عزّ وجلّ: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}74 إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها اسم القوي مصاحبا لاسم العزيز، وهي مصاحبة تدل على القوّة القاهرة لا يعتريها وهن ولا يلحقّها فتور، فهو قوي بنعمته، قوي بنصرته، قوي بعلمه، قوي بنفاذ إرادته. ومن اسم القوي يعلم العباد ممن يستمدون قوتهم المادية والمعنوية وممن يبتغون العزة قال تعالى: {فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}75.

والقوي في اللغة صفة مشبهة للموصوف بالقوّة، وقد قَوِيَ وتَقَوَّى فهو قَوِيّ يقال: وقَوَّى الله ضعفَك أَي أَبدَلَك مكان الضعف قوّة، فالقوّة نقيض الضعف والوهن والعجز، وهي الاستعداد الذاتي والقدرة على الفعل

71 الذاريات 56-58

72 الشورى 19

73 الحج 74

74 المجادلة 21

75 النساء 139

وعدم العجز عنه عند القيام به، قال تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام عن التوراة والألواح: {فَخُذْهَا بِقوّة وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا}76 أي خذها بقوّة في دينك وحجتك وقال ليحيى عليه الصّلاة والسّلام: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقوّة وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا}77 أي خذ الكتاب بجد وعون من الله تعالى. والقوي في أسماء الله معناه أنه الموصوف بالقوّة، وصاحب القدرة المطلقة، لا يغلبه غالب ولا يرد قضاءه راد، ولا يمنعه مانع ولا يدفعه دافع، وهو القوي في بطشه القادر على إتمام فعله، له مطلق المشيئة والأمر في مملكته، والقوي سبحانه قوي في ذاته لا يعتريه ضعف أو قصور، قيوم لا يتأثر بوهن أو فتور، ينصر من نصره كما قال: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}78 وكتب الغلبة لنفسه ولرسله بقوته وعزته فقال سبحانه: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}79.

فمن قوته واقتداره أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون، {مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}80 وكذلك قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}81.

---

76 الأعراف 145.

77 مريم 12.

78 الحج 40.

79 المجادلة 21

80 لقمان 28

81 الروم 27

ومن قوّة الله تعالى تأييده لرسله بالمعجزات الخارقة التي يكون فيها إظهار الحقّ ودحض الباطل التي لا تخضع لقانون السبب والمسبب ممّا اعتاد عليه العقل بالمنطق والحجة المقنعة.

ذلك أن قوانين الواقع الطبيعي نسبية غير مطلقة، ولكن هذه الخوارق والمعجزات لا تعني بالنتيجة احتمال سبب مبدئي لا مسبب له، ولكن هذه الخوارق تحدث أشياء بغير أسبابها التقليدية، ويصعب على العقل أن يضع لها قانونا ينسحب على منطق الأشياء، ولا يمكن أن نكتشف قانونا منطقيا يضع نتائج هذه الخوارق ضمن ذلك الإطار لأنها خاضعة للقوّة الإلهية التي اختص بها الله تعالى، حيث أبطل فعل النّار الذي خلقت له، وهي الدفء والمنفعة والعذاب، إلى برد وسلام على إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، ومع كونها حارقة ولا خلاف في ذلك. قال تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبرَاهِيم وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ}[82] ومهما اجتهد مجتهد على أن يبرر إبطال فعل النّار وفق القوانين الطبيعية لكان من الكاذبين ذلك أن عدم إحراق النّار لمن يجلس في وسطها لا مبرر له سوى القدرة الإلهية التي هي جزء من القوّة المطلقة التي اتصف بها سبحانه وتعالى وكانت من أسمائه الحسنى ألا وهو القوي المتين.

فإذا أخذنا الأمر بالتدرج نزولا من القوي صاحب القوّة المطلقة إلى القوي نسبيا الذي أضفيت عليه قوّة من القوي مطلقا، مقارنة مع أقرانه من بني البشر لبزهم جميعا بقوته التي استمدها من إيمانه بالله تعالى أنه هو القوي صاحب القدرة، ولهذا أصبح إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام قويا في نفوس وقلوب من شهد عملية إحراقه وأن النّار لم تعمل به عملها مع بقية المخلوقات فكانت قوته مدعاة لأن يؤمن به النّاس أنه نبي، وكان قويا في

82 الأنبياء 67 -70

نفسه عندما حمل الرسالة فقد أيقن أنه خليفة الله في الأرض فاستنهض همته وحزم أمره وشحذ عزيمته معتمدا على قوّة الإيمان وقوّة الله فانطلق من العراق إلى فلسطين مرورا بمكة قبل أن يستقر به المقام في مصر لفترة ثم قفل راجعا إلى مكة وأودع زوجته وابنه بواد غير ذي زرع وهذا بفضل ما يتمتع به من قوّة قال تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُون}[83] فالذي يترك زوجته وابنه بواد غير ذي زرع ولا ضرع ولا مؤنس ولا أنيس فإنما هو معتمد على قوته التي يستمدها من إيمانه. فهو قوي بقوّة الله وحوله، وقوي بثقته بالقوي العزيز، وقوي بعقله وتفكيره بأنه لا يسلمه إلا لخير لأنه معتمد على القوي المتين صاحب السلطان الأسمى والقوّة الأسنى والسلطة الجامعة المانعة، وبهذه الثقة انطلق يصلح الأرض بعد أن أفسدها المفسدون سلبا ونهبا في إفشاء الظلم وأكلّ الحقّوق واستعباد النّاس، وبإيمانه بقوّة الله وقدرته علم أن الله تعالى يدفع عنه ما سوف يراوده من الوسوسة فيما يبتغي من الحقّ وإظهاره والعدل ونشره وهو يدفع الضد بالضد أي دفع الضد الضار بالضد النافع، فالعدل ضد الجور والحقّ ضد الظلم والرحمة ضد العذاب، وهذا ما أيقن به إبراهيم عليه وعلى نبيينا الصّلاة والسّلام عندما تمتع بقوّة الخليفة المكلّف في إعادة الحقّ إلى نصابه، فلأنه قوي يستطيع أن ينصر الحقّ ويدفع الظلم، ولأنه قوي يستطيع أيضا أن يبسط سلطان العدل ويطوي بساط الجور الذي بسطه المضلون في أذى النّاس وضرهم من أجل استعبادهم، ولأنّه قوي فإنه حتما سيكون رحيما ولا يرضى بالشقاء للضعفاء والمساكين، لأنه هو نصيرهم والمدافع عنهم وهو الذي إليه يأوون والحصن الذي به يمتنعون ومن اتكلّ على القوي العزيز وهو ينشر الفضائل

83 إبراهيم 37.

ويدحر الرذائل ويبسط العدل ويسحقّ الظلم، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعمل الصالحات وينهى عن السيئات خشية من القوي الحي القيوم فإنه لا يخشى غوائل الدهر ولا يخاف عواقب ما يقترفه المبطلون قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوّلئِكَ يَدْخُلُونَ الجنّة وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}84 إنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام قد أيقن بكلّيته حقّيقة القوي ومعرفته حيث تخللت المعرفة جميع أجزائه من حيث ما هو مركب فلم يبق جوهر فرد إلا وقد حلت فيه معرفة ربّه عزّ وجلّ فهو عارف به بكلّ جزء منه لأنه آت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي مستلزم لحسنها الذاتي ولمعرفته اليقينية بقوّة الله وقدرته فقد أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له لا يعرف لها ربّا ولا معبودا سواه، ولما كانت قوّة إبراهيم مستمدة من قوّة الله تبارك وتعالى فكانت لفظة الخليل معبرة عن إرادة الله تعالى في اصطفائه واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وهذا على مراتب القوّة البشرية التي يمنحها الله تبارك وتعالى لأنبيائه وأوّليائه وعباده الصالحين، لأنه يعلم سرائرهم ويعلم أنهم مسخرون لما خلقوا له من فعل الخير بقدرته جلّ شأنه وتعالى عزه وعظم سلطانه تبارك وتعالى عمّا يقولون علوا كبيرا.

وكما أن الله سبحانه وتعالى خصّ بعض البشر بنوع من القوّة الإلهية كذلك خص بعض الملائكة بقوّة تتناسب مع معدن خلقهم وجوهرهم، فقد خلق الجان من مارج من نار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار أو من سلالة من طين وخلق الملائكة من نور، ولتفاوت أصل الجوهر ومعدن الخلق للمخلوقات المكلّفة فقد تفاوتت أنواع القوى التي منحها الله تعالى

---

84 النساء 124، 125.

لمخلوقاته المتفاوتة في معدن الخلق، ولما كانت الملائكة مخلوقة من أجسام نورانية شفّافة كانت القوّة التي أكرمهم الله بها تتناسب مع أصل الجوهر الذي خلقوا منه، ولما كانت سرعة الضوء الذي هو جزء من النور تساوي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، فلابدّ لقوّة الملائكة أن تتناسب مع أصل جوهرهم الذي يتصف بخواص تفتقدها بقية مخلوقات الله تبارك وتعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُوّلِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَربَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}85 فقوّة الملائكة قياسا إلى طبيعة خلقهم وجوهر النور الذي خلقوا منه يتناسب تماما مع القوّة التي خصهم بها الله سبحانه وتعالى.

ومن مظاهر القوّة التي منحها القوي العزيز لمخلوقاته من أجل تسخيرها في إعمار الأرض ونشر الهدى والدعوة إلى سبيل الرشاد ما سخره الله سبحانه وتعالى لنبييه سليمان عليه الصّلاة والسّلام حيث قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ ربّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شكّرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشكّورُ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكلّ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}86.

لقد اختص الله تعالى بالقوّة وجعلها اسما من أسمائه الحسنى جل شأنه وتفضل على بعض خلقه بأن منحهم من هذه القوّة ما يقيمون به الدين والدنيا فيما أمر به تعالى سواء لإظهار قدرة الله بالمعجزات على أيدي الأنبياء ودعوة النّاس إلى الطريق المستقيم وسبيل الهدى والرشاد ليخرجهم

85 فاطر 1.

86 سبأ 12. 14.

من الظلمات إلى النور بإذنه أم لقضاء حاجاتهم التي يعجزون عنها بالقوّة التقليدية أم لإظهار عجز الآخرين أمام قوّة الله تعالى على الرغم من القوّة الهائلة التي منحها لهم، حيث أن الجن أوتوا القوّة النسبية ومع ذلك فهم ضعفاء أمام قوّة الله وقدرته حيث نجد قوتهم الهائلة من خلال قوله تعالى: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[87] ذلك أن سليمان عليه الصّلاة والسّلام يعرف قوّة الجن وقدرتهم على القيام بأعمال، فطلب من الحضور ممن يمتلك القوّة التي تمكنه من أن يأتي بعرشها، فقال أحدهم أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وهذا يعني أنه يمتلك قوّة هائلة وسرعة شديدة على القيام بهذا العمل، غير أن الذي عنده علم من الكتاب وهو المؤمن الصالح قال أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك حتى رآه مستقرا عنده. فإذا تأملنا الحوار الذي دار بين سليمان عليه الصّلاة والسّلام وبين الحضور من الجن والصالحين منهم ومن غيرهم فالذي عنده علم من الكتاب لم تتضح صفته سوى قدرته على امتلاك القوّة الأسرع، ولهذا لم نجد فاصلا زمنيا يفصل بين القول والفعل لأنه رأى عرش بلقيس مستقرا عنده حقّيقة، وهذا يعني انعدام الزّمن بين القول والفعل لعظم القوّة ولشدة القدرة الطاوية للسرعة والسبب، ونستنتج من هذا أن العلم أعلى مراتب القوّة، إذن فالعلم قوّة، ومن يمتلكه يمتلك القوّة، ولهذا فالخليفة دائما قوي بما أنه المؤمن بالحقّ وإحقّاقه ولو كره المجرمون والمنافقون.

87 النمل 39، 40.

ولكي لا يغتر مخلوق بقوته تبقى قوّة القوي العزيز هي القوّة المطلقة التي تسيِّر كلّ شيء وتسيطر على كلّ شيء، وحتى لا يعلو أحد من الخلق على الآخرين بما أوتي من قوّة بالتكبر والجبروت والطغيان تبقى قوّة الله هي القاهرة المسيطرة وفق نظام هذا الكون الذي قدره الله تقديرا ويضربّ الله الأمثال في ذلك لتتعظ جميع مخلوقاته وتعلم أنها مهما أوتيت هذه المخلوقات من القوّة وأسبابها تبقى ضمن قوّة الله وإرادته التي يريدها لهذه المخلوقات من إنسها وجنها وحيوانها وطيرها والملائكة التي تتفاوت فيما أوتيت من قوّة لتبقى ضمن إطار القانون الإلهي حتى لا يبغي بعضها على بعض وقد رأينا القوّة التي أتت بعرش بلقيس، ومع هذا فقد أراهم الله حجم قوتهم أنها لا تفيدهم شيئا ولا تقدم لهم منفعة ولا تدفع عنهم ضرا إلا بمشيئة الله وإرادته، فكلّ تلك القوّة التي كانوا يتمتعون بها هي قوّة نسبية وليست مطلقة، ولهذا ضعفت قوّة الجن أمام الذي عنده علم من الكتاب، وحتى الذين عندهم علم من الكتاب سيظلون ضعاف أمام قوّة القوي المطلق جلّ جلاله، ويظلون هم في حاجة لقوّة من قوته تمدهم وتناصرهم على إظهار آياته العظام وإحقّاق الحقّ في الأرض التي استخلفهم فيها، ولذا فالجن لم يعلموا أن سليمان عليه الصّلاة والسّلام قد مات حتى أذن لهم الله أن يعلموه عن طريق أضعف مخلوقاته وهي حشرة الأرضة قال تعالى: {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}88 وهنا دليل على أنّ قوّة الله فوق كلّ قوّة وأنّ عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بيَّن أنّه لم ينج من الموت، وأنه قضى عليه الموت، تنبيها للخلق على أن الموت لابدّ منه، ولو نجا منه أحد لكان سليمان أوّلى بالنجاة، ولذا فالموت مظهر من مظاهر إظهار القوّة

88 سبأ 14.

التي لا تواجهها قوّة. وهذا يعني أن مآل القوّة جميعا ومرجعها إلى الله تعالى لأنه هو الذي وهبها وهو الذي يقبضها، ومن أي صنف كان هذا القوي مؤمنا أو كافرا إنسيا أو جنيا، نبيا أو غير ذلك وطائعا كان أم عاصيا فإنه لا مرد لقضاء الله في استرجاع وديعته مهما كان نوع هذه الوديعة من مال أو روح أو قوّة، ومهما يكن صاحب هذه القوّة على درجة من الطاعة والإيمان حيث كان سليمان عليه الصلاة السلام يقف في عبادة الله ليلة كاملة ويوما تاما وفي بعض الأوقات يزيد عليه، وكان له عصا يتكئ عليها واقفا بين يدي ربّه، ثم في بعض الأوقات كان واقفا على عادته في عبادته إذ توفي، فظن جنوده أنه في العبادة وبقي كذلك أياما وتمادى شهورا، ثم أراد الله إظهار الأمر لهم بإظهار قوته في من يعتقدون أنه ضعيف لا يقدر على شيء ممّا حدث شاهدا أمام أبصارهم وهم ينظرون، فقدر أن أكلّت دابة الأرض عصاه فوقع وعلم حاله، وهذا يعني أن قوّة الجن المادية والعلمية محدودة ضمن ما أراده الله لهم من العلم والقوّة حيث كانت الجن تعلم ما لا يعلمه الإنسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك، بل الإنسان الذي لم يؤت من العلم إلا قليلا فهو أكثر الأشياء الحاضرة علما، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ ربّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَربّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ كلّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى إِنَّ إِلَى ربّكَ الرُّجْعَى أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صلّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى كلّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كلّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَربّ}[89] بطبيعة الحال من يقرأ باسم ربّه يقرأ خيرا كثيرا، ومن يقرأ باسمه فلن يجد للقوّة سبيلا، أي من قرأ ممّا علمه الله كانت له مكرمة من عنده جلّ جلاله، أي أنه يقرأ

89 العلق 1 . 19.

الحقّ بالحقّ، وهذه عين البيّنة، إمّا أوّلئك الذين غفلوا عن ذلك كفرا وطغيانا يجدون أنفسهم وما يقولون أو يقرؤون في حالة وهن وضعف، ولأنّ الإنسان قوّة فهو القوي بالإضافة الذي يعلم أنّ وراء كلّ ظاهر باطن وسر، ووراء كلّ سرٍ ظاهر يمكن أن يشاهد، ومن هنا يمكن لبني آدم أنّ إدراكه واستقراءه واستنباطه، والجن لا تعلم إلا الأشياء الظاهرة وإن كانت خفية بالنسبة إلى الإنسان، وتبين لهم الأمر بأنهم لا يعلمون الغيب إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان عليه الصّلاة والسّلام حي لم يمت.

إنّ أعلى مراتب القوّة التي يمنحها الله تبارك وتعالى لعباده إنما هي خاضعة لقانون القوّة الإلهي وقد خص الله تعالى قسما من عباده بهذه القوّة وهم الأنبياء والأوّلياء والصالحون والملائكة فهو يعلم سرائرهم وأنهم مسخرون لما خلقوا له من الأفعال التي يريد الله تعالى أن يمضي بها مشيئته لأجل مسمى، وهم مترفعون عن الماديات إلى الروحانيات في عملية التسامي والتجرد عن الواقع إلى عالم الفضيلة التي أمر بها الله تعالى، والتسامي والترفع لا يكون إلا لذي قوّة قد اصطفى الله بها نوعا من الخلق لأمر يريد نفاذه بمشيئته فيسخِّر من يشاء من عباده ويجعلهم أسبابا لهذه المشيئة فهؤلاء يتمتعون ببصيرة نافذة وذهن متقد وقوّة عظيمة وأخلاق فضيلة وبهذا يحمل من يمتلك هذه القيم صفة الخليفة الذي يخلف الله في الأرض لإقامة العدل وإظهار الحقّ ونشر الرحمة وبسط الخير، وأعلى درجات القوّة هي الصبر حيث قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أوّلو الْعَزْمِ مِنَ الرّسل وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}90. ويراد بأوّلو العزم بعض الأنبياء قيل هم نوح صبر على أذى قومه وكانوا يضربّونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم على النّار وذبح

90 الأحقّاف 35.

الولد، وإسماعيل على الذبح، ويعقوب على فقدان الولد وذهاب البصر، ويوسف على الجب والسجن، وأيوب على الضر، وموسى الذي قال له قومه كما جاء في الكتاب العزيز: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم}[91].

إنّ كلّ الرّسل أوّلو عزم ولم يبعث الله رسولا إلا كان ذا عزم وحزم، ورأي ورجاحة عقل، وهذا أمر من الله تعالى لنبيه صلّى الله عليه وسلّم بقوله اصبر كما صبر الرّسل من قبلك على أذى قومهم، ووصفهم بأوّلي العزم لصبرهم وثباتهم، ومن أعطي نعمة الصبر فقد أعطي العزم ومن ملك العزم فقد ملك القوّة التي هي مصدرها الصبر، ولهذا فإن الصبر من أعلى مراتب القوّة، لذلك كان أمر الله تعالى لنبييه محمّد صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم بالصبر هو مدعاة للقوّة حيث ثبته بهذه القوّة على المضيّ لما قلّده من عبْء الرسالة، وثقل أحمال النبوّة، وأمره بالعزم على النفوذ لذلك والاقتداء بأوّلي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لَقُوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد، لذلك كان الخطاب بالأمر بالصبر على ما أصابه صلّى الله عليه وسلّم في الله من أذى مكذّبيه من قومه الذين أرسله الله إليهم بالإنذار فقال: (كَمَا صَبَرَ أوّلو الْعَزْمِ مِنَ الرّسل) على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره، ما نالهم فيه من شدّة. وإن أوّلي العزم منهم، هم الذين امتُحِنوا في ذات الله في الدنيا بِالمحَن، فلم تزدهم المحن إلا جدّا في أمر الله.

---

91 الشعراء 61 . 68.

ولا تتجلى قوّة الله القوي بشكّلّ من الأشكّال ولا بمثل من الأمثال ولا بصورة من الصور، وإنما هي قوّة جامعة مانعة لكلّ مظاهر القوّة التي نعلمها والتي لا نعلمها من أنواع القوّة التي لم يطلع الله تعالى عليها أحدا من خلقه، غير أننا ندرك قوّة الله تعالى في جميع آياته ومخلوقاته، لأنه سبحانه وتعالى وصف نفسه بأنه {ليس كمثله شيء}92.

وقوّة الله تعالى وإنّ جحدها الجاحدون فهي تتجلى في جميع مخلوقاته التي تعطي الأدلة الكافية على إثبات هذه القوّة التي ذكرنا منها صورا تجسد قوته عزّ وجلّ، فإننا هنا سنعمد إلى بعض الأدلة الظنية الترجيحية والأدلة القطعية اليقينية التي لا تدع مجالا للشكّ فيما نقول وفق قاعد جلية في المنهج العلمي خاصة وفي نظريات المعرفة بصفة عامة، وهو ضرورة الملازمة بين الدليل والمدلول، حتى يصح لنا أن نستدلّ بوجود الدليل على وجود المدلول، وذلك مثل التلازم الضروري بين وجود الشمس ووجود النهار، ومثل دلالة وجود الابن على وجود أبيه، ودلالة وجود الكتابة على وجود الشخص الكاتب، ففي هذه الأمثلة وغيرها نجد نوعا من التلازم الضروري بين وجود أحدهما ووجود الآخر، فإذا انتفى احدهما انتفى الآخر، بمعنى إذا انتفى السبب انتفى المسبب، وهذا يساوي تماما وجود الخلق فإنه يستلزم بالضرورة وجود خالق بالقوّة، وهذا يعني ضرورة وجود صفات الخالق من القوّة والقدرة والمشيئة والإرادة والتصوير لتكوين هذا الخلق، ولما كان وجود الخلق يستلزم وجود الخالق كانت أوّل آية من القرآن تلفت نظر الإنسان إلى هذا الدليل القطعي، حيث قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ ربّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ}93.

92 الشورى 11.

93 العلق 1 . 2.

وقضية الخلق من الخالق بقوته وقدرته وخاصة خلق الإنسان فإنه من أعظم آيات الله التي تدل على القوّة والقدرة معا التي ضربّ بها المثل حيث قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبّكَ أَنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}94. ورؤية هذه الآيات تدلل على قوّة الخالق وعظمته في الآفاق والنواحي أي سنريهم آياتنا في النواحي عموما من مشارق الأرض ومغاربّها وشمالها وجنوبها، وفيه أن هذه الرؤية كائنة لا محالة حقّ لا يحوم حولها ريبة، وأن نطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم على السواء. فقد كشف العلم عن أمور كثيرة عن الأرض وما عليها، وعن النظام الشمسي وما فيه، وأن هذه الأرض وما حولها ما هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس، التي هي وما حولها ذرة صغيرة تسبح في هذا الكون الفسيح، وعرف النّاس عن الجسم البشري وتركيبه وخصائصه وأسراره الشيء الكثير، وأن كلّ هذه المعلومات والاكتشافات التي وقف الإنسان على حقّيقتها، تسلم بهذه القوّة التي أبدع الله بها هذا الكون وبقوته عزّ وجلّ وأحكم سيطرته عليه، لأن هذه الآفاق هي أقطار السمواتِ والأرضِ من الشمسِ والقمرِ والنجومِ وما يترتبُ عليها من الليلِ والنهارِ والأضواءِ والظلالِ والظلماتِ ومن النباتِ والأشجارِ والأنهارِ وفي أنفسهم من لطيفِ الصنعة وبديعِ الحكمةِ في تكوينِ الأجنةِ في ظلماتِ الأرحامِ وحدوثِ الأعضاءِ العجيبةِ والتركيباتِ الغريبةِ من العقل والدورة الدموية والشبكة العصبية وما إلى ذلك ممّا لا نعلم.

فمظاهر قوّة الله تتجلى في آياته ومخلوقاته فالله تعالى الذي خلق السماوات والأرض بقوته، فهو بهذه القوّة جل شأنه يمسكها أن تقع قال تعالى: {إِنَّ

94 فصلت 53.

اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}95.

إنّ الله تعالى يحفظ السماوات والأرض أن تزولا فهو الذي قضى بإمكان وجودهما، وهما محتاجتان للموجد لإخراجهما من الممكن بقوته وإرادته وهذا دليل على واجب الوجود، لذلك فإن الممكن كما يحتاج إلى الواجب سبحانه حال إيجاده يحتاج إليه حال بقائه، بمعنى أن المخلوق الممكن إيجادا فهو بالضرورة محتاج لمن يوجده في عالم الوجود، وهذا يعني أن الواجد هو واجب الوجود ضرورة وبالقوّة، وكما احتاج الموجود للموجد، فهو أيضا محتاج له لبقائه وديمومته واستمراره، ومن هذا نستنتج أن القوي، قوي أبدا، قبل إبداعه الخلق وأثناء الخلق وبعد وجود الخلق وبهذه القوّة يمنعهما من أن تزولا، أي يمنع سبحانه زوال السماوات والأرض، والزوال بالانتقال عن المكان أي أن الله تعالى يمنع السماوات من أن تنتقل عن مكانها فترتفع أو تنخفض ويمنع الأرض أيضا من أن تنتقل.

إنّ إمساك السماوات والأرض يبين لنا يد الله القوية القادرة كيف تمسك بالسموات والأرض أن تزولا وكيف تحافظ على ثباتها وبقائها على الحالة التي أمرها الله بها، أي أمرها أن تبقى على هذه الحالة وهذه الهيئة بالقوّة الإلهية، وليس بمعنى الإمساك المعروف من قبلنا نحن بني البشر، لأننا إذا أمسكنا بالشيء فإننا نحتاج إلى الممسك حتى نسيطر على الممسوك، وهو حالة مادية كاليد للأشياء الصغيرة، أو ما نصنعه ليكون معينا على الإمساك بالأشياء التي هي أعظم من قدراتنا، وهذا يتطلب عملا وجهدا ومشقة وتكلّفة، أما الإمساك من قبل الذات الإلهية فهي قوّة بمعنى القدرة والإرادة، لأنّه سبحانه وتعالى مريد، وبإرادته جل شأنه يمتنع العمل والجد والمشقة والتكلّفة والزّمن حيث قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ

95 فاطر 41.

نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}96 فمتى تعلقت إرادته بوجود شيء أوجده. وهو خالق هذا العالم بسمائه وأرضه وكلّ هذا الكون وما فيه وجد بكلّمة (كن) وهي الكلّمة القوّة بالمطلق، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن بالقوّة، وإيجاده ذلك الخلق كلّه لم يتوقف على سبق مادّة ولا آلة ولا إجالة فكرة ولا طول روية ولا عدم كما يظن البعض، كما قدر على الإيجاد ابتداء بقوته وجب أن يكون قادرا على الإعادة بتلك القوّة قال تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أوّل خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}97.

إن إمساك السموات والأرض أن تزولا لهو قوّة قاهرة لا يتصورها عقل بشري لما في هذه السموات من النجوم والكواكب السيارة التي لا تتوقف أبدا وهذه المجرات الكونية التي تتألف كلّ مجرة منها من مليارات النجوم والكواكب التي تسير على مداراتها فأية قوّة هذه التي تحكم سيطرتها على هذا الكون بما فيه، ولنا أن نتصور قوّة الله القوي العزيز عندما اكتشف علماء الفلك أنّ هناك ثقبا في الكون تندفع إليه ملايين من هذه الكواكب والنجوم وهو يسحبها بقوّة هائلة إلى داخله لا يعلم مستقرها إلا الله، علما أنّ هذا الذي سموه ثقبا لبعد مسافته حيث يقع على بعد أربّعمائة سنة ضوئية من الأرض، فإذا كانت الوحدة الضوئية الواحدة وهي المسافة التي يقطعها الضوء من الشمس إلى الأرض تساوي مائة وخمسين مليون كيلو متر في ثماني دقائق فما هو الزّمن المستغرق للوصول إلى ذلك الثقب الذي يبتلع المجرات، وهذا مصداق لقوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ}98. فبنيان السماء من القوي المتين كان ولا يزال بقوّة وشدة عظيمة لا يقدر قدرها أحد ولا يعلم

96 النحل 40.

97 الأنبياء 104.

98 الذاريات 47، 48.

مبتداها ولا منتهاها أحد، ولما كانت السماء أليق لعظمتها وطهارتها بصفات الإلهية وذكر القوّة والقدرة على الاتساع اللامتناهي وهو القوي القادر على خلق سعة لا تتناهى بأيدٍ أي بقوّة، والقوّة هنا بمعنى القدرة فان القوّة عبارة عن شدة البنية وصلابتها المضادة للضعف، والله تعالى منزه عن ذلك، فله الأسماء الحسنى التي نعلمها وله أسماء حسنى قد لا نعلمها.

وأما الأسماء التي لا نعلمها فقد ورد في الحديث قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم: "مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ وَحَزَنٌ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكلّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ ربّيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ عزّ وجلّ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا"99.

فقوله صلّى الله عليه وسلّم: أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، لهو دليل على أن لله تعالى أسماء حسنى لا نعلمها، لأنه جلّ جلاله استأثر بها في علم الغيب، ولأنّه مطلق الصفات والأفعال فهي بطبيعة الحال لا تعد ولا تحصى، أي أنّ المطلق لا يمكن إحصاءه ولا عده عدا، إضافة إلى ذلك فجميع الخلق لا تحسن الثناء عليه عزّ وجلّ كما أثنى هو على نفسه، وهذا فيه دليل على أنّنا لا نمتلك من مفردات الحمد والتمجيد ما يرقى إلى الذي أثنى به على نفسه، فأنزل تسعا وتسعين اسما نمجده بها ونحمده بها ونسبح ونشكّر ونذكر ما شاء الله أن نفعل ذلك، واستأثر بباقي الأسماء رحمة منه لنا ورأفة بنا وشفقة علينا، فهو

55 . مسند احمد، مجلد 8، ص 63.

رؤوف رحيم، وهو قوي بالرأفة وقوي بالرحمة وقوي بالرزق حيث قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}100.

وهنا نجد أنه تعالى قرن الرزق بالقوّة والمتانة ذلك أن الرزق لبني البشر يحتاج منهم إلى السعي والجهد والعمل من أجل تأمين هذا الرزق ولكنه سبحانه هو الذي يرزق كلّ مفتقر إلى الرزق لا غيره سبحانه استقلالا، أو اشتراكا ويفهم من ذلك استغناؤه عزّ وجلّ عن الرزق لأنه ذو القوّة المتين، "لأن من يطلبه يكون عاجزا لا قوّة له فكأنه قيل: ما أريد منهم من رزق لأني أنا الرزاق وما أريد منهم من عمل لأني قوي متين، لأن المقام يقتضيه ولذا جيء بالمتين بعده ولم يكتف به عن الوصف بالقوّة؛ ولما كان المقصود تقرير ما تقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير جيء بوصف الرزق على صيغة المبالغة لأنه بدونها لا يكفي في تقرير عدم إرادة الرزق وبوصف القوّة بما لا مبالغة فيه لكفايته في تقرير عدم الاستعانة فإن من له قوّة دون الغاية لا يستعين بغيره لكن لما لم يدل ذو القوّة على أكثر من أنّ له تعالى قوّة مَا زيد الوصف بالمتين وهو الذي له ثبات لا يتزلزل، وأن القوي أبلغ من ذي القوّة والعزة أكمل من المتانة وقد قرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه"101.

إنّ قوّة الله العزيز لا تتجلى بشكّلّ من الأشكّال أو بمثل من الأمثال ولا بصورة من الصور، وإنما هي قوّة جامعة مانعة ندركها في جميع آيات الله ومخلوقاته لأنه سبحانه وتعالى وصف نفسه بأنه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ولأنه تبارك وتعالى ليس له شبيه ولا مثيل ولا نظير، فلذلك لا يمكن أن يبلغ مدحته القائلون ولا يؤدّي حقّه المجتهدون ولا يحصي نعماءه العادون ولا يدرك قوته المتأملون حيث فطر الخلائق بقدرته ونشر الرياح بقوّته ووتد

100 الذاريات، 56 . 58.

101 تفسير الأليوسي، ص 523.

بالجبال ميدان أرضه، فمن أراد أن يدرك قوّة الله تعالى ويعلمها فعليه معرفته، وأوّل المعرفة بتمام الدين والإيمان، وتمام هذه المعرفة يكون بتصديق آياته، وكمال التصديق هو الإخلاص له، وكمال الإخلاص له توحيده جل شأنه، وكمال توحيده نفي الصفات عنه، فمن وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد كفر، وهو الذي وصف نفسه سبحانه وتعالى ليس شيء مثله لا في الكمال ولا في التمام ولا في القوّة ولا في الرحمة ولا في الجبروت ولا في السطوة ولا في السلطان والمطلقية.

لذلك عندما يضربّ الله الأمثال للناس فإنها تكون بمستوى استيعاب العقل بقدر ما أوتي هذا العقل من التأمل في استيعاب الصورة الذهنية الناتجة عن التخييل، لأن صفات الله تعالى مجردة عن الواقع إلا في حال تقريب الصورة إلى الواقع حتى يتسنى لهذا العقل أن ينطلق من التجريب والمشاهدة إلى التجريد، ومن الواقع إلى التسامي حتى يغادر الدنيا في عملية التأمل وصولا إلى الآخرة ممّا صوره القرآن الكريم من مشاهد يوم القيامة، أو ممّا وصف الله تعالى به نفسه من صفات لا نستطيع إدراكها إلا من خلال صورة واقعية ننطلق منها إلى صورة ذهنية مجردة عن الواقع ويتضح هذا في قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}102.

فقد وصف نفسه عزّ وجلّ بأنه نور السموات والأرض، ولكن كيف يستطيع الإنسان إدراك هذا النور الإلهي، ومهما أوتي من شدة البصر لا

102 النور 35.

يستطيع أن يرى مسافة مسير ساعة من نهار، فقربّ الله تعالى هذه الصورة بما هو مألوف لنا ومعروف لدينا فقال: مثل نوره ــولم يقل مثله ــ كأنه ثريا هائلة ركب فيها مصباح عظيم، وهذا ممّا هو معلوم لنا فتنزل بالصورة من التجريد الغيبي الذي لا نعلمه إلى التجريب الواقعي الذي نألفه حتى ندرك أوّليات هذا النور، وهذا المصباح الذي ذكره، جعله في زجاجة، والزجاج هو البلور وهو أشد المعادن التي تعكس الضياء والنور حتى تكاد تتوهج وهذه الصور المفردة جمعها كلّها في صورة مركبة من تلك الصور وجعلها كوكبا دريا، ومعدن الدر في بريقه ولمعانه يضاهي البلور أضعافا كثيرة، ذلك أن البلور معدن شفاف فإذا سقط عليه الضوء، فإن قسما منه ينفذ من الجهة الأخرى ولا ينعكس نوره، بيد أن الدر معدن غير شفاف، فكلّ ما يسقط عليه من الضوء سوف ينعكس نورا، ولما كان في عرف النّاس أن النور لا يأتي إلا من مصدر حراري وطاقة ناتجة عن ذلك المصدر الذي يتقد نارا، ذكر أنّ الاتقاد من أجل التوهج يكون من شجرة مباركة كثيرة الخير تنزيها لله تعالى، وضربّ الزيتون مثلا لما فيه من منافع للناس، فهو كثير الخير كثير البركة لأن منه ما يكون طعاما من الحب نفسه ومن الزيت بعد عصره، ويكون هذا الزيت دواء وعلاجا واستخداما للإنارة، فبه تسرج السرج والمصابيح، فقربّ الصورة لواقع الذهن والعقل البشري من أجل استيعاب المثل لنور الله تعالى، ثم قال إن هذه الزيتونة لا هي شرقية ولا هي غربيّة، وإنما هي قوّة وقدرة إلهية من القوي القادر الذي يكون نوره وضياؤه لاعن مصدر حراري ولا عن نار متقدة ولا ينسب لأحد، ولكنه نور على نور، ثم جعل هذا النور هداية لمن يريد الهدى، فمن عرف نور الله تبارك وتعالى، فقد عرف القوي العزيز وقد اهتدى إلى النور وخرج من الظلمات، وهكذا يضربّ الله الأمثال للناس، فجلت قوته

وجلت عظمته وجلت قدرته {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا}103.

وبناء على ما تقدم: فإن جدلا قد يدور بالقوّة بين محقّقات التطور ومحقّقات الموانع، وخير ما ندرجه للحوار بالقوّة هو الذي به يتم كلّ حوار وهو العقل الذي ميز الله به بني آدم عن غيرهم ممّا خلق جلّ جلاله.

العقل قوّة الاستخلاف في الأرض:

من خلال معرفتنا العامة يقال إنّ الإنسان خطّاء، ولكن بالمعرفة العلمية من الذي سيخطئ؟ هل هو الإنسان العاقل مالك القوّة، أم غير العاقل فاقدها؟

العاقل هو المعرض للأخطاء، أمّا غير العاقل فإن خطأه أمر طبيعي. وبما أنّ العاقل هو الذي قد يخطئ، إذن الذي يفكر بالقوّة قد لا يخطئ، بمعنى لو فكّر العاقل في النتائج المترتبة على الموضوع الذي يفكر فيه، قد لا يخطئ، ويحقّق أهدافا. أما غير العاقل فهو (الحر) الذي لا يعرف الخطأ، وحتى إذا اتُّهم به نال البراءة.

ولهذا إذا انحرف العاقل عن اتجاه عقله تحرر من اتجاهه. فنحن الذين خلقنا بعقل، ونحن الذين سجنّا به. إذن السجن ليس الجدران والقضبان، بل أنه العقل الذي يفكّر. ولهذا كلّ من لا يفكر حر بطبعه. ولكن هل العقل قيد (سجن) في حد ذاته أم أن القيود خارجة عنه؟ إذا أجبنا بأن القيود خارجة عنه قد يسأل البعض: لو كان الإنسان غير عاقل، فهل يمكن أن يفكر في وضع قيود عليه؟ إذا كانت الإجابة بلا، إذن الإنسان العاقل هو الذي قيد نفسه بالقوّة العاقلة. وهو الذي نقل لنا ما في ذهنه من موانع إلى صور وأشكّال مادية سميت بالسجون المحاطة بالجدران والقضبان

---

103 الإسراء 43.

الحديدية والحراس المزودين بالهراوات والأسلحة الحديثة. ولأن الإنسان العاقل قد يتهربّ من ضميره كضابط عام فوضع لنفسه قانونا لضبطه، وشرطة تقبض عليه متى ما خالف ذلك، وبعد تنفيذ القانون عليه أحس بأنه قد وضع على نفسه ضميرا ورقيبا خارجا عنه وقيدا عليه، فبدأ يفكر بالقوّة في كيفية خداعه والتهربّ منه، ممّا جعل العلاقة بين البوليس والمواطن الذي تنازل عن ضميره علاقة عدم ثقة ومطاردة، ولهذا لم يؤت من العلم إلا قليلا، ولو أُوتي علما كثيرا لعرف بأن التنازل عن الضمير هو تنازل عن العقل والحرية، ولذلك لم يتطور إلا بالقليل. فالطفل ولد كغيره من الكائنات الأخرى حرا يصرخ متى يشاء ويصمت متى يشاء، ولا يخاف أحدا، ويبول وهو عار ومتى يشاء على كلّ من يحمله بين يديه إذا شاء، دون خشية أو حشمة حتى من والديه، ولكن لماذا كلّ ذلك؟ لأنه ولد والحرية فيه والعقل لم ينضج بعد.

وهذه النتيجة قد تجرنا إلى سؤال آخر هو: هل ينبغي أن ننمي في الطفل معطيات الحرية، أم معطيات العقل؟ إنه خيار صعب، خيار بين أن تكون إنسانا قويا كما أرادك الله تعالى، وبين أن تكون حرا. فإذا أردت أن تكون إنسانا قويا، عليك أن تتمسك بعقلك الذي يميزك عن غيرك، وإذا أردت الحرية عليك أن تقبل التنازل عن عقلك لتفعل ما تشاء ومتى تريد، وحينها تعرف إنّ للحرية ثمنا مقابل نيلها، وإذا أردت الاثنين معا فعليك أن تقبل بحياة المساجين الأحرار التي يشار إليها بالقضية الآتية:

كلّ أ ليست أ.

وقد يتساءل البعض: هل هناك قيود أخرى تعيق حركة الإنسان الحر إلى التطور؟ قبل أن نحكم على مواضيع أو قضايا من وجهة نظرنا بأنها قيود، ينبغي أن تطرح هذه المواضيع والقضايا للنقاش، هل هي قيود أم لا؟ فإذا

اتفقنا بأنها قيود حينها تصدر بها الأحكام بالقوّة ويحقّ لنا الاستشهاد بها أو البرهنة عليها. وبعض هذه الأسئلة هي:

هل الدين قيد على الحرية، أم دعم لها؟

هل القانون قيد على حرية العقل أم لا؟

هل الأمومة والأبوة والمجتمع قيود على حرية العقل أم لا؟

هل كلّمة لا قيد على الحرية أم لا؟

هل السجون قيد من أجل الحرية أم قيد عليها؟

هل الحكومة قيد على المحكومين أم لا؟

وهل يمكن أن تتحقّق الحرية إذا اعتبرنا هذه قيودا؟

وبناء على هذه الأسئلة أتساءل: متى سيتحرر البشر، وكيف؟

لا إجابة إلا بالعقل القوّة الذي به يتم الاستخلاف والذي يفكر ويتذكر ويميز بين الحقّ والباطل. فلولا العقل ما عرفنا المرغوب والممنوع والحلال والحرام، ولولاه ما استعملنا كلّمة قف، وسر، ولا، ونعم.

نعم لما نريد، ولا لما لا نريد.

وعليه ينبغي أن يكون الإنسان في عقله لكي يكون حرا، وإذا خرج منه سيوضع فيه من قبل الآخرين بالقوّة، وعليه أن يفكر. وإذا كان العقل سجنا فهل يمكن أن يحقّق التطور؟

السجن درجات، منه الانفرادي ومنه الجماعي ومنه الاجتماعي. في الدول التي تهدف إلى التقدم لا يسجن المجتمع، بل يسجن الأفراد والجماعات الذين يحاولون إعاقة حركة المجتمع إلى التطور والتقدم من أجل الجميع

بالقوّة، أما في الدول المتخلفة فيسجن المجتمع بكامله تحت الأوامر والنواهي التي تعيق حركته إلى التطور.

إذن العقل الذي يحقّق التطور هو العقل العام، والعقل العام هو عقل المنافع الفردية والجماعية والمجتمعية، أمّا العقل الذي لا يفكر في محيطه فهو أناني، ولهذا لا يحقّق التطور.

وإذا عُدنا مرة ثانية للإجابة على السؤال السابق كيف يكون العقل سجنا بالقوّة ويحقّق التطور؟ إذا سلمنا بأن العقل هو الذي قيَّد نفسه، ألا نسلّم بأنه قادر على فك قيده؟ إذا كانت الإجابة بنعم، هل يمكن أن يعيش الإنسان الحرية ويمارسها بكامل عقله، ويكون خلوقا ومتدينا ومطيعا في وقت واحد؟

في اعتقادنا أن الإنسان بطبعه يغضب ويطربّ، ويقبل ويرفض، ولهذا يكون عنده لكلّ شيء حدود، وفي هذه الحالة قد يصعب الالتزام بالحدود، وبما أنه من الصعب الالتزام بها، فإنه من الصعب أيضا ألا يسجن. ولذلك يتأكد لنا بأن العقل سجن وعلينا احترامه لكيلا نُسجن. ومع ذلك لو كان تفكيرنا في مستوى واحد يجوز ألاّ نختلف، ولكن لوجود فروق فردية بيننا اختلفنا، ولهذا بدأ البعض يخالف البعض، وبدأ الجدال وبدأ الصراع. الصراع على السلطة والثروة والسلاح، والصراع بين الرجل والمرأة، والصراع بين المتعلم وغير المتعلم، والصراع بين الفقير والغنى، والصراع بين البشر المحكومين وبين الحكام، ومحاولات السيطرة على مصادر الثروة، وجاء الاستعمار، ورُفض الاستعمار، والسبب في كلّ ذلك العقل الذي يتذكر ماضيه، ويفكر في حاضره ومستقبله إلى النهاية من أجل أن يتحرر ويتطور.

وبالعقل يستقيم السلوك الإنساني وبه ينحرف، به يصدق وبه يكذب، ولنا قصة على ذلك بعنوان:

(سرقت الليمونة مع أنّها لازالت في الشجرة)

قرر مجموعة من اللصوص سرقة الليمونة من الشجرة، كلّ وفق الفرصة التي تمكنه من النجاة بها.

فالأوّل قرر السرقة ونفذ قراره. وقبض عليه متلبسا في حالة سرقة وجُرم وفق القانون بالقوّة.

والثاني قرر السرقة ولكنه لم ينفذ قراره، وبالتالي لم يتهم بالسرقة. ولكن بما أنه قرر سرقة الليمونة وهو عاقل، ألا يعد بالنسبة للعقل سارقا؟

مضمون القصة هنا تأثر بالزّمن وحدوث المتغيرات. أنه قرر السرقة والوقت كان منتصف النهار تقريبا، وفي قراره أنه سيسرق الليمونة في الليل، وعندما جاء المساء علم بأن الأوّل قد قبض عليه أثناء قيامه بسرقة الليمونة المستهدفة، وبالتالي الليمونة التي يود سرقتها قد سرقت، ممّا جعله لا ينفذ قراره. إنه في هذه الحالة ووفق المدركات العقلية مثله مثل السارق الذي قبض عليه، مع أنّه لم يتهم بالسرقة لعدم قيامه بها. ولا فرق في هذه الحالة بين السارق الأوّل والثاني، إلا أن الأوّل قد نفذ قراره ولم ينج، والثاني لم تتح له فرصة التنفيذ فنجا من القبض، وقد يعتقد البعض أنه خال من عيوب السرقة. ولكن لو لم ينفذ الأوّل قراره في ذلك اليوم، يجوز أن يكون الثاني هو السارق الذي قبض عليه.

أما الثالث فهو الذي قرر سرقة الليمونة من شجرة الجيران، وفق خطة تتضمن بدائل لتنفيذ عملية السرقة. الخطوة الأوّلي: يقوم بسرقة الليمونة عندما يكون جيرانه خارج المنزل، وهذه تتطلب منه مراقبة الجيران عند خروجهم من المنزل. والبديل الثاني: إذا لم يخرج الجيران جميعهم من المنزل

قرر أن يكوّن علاقة مع الحارس والكلّب الذي قد يعيقه أثناء تنفيذه قرار السرقة. والبديل الثالث: أن يقتل الحارس والكلّب.

كلّ هذه العملية الحسابية عملية عقلية، وغير عفوية، لأنها وفق خطة وإصرار على دخول المخاطرة، وبعقل مدبر. وما التنفيذ إلا خطوة من خطوات الخطة، ولهذا لم تكن المشكّلة في فعل السرقة، بل المشكّلة في العقل الذي قرر السرقة ووضع لها خطة. وعليه ينبغي أن يستهدف الإصلاحُ والعلاجُ العقلَ.

والرابع قرر سرقة الليمونة، ولكنه تراجع نتيجة خوفه من أن يقبض عليه. في هذه الحالة لا يختلف عن سابقيه. إنه سارق ولكن الخوف حال بينه وبين ارتكاب فعل السرقة، والخوف قوّة، لأنه مولود منها أي (أنه مولود العقل القوّة). لم تمنعه الأخلاق، ولا القيم والأعراف، ولا الدين، بل شيء أخر أنتج الخوف. إنه العقل المدبر الذي يقرر، ويخطط، ويغير قراراته وخططه وفق المواقف، والظروف، والمتغيرات.

وبهذا تعد الليمونة في كلّ الحالات مسروقة، وتعتبر سرقت منذ أن اتخذ قرار سرقتها، وما التنفيذ إلا خطوة لاحقّة لذلك. هذه القصة تذكرني بقصة أخرى بعنوان (ذبح الخروف ليلا وأصبح بخير).

ذبح الخروف ليلا وأصبح بخير:

حضر الضيف إلى المدينة، واتصل بصديقه من الفندق، ليبلغه بوصوله، فدعا الصديق المقيم صديقه الزائر إلى وجبة الغذاء ليوم الغد. وقرر ذبح الخروف الذي اشتراه يوم الأمس لهذه الضيافة. وصدر قرار ذبح الخروف ليلا، على أن ينفذ صباحا لتتمكن الزوجة من إعداد وجبة الغذاء في وقتها المناسب. في هذه الحالة يعد الخروف مذبوحا وفقا لقرار ذبحه، سواء

بالنسبة للخروف أو لمالكه، ولكن من الناحية التنفيذية لازال الخروف على قيد الحياة. إن التنفيذ في حقّيقته ما هو إلا تأكيد على اتخاذ القرار.

في الصباح الباكر اتصل الصديق الزائر بصديقه يعتذر له عن عدم حضوره وجبة الغذاء التي اتفقا عليها نتيجة ظروف طارئة اضطرته إلى المغادرة في الحال. إنه متغير تابع أثر على تنفيذ القرار المتخذ بشأن ذبح الخروف. وعليه مع أنّ العقل قد قرر ذبح الخروف، إلا أن الظروف جعلته لا يزال حيا، ولهذا ذبح الخروف ليلا وأصبح بخير.

لم يذبح الخروف بالرغم من قرار ذبحه ذلك بأسباب القوّة المطلقة التي لم تقرر ذبح الخروف في ذلك اليوم، ولهذا لا تقارن القوّة إلا بقوّة تماثلها، والقوي المطلق لا مثيل ولا شبيه له سبحانه جلّ جلاله.

**تطور الفكر بين القوّة والإرادة:**

الفكر المجرد هو نتاج القدرات العقلية من استقراء وتأمل واستنباط، ممّا يجعله غير قابل للمشاهدة، وقابل للملاحظة من خلال عمليات التغيّر الطارئة على الأحوال والظروف. أما الفكر الإنساني فهو نتاج عام يتطور بجهود مشتركة تكون فيها مكانة للقوّة والإرادة. ولهذا أتساءل: هل الوجود بالقوّة أم بالإرادة؟

فلو كان بالإرادة، هل بإرادتنا وجدنا؟ هل بإرادتنا اخترنا لوننا، أو جنسنا (النوع)؟ وهل كان لنا رأي في اختيار لوننا، أو جنسنا حتى ولو لم يؤخذ به؟، ومع أنّنا نعرف بأن أبانا واحد، وأمنا واحدة، إلا أننا نحتاج إلى معرفة لماذا اختلفت ألواننا؟ هل لأن أحد أبوينا أبيض، والآخر أسود، أم أن لونهما واحد، ونحن الذين اختلفنا، ولماذا؟ وبما أن أبانا آدم وأمنا حواء، فلماذا ينادي البعض بالتفرقة بيننا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا؟ أي لماذا وجد الحاكم والمحكوم بين أفراد الأسرة الممتدة من أب واحد وأم واحدة؟،

وهل كانت هناك وصية تحرم بعض الأبناء من حقّ التملك ممّا جعل بين أفراد الأسرة الواحدة غنيا وفقيرا، وقويا وضعيفا، وحاكما ومحكوما؟

إذن لا مكان للإرادة في وجودنا كلّ شيء بالقوّة، ولهذا أتساءل: ما علاقة القوّة بالإرادة؟

لا إرادة إلا بالقوّة، فمن لا قوّة له لا إرادة له، أمام من يمتلك القوّة والإرادة. والقوّة فكرية عقلية ومادية، وقد تتوحدا في الكائن الحي، وقد تنفصلا، ومن يمتلك القوّة والإرادة، قد يشكّلّ خطرا على من لا يمتلكهما، أو يمتلك الإرادة فقط، والعلاقة أيضا بينهما أنهما يتحدان في القدرة، فلا قوّة إلا بقدرة، ولا إرادة إلا بها، ولهذا خلقنا بالقوّة، والقادر هو المستخدم لها والمتحكم فيها. وإذا تساءل أحد على سبيل المثال: هل للمثلث أو للمربّع أو للمستطيل، أو أي شكّلّ إرادة في وجوده؟

فالجواب إن كلّ الأشكّال لم توجد بإرادتها بل وجدت بالقوّة القادرة وبما فيها الإنسان.

ومع أنّ شخصية الإنسان تتكون من الشيء ونقيضه إلا أن للتربّية دور هام في صقلها وتكوينها. فالشخصية الواحدة تنام وتصحو، تغضب وتطربّ، تحب وتكره، تصدق وتكذب، تفشل وتنجح، تضحك وتبكي، ترفض وتقبل، وإلى النهاية تتكون شخصية الإنسان من الشيء ونقيضه، ممّا يجعلها تتغير وتتطور بين الحين والآخر، ولكلّ نقيض أهمية في حياتنا. للفرحة أهمية وللحزن أهمية، والحمد لله الذي جعل بينهما توازنا لتستهدفه المجتمعات في تربّية أجيالها، لأنه إذا تغلّب الشيء على نقيضه انهزمت الشخصية وانهدم البناء الاجتماعي والإنساني. وإلا هل يمكن أن يكون البشري إنسانا إذا لم يغضب (الغضب من العار، ومن أجل الشرف ومن أجل الكرامة)؟ ولهذا فالغضب قوّة موجبة عندما يكون في محله. وهل

يمكن أن يكون البشري إنسانا إذا لم يحب (يحب الأبوين والأخوة والأبناء والزوجة وكلّ حبيب وحبيبة، ويحب الوطن)؟ ومن أجل الحب نغضب ونثور ونحزن ونتألم، وإلا من أجل ماذا يحدث كلّ ذلك عندما يمرض لنا حبيب أو يموت، أو عندما يستعمر الوطن؟، ولهذا يكون للحب معنى وأهمية، ولولا الحب ما حزنا، ولولا الحزن ما أحببنا، ونتيجة ذلك أصبح الحزن واجبا بين المحبين فقط.

ومن أجل الحب يستمر الصراع بين البشر إلى النهاية، نهاية البشر أو نهاية الموضوع المتصارع عليه، ولهذا الحب قوّة تمد الإنسان بالكرامة والشهامة والغيرة على النفس والوطن والدين والعرض، ولكن بما أن البشر يحبون البشر، إذن فلماذا يستمر الصراع بينهم إلى النهاية؟

نعم إنهم يحبون بعضهم البعض، ونعم إنهم يختلفون مع بعضهم البعض. يحبون بعضهم عندما يتوحدون معا في الموضوع الحقّ، ويتصارعون مع بعضهم عندما يختلفون عليه فيميل البعض عن الحقّ، والحب ليس هو عواطف ومشاعر مجردة فقط، بل هو مصير ومستقبل، منه الأمل وإليه الطموح. فلا حب لمن يريد أن يقيد حريتك، ولا حب لمن يريد أن يحتكر سلطتك، ولا حب لمن يحتكر ثروتك ويحرمك من حقّ التملك، ولا حب لمن يمتلك السلاح لِيُخِيفَكَ به ويُحرِمُك من امتلاكه. ولهم الحب جميعا عندما يشاركونك في كلّ أمر يتعلق بك وبهم. ولهم الحب عندما يراعون خصوصيتك التي تميزك عن غيرك، كما هم يتميزون عنك بخصوصياتهم التي تستوجب منك التقدير.

ولأن العقل هو القوّة الكبرى التي يمتلكها الإنسان، إذن توجيه القوّة هو الذي يحدد نوعها وفوائدها ومضارها ولنا في ذلك على سبيل المثال: الحربّ والجهاد أمران مهمان في حياة المستخلفين في الأرض، إذ لا حربّ ولا جهاد إلا في سبيل قضية. وبرغم ذلك، فإن الدين الإسلامي لم تكن

الحربّ وسيلته في الانتشار. أمّا الجهاد وهو بذل الجهد الذهني والعضلي وتحمل المشاق في سبيل قضية فيرتبط بانتشار الرسالة.

والجهاد يشمل الحربّ، والحربّ لا تشمل الجهاد، لأن نزول الوحي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وإيمان بعض العربّ المسلمين به في مكة لم يكن بالقوّة القتالية، يل كان بقوّة الحجة، ولهذا كلّ من آمن به آمن بالقتال دونه. وعليه لو كان إسلام النّاس بالقوّة والإكراه، ما تكونت عندهم الشخصية القتالية دونه، وما استمر التبشير به في المدينة قبل الهجرة من قبل قلة آمنت به عند لقائها بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم وبايعته عند العقبة (البيعة الأوّلى)، وبعثت له فريقا آخر بايعه عند العقبة (البيعة الثانية)104.

لقد خاض المسلمون معارك عدة، منها ما انتصروا فيها ومنها ما انهزموا فيها قتاليا. وبرغم ذلك لم يتوقف الدين الإسلامي عن الانتشار لأن القتال كان من أجل الدفاع عن النفس والأرض والدين، ولم يكن من أجل إكراه النّاس على الدين حيث {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}105.

وإذا نظرنا اليوم إلى خريطة العالم، نلحظ أن الدين الإسلامي منتشر في آسيا، وأفريقيا، وأوروبا، والأمريكتين، وأستراليا، فأي قوّة نشرته إذن؟ هل دخل المسلمون بقوتهم العسكرية الجرارة إلى هذه القارات الخمس؟ لقد انتشر الدين بقوّة العقيدة (قوّة الحجة) عند المبشرين بها وبقوته الفكرية والروحية بالدعوة والتبشير لا بالقوّة العسكرية، فكلّ ما ينتشر بالقوّة العسكرية يزول بزوالها مثله مثل الاستعمار. والجهاد هو نتيجة الإيمان بصدق الرسالة التي توحد العقيدة مع السلوك عندما تتجسد في النفس.

104 سيادة البشر، عقيل حسين عقيل، ص 203.

105 البقرة، 254.

أما الحربّ فهي التي يدخلها المقاتل كرها لأنها تهديد للوجود وتدمير للحقّ ولا مفر من ذلك إلا أن تخاض دفاعا عن النفس البريئة.

الجهاد أمر يخص كلّ من يحرص على معتقده ومصيره ممّا جعل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يستشير المسلمين في أمرهم، وكان يأخذ برأيهم حول كلّ أمر في السلم أو في الحربّ. فعندما سمع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أن كفرة قريش كانوا يستعدون لمحاربّة رسالته والمؤمنين بها قبل غزوة بدر جمع النّاس وأخبرهم بالأمر، فكان من بين المتكلّمين أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب والمقداد بن عمرو الذي قال: اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، ممّا جعل المسلمين يقررون بأجمعهم قتال الأعداء الذين يعدون لهم العدة لمقاتلتهم. وكان عدد المقاتلين الذين خرجوا مع الرّسول في غزوة بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلا، منهم مائتان وسبعة من الأنصار، ومائة وستة من المهاجرين. وفي أثناء الاستعداد للمعركة تقدم المنذر بن الحباب يناقش الرّسول لتغيير المكان الذي يوجد فيه العربّ المسلمون، وعمل القوم برأيه وتم تغيير المكان. بعد انتهاء المعركة اجتمع المجاهدون للتشاور في الأمر المتعلق بالأنفال والأسرى فتباينت الآراء حيث رأى الرّسول وأبو بكر وطائفة من المسلمين أخذ الفداء، بينما رأى آخرون وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رفض الفداء وهكذا تباينت الآراء حتى نزل قول الله تعالى: {فإذا لقيتم الذين كفروا فَضَرَبّ الرقابِ حتى إذا اثخنتُمُوهُم فشدوا الوَثَاقَ فَإما منًّا بعد وإما فداء حتى تَضَعَ الحربّ أوزَارَهَا}106. بعدها كان الرأي بالإجماع بعدم أخذ الفداء.

وفي معركة أخرى حينما علم الرّسول بقدوم كفرة قريش ومن معهم لقتال المسلمين، جمعهم للتشاور في الأمر، فكانت آراء الأغلبية منهم الخروج إليهم لملاقاتهم خارج المدينة، وكان من بينهم حمزة بن عبد المطلب، وسعد

106 محمد، 4.

بن عبادة، والنعمان بن مالك. أمّا الرأي الآخر فكان على رأسه رأي الرّسول الذي أكد على البقاء في المدينة نتيجة حصانتها، ولكن في النهاية اقتنع الجميع بمن فيهم الرّسول بالرأي الأوّل فخرج حوالي 1000 ألف مجاهد لمقاتلة المعتدين107.

لقد كانت الشورى هي القوّة التي ساندت الحقّ في فترة رسول الله وستظل قوّة مهابة ومقدرة من بعده عند المستخلفين في الأرض، ولهذا كان الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أكثر التزاما بها حتى ولو كان القرار المترتب عليها مخالفا لرأيه. ففي غزوة الأحزاب طرح الرّسول على المسلمين الأمر بينهم شورى حتى يقرر كلّ منهم بإرادته الخروج أو عدم الخروج لملاقاة الأعداء. وعندما خرج المجاهدون منهم للجهاد تشاوروا في أفضل الخطط القتالية، ممّا جعل سلمان الفارسي يطرح فكرته الحربيّة التي تعلمها من الفرس وهي حفر خندق كبير شمال المدينة المنورة، وأقرها الجميع ممّا جعل النصر حليفهم108. وعليه فرأي الفرد قوّة ورأي الجميع أكثر قوّة.

إن أمر الحربّ شورى بين من يخصهم الأمر، فلا يجوز فيه الإجبار من أحد ممّا جعل الرّسول لا يتجاوز التحريض على الجهاد بعد أن أُذن له وللمؤمنين بذلك، ومن لا يرغب في ذلك يكون مع الخوالف. ولهذا لم يكن للرسول جيوشا نظامية كما هو حال المجتمعات من بعده، لأن الجيوش عبارة عن موظفين مأجورين من قبل الدولة للدفاع عنها، وعندما تكتب عليهم الحربّ يدخلونها متثاقلين غير راضين وليس لهم حرية التخلف عن تنفيذ الأوامر التي تصدر لهم، وهم لا رأي لهم فيها ممّا يجعل

---

107 فرج محمد ألهوني، النظم الإدارية والمالية في الدولة العربيّة الإسلامية. طرابلس، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الثانية، 1987م، ص 36.

108 يعقوب محمد المليجي، مبدأ الشورى في الإسلام. الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ص 93.

الهزائم العسكرية علامة من علامات الجيوش النظامية. ولهذا لا خير في متباطئ متثاقل مصداقا لقوله تعالى للرسول صلّى الله عليه وسلّم: {فقاتل في سبيل الله لا تكلّف إلا نفسك وحرض المؤمنين}109. إن المسلمين لم يخوضوا المعارك إلا في حالة إكراههم على ذل أو باطل، ولهذا حاربّوا الفرس لأن كسرى أرسل إلى عامله في اليمن يأمره بتأديب الرّسول أو ضربّ عنقه وإرسال رأسه إليه، وحاربّوا الروم لأنهم أرسلوا طلائعهم إلى تبوك110.

برغم الخسارة الحربّية للمسلمين في بعض المعارك التي خاضوها ضد زبانية العصر الجاهلي (الكفار) إلا أنّ الانتصارات كانت هي الحليف الأكثر تكرارا لهم وذلك نتيجة الإيمان بالقضية التي جاهدوا في سبيلها بالقوّة، قوّة العقيدة وقوّة التوحيد وقوّة الحجة وقوّة النفس وقوّة الإرادة. والفرق كبير بين من يقاتل من أجل قضية ومن يقاتل من أجل حكومة. فالذي يقاتل من أجل قضية دينية أو وطنية فهو يقاتل في حقّيقة الأمر من أجل كرامة شخصية يكون لها اعتبار بين النّاس ويكون لها اعتبار في المستقبل الخالد ممّا يحقّق للمقاتل النصر أو الاستشهاد، أما الذي يقاتل بغير قضية فلا يكون له اعتبار لا في الحاضر ولا في المستقبل، ممّا يجعله في حالة استسلام وهزيمة ويكون الندم له رفيقا.

من خلال العرض السابق تتضح أسباب إعلان الحربّ بالقوّة في الآتي:

109 النساء، 83.

110 عباس محمود العقاد، بحوث إسلامية. بيروت، المجلد الخامس، دار الكتاب العربّي، 228.

1- أي اعتداء من العدو على الأمة أو الوطن يستوجب الدفاع على كلّ مواطن ومواطنة، مصداقا لقوله تعالى: {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم}111.

2- الدفاع عن الدين واجب لا خيار عنه والقتال من أجله جهاد والموت في سبيله استشهاد، {فليُقاتِل في سبيل الله الذين يَشرُونَ الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغلِب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربّنا أخرِجنا من هذه القرية الظالم أهلها}112.

3- نقض العهد: في حالة توقيع اتفاق صلح أو عهد أمان بين الأمة وغيرها من الأمم الأخرى، ثم تنقض الأمم الأخرى عهدها مع الأمة بالخداع أو النفاق، يحقّ عليهم القول وهو إعلان الحربّ قال تعالى: {وإن نكثوا أيمانكم من بعد وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون}113.

4- إذا حاول الأعداء إشعال نار الفتنة بين أبناء الأمة، كما هو حال اليهود عندما حاولوا الفتنة بين الأوس والخزرج (بين المهاجرين والأنصار) حيث وجب قتالهم مصداقا لقول الله تعالى: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين}114.

5- في حالة الردة: إذا ارتدت أي أمة من الأمم الإسلامية أو أي طائفة من الطوائف أو الجماعات عن الدين وجب قتالها، مصداقا لقوله تعالى: {يأيها الذين أمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يُحِبُهم

111 البقرة، 193.

112 النساء، 73، 74.

113 التوبة، 12.

114 البقرة، 192.

ويُحِبُونه أذِلةٍ على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم}115.

وقد سبق وأن ارتدت عن الدين الإسلامي منذ بداية ظهوره ثلاث فرق من العربّ وهم بنو مُدلج وكان رئيسهم ذو الحمار الأسود العنسيّ الذي تنبأ في اليمن، وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب تنبأ وحاربّه أبوبكر رضي الله عنه بجند المسلمين وهلك، وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد، تنبأ فبعث له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خالد بن الوليد إلى أن أسلم بعد هروبه إلى الشام وحسن إسلامه116.

وعليه فالقوي هو الذي تستمد القوّة منه، والقوي هو الذي لا يقارن وذلك لانعدام الشبيه والمثيل،

والأحاسيس قوّة إيقاظ المشاعر بما يدور في المحيط النفسي والمحيط الاجتماعي والمحيط البيئي، من خلال كلّ ما يُلحظ أو يُشاهد أو يُسمع أو يُلمس أو يُشم أو يُذاق. إنها القوّة المعرفية التي تمد الإنسان بالطاقة التي تجعله في حالة استيعاب أو في حالة إقصاء وتحديد مواقف قد تُتخذ في محلها وقد لا تتخذ في محلها، ولتوضيح ذلك أقول:

. الإحساس قوّة، تحقّق الفطنة وترتبط بالمدركات الواعية التي تجعل الأفراد والجماعات يميّزون ويتمكنون من الاختيار الحر.

. التمييز الحسي قوّة، تكمن في درجة التبيّن، التي تُمكّن من اكتشاف نقاط التداخل والخصوصية والاستقلالية بين المتغيرات الدخيلة والمتداخلة.

---

115 المائدة، 56.

116 محمد أحمد كنعان، مواهب الجليل من تفسير البيضاوي. بيروت، دار العلم للملايين، 1984م، ص 148.

التمييز الحسي قوّة مقارنة بها تُصنَّف المعلومات وفقا للدرجة والنوع والجنس، وبما يميز كلّ خصوصية عن غيرها، وبما يؤدّي إلى كشف نقاط التمركز المشتركة مع بعض الخصوصيات الأخرى وكذلك نقاط التشتت عنها.

. التمييز الحسي قوّة استيضاح للكلّمة التي تحمل دلالة ومعنى ومدى علاقتها بالموضوع حتى يتم فرز المتشابهات عن غيرها من المخالفات.

. بقوّة الحس يتم التعرف على ما هو سلبي والعمل على تفاديه، وما هو إيجابي والعمل عليه أو العمل به.

. الحس قوّة استدلالية تربّط المشاهد المحسوس بالملاحظ المجرد الذي يُمكن من ربّط علاقات بين الأشياء كما يُمكِّن من فصلها بمستدلات إثباتيه.

. الحس قوّة برهنة، يستند على معطيات ويصل إلى نتائج تُدرك بقوّة المنطق والحُجّة.

. الحس قوّة لغة وتفاهم بها تُكتب الكلّمات بالملامسة، وبها تُقرأ حتى من قبل فاقدي البصر.

. ترتبط الأحاسيس بالوجدان الكامن الذي يتألم بما يترك أثرا سالبا على النفس، وبما يترك أثرا موجبا عليها، ولكلّ منهما استجابة تختلف باختلاف الأثر ونوعه ودرجة حدته أو درجة مرونته.

. الأحاسيس قوّة تأهب تستقبل المعلومة وتقدمها للترجمة الفورية التي تمكنها من التمييز لتستجيب سلبيا أو تستجيب إيجابيا، وفي كلّا الحالتين فالعقل هو الذي يتخذ القرار المناسب لكلّ فعل وفقا لقاعدة (لكلّ فعل رد فعل).

. قوّة الأحاسيس قوّة دافعة لتكوين علاقات مع الآخرين، ولذا كلّما سلمت الحواس التي بها يتم الإدراك تكوّنت علاقات موجبة بين الأنا والآخر، فالحب المتبادل بين الأطراف قوّة ترابطية تجعل لغة مشتركة ومنطق مشترك بين المثنى والجمع وكأنهما طرفا واحدا ما يجعل لغة (النحن هي اللغة السائدة بينهما) وجعل كلّ منهما يحس بالآخر وكأنه في وسط صدره. ويجعلهما على حالة من التأهب لاستقبال بعضهما في المكان والزمان المناسبين للمقام الذي جعلهما في حالة وحدة مرضاة لله تعالى، وجعل الشوق بينهما شعورا ظاهرا. ولهذا عندما تُحب أحدا تجد مكانه في القلب، وعندما تكرهه أيضا ستجده مكروها في القلب. ولذا فإن القلب في مثل هذه الحالات لا يعد مجرد مضخة للدم، بل أنه المركز الذي فيه يعيش الود بين المحبين وهو الذي فيه يحدث الفراق، لتبقى فيه الأحزان من بعده كامنة. ولذلك في القلب المكامن التي تُستثار بما يُفرح وتُستثار بما يُحزن، ولهذا فلكلّ منهما أثره السالب وأثره الموجب على الفعل والسلوك. ولكي تتأكد ضع يديك أو إحداهما على منتصف صدرك ستجد من تُحب بقوّة الإحساس إنه متمركز هناك، وإذا ما حدث لحبيب مكروه لا قدر الله فلا تحس به إلا حيث وضعت يديك على صدرك. وإلا هل هناك من يحس بحبيبه في رأسه؟

ولذا فإنّ القاعدة هي:

1 . اتزان الأحاسيس.

2 . قوّة الأحاسيس.

والاستثناء هو:

1 . عدم اتزان الأحاسيس.

2 . ضعف الأحاسيس.

القوي هو المقوي لكلّ قوّة وهو المضعف لها، وهو المتوازن على ملكه والمسيطر عليه دون مخافة، وهو الحقّ الدامغ للباطل والزاهق له، إنه خالق القوّة بقوته، وهو الذي تستمد منه كلّ قوّة. ولأنه لا قوي إلا بقوّة منه، فالقوّة ذوق رفيع من يستمده يزداد رفعة ويزداد ثقة بنفسه وعلى هذا الأمر كان الخليفة صاحب الذوق الرفيع بقوته العقلية التي منحه الله إياها فالذوق ملكة عقلية وقوّة يتمكن من خلالها المتذوق من المعرفة الوافية، التي تُمكنه من كشف العلاقات التي تتجسد في المذاق، وكشف العلائق التي تربّطه بالمجرد، فهي لا تقتصر عند حد المشاهدة، بل تمتد لتشمل ما هو ملاحظ، ولذا ترتبط هذه الملكة الذوقية بقوّة الإحساس مع ملكتي التفكر والتذكر.

في الملكة الذوقية تنعدم الغفلة وتسود الفطنة، حتى تتمكن كلّ خلية من التناغم مع جميع الخلايا المتماثلة معها في المكون البشري، ممّا يجعل الذوق محقّق الرفعة بين الأنا والآخر بالتماثل.

ولهذا تتوحد الأحاسيس والمشاعر مع الخيال الذي يسعى إلى طي الهوة مع الأمل حتى تتم ملامسة القيم التي تُعزز الإرادة، وتحقّق التفاعل الوجداني، بين الرغبات والطموحات التي تُمكن الفرد من اكتشاف الحُسن الممتد في المسافة بين المشاهد والمجرد.

والذوق مكوّن قيمي، له من المعايير والمقاييس ما يمد الإنسان بوضوح الرؤية ونضج القرار المترتب على ذلك، ولهذا الجمال قيمة ذوقية لا يكمن في ذاته، بل يكمن في الجميل مشاهدا أو مُجردا، حركة أو سكونا، إظهارا أو إدغاما، تجويدا أو لحنًا، لونا أو نغمة، وعليه لا يمكن أن يوصف الجمال بذاته، بل يوصف بالجميل الذي توحّد أو اشتمل فيه.

وعليه:

. تذوق وفطِّن الآخرين إلى ذلك، فالذوق حاسة عقلية وملكة تنمو كلّما تُنشَّط وتُستثار، وتضعف وتنتهي كلّما تُهمل.

. لا تستغربّ فالذوق قوّة ذهنية تستفز كلّ من يفكر ذوقيا حتى تجعله متوجا على قمم التأمل وتُمكنه من التقييم الموضوعي بعد تعمق وانتباه عميقين.

. ميّز بذوقٍ رفيع فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يميز بين ما فيه رفعة وبين ما لا رفعة فيه.

. عليك بمراعاة الذوق العام واحترامه إذا أردت أن تنال الاحترام والتقدير من الآخرين.

. اعتبر الخصوصيات الاجتماعية التي يرتسم الجمال فيها كما هو يرتسم بها، ولا تغفل عمّا يُدخل البهجة والفرحة في النفوس، ولا تُعمم معاييرك الخاصة ومقاييسك الفنية وتفرضها على معايير ومقاييس الآخرين.

. اعتمد الذوق قيمة لتبعث في نفوس العباد القوّة التي تمدهم بالرفعة ولا تنظر للناس بنظرة دونية خالية من كلّ ذوق، فاحترم النّاس تنال الاحترام منهم.

. ابدأ مع النّاس من حيث هم بلطف ولباقة ذوقية إذا أردت أن تغير أحوالهم أو حالاتهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه.

. كُن فطنا فالذوق قوّة قيمية يتمركز على كلّ الأشياء الجميلة التي نتفاعل معها.

. اعرف جيدا أن الإحساس بأثر القيم التي تُشكّلها ملكة الذوق، تختلف من شخص لآخر ممّا يترتَّب عليه تفاوت في درجات التذوق لها، فالشخصية الواقعية مثلا: هي التي تعتمد على العقل في تقدير وتقييم

الأشياء فتقْدِم على أداء الأفعال بعد أن تتبيّن وتعرف ما يجب وما لا يجب، فتكون العلاقة بينها وبين الآخرين علاقة أخذ وعطاء. أما الشخصية الأنانية، هي التي تعتمد على المصلحة الخاصة، تقيّم الأمور برؤاها دون مراعاة للمحيطين بها، ممّا يجعل علاقتها معهم علاقة مصلحة.

ولهذا فالقاعدة هي:

قوّة الذوق.

والاستثناء هو:

ضعف الذوق.

وعلى الخليفة ألا يغفل عن الحاسة التامة التي تتداخل فيها جميع الحواس، البصر والبصيرة والاستماع والإنصات والذوق والتذوق والحس والإحساس والشم واللمس.

ولذا فهي العملية التفاعلية للحواس، حول ما يُشاهد أو يُلحظ أو يُدرَك أو يُستمَع له أو يُذاق أو يُشم أو يتم التفكير فيه. إنها الحاسة (القمَّة) التي فيها تعمل جميع الحواس في وقت واحد وبكلّ قوّة، حتى تتجسد الحركة في الفعل والسلوك الذي يجعل المتحركين في حالة نشوة، ويقوي الإدراك، وتقوى البصيرة، ويتحقّق التفاعل، ويتحقّق الرقي الذوقي الذي يجعل الإنسان قمة.

وعندما يتم التداخل بين الحواس، يكون الشيء الذي نفكر فيه ذو قيمة. ولهذا لا تحدث النقلة بحاسة واحدة، بل تحدث بسلامة الحواس واكتمالها في وحدة واحدة تامة.

وعليه، فالمس مع عقلٍ، واسمع مع بصرٍ، وشُم مع ذوقٍ، وتذكّر مع تفكرٍ، وشاهد مع ملاحظة حتى تكون في نُزهة ورفعة عالية وتنال الاعتراف والتقدير من الآخرين وأنت قوّة في مرضاة الله تعالى.

ولذا فإن القاعدة هي:

الحاسة التامة.

والاستثناء هو:

الحاسة القاصرة.

ومع أنّ القاعدة هي: الحاسة التامة، والاستثناء هو: الحاسة القاصرة. إلا أنّ بعض الحالات قد أظهرت نجاحات هائلة باستخدامها الحاسة الرئيسة فقط. وهذه تذكرنا بالشاب الألماني الذي أصيب في حادث بشلل ربّاعي تعطّلت عنده معظم حواسه، وبإصراره تمكّن من أن يكون من أكبر مستحدثي برامج الكمبيوتر، فهو يعقد الصفقات مع الشركات والمؤسسات، وهو ملقى فوق سريره لا يستطيع التحرك ولا يستطيع التحدث، فقط يبرمج جهاز الحاسوب بعقله، ووفقا لمتطلبات عملائه، ولهذا الإنسان قوّة بعقله وبقدرته على توجيه الملكة العقلية تجاه عمليتي التفكر والتذكر مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}117.

والقوي المطلق هو الذي جعل بقوته النفس بين قوّة وضعف، فهي تقوى حتى تبلغ الطمأنينة كما هو حال نفس الخليفة، وتضعف حتى تبلغ الضلال كما هو حال المفسدين في الأرض، النفس قوّة باطمئنانها، وبتأديتها للعمل الصالح، وإقدامها على قول الحقّ وسلوكها لأفعال الخير، وكذلك عندما تَحسُن التصرف والمعاملة وتهتدي إلى الطريق المستقيم. قال

117 السجدة 27.

تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى ربّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}118 وفي مقابل ذلك تأتي النفس الضعيفة الأمارة بالسوء وإلحاق الضرر بالآخرين، وعندما تُظهر مالا تخفي، وعندما تَشُح في وقت ينبغي أن يكون فيه العطاء، وكذلك عندما تركُن إلى إصدار الأحكام الظنية بغير حقّ. قال تعالى: {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ ربّي إِنَّ ربّي غَفُورٌ رَحِيمٌ}119، وقال تعالى: {وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ}120، وقوله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شكّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ}121.

تكمن قوّة الأنفس في قدرات قابلة للنمو، واستعدادات مهيأة للعمل الفعّال، ومشاعرٍ يخشاها الخوف.

ولذا فالقاعدة هي:

1 . قوّة النفس.

2 . قدرات قابلة للنمو.

3 . استعدادات مهيأة للعمل الفعّال.

4 . مشاعر يخشاها الخوف.

والاستثناء هو:

1 . ضعف النفس.

118 الفجر 27 . 30.

119 يوسف 53.

120 النساء 128.

121 النساء 157.

2 . قدرات غير قابلة للنمو.

3 . استعدادات غير مهيأة للعمل الفعّال.

4 . مشاعر يُداهمها الخوف.

ولهذا يجد الخليفة أمامه قوّة إذا أراد أن يعمل من أجل الخير والإصلاح في الأرض إما موجبة يستفيد من طاقاتها وإمكاناتها، فيسخرها في خلق النُقلة للأفضل. وإما قوّة سالبة، يعمل على تصحيح معلوماتها الخاطئة بمعلومات صائبة، وكذلك يعمل على تعديل سلوكها وتقويمه إلى ما يجب. ومع ذلك قد لا يُوفق ما لم يعرف مصادر القوّة عند العباد الذين يستهدفهم بالإصلاح والهداية للحقّ.

وعليه تستمد النفس قوتها من قوّة العقل وقوّة الحواس وسلامتها؛ فالأفراد والجماعات الذين يُفكرون بوعي سليم يستطيعون تحديد أهدافا واضحة ويرسمون خططهم بموضوعية ويحشدون الإمكانات المتاحة ويسعون إلى البحث عن المزيد المفيد.

ولذا فالإرادة قوّة من يمتلكها يمتلك زمام أمره. فهي النشاط الواعي الذي يَقدم عليه الإنسان الحر عن وعي وإدراك سابقين لأجل بلوغ غايات بعزيمة وإصرار وبدون تردد، ولذلك فاتخاذ القرار عن وعي وتنفيذه بكلّ وعي وتحمّل ما يترتب عليه من أعباء يدل على ممّارسة الفعل الإرادي بين الأفراد والجماعات والمجتمعات البشرية، ومع ذلك لا إرادة إلا بقدرة، وقرار، وتنفيذ، ومسؤولية، وتهيؤ نفسي.

ولهذا قوّة الإرادة will هي التي تُمكِّن الإنسان من ممّارسة الحرية.

وعليه فالقاعدة هي:

1 . قوّة الإرادة.

2 . اتخاذ القرار.

3 . تنفيذ القرار.

4 . حمْل المسؤولية.

5 . تنمية القدرة.

6 . التهيؤ النفسي.

والاستثناء هو:

1 . ضعف الإرادة.

2 . عدم اتخاذ القرار.

3 . عدم تنفيذ القرار.

4 . التخلي عن حمْل المسؤولية.

5 . عدم تنمية القدرة.

6 . عدم التهيؤ النفسي.

وعليه أقول: قوّة الإرادة تقوّي المناعة:

وبما أن قوّة الإرادة تقوّي المناعة.

إذن القاعدة هي:

1 . قوّة الإرادة.

2 . قوّة المناعة.

والاستثناء هو:

1 . ضعف الإرادة.

2 . ضعف المناعة.

ووفقا لقاعدة المتوقّع خذ بالقاعدة.

ووفقا لقاعدة غير المتوقّع لا تهمل الاستثناء.

ولهذا كلّما قويت إرادة العملاء قويت مناعتهم.

فالمناعة immunity سياج دفاعي يُحصِّن الأفراد والجماعات والمجتمعات من الانهيار، والاستسلام لِما لا يجب. ولهذا على الخليفة أن يستثمر قوّة الإرادة من أجل تقوية بناء شخصية أبناء المجتمع الإسلامي على مبادئ وقيم تجعلهم على حالات من الاعتبار والرقي في المهارة والمسلك، حتى لا يكونوا على حالة انسحاب وضعف ووهن وركون إلى كلّ سالب. وفي هذا الأمر تكمن قوّة القرار في اتخاذه بمسؤولية، وفي درجة الوعي والإلمام به وبالمعطيات التي تستوجب إقراره. ولذلك كلّ قرار يُتخذ سيظل نوايا وتصميمات مجردة إلى أن يتم الإقدام على تنفيذه، حينا يصبح القرار نافذا وذلك بتماثل العزيمة والإصرار مع الإرادة الفاعلة.

ولهذا فالقاعدة هي:

1 . قوّة القرار.

2 . الإلمام بالمعطيات.

3 . التنفيذ الإرادي.

والاستثناء هو:

1 . ضعف القرار.

2 ـ عدم الإلمام بالمعطيات.

3 ـ التنفيذ غير الإرادي.

وعليه: لا تحدث الأشياء إلا بقرار. ولا تنجز المهام والأعمال إلا به.

ولهذا القرار في دائرة الممكن المتوقّع هو الوعي بما يجب.

والقرار في دائرة الممكن غير المتوقّع هو عدم الوعي بما يجب، ممّا يجعل البعض من بني آدم يقدمون على أداء ما لا يجب، وهذه معيبة لا تنال رضا الله ولا تقدير المستخلفين فيها بالحقّ الذي به يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويصلحون ولا يفسدون ولا يسفكون الدماء فيها بغير حقّ. ولذا لو لم يكن القرار سابقا على وجود الأشياء والمخلوقات ما كانت، ولهذا كان الوجود بقرار، والعدم بقرار. وإصدار الأمر بقرار والنهي بقرار.

وبما أنّ كلّ شيء بقرار.

إذن لا شيء بدونه.

وبما أنّنا نعرف أنّ كلّ شيء يقع في دائرة الممكن. إذن لا داعي للاستغراب.

وعليه: (كلّ شيء بقرار)، يساوي (كلّ شيء ممكن).

ولهذا لا ممكن إلا بقرار.

ولا قرار إلا بممكن.

وبما أنه لا مستحيل في دائرة الممكن. إذن علينا بقبول تحدى الصّعاب دون خوف ودون تراجع.

ولذا فإن القاعدة هي:

1 . اتخاذ القرار.

2 . تحدي الصّعاب.

والاستثناء هو:

1 . عدم اتخاذ القرار.

2 . عدم تحدي الصّعاب.

ومن لا يتحدى الصّعاب لا يُمكن أن يكون له مستقبل رفيع. وكذلك في عصر العولمة من لا يسرع إلى تحدي الصّعاب لن يجد له مكانا ليضع قدميه عليه، أمام الحركة السريعة للمتنافسين. ممّا يجعل البعض على الرصيف جالسين في دائرة المستقبل.

ولهذا كلّما كان القرار الإرادي قويا وكان تنفيذه قويا، تجاوز أصحابه العقبات التي تحول دون إحداث النُقلة.

ولكي نتمكن من اتخاذ القرار عن وعي علينا بمعرفة العلاقة التي تربّط قوّة القرار بقوّة اتخاذه.

ولذا فإن قوّة القرار تكمن في الآتي:

. ما يحقّقه ويترتب على إنجازه.

. قوّة الالتزام بتنفيذه.

. استيعابه كلّ من يتعلق الأمر بهم أفرادا أو جماعات أو مجتمعات.

. استيعابه للمتغيرات ذات العلاقة بالموضوع.

. تجاوز محقّقاته لِما كان متوقعا.

. إحداثه للمفاجأة الموجبة التي تُحدث استغرابا لكلّ من لا يتوقع.

أمّا قوّة اتخاذ القرار فتكمن في:

. قوّة القرار ذاته.

. قوّة المعايير والقواعد والأسس والمبادئ.

. قوّة التنفيذ.

. قوّة الهدف.

. قوّة الخطة.

. قوّة إعداد البرامج.

. وضوحه والمستهدف من ورائه.

. الإصرار على تجاوز السلبيات.

. الاقتناع وعدم التردد بمبررات اتخاذه.

. بما يتركه من أثر موجب.

بناء على ما تقدم فإنّ اتخاذ القرار قوّة تُمكِّن المستخلفين في الأرض من إحداث النقلة، وبما أنّ اتخاذ القرار قوّة تُمكِّن الخليفة من إحداث النقلة.

ولأجل ذلك ينبغي أن تُحدد الأهداف بكلّ وضوح، وأن تُرسم السياسات المنفذة لذلك، وأن تُحشد الإمكانات الهائلة وتستثمر على أفضل السبل، وأن يكون التطلُّع إلى المستقبل أمل متطور جنبا إلى جنب مع تطوّر الحاجات، حتى يتحقّق الإشباع المرضي مع توفر الاختيارات لكلّ رغبة وفقا للقيم والفضائل الاجتماعية والإنسانية.

ولذا فإنّ قوّة القرار في وضوحه ووضوح المستهدف منه، وبما أنّ قوّة القرار في وضوحه ووضوح المستهدف منه.

إذن ضعف القرار في غموضه والتباس المستهدف منه.

وتأسيسا على ذلك تكون القاعدة هي:

1 . وضوح القرار.

2 . وضوح الأهداف.

والاستثناء هو:

1 . غموض القرار.

2 . غموض الأهداف.

ولهذا فإن الإصلاح الذي يستهدفه الخليفة في الأرض هو إحداث النقلة، ولهذا فالمجتمع الذي يجتاز الصّعاب يزداد قوّة، وبما أن المجتمع الذي يجتاز الصّعاب يزداد قوّة.

إذن المجتمع الذي لم يتمكن من اجتياز الصّعاب يزداد ضعفا.

وعليه:

. اقبل بتحدي الصّعاب فأنت قوّة.

. لا تخاف فالضعف لا يستطيع الصمود.

. نمي قدراتك.

. اغتنم الفرصة فهي قد لا تتكرر.

. اعمل على النجاح فهو أيسر من الفشل.

. بادر وتقدم بعد كلّ نهاية، لتستأنف مرحلة أخرى وأنت تعيش النقلة إلى الأفضل والأجود والأحسن والأنفع والأكثر فائدة.

اللهم يا القوي أنت القوي وحدك ولا قوي غيرك فأنت القادر على كلّ شيء ولا شيء خارج عن نطاق قدرتك فلا متصرف في الكون إلا أنت اللهم أجعلنا أقوياء بقوتك ولا تجعلنا مستضعفين في الأرض ولا ضعفاء يوم اللقاء.

**إنعام الله على قوم هود:**

مع ما وصلوا إليه من حضارة وعمران وتقدم مادي بما أعطاهم الله من بسطة في العقول والأجسام؛ فإنّه تعالى أفاض عليهم الخيرات، وفتح لهم أبواب النعم، من وفرة المياه إلى خصوبة الأرض والبركة في الزرع وفي الحيوان وتكاثر الذرية، وبهذه النعم العظيمة ذكرهم هود عليه السلام فقال لهم: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}122.

وبين لهم أنّهم إن أطاعوه وأخلصوا عبادتهم لله تعالى واستغفروه زادهم قوّة وثراء، ونعمة ورخاء. قال لهم: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}123.

**تكذيب هود:**

إنّ عادا قوم هود صلّى الله عليه وسلّم قد غرتهم قوتهم، وبطروا نعمتهم، فرانت على قلوبهم الغفلة، واستحكم فيهم الطغيان، فعميت أبصارهم عن رؤية الآيات، وصمت آذانهم عن سماع دعوة نبيهم ووعيها، فلم يتعظوا بما كانوا يوعظون، بل استكبروا واستهزؤوا وجاهروا بالعصيان وكذبوا هودا

122 - الشعراء 131- 134.

123 - هود 52.

صلّى الله عليه وسلّم، ولم يخافوا نقمة الله ممّا كانوا به سادرين فقالوا لهود صلّى الله عليه وسلّم: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}124.

فقد بلغت جرأتهم على الله تعالى مبلغا شنيعا ما سبقهم به من أحد حين قالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة أوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قوّة وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}125.

وكان عذرهم في عدم استجابتهم للحقّ أقبح من ذنبهم؛ إذ تذرعوا باقتفاء آثار السالفين الضالين من آبائهم، وعدم التخلي عن سبيلهم الذي اختطوه، ودينهم الذي ارتضوه ولو كان ضلالا وشركا: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}126.

واتهموا هودا صلّى الله عليه وسلّم بالجنون كما هو دأب المكذبين مع أنّبيائهم، والمفسدين مع مصلحيهم، بأن يرموهم بكلّ نقيصة وباطل لصرف النّاس عن الحقّ.

ثمّ زعمت عاد أن جنونا أصاب هودا صلّى الله عليه وسلّم بسبب العزوف عن عبادة أصنامهم: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ

124 - الشعراء 136- 138.

125 - فصلت 15، 16.

126 - الأعراف 70.

إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ} 127.

فما كان عاقبة تكذيبهم إلا العذاب المهلك، حيث نجا الله هودا والذين آمنوا معه واستأصل بقية عاد، قال تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ} 128.

**مصير عاد:**

لقد كانت نهاية عاد قوم هود نهاية الذين كفروا من قوم نوح ولكن بوسيلة اعتادوا أن تزف لهم الفرح والبشرى، وهو السحاب الذي يحمل المطر، ولكن في هذه المرة جمع الله لهم في هذا السحاب الذي تحمله الريح الانتقام والعذاب، فبينا هم ينتظرون الغيث، ربّما بعد طول انقطاع وشدة ترقب، فما كادوا يفرحون بسحائبه وبوادره وبداياته حتى كان مطر عذاب وليس غيث رحمة، قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كلّ شَيْءٍ بِأَمْرِ ربِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} 129.

وبالسحاب الذي ينتظرون والماء الذي يرجون انتهت حضارتهم وذهب عمرانهم، وما أغنت عنهم قوتهم من عذاب الله شيئا، وحقّت عليهم لعنة الله في الدنيا وفي الآخرة حيث قال تعالى: {وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ} 130.

---

127 - هود 53- 55.

128 - الأعراف 72.

129 - الأحقّاف 24، 25.

130 - هود 60.

**العبادة والحضارة:**

حضارة الإنسان على الأرض التي تحمل معنى الإنسانية، يجب ألا تخلو من معنى الاستخلاف الذي أراد الله تعالى أن يجعل هذا الإنسان خلفية في الأرض من أجل إعمارها وإصلاحها وعدم الإفساد فيها، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}131.

ذلك أنّ الحضارة الحقّة هي التي تقوم على الخلافة التي أرادها الله تعالى لعباده، وطالما أنّ الخليفة عبد من عباد الله، فقد وجبت عليه العبادة حتى يستطيع أن يكون خليفة، ذلك أنّ العبادة هي عقيدة متكاملة للدين والدنيا، وإعمار الدنيا من خلال العبادة هو إعمار للآخرة بما يحمل إعمار الدنيا من خير ينشر فضائله على النّاس.

إنّ أوّل حضارة بناها الإنسان كما أخبرنا القرآن الكريم هي حضارة عاد قوم هو صلّى الله عليه وسلّم، فهي حضارة أسست للحضارات الإنسانية ليس من جانب الحدث التاريخي فحسب، وإنّما أرفع حضارة بمعناها العمراني لا بمعنى الاستخلاف والإنصاف، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ ربّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}132.

إنّ مجتمع عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، بنى حضارة عظيمة من حيث البناء والعمران، وقد أتاهم الله تعالى من الغنى والثراء والشدة ما جعلهم مجتمعا حضاريا.

---

131 - البقرة.30

132 - الفجر 6- 8.

وأيّ مجتمع يكون فيه العامل الاجتماعي هو الأساس المكون للعامل الحضاري من طريقة التنظيم الاجتماعي التي تختلف من مجتمع لآخر ومن بيئة لأخرى، يؤثر في ذلك المحيط الخارجي بحيث تكون هناك دوائر متعددة للحضارات، فلا توجد دائرة واحدة تستوعب شخصية الإنسان في كلّيتها، ولكن هناك دوائر متعددة تستوعب الشخصيات الإنسانية. بمعنى أن المواهب التي تتمتع بها الإنسانية لا يمكن أن تجتمع في إنسان، وإنما هي في الإنسان نفسه كنوع، ولذلك يكون انبثاق المكونات الحضارية من إنسان المجتمع المتعدد المواهب الذي يكوّن الحضارة من مفردات كثيرة منها:

. الفكر والثقافة.

. العلوم والفنون.

. الشعر والموسيقى.

. الآداب.

. النحت.

. العمران والبناء.

. الإدارة والتنظيم.

. النتاج الحضاري.

فالفكر والثقافة ينبثق عنهما كلّ المعطيات التي تؤدّي إلى النتاج الحضاري الذي يسعى إليه الإنسان.

وعلى ما تقدم فالإنسان يجد نفسه عضوا متداخلا في عدّة دوائر غير متداخلة، بمعنى أنّه يمكن أن يكون الإنسان نحاتا وإداريا، وشاعرا وبناءً،

فهذا الذي يجعله متداخلا في دوائر مستقلة غير متداخلة، لذلك يشعر بولاءات مختلفة مع بقاء الدائرة على ما هي عليه من الاستقلال.

ومن خلال الولاء للموهبة أو الفن أو المهنة للإنسان في داخل المجتمع، تتعدّد الولاءات لديه، أو أنّها تكون منفصلة عن بعضها البعض، فيكون ولاؤه الاجتماعي منفصلا عن ولائه العقدي كما هو حال قوم هود.

إذ أنّ هذا الانفصال لديهم أدى إلى زيادة الوعي بالذات المادّية التي أغفلت الجانب الرّوحي الذي تمثله العقيدة بما تحمل من فضائل تحكم القيم التي يقوم عليها الجانب الحضاري، ذلك أن الفضائل العقدية تمثل سلطة واحدة تهيمن على الشخصية بضابط الأخلاق، وعلى هذا لا تكون دعوة هود صلّى الله عليه وسلّم لهم: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ}133، هي دعوة إلى العبادة المحضة، بمعنى التوحيد والصلاة فقط، وإنما العبادة في أوجهها المتعددة بما تحمل من الخير للذات وللآخرين، بحيث تضمن حقّ الذات وتمنع ظلم الآخر، وما لم يأخذ الإنسان بجميع الأسباب التي توصله إلى العبادة التي يريدها الله تعالى فهو بعيد عنها وإن صلّى وصام.

إنّ العبادة التي دعا إليه هود صلّى الله عليه وسلّم قومه إليها، وكذلك جميع الأنبياء الذين دعوا أقوامهم، يترتب عليها أعمال كثيرة من أجل الوصول إلى عبادة الله تعالى، أو أن يقبل الله تعالى هذا الإنسان أن يكون له عبدا.

فمن أجل أن يكون الإنسان عبدا لله تعالى، وجب عليه أن يأخذ بمستلزمات العبادة التي تمثل الفضائل الحضارية التي تحكم القيم الحضارية منها:

. الأمر بالمعروف.

---

133 - هود 50.

ـ النهي عن المنكر.

ـ الإحسان للآخرين.

ـ عدم الاستكبار.

ـ العدل وعدم الظلم.

ـ إحقّاق الحقّ.

ـ عدم سفك الدماء بغير حقّها.

فالحقّ والعدل والمعروف والإحسان وما إلى ذلك من فضائل أتت بها العقيدة، من الله تعالى الذي خلق هذا الإنسان ويعلم ما يصلحه، هذه الفضائل هي الضوابط الأخلاقية التي تحكم القيم الحضارية، من أجل إنشاء حضارة إنسانية، وإذا ما تخلى المجتمع عن هذه الفضائل أو رفضها كما رفضها قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ هذه الحضارة ستكون وبالا على أهلها كما كانت حضارة عاد التي لم يخلق مثلها في البلاد.

ولذا؛ فإنّ عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم عندما رفضوا الجانب الرّوحي الذي تحمله العقيدة التي تمثل الفضائل، هيمن عليهم الجانب المادّي وطغى على شخصية الكيان الاجتماعي فقالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة}134.

الأمر الذي ترك حيزا كبيرا من الحرية المنفلتة من الطبيعي أن يتجاوزوا بها على حرية الآخرين بما امتلكوا من القوّة والسلطان، ممّا جعل حضارتهم حضارة دنيئة، وليست متدنية.

---

134 - فصلت 15.

فالإنسان الذي يريد أن يصل إلى الحضارة الإنسانية، يكون ذلك من خلال استيعاب القيم الحضارية التي يحملها والقيم التي تحيط به، شرط أن يحكم تلك القيم فضائل لا يختلف عليها اثنان، وهذه الفضائل التي لا تكون محل خلاف، لا يمكن أن يكون مصدرها الإنسان بوجه من الوجوه، بحث تكون هذه الفضائل للنتاج الحضاري أيضا.

إنّ الوصول إلى الحضارة وانقيادها للإنسان، يؤدّي إلى كمٍّ كبير من القيم المعنوية وتراكم مادي، فالقيم المعنوية تتمثل في الجانب الأخلاقي الذي تعكسه الحضارة على التصرف والسلوك والتعامل، والتراكم المادي الذي يكون فائض الحاجة يجعل المجتمع مترفا، فإذ كانت القيم المادية التي يمثلها السلوك والتصرف النابعان من الأخلاق، غير محكومة بفضائل تقيدها وتضعها بها على الجادة مثل:

. الحلال والحرام.

. الحقّ والعدل.

. الأمر والنهي.

. الأخذ والمنع.

فإنّ الانفلات الحضاري يسود المجتمع من تضافر التراكم المادّي الذي يؤدّي إلى الترف مع التسيب الأخلاقي الذي لم يأخذ بالفضائل أو تخلى عنها.

ولما كان حال عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم وصلوا إلى درجة من الحضارة والعمران اللذين أديا إلى الغنى الفاحش والقوّة المفرطة، ولم تحكم هذه الحضارة الضوابط الأخلاقية التي تجمعها الفضائل المنبثقة عن العقيدة،

طغت حريتهم على حرية الآخرين حدّ الاستعباد، ومن هنا قال لهم هود صلّى الله عليه وسلّم: {وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}135.

فهذا الجبروت الذي وصفهم به، أو الذي هو صفتهم على الحقّيقة، هو استخدام تراث الحضارة الذي صنعته أيديهم، بشكّلّ غير حضاري، وهذا حال أي مجتمع عندما لا يحسن التصرف الحضاري، وليس البناء الحضاري، لأن كثيرا من المجتمعات تحسن البناء الحضاري، ولكن قلة منها تجيد التصرف الحضاري.

نخلص من هذا إلى القوّة المادّية التي تتولّد عنها حضارة لا تحكمها فضائل، يجد الإنسان نفسه فيها يواجه بشكّلّ مستمرّ عالما من الأشياء الحضارية المتنوّعة والمتعددة والمتجددة، التي يجب عليه أن يستوعبها في التعامل، ولكنّه يفشل في ذلك نظرا لتنوّعها وتعددها وتجددها رغم أنّها نتاجه ومن صنع يديه، فلما ينفلت صاحب الحضارة أو من ينتمي إليها من طوق العبادة التي تمثل أعلى درجات الفضائل بما تحمل من ضوابط في تقنين التعامل مع هذه الحضارة ومع الآخر، هنا يميل إلى البطش والطغيان، ولذا فإنها تصبح بعد قليل غريبة عنه ومصدر خطر على هويته، بل على كينونته الإنسانية. ولذا، تكتسب هذه الحضارة المنفلتة سمة الغرابة وتواجه الإنسان (الذي صنعها) باعتبارها هي الآخر، وتصبح المواجهة بينه وبينها حتى يصل حدّ السأم الحضاري لوجود الفراغ الروحي.

إنّ حضارة هذا شأن بانيها، يجد الإنسان نفسه فيها، أنه يزداد قوّة وتقدما وهيمنة لا يحسن معها التصرف الحضاري، وبهذا يجد نفسه محاطا بعالم من الأشياء التي تقهره وتهيمن عليه على حاجاته ورغباته لأنه لا يمكنه

135 - الشعراء 130.

استيعابها ولا السيطرة على تراكمها، في الوجه الذي يجب أن توجه به بما استخلفه الله فيه، فيلجأ ساعتئذٍ للبطش.

ذلك أنّ تلك الحضارة التي ابتعدت عن جادة الصواب بعدم الأخذ بالعبادة التي تؤدّي إلى التوازن في المعادلة الحضارية بين:

. الأنا والآخر.

. المادي والمعنوي.

. الروحي والبدني.

. التجريدي والواقعي.

فعند فقدان التوازن الحضاري على الرّغم من وجود الحضارة، فإنّ هذه الحضارة تولّد لدى المجتمع:

. معرفة لا ضرورة لها.

. معرفة لا قيمة لها أحيانا.

. معرفة لا فائدة منها.

ولذا، قال هود صلّى الله عليه وسلّم لقومه: {أَتَبْنُونَ بِكلّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}136.

فهي نتيجة التطور المستقل عن الجانب الروحي. وبالتدريج، تتشابك الأشياء الحضارية والمفاهيم الاجتماعية وتصبح عالما مستقلا قائما بذاته يفقد صلته بذات الإنسان ورغباته الأساسية، ذلك أن الإنسان ابتعد عن إشباع الجانب الروحي دون وعي، عندما سيطر الجانب المادي على

136 - الشعراء 128، 129.

الوعي. وهكذا فإن هذه الحضارة وأمثالها ظهرت لتكون بمنزلة مكان الاستقرار الإنساني، ولكن عندما تفقد الجانب الروحي بتخليها عن العقيدة التي تحمل الفضائل المقيدة لتصرف الحضارات، تصبح سجنا للإنسان أو مقبرة. قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كلّ شَيْءٍ بِأَمْرِ ربّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}137.

عاد قوم هود:

لقد أكد القرآن الكريم على أن عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، هم ورثة قوم نوح صلّى الله عليه وسلّم وخلفاء من بعدهم ليس بمعنى الخلافة التي يجب أن يكون عليها النّاس بما أمر الله تعالى به الخليفة من التوحيد والعبادة والطاعة ثم إعمار الأرض وإصلاحها وعدم الإفساد فيها، فهم كانوا خلفاء من بعد قوم نوح من حيث الزّمن والاستمرار.

فقوم هود صلّى الله عليه وسلّم خلفاء وراثة لقوم نوح صلّى الله عليه وسلّم وليسوا خلفاء استخلاف، وأنهم جاؤوا من بعدهم وساروا على منهجهم في الشرك، ولذا لم يكن هناك اختلاف في دعوة هود عن دعوة نوح صلّى الله عليهما وسلّم، ليس من قبل العقيدة والتوحيد، ذلك أن عقيدة التوحيد هي واحدة لجميع الأنبياء والرّسل، وإنما في القضية التي بعث هود عليه الصّلاة والسّلام من أجلها في قومه وهي عبادة الله وحده ما لهم من إله غيره، حيث قال تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ

---

137 - الأحقّاف 24، 25.

مِنْ ربِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ ربِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ ربِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}138.

فنبي الله تعالى هود صلّى الله عليه وسلّم لا يختلف في دعوته لقومه ومنهجه فيهم عمّا جاء به نوح صلّى الله عليه وسلّم لقومه.

ويبدو لنا أنّ هذا الأمر في اقتراب دعوة نوح وهود صلّى الله عليهما وسلّم، يصلان

حدّ التطابق، لأنّه لم يعالج كلّ منهما سواء مسألة الشرك والدعوة إلى التوحيد.

إنّ جميع الرّسل صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين الذين بعثهم الله تعالى إلى أممهم وأقوامهم نستطيع أن نقول إنهم على قسمين:

الأوّل: يحمل قضية كلّية هي دعوة التوحيد كنوح وهود.

الثاني: يحمل قضية كلّية هي دعوة التوحيد وجزئيات أخرى كشعيب وموسى.

فالأنبياء والرّسل صلّى الله عليهم وسلّم مكلّفون في المبدأ بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، وعدم الشرك به، فذلك هو المنهج الأساس للرسل في دعوتهم الأمم الأقوام التي يبعثون فيها ويرسلون إليها.

وقد كان نبي الله هود صلّى الله عليه وسلّم منهجه الأساس من تكلّيفه في دعوة قومه إلى توحيد الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، وكان ينذرهم بأس الله

---

138 - الأعراف 65- 69.

ويضربّ لهم المثل بقوم نوح، ويذكرهم بنعم الله تعالى عليهم حيث زادهم في الخلق بسطة وجعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح، وبوأهم أرضا مثمرة تدرّ عليهم الخير الكثير، وتنبت لهم الزرع الذي يعيشون به، والكلأ الذي تعيش به أنعامهم وماشيتهم، فأخبرهم بواجب الشكّر تجاه هذه النعم التي أصبحوا بها أوّلي قوّة، وهنا يكون الواجب عليهم أن يستعملوا هذه القوّة التي خولهم الله إيّاها في طاعة الله، ولم يعطها لأحد سواهم، وأن يستعملوا عقولهم التي هي إحدى نعم الله عليهم، بأن يفكّروا بها ليتبيّنوا أن ما يعبدونه من دون الله لا يملك لهم ضرا ولا نفعا، وأن الذي ينفع ويضر هو الله وحده الذي خلقهم وأعطاهم القوّة التي يفتخرون بها، وهو الذي بيده إحياؤهم وإماتتهم، وأنهم إذا تابوا إليه ممّا سلف من الكفر تاب الله عليهم وأغدق عليهم نعمه ظاهرة وباطنة وأمدّهم بقوّة إلى قوتهم وبزيادتهم عزا إلى عزهم، وهو لا يطلب منهم جزاءً ولا أجرا، وإنّما أجره على الله، ولا يطلب منهم حمدا ولا شكّورا، وإنما الحمد والشكّر منهم لله تعالى الذي خوّلهم ما هم فيه، وهذه سنن النبوّة والرسالات أنّ الأنبياء والرّسل صلّى الله عليهم وسلّم لا يطلبون أجرا ولا مالا ولا زعامة، وإنما دعواهم خالصة لله والدار الآخرة، ولكنهم سفهوه وكذّبوه وتجاهلوا الحجج التي جاء بها من الله تعالى والبراهين القاطعة التي أقامها على صدق ما يدعوهم إليه، فكانت إجابتهم: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}139.

إلا أنّ هودا صلّى الله عليه وسلّم بيّن لهم الغرض الذي يدعوهم من أجله والغاية التي يصبو إليها في دعوتهم بمنهج متكامل حكاه الله تعالى بقوله: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ

139 - هود 53.

الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ ربّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ ربّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}140.

هذه الآيات وضحت أسس المنهج الذي اتبعه نبي الله تعالى هود صلّى الله عليه وسلّم في دعوة قومه إلى ما فيه نجاتهم بما يحمل المنهج من قضايا وما يتصف به هود صلّى الله عليه وسلّم من صفات، منها:

. الرفق بهم خوفا عليهم وحبا بهم كونهم قومه.

. الصبر على دعوتهم ونصحه لهم.

. التوكلّ على الله في تبليغ الرسالة.

غير أنّ قوم هود صلّى الله عليه وسلّم أعرضوا عن دعوته وكذبوه ولم يستجيبوا على ما سمعوه من الحقّ والنصح، ولذا كانت كلّمة (أفلا تعقلون) لها دلالة كبيرة في مواجهة موقفهم بما صدّوا عن دعوة الحقّ.

إنّ النتيجة التي يتوصل إليها العقل السليم هي أخذ النصيحة والاعتبار بالآخرين، لا سيما إن كانت النصيحة تصدر عن واحد من أبناء القوم مشهود له بالصدق والأمانة، ومن ثمّ النظر في عواقب الأمور، وإلا لم تكن للإنسان الذي خصّه الله بالعقل مزية على غيره من المخلوقات الأخرى.

ومن هذا نتبيّن أنّ نبي الله هودا صلّى الله عليه وسلّم وضع أمام قومه منهجا وجب عليهم أن يسلكوه، ولكنه أبوا. وهذا المنهج على بساطته وعلو قدره وعظيم فائدته أظهر سفه قوم هود عندما اتخذوه وراءهم ظهريا.

---

140 - الأعراف 65- 69.

ويتمثل منهج هود صلّى الله عليه وسلّم الذي طلب من قومه تطبيقه والالتزام به، وهو أوّل المطبقين لما أخبرهم به، وأوّل الملتزمين بما أعلمهم بأمور عقدية ودنيوية وأمثال وعبر من أجل النصح والإرشاد والاتعاظ، كي يعدلوا عمّا هم عليه ويرجعوا ممّا هم فيه منها:

. العبادة لله وحده.

. عدم إشراك أي مخلوق مع الخالق.

. الابتعاد عن الظلم.

. تحذيرهم بأس الله تعالى.

. ضربّ لهم الأمثال بمن سبقهم.

. ذكرهم بنعم الله تعالى عليهم.

. بيّن لهم أنّه لا ضار ولا نافع إلا الله تعالى.

فقد أرسل الله تعالى إلى عاد أخاهم هودا صلّى الله عليه وسلّم، يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن الأوثان التي افتروها على الله تعالى واختلقوا لها أسماء الآلهة، وهو لا يريد على هذا النصح والبلاغ إلا هدايتهم رجاء خلاصهم من الكفر والشرك.

وإن كان ثمة ثواب، فإنّما يرجوه من الله تعالى الذي فطره على الفطرة السليمة، ولما كان إعراضهم ظاهر بادٍ واستنكروا منه ذلك، اتهمهم بعقولهم لا على سبيل الخبل والجنون، وإنما من قبيل عدم التمييز بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، فهو يدعوهم إلى ما يصلح لهم دنياهم وآخرتهم من غير أجر، بدليل أنه طلب منهم أن يستغفرون لتكفير الذنوب، فلو كانوا عقلاء، لأدركوا أن الاستغفار لا يعود على هود بشيء، ولا هم يخسرون به

شيئا، فعندما رفضوا ذلك، وهو واضح جلي أنه لا نفع يعود على هود صلّى الله عليه وسلّم من استغفارهم، ولا هم يخسرون شيئا ومع ذلك أبوا قال لهم (أفلا تعقلون).

إنّ هودا صلّى الله عليه وسلّم كان الهدف الأساس في دعوته لقومه هو التوحيد وعبادة الله وحده وعدم الشرك به، فهم بقربهم من قوم نوح الذين كانوا يشركون بالله تعالى كأنهم أخذوا هذا الشرك عنهم، وقد جاء نوح صلّى الله عليه وسلّم ليضع قومه على الطريق الصحيح وينتشلهم من الشرك وعبادة الأوثان، فكأن قوم هود ورثوا ذلك عن قوم نوح، ورسالة نوح خاصة بالتوحيد والدعوة إلى الله تعالى، ولذا نلاحظ رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم لقومه لا تحمل قضية أخرى غير التوحيد، فليس هناك بخس ولا ظلم أو استعباد لأحد، وإنما هم بخير من كلّ أمور الدنيا إلا أنهم يشركون بالله، فبعد الشرك لا ينفعهم عدل ولا صلة رحم ولا إنفاق، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ}141.

فالذي بُعث فيه هود صلّى الله عليه وسلّم إلى قومه، هو نفسه الذي بعث الله من أجله الرّسل وأنزل عليهم الرسالات والكتب في توحيد الله تعالى وعبادته وحده، فهذا ما اتفق فيه جميع الأنبياء والرّسل من آدم إلى نوح إلى هود ومن بعده مرورا بجميع الأنبياء والمرسلين وصولاً إلى محمّد صلّى الله عليه وسلّم وعليهم أجمعين، مع اختلاف الشرائع كما قال تعالى: {لِكلّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}142. واتفاق في أصول العقيدة والدين مصداقا لقوله تعالى:

---

141 - التوبة 54.

142 - المائدة 48.

{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}143.

**هدف رسالة هود:**

لقد اختار الله تعالى هودا صلّى الله عليه وسلّم من قومه لينذرهم ويحذرهم عذاب الله، لأنهم تمادوا في غيهم وضلالهم وأوغلوا في الكفر من عبادة الأوثان والشرك بالله تعالى. وقد اجتمع معظمهم على تكذيبه وعدم التصديق بدعوته واحتقار من ابتعه من المؤمنين، ثُمّ أنهم تعجبوا بعد ذلك أن يكون واحدا منهم، هو المختار من بينهم لهدايتهم، قال تعالى: {أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}144.

وكذلك أنفوا واستكبروا أن يَدَعوا ما كان يعبد آباؤهم، ويتوجهوا إلى عباد إله واحد هو الله تعالى الذي أمدهم بالرزق والقوّة وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح.

إنّ مسألة خلافة قوم هود لقوم نوح في الأرض، وقربّ بعضهم من بعض في الفترة الزّمنية، جعلت قوم هود يرثون أشياء كثيرة عن قوم نوح منها:

. عبادة الأوثان والشرك بالله تعالى.

. التكبر والاستعلاء.

. الجدل بالباطل.

143 - الشورى 13.

144 - الأعراف 69.

ولذا كان هدف رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم أن ينتشل قومه من براثن الكفر والشرك، وأن يضعهم على جادة الصراط المستقيم بالهداية والرشاد وصولا إلى التوحيد.

إنّ الله سبحانه وتعالى بعث الأنبياء والمرسلين لهداية النّاس، وكلّ نبي أو رسول يكون له مهمة إمّا:

. في الخصوص.

. وإمّا في العموم.

. وإمّا للكافة.

ولما كان هود صلّى الله عليه وسلّم رسول في قوم عاد فإنه من رسل الخصوص لهداية قومه إلى الحقّ في التوحيد والعقيدة، وفي كلّ ما يتصل بها أو يتفرع عنها من القيم والمبادئ، وفي كلّ ما يتعلق بتنظيم الحياة الإنسانية، بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والخالق عزّ وجلّ، ثمّ تخليص هذه الحياة من كلّ مسببات الفساد والإفساد، ومظاهر الانحراف أيا كان نوعها أو حجمها أو امتدادها في مجالات الحياة.

إنّ دعوة هود صلّى الله عليه وسلّم، وإن كان عمقها يتمثل في الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، إلا أننا لم نقف من خلال قصة هود صلّى الله عليه وسلّم على شريعة كان يحملها لقومه على غرار الشرائع التي أتى بها الأنبياء من بعده، كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلّى الله عليه وسلّم وعليهم أجمعين.

ومع هذا فإن دعوة التوحيد لهود صلّى الله عليه وسلّم وإن لم تحمل شريعة من الأمر،

غير أنّ جميع الرّسل أرسلهم الله تعالى بمبدأ واحد لا اختلاف فيه من حيث الزمان أو المكان أو الأقوام والأمم التي أرسلت إليها الرّسل، حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كلّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حقّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}145.

فعبادة الله تعالى هو جانب الخير الذي تحمله جميع الرسالات وأمرت بإتباعه، واجتناب الطاغوت هو جانب الشرّ الذي أمرت جميع الرسالات بتجنبه والابتعاد عنه.

وعيه:

إنّ أيّ رسالة سماوية بدعوتها إلى التوحيد، إنما لها صفات تحمل دلالات عميقة ضمن التوحيد تدل على مبلغ إسهامها في تغيير الواقع من الشرك إلى التوحيد، وعلى أهدافها في مجالات الحياة، وعلى هذا فإنها تدعو إلى:

ـ الهدى.

ـ البصيرة.

ـ النور.

ـ البينة.

ـ الصراط المستقيم.

ـ المحجة البيضاء.

شأنها في الخصوص شأن جميع الرسالات السماوية في العموم، وقد حملت رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم إلى قومه عاد كلّ ما تقدم ذكره ضمن

145 - النحل 36.

عبادة الله الواحد الأحد، ذلك أن التوحيد يكون مرجعا في الحكم على جميع القضايا الدنيوية والأخروية، بحيث يبيّن قواعد العقيدة السليمة التي تنطلق من حقّيقة واحدة مصدرها إله واحد، قال تعالى: {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}146.

من المسلم به أن تحقّيق تلك الغاية التي بُعث هود صلّى الله عليه وسلّم من أجلها، ليس لها إلا طريق واحد هو الإيمان بالله تعالى، وبما يليق بهذا الإيمان، ومن ثمّ فإن هذه القضية تعد بيت القصيد في أي منطلق من منطلقات العقيدة الدينية الصحيحة والسليمة.

وعلى هذا، فإن الضرورات العقلية والعقدية تقضي الآتي:

آ . إذا كان هدف الرسالة هو إفهام النّاس بأمور العقيدة الصحيحة كما ذكرنا، فمن المستحيل أن يكون هود صلّى الله عليه وسلّم، قد ترك أية قضية من قضايا العقيدة وإن لم يكن لديه شريعة، سواء أكانت متعلقة بها، أم منبثقة عنها، دون أن يكون قد أوضحها غاية الوضوح وبينها غاية البيان لقومه.

ب – وإذا كانت قضية الإيمان بالله تعالى، هي أم القضايا ورأس الأمر كلّه وذرة التوحيد، فإنه يصبح من أشد الضرورات تأكيدا، أن يكون هود صلّى الله عليه وسلّم قد وفاها حقّها، ولم يترك فيها لا شاردة ولا واردة إلا وأعطاها حقّها من البيان والتوضيح والشرح.

إنّ الرّسل صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين بعثوا إلى أمم متعددة وشعوب متفرقة ومختلفة في كثير من الأشياء، يكون هذا الاختلاف آية من آيات

---

146 - النحل 51.

الله، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ}147.

فإنّ كان اختلاف الألوان معلوم ومعرف، فإن اختلاف اللسان قد يشكّلّ على البعض، عندما يفهم ذلك على أنه اختلاف في الأحرف والكلّمات، ولكن اختلاف الأحرف والكلّمات إنما هو جزء من اختلاف اللسان، ذلك أنّ اللسان المادي هو ترجمان اللسان المنطقي للغة التفكير الإنساني في الطريقة والمنهج والأسلوب.

فهذه الأمم والأقوام ذات ثقافات ومناهج وطرق متنوعة في التفكير والتعامل مع القضايا الإنسانية والاجتماعية والعقدية، ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أنه لم يبعث نبي أو رسول في قوم أو أمة إلا منهم لهذه الأسباب، فيكون على معرفة بتاريخهم وحاضرهم وطرق تفكيرهم، وبذا يُحسن التعامل معهم، فلذلك تضمنت رسالة كلّ رسول القائمة على التوحيد الذي يؤدّي إلى التغيير أن يخطو خطوات مع قومه في اتجاه التغيير منها:

. التغيير الفكري.

. التغيير العقدي.

. التغيير الاجتماعي.

وبصرف النظر عمن اتبع أو اعرض، فإن هذه الخطوات موجودة في أيّ رسالة عند أي رسول، ومنهم هود صلّى الله عليه وسلّم الذي سعى إلى:

. هدم المناهج الباطلة السائدة في قومه ومجتمعهم.

---

147 - الروم 22.

. بناء المنهج الصحيح البديل بتأصيله وتعميقه.

وبذلك يكون هود صلّى الله عليه وسلّم قد وضع أسس العقيدة للخطوات الممهدة للرسالة والتي تقوم عليها فيما بعد منها:

. هدم وبناء

. إبطال وتأسيس

. إخلاء وإحلال

. تفكيك وتركيب.

وهذا هدف رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم وضحها لقومه من خلال كلّمة التوحيد (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

فما لهم عليه إلا أن يدعوهم ويبيّن لهم، وما له عليهم إلا أن يؤمنوا أو يكفروا، هود صلّى الله عليه وسلّم:

. صدع بما أُمر.

. وضح الدعوة.

. جاء بالبيّنة.

. أقام الحجة.

فمنهم من آمن ومنهم من كفر، قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}148.

---

148 - البقرة 256.

وهذه مهمة الرّسل في تبيين الرشد من الغي والدعوة إلى الصلاح، فمن كان يشكّلّ عليه الرشد والغي ولا يستطيع أن يميز بينهما، فقد انجلى الرشد وامتاز عن الغي بما يبيّنه النبي المرسل حتى لا تكون للناس على الله حجة بعد الرّسل.

ولما بيّن هود صلّى الله عليه وسلّم لقومه المنهج الذي جاء به من خلال التوحيد، وما يطلب على ذلك من أجر، لأن أجره على الذي فطره الفطرة السليمة كما أخبرهم، وبذا بدأ بهدم العقيدة الفاسدة التي يعتقدها قومه، وتأسيس العقيدة الصحيحة، بحيث نتج عن ذلك تشعب في مجتمع قومه:

. قبول ورفض.

نتج عنه:

. إيمان وكفر.

فآمن قسم من قومه، فنالوا جزاء إيمانهم في الدنيا أن أنجاهم الله تعالى من العذاب، وأمّا القسم الآخر فنالوا جزاء أيضا لعدم إيمانهم، لأن الإيمان جاءهم ولم يأخذوا به، قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كلّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}149.

**الجدل بين هود وبين قومه:**

الجدل عند قوم هود صلّى الله عليه وسلّم ظاهر من خلال الآيات التي أوردت خبرهم مع نبيهم صلّى الله عليه وسلّم، وإن لم يذكر الجدل باللفظ كما هو حال قوم نوح، إلا أن حوار الجدل بين هود صلّى الله عليه وسلّم

149 - هود 58- 60.

وبين قومه نقف عليه واضحا بيّنا من خلال الآيات التي تسوق الخبر في دعوتهم إلى الهداية، وردهم وإجابتهم على هود صلّى الله عليه وسلّم.

فهو أوضح لهم إنما جاءهم بالهداية، وليس هو رجل مال قد مكّنه الله من خزائنه، ولا يريد منهم على ذلك أجرا، وإنما هو إنسان ينتمي إلى نوع البشر اختاره الله تعالى لدعوتهم وتبليغهم أمره وهو أخوهم بمعنى أنه من أنفسهم.

ومن أجل إظهار جدل هود صلّى الله عليه وسلّم والوقوف عليه على هذا الجدل بينه وبين قومه نستعرض بعض الآيات التي توضح ذلك:

. إنّ أوّل الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان الذي أتى على من كفر من قوم نوح صلّى الله عليه وسلّم، هم قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}150.

. هم أوّل من ابتدع الشرك وعبادة الأوثان بعد قوم نوح، قال تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}151.

. لقد ذكّرهم هود صلّى الله عليه وسلّم بنعم كثيرة أنعم الله عليهم بها فقال لهم: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً}152.

أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش، وظاهر بيّن من الآية أن عادا كانوا جفاة كافرين، عتاة متمردين، فأرسل الله فيهم رجلا

---

150 - هود 53.

151 - الأعراف 70.

152 - الأعراف 69.

منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ}153.

لقد أجابت عادٌ هودا صلّى الله عليه وسلّم إجابة تنمّ عن جهل، أو رغبة في عدم مجاراته بما يقول لضعف الحجة والمنطق الواهي بحيث أنهم يريدون أن يرفضوا دعوته ورسالته دون الخوض في مناقشة منطقية تصل بالنتيجة إلى إظهار الحقّيقة، وبالتالي رفضوا الإيمان بالله تعالى والتسليم لواحديته عزّ وجلّ، وسنقف على هذا الجدل من خلال كلّ آية على حدة على التوالي لنتبيّن الحجج والبراهين، ونقف على منطق هود صلّى الله عليه وسلّم بما يحمل من رفق وشفقة على قومه وما يكنّون له من بغض وعداء وكراهية، ذلك أنّ استناده إلى الحجة المنطقية في حواره لهم ومجادلته إياهم بالمنطق السليم، أفقدهم التوازن في الجدل، لما يحمل رأيهم من ضعف في دحض حجة هود صلّى الله عليه وسلّم ممّا ألجأهم إلى القول: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}154.

فلو كانت هذه آلهة، آلهة حقّا، لما انتظرت أن يُطلب منها ما تفعله، بأن تعتري هودا بسوء أو بخير، ذلك أن الإله الحقّ هو الذي يقرر ما يفعل لا أن يملى عليه ما يريده الآخرون فعله.

---

153 - الأعراف 66.

154 - هود 54.

فلو كان لهم أدنى مسكّة من العقل في فهم جواب هود صلّى الله عليه وسلّم لهم، لأيقنوا أن هذه الآلهة لا تملك لهم ضرا ولا نفعا، عندما تجاوزها هود صلّى الله عليه وسلّم فأشهد الله تعالى، وأشهدهم أنه بريء ممّا يشركون به في هذه الآلهة، ولو كانت آلهة حقّا لانتفضت وانتصر لنفسها عندما خلع هود صلّى الله عليه وسلّم القدسية عن الآلهة التي يعبدونها ويعتزون بها.

إن هودا صلّى الله عليه وسلّم، لم يطلب منهم ما هو فوق طاقتهم، وإنما في حقّيقة الأمر هم يعبدون! ولكن هذه العبادة هي وبال عليهم، ولذا أراد أن يصحح لهم العقيدة بما أمره الله تعالى لما فيه خير دينهم ودنياهم: {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ}155.

. فعبادة الله تعالى حقّ للخالق على المخلوق وجبت تأديتها.

. عبادة الله تعالى واجب على المخلوق للخالق وجبت تأديتها.

. الآلهة التي يعبدونها هي مخلوقة.

. المخلوق لا يملك لنفسه من الخالق شيئا.

هذه الأسس سار عليها جميع الأنبياء والمرسلين، آدم ونوح ومن بعدهما هود صلّى الله عليهم وسلّم، ومن جاء بعدهم من الأنبياء والمرسلين.

فما أمر به هود صلّى الله عليه وسلّم قومه، أمرت به جميع الأنبياء من بعده لأقوامهم، من تبيان أسس الرسالة السماوية في طريقة الدعوة والأعمدة التي تقوم عليها من التوحيد والتسليم والعبودية لله تعالى، وإرساء دعائمها بين البشر.

---

155 - هود 50، 51.

إنّ جدل هود صلّى الله عليه وسلّم مع قومه جاء وفق ما أمر به الله تعالى بما يقبله العقل المنير والقلب السليم، ولذا نجد موقف هود صلّى الله عليه وسلّم سُنّة عامة لدى جميع الأنبياء من بعده ولأقوامهم على حدٍّ سواء، حتى يبقى الأمر والمشهد قائمان في الزمان والمكان، ولا يكون على سبيل حكاية ماضية عفا عليها الزّمن، ومن ناحية أخرى يلخّص مهمة هود صلّى الله عليه وسلّم وتكلّيفه ويترجمها إلى حقّيقة واحدة تنسحب على جميع الرّسل والأنبياء من بعده (ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على الذي فطرني).

إنّ الله تعالى اصطفى هودا صلّى الله عليه وسلّم وأرسله لهداية قومه إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، الذي يتمثل في عبادة الله تعالى، والتسليم بواحديته والإخلاص له، وتحديد هدف هذه الرسالة ليصل بهم إلى الغاية من خلال الوسيلة التي قامت على الحوار والجدل بما يحمل من لين ورفق، على ما في قومه من غلظة وفظاظة في الرّد، حيث نرى هودا صلّى الله عليه وسلّم يجادلهم بالتي هي أحسن بأدلة وبراهين تقوم على:

. العقل.

. الحجة.

. المنطق.

فالعقل يسلّم بأنّ لابدّ لهذا الكون من خالق يعبد، وقومه يعبدون المخلوقين، فالخالق أحقّ أن يعبد، فهو يبلور مضمون الرسالة في حقّيقة واحدة (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

فهذا هو قوام الرسالة ومنهج هدفها وصولا إلى غايتها.

وأمّا الحجة فهي قائمة عليهم لأنهم لم يستطيعوا مجاراة هود صلّى الله عليه وسلّم فيما يحاججهم به، لذلك لجئوا إلى التهربّ من مجاراته في الحوار بما ذكرناه من غلظتهم وفظاظتهم لعدم القدرة على الثبات أمام منطق الحقّ فقالوا: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}156.

وهنا تظهر ضعف الحجة التي يسوقونها ورداءة البرهان واضمحلال الدليل القائمة على:

. الشتم (نراك في سفاهة).

. الظن (لنظنك) فهم لا يستطيعون الجزم باتهامهم له.

. رموه بالكذب ظلما دون دليل.

غير أن ترفع النبوّة والرسالة عن أخلاق هؤلاء وأمثالهم، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، تجعل هودا صلّى الله عليه وسلّم يردّ عليهم بالحسنى: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ}157.

فإذا عدنا إلى موضوع وراثتهم لقوم نوح صلّى الله عليه وسلّم، نجد أنهم لم يرثوا غير الكفر والضلال والجدل بالباطل، حتى أن إجابتهم لهود صلّى الله عليه وسلّم، تتطابق مع إجابة قوم نوح لنوح صلّى الله عليه وسلّم ونلاحظ ذلك من خلال ما ورد في الآيات.

156 - الأعراف 66.

157 - الأعراف 67.

. قال قوم نوح لنبييهم: {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}158.

. أجابهم نوح: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ ربِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ ربّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}159.

وقوم هود صلّى الله عليه وسلّم لم يخرجوا عن قناعة قوم نوح بما ورثوه عنهم في:

. الكفر والشرك.

. منطق الحوار.

. الجدل بالباطل.

ولذا، نجد أجوبتهم تكاد تتطابق مع قوم نوح فيما أجابوا به هود صلّى الله عليه وسلّم.

. فقد أجابوا هود: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}160.

. أجابوهم هود بالمنطق النبوي لنوح: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ ربِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ}161.

---

158 - الأعراف 60.

159 - الأعراف 61- 63.

160 - الأعراف 66.

161 - الأعراف 67، 68.

وعلى ما يتلقى هود صلّى الله عليه وسلّم من قومه الاتهام والشتم، إلا أنه يردّ عليهم بسماحة رسول وحلم نبي، وفي ثقته بالحقّ الذي جاء به، واطمئنانه إلى ربّه الذي أرسله، وفي وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه في شعوره.

. لا يردّ عليهم الشتم.

. لا يتهمهم.

. لا يدعي ادعاء باطلا.

ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهرا غير حقّيقته ولا على رسالته شيئا غير طبيعتها.

فالأمر ليس كما يظنون أو كما يعتقدون ممّا رموه به من اتهام، فقد بدأهم بقوله: (ليس بي سفاهة) في سماحة ومودة تنمّ عن علو منزلة وحسن خلق وأدب نبوي في التعامل مع الخصم، من أجل الوصول إلى قناعة مشتركة معه عندما يبدد الشكّوك ويزيل الحواجز، وينهي الفوارق، ويضع نفسه معهم على قدر المساواة، وينفي اتهامهم له، ولا يتهمهم بما هو فيهم من جهل وسفه وافتراء، ولا يحط من منزلة أحد في جدله مع الخصم، لأنه ترفع عنهم عندما رفض مجاراتهم فيما يدعون.

إنّهم اعترضوا على دعوته: (أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا). فلم يكن موقفه منهم سلبيا على ما يقولون وما يدّعون، مع أنّ قولهم هذا لا يقتربّ من الصواب ولا يجانب الحقّيقة، ومع ذلك فإن هودا صلّى الله عليه وسلّم، لا يطلب منهم شيئا لنفسه، وإنما لأنفسهم من طلب التوبة والاستغفار، حيث قال لهم: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا

إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}162.

ولأنّه نبي رسول مختار مصطفى، ترفع عن إجابتهم بالمستوى الجدلي الذي طرحوه في مناقشته بكلّ ما يحمل الكلّام من دعة ورقة في السياق الجدلي، حيث يتناسى ما رموه به لأنه مختلف عنهم بما آتاه الله تعالى من رسالة كي يبلغها إليهم، فهو على بينة من الله تعالى باتصاله بالخالق عزّ وجلّ عن طريق الوحي، فهو بيِّن في نفسه، مستيقن في شعوره بما لا يعلمون وإن شاءوا أن يعلموا فعليهم إتباعه.

ثمّ إنّ هناك خاصية لم يوهبوها وإن كانوا أشدّ النّاس قوّة على ما ذكروا، وهي أن الله تعالى آتى هود صلّى الله عليه وسلّم من الخصائص ما أهّلته لحمل الرسالة: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ ربّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ}163.

والبلاغ يستلزم عدم الكذب وعدم الزيادة فيه أو النقصان منه، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم، والحرص على هدايتهم، لا يبتغي منهم أجرا، ولا يطلب نفقة، بل هو مخلص لله عزّ وجلّ في الدعوة إليه، والنصح لخلقه، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كلّه في يديه، وأمره إليه، ولهذا قال: {يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}164

162 - هود.52

163 - الأعراف 78.

164 - هود 51.

فالعقل والمنطق يقتضيان في هذه الحالة أمام إنسان يريد بهم الخير ولا يطلب منهم على ذلك أي مقابل، فيجب على العقل أن يناقش الفكرة التي يدعو إلها هود صلّى الله عليه وسلّم من هذا المنطلق:

. لا يريد أجرا.

. لا يريد منفعة.

. لا يضمر عداوة.

لذا وجب مناقشة هذه الدعوة والوقوف على الأبعاد التي يريد هود صلّى الله عليه وسلّم أن يوصلهم إليها، فهو يدعوهم إلى الحقّ المبين الذي تشهد به فطرتهم التي خلقوا عليها، وهو دين الحقّ الذي بعث الله به نوحا صلّى الله عليه وسلّم من قبله وهلك من خالفه من الخلق وهم يعرفون ذلك. وها هو يدعوهم إلى ما دعا نوح قومه، ولا يسألهم أجرا عليه، بل يبتغي ذلك عند الله.

فماذا كان ردّهم؟

قال قوم هود له فيما قالوه: {يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ، إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ}165

فهم يريدون آية معجزة تشهد له بالنبوّة والرسالة، ولذا قالوا: (ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك) فهم يدّعون أنهم لو رأوا البينة الخارقة التي تكون شاهدا على صدق رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم لربّما فكروا في الأمر، فهم لا يتركون ما كان يعبد آباءهم ويتجهون إلى إله واحد دون آية معجزة، وإنما مجرد دعوة هود لهم بالقول لا دليل يقيمه، ولا برهان

---

165 - هود 53، 54.

ينصبه تبقى الدعوة مجرد ظن وكذب كما قالوا، ولذا لم يكن لديهم من جواب إلا أنه قد أصاب هود صلّى الله عليه وسلّم مسٌّ من الجنون اعترته به آلهتهم على ما يظنون. وهو قولهم: (إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ).

فلما أرادوا أن ينسبوا فعلا إلى هذه الأصنام، بأنها يمكن أن تضر أو تنفع بحيث تعتري أحدا بسوء، أو تصيب أحدا بخير، فما كان منه صلّى الله عليه وسلّم إلا أن جمعهم وآلهتم وتفرد عنهم بنفسه، حيث أجابهم: {قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِي}166.

وهي معجزة كافية لحسم الصراع في التحدي، إذ أنهم يعوّلون على هذه الآلهة في أن تنتصر لهم ولنفسها ممّا يرميه بها هود صلّى الله عليه وسلّم.

ولما لم تفعل آلهتهم ما كان مأمول منها، فإن القضية حسمت لصالح هود بالمعجزة، من جانبين:

ـ الأوّل:

أنّ هذه الآلهة يجب أن تنتقم ممن يسيء إليها أو يسفّه من يعبدها، ولم تفعل، وعلى فقد أسقط في يديها بحيث لم تدرأ عنهم ما يكرهون ولا عن نفسها، فسقطت عنها الأُلوهية.

ـ الثاني:

أنّ عادا أشدّ النّاس قوّة وبطشا وجبروت، ومع ذلك عندما عجزت الآلهة المرجوة عن فعل ما كان مأمول منها، وجب عليها أن يدفعوا عنها وعن

---

166 - هود 54، 55.

أنفسها، ولم يستطيعوا أن يفعلوا، وهذا بحدّ ذاته إعجاز في رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم.

ولذا؛ فقد أشهد الله تعالى أوّلا على بطلان ما قالوا عن قدرة آلهتهم التي يمكن أن تعتري أحدا بسوء، ثم أشهدهم أيضا على براءته ممّا يشركون به، هذا من جانب.

ومن جانب آخر إن كان لآلهتهم القدرة كما يزعمون فطلب منهم أن ينضموا إليها ويدبروا كيدهم، هم وآلهتهم فيكدوا لهود صلّى الله عليه وسلّم دون انتظار أو إنذار حتى يتبين صدق الصادقين إن كان لهم ولآلهتهم من الأمر شيئا.

وهذا تحد منه لهم، وتبرأ من آلهتهم وتنقص منه لها، وبيان أنّها لا تنفع شيئا ولا تضر، وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله. فإن كانت كما يزعمون من أنها تنفع أو تضر فها هو منها ومنهم أجمعين، ولذا، قال: {فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ}167.

وهنا، يُظهر التحدي صلّى الله عليه وسلّم، لهم ولآلهتهم جميعا إن كانوا يستطيعون بما يمكنهم أن يصلوا إليه ويقدروا عليه، فإنّ كان ذلك لهم وعندهم القدرة فلا يؤخروا ما عزموا عليه، ذلك أنه صلّى الله عليه وسلّم لا يبالي بهم ولا بآلهتهم، فيجربّوا كيدهم إن كانوا قادرين، وأظهر لهم ذلك التحدي بما يستند إليه من تأييد بره تعالى فقال: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}168.

167 - هود 55.

168 - هود 56.

فهو متوكلّ على الله تعالى ومتأيد به، وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لاذ به واستند إليه، فلس يبالي مخلوقا طالما أن الأمر بيد الخالق.

وهذا وحده برهان قاطع على أن هودا صلّى الله عليه وسلّم هو عبد الله ورسوله، وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم، لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولم ينالوه بمكروه.

فدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه، وهو معجزة لهود صلّى الله عليه وسلّم عندما ادعوا أنّه لا أحد أشد منهم قوّة، ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا يضر هودا صلّى الله عليه وسلّم، مع استكبارهم وكفرهم حيث قال تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قوّة وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}169.

وقد استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشريا، ولهذا قال لهم هود صلّى الله عليه وسلّم: {أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ ربّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً}170

فهذا الأمر ليس بعجيب لأن الله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وهو الذي يصطفي من الملائكة رسلا من النّاس.

**تطوّر الفِكَر جدلا وحجّة:**

مع أنّ الإنسان خُلق من طين، لكنّه خُلق معدّا للتفكير؛ فكانت الفكرة نتاج عقله ومن إعماله، وأوّل فكرة كانت هي من عقل أوّل من خُلق في أحسن تقويم، (آدم) ثمّ تعدّدت الفِكَر بتعدّد البشرية وبتعدّد ما تفكّر فيه، ولهذا أصبحت فِكَرا بعد أن كانت فكرة. أي: في هذا المسار الأمر يتعلّق

169 - فصلت 15.

170 - الأعراف 69.

بالفكرة التي أصبحت بتكاثرها فِكَرا، ولكن هذا لا يعني أنّ الأمر لا يتعلّق بالفِكْرِ الذي هو مكمن التفكير؛ فالفِكْرُ من معطيات العقل، وفي المقابل الفكرة لا تكون إلّا من التفكير وإنتاج العقل، وفيما يُفكَّر فيه. ولذلك، يؤسّس التطوّر على قاعدتين:

الأوّلى: تطوير الفِكْرِ بما يمكّن الإنسان من التفكير، وهو يُفكّر فيما يُفكّر فيه قبل أن يتّخذ القرار تجاه ما فكّر فيه بداية حتى يُحسم الأمر تطوّرا.

الثانية: تطوير الفكرة بفكرة أكثر ارتقاء، حتى تتولّد الرّؤى المتجاوزة للمألوف والمعتاد التفكير فيه.

وعلى هاتين القاعدتين تطوّرت رؤى البشريّة وهي على التخيير بين اختلاف وخلاف، ولا حاسم للأمر إلّا المحاجّة والمجادلة، أي: لا حاسم للأمر إلّا الالتقاء الذي فيه تُدحض الحُجّة بالحُجّة، وحتى إن امتلأت الحجج والجدل شدّة، لكنّ الشدّة الجدلية ضرورة؛ فهي لا تكون إلّا من أجل الحرص، وهي كذلك، لا تكون إلّا بغرض التسوية لما سلف من انحدار وسُفلية، وهي بغاية الارتقاء عن كلّ ما يؤدّي للفرقة والخصام. ولهذا؛ فمن أجل التطوّر والارتقاء لا يجادلك إلّا من هو حريص عليك، ويأمل ألا تظل تائها عن ممّارسة وتأدية ما يجب أن يكون من أجلك وأجل من تربّطك به علاقات.

ولذا؛ فأصحاب الحُجج تطوّرا يسعون إلى إحداث النُقلة، والارتقاء بالنّاس إلى ما يجعلهم قمّة، وفي المقابل من يخالفهم بغير حُجّة يشذّ إلى الخلف إعاقة، وبين هذا وذاك؛ فلا استقرار، ولا أمن، ولا ارتقاء ولا تطوّر لأحد ما لم يؤخذ بالحُجّة ارتقاء واستيعابا، ولا استثناء لأحد بأيّة علّة، إلّا إذا كان أحد علّة في ذاته، ولا استغراب من هذا الأمر، حيث لكلّ قاعدة شواذ، ومع ذلك، الحجّة الجدباء لا تصمد أمام الحجّة الحلّ التي تعلو

بأصحابها تطوّرا وارتقاء إلى ما يمكّن من المعرفة، التي بها سترتق الأرض والسّماوات كما كانت أوّل مرّة.

ولأنّها المجادلة تطوّر وارتقاء؛ فهي لا تكون إلّا بالتي هي أحسن، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}171؛ أي: لا ينبغي أن تكون المجادلة بالتي هي أسوء؛ فالأسوء لا يقود إلّا للخلاف والصّدام والاقتتال، ومن هنا، يلد الألم ألما.

وحتى لا يسود الألم بين النّاس، ينبغي الأخذ بمبدأ المجادلة حرصا وتطوّرا وارتقاء، ويجب أن تبدأ المجادلة مع المختلفين من حيث هم عليه اختلافا، لا من حيث ما يجب أن يكونوا عليه اتفاقا؛ فما ينبغي أن يكونوا عليه اتفاقا هو المأمول الذي من أجله تجري المجادلة بالتي هي أحسن، أمّا المجادلة غِلظة؛ فلا تكون إلّا مع من يستغلظ على الحقّ بغير حقّ، وهنا، يصبح المستثنى من جنس المستثنى منه (غلظة بغلظة) ومع ذلك؛ فللعفو والصّفح مكانة لا يبلغها إلّا من تدبّر أمره حكمة.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن وسيلة للارتقاء؛ فينبغي أن تكون أساليبه على الترغيب والتشويق والنّهي والرّهبة والتحذير والإنذار مع مراعاة الفروق الفردية بين المجادلين ارتقاء؛ ففي الجدل الرّسائل تُرسل بين المجادلين لكلّ حسب ما هو عليه من معرفةٍ، وثقافةٍ، ومعتقدٍ، ومنّطقٍ، مع عدم الإغفال عن أهمية الحكمة في إدارة الجدل؛ فالإنسان مع أنّه خُلق من نطفة، ولكنّه خصيم، ولهذا؛ فهو مجادل، ولأنّه كذلك؛ فمن حقّه أن يجادل، ولكن حرصا وتطوّرا وارتقاء ينبغي أن يجادل بالتي هي أحسن؛ فهو كلّما جادل بالتي هي أحسن، كسب قلوب النّاس، وفي المقابل متى ما استغلظ عليهم استغلظت قلوبهم عليه.

---

171 العنكبوت 46.

ولذلك؛ فالجدل تطوّرا وارتقاء لا ينفصل عن الحُجّة، مع أنّ الحُجّة أساسا هي معلومة مستقلّة بذاتها، وستظل إلى أن تُستخدم أو تُوظّف جدلا، بما يقرّ حقّا أو يؤدّي واجبا، أو يُمكّن من حمْل مسؤولية، ومن ثمّ، فالحُجّة تُفحِم أو تُلزِم من كان على غير حُجّة حتى يُغيّر ما بنفسه، ومن هنا، تلد الموعظة والعبرة ارتقاء. وفي المقابل الجدل غِلظة يدخل المجادلين في حلقة الصّدام الذي كلّما انتهى بدأ.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن جدل حُجّة؛ فينبغي أن يكون على اللين مع تبيان الدّليل والبرهان شاهدا بين أيدي المتخالفين، ولنا في إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام القدوة الحسنة حينما جادل أباه آزر وهو يخاطبه بقوله، {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}172؛ فقوله وهو يجادله رأفة وودّا: (يَا أَبَتِ) وهو يكررها مرات (يَا أَبَتِ)، هي: بهدف صحوة أبيه آزر من الغفلة التي ألمت به، والجهل الذي استحوذ على عقله، وبخاصّة أنّ إبراهم لم يخفي علمه وحرصه ومحبّته له، ولذلك؛ كان ارتقاء إبراهيم مؤسّسا على عدم الإكراه؛ فالإكراه هو: حجّة من ليس له حُجّة، {وَلَوْ شَاءَ ربّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كلّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}173.

ولأنّه الجدل ارتقاء؛ فهو لا يكون إلّا عن صبر، وسعة صدر، بهدف استيعاب المختلفين، وأخذ الحجر من أيديهم التي به امتلأت، ولذا، ينبغي أن يمتلك المجادل المقدرة على استجلاب الدّلائل والبراهين لإثبات قضيّته،

---

172 مريم 42 . 45.

173 يونس 99.

وفكّ القيد عنها، مع فكّ اللبس والغموض عمّا يستخدمه من مفاهيم؛ وفي هذا الشأن أتذكّر تلك المجادلة التي جرت بين النبي إبراهيم ومن حاجّه في ربّه، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رِبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}174؛ فاللبس في ذهن من جادل إبراهيم في ربّه كان متعلّقا بمفهوم الإحياء والإماتة؛ فإبراهيم قال: (ربِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) وفي المقابل كان قول المجادل له: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ). واللبس هو: أنّ إبراهيم يجال بحجّة من يحيي ويميت، وفي المقابل فهم المجادل، أن الإماتة هي القتل، ولهذا، أجابه بقوله: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) أي: وكأنّه يقول: إذا أردت أن أقتل أحدا، قتله، وإذا أردت عدم قتله تركته حيّا. ولكنّ الفرق كبير بين القتل الذي يكون على أيدي المتقاتلين أو القتلة، وبين الموت الذي لا يكون إلّا بيد الله.

ومن ثمّ؛ فالحُجّة يمكن أن تكون مُعجزة تفحم المجادل بغير حُجّة، {قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}175، وفي المقابل يمكن أن تكون حلّا، ويمكن أن تكون موعظة، ويمكن أن تكون عبرة، ويمكن أن تكون دليلا ملاحظا أو مشاهدا (قولا وعملا وفعلا وسلوكا) {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا}176.

وعليه:

فالجدل تطوّرا هو ما ليس بتفاوض؛ بل هو: التوجُّه للنّاس بالحُجّة تطوّرا وارتقاء، وهي الحُجّة التي لا تقبل التنازلات، ذلك لأنَّ الحُجّة ينبغي أن يؤخذ بها، أمّا التفاوض؛ فلا ينتهي إلّا بتقديم التنازل الذي من وراءه تنازلات.

174 البقرة 250.

175 البقرة 158.

176 يوسف 26.

ولذلك؛ فالمجادلة تطوّرا وارتقاء فيها مكابدة وعُسرة، وهي في معظم الأحيان تستدعي تقديم المزيد من الحُجج الدّامغة التي لا تستفز أحدا، وبتقديم المزيد من الحجج ينبغي أن ينبهر الخصم بما يجذبه إلى الحقّ حُجّة بعد حُجّة.

ولذا؛ فالصّبر حُجّة المتجادلين؛ فعليهم به دون استرخاء؛ ولا داعي للقلق حتى وإن كانت الاستفزازات من ورائه، بل كلّما طال زمن التجادل والصّبر لم يفارق المتجادلين حُجّة بحُجّة كلّما اختنقت أنفاس من لا حُجة له.

ومن ثمّ؛ ففي المجادلة إصرار، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، أمَّا الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الرّكون إلى المحاجّة المنطقية، قد يضطروا إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلّا الخلاف والفرقة. ومن هنا، يصبح كلّ شيء ممكن سواء أكان متوقّعا أم غير متوقّع.

ولذا؛ فعندما تغيّب الحُجّة بين المتجادلين ارتقاء، يصبح المجال بينهم مفسوحا للخصام والاقتتال، ومن ثمّ؛ فالجدل وما فيه من شدّة؛ فهو منطق السّلام، الذي إن لم يؤخذ به، قد تصبح مصارف الدّم بين النّاس في حاجة للمزيد.

ومن هنا؛ فالمحاجّة تطوّرا وارتقاء ليست نقاشا بلا دراية، ولا مفاوضات بلا خبرة ولا مهارة، بل المحاجّة تحاور يتكئ على حُجج بيّنة بغرض تنقية الشوائب التي نُسجت بين المتخالفين أو المختلفين، الذين يميلون عن صائبة المطّلب والقول بعلل فيها علّة.

ومع أنّ الإنسان ارتقاء قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، وبين استفزاز الحاجات المتطوّرة في مقابل

قصور مشبعاتها؛ ممّا يدعوه إلى قبول التكيّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

ومع أنّ الإنسان خُلق على الارتقاء مقوّما، لكنّه لم يُخلق نسخة واحدة وكأنّه أوراق سحب، بل لكلّ خصوصيته التي بها يتميّز عن غيره كما غيره يتميّز عنه؛ فالنّاس مختلفون، ولكلّ بصمته الخاصّة التي لا تتكرّر، {وَلَوْ شَاءَ ربّكَ لَجَعَلَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ربّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}177؛ فما أعظم هذه الآية (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: مع أنّهم من نفس واحدة ولكنّهم لا يتطابقون، وإن تماثلوا صفة؛ فهم مختلفون بصمة ومقدرة وتذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، ولهذا؛ فهم يختلفون، وسيظلون مختلفين (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: أنّهم خُلقوا على الاختلاف الذي جعلهم في حاجة لحشد الطّاقات حيث لا إمكانية للتطوّر والبقاء بغير الاختلاف.

ولأنّهم خلقوا على الاختلاف؛ فهم في حاجة لِما يجمع شملهم متى ما اختلفوا، أو تخالفوا؛ فالمحاجّة والجدل جهود تُبذل لإظهار الحقّيقة التي لا تكون إلّا بامتلاك السّند الذي يَحتكم به ويُحتكم إليه، ومع ذلك تختلف المجادلة عن المحاجة من حيث كون المجادلة تتمركز على التمسّك بالحُجّة دون تفريط ولا يأس ولا قنوط، أمّا المحاجّة فالأمر يقتصر على تقديم الحُجّة لتكون شاهدة على القضية، ولمن شاء أن يحكم بها عدلا؛ فليحكم.

العبرة

قال تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ}178.

177 هود 118، 119.

178 - هود 50.

لقد لفت الله عزّ وجلّ أنظار البشر لأعمال وآثار الماضين منهم، بهدف التأمل والاتعاظ بما حل بتلك الأقوام من كوارث أصابتهم، وما نزل عليهم من العذاب، بسبب جحودهم وإعراضهم عن الإيمان بدعوات رسلهم الذين بعثوا فيهم، يدعونهم إلى توحيد الله، ويمنعونهم من التظالم والتنازع، ويحثونهم على الصدق والأمانة والإخلاص في العمل والإحسان إلى المستضعفين، فمن أخذ بذلك فقد نجا، ومن أعرض فقد حقّ عليهم القول من الله تعالى بما كانوا يصنعون

لقد كذبهم الله تعالى سواء لقوم هود أم غيرهم فيما كانوا يدعون هذه في آيات كثيرة، وذكر أن السبب في عدم أخذهم بالحقّ، إنما هو بما طُبع على قلوبهم بكفرهم، وليس تقصيرا في البيان والوضوح الذي جاء به هود صلّى الله عليه وسلّم.

إنّ الفتنة تكمن في مسايرة الواقع المنحرف، والتأثر بما كان عليه الآباء والأجداد من هذا الانحراف، فيأتي التمسك بهذا الانحراف من الأبناء، فيشتد هذا الواقع حتى يكون سببا للوقوع بالشرك الموجب للخلود في النّار نعوذ بالله تعالى، وهذا حال عاد قوم هود، فقد ذكر لنا القرآن الكريم أنهم احتجوا على هود صلّى الله عليه وسلّم عندما واجههم بالحقّ ودعاهم إلى التوحيد وترك الشرك، بأنهم لم يسمعوا بهذا في آبائهم الأوّلين، وكانوا يتواصون بإتباع ما وجدوا عليه آباءهم ويحرض بعضهم بعضا، وبذلك يثيرون نعرة الآباء والأجداد بينهم دون التمييز بين ما هو حقّ وما هو باطل. قال تعالى: {أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}179.

179 - الأعراف 70.

وعندما يضربّ الله لنا الأمثال في القرآن الكريم بالأمم السابقة، التي سادت ثم بادت، ويطلعنا على ما حل بهم من عقاب، كما يخبرنا بما كانوا عليه من القوّة والبأس وأن آثارهم في الأرض باقية من بعدهم، يسوق لنا الدليل الشاهد على اغتنامهم لأزمانهم وقضائها في أعمال مثمرة تعود عليهم بالفائدة ولكن:

. إمّا أنّهم مخالفون في العقيدة السليمة، مثل قوم هود.

. وإمّا مخالفة للعقيدة السليمة، مثل عمل قوم شعيب.

ولذا، يقول الله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قوّة وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}180.

فإنّ قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، لم يكن هلاكهم بسبب كسلهم أو تباطئهم عن أعمالهم، ولم نقف على أسباب هلاكهم مثل أسباب الأقوام التي تلتهم، كقوم شعيب الذين كانوا يبخسون النّاس أشياءهم، أو آل فرعون الذين عاثوا في الأرض فسادا واستعبدوا النّاس، وإنما كان بسبب كفرهم بالله وجحودهم للنعم التي أنعم الله بها عليهم، فهذه عظة وعبرة من أنّ عدم شكّر النعم مدعاة للهلاك.

أمّا من حيث العمل، واستغلال الوقت، والالتزام بتعمير الأرض، وتشييد الحضارات والمساهمة بنصيب وافر في التقدم العلمي الإنساني، فقد كانوا على قدر عظيم منها، ونصيب وافر بها، قال تعالى: {أَتَبْنُونَ بِكلّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا

180 - غافر 28.

اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}181.

فلما عتوا عن أمر ربّهم، وعصوا نبيهم كان ذلك أعظم ذنبا وأكبر جرما، إذ ليس بعد الكفر ذنب، فذكر الله تعالى عذابه الذي أنزله على عاد قوم هود بسبب كفرهم لا غير، حيث قال: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كلّ شَيْءٍ بِأَمْرِ ربّها فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}182.

فالريح هي الريح، تحمل السحاب لتسقي به أرضا ميتة، وتحمل حبوب اللقاح والطلع، وتحيا بها جميع الأحياء، فهي لن تدمر شيئا إلا بأمر ربّها، فسرت عليهم سنة الله التي تجري على الكافرين

إنّ عادا قوم هود كانوا من الجبابرة في القوّة والبأس والشدة قال تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}183.

وقال تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قوّة وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}184.

فهذا الكفر والاستكبار والعتو بقولهم (من أشد منا قوّة) هو بمثابة إعلان التحدي للخالق عزّ وجلّ، وهنا صدر الحكم من القضاء العدل، قال

181 - الشعراء 128- 134.

182 - الأحقّاف 24، 25.

183 - الأعراف 169.

184 - فصلت 15.

تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ}185.

وهنا تتجلى العبرة بأعظم صورة ممّا قدّر الله تعالى، أن عادا أشدّ النّاس قوّة، أهلكهم بألطف مخلوقاته.

كان هود صلّى الله عليه وسلّم رسول في قوم عاد، وهو من رُسُل الخصوص لهداية قومه إلى الحقّ في التوحيد والعقيدة، وفي كلّ ما يتصل بها أو يتفرع عنها من القيم والمبادئ، وفي كلّ ما يتعلق بتنظيم الحياة الإنسانية، بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والخالق عزّ وجلّ، ثمّ تخليص هذه الحياة من مسببات الفساد والإفساد، ومظاهر الانحراف أيّا كان نوعها أو حجمها أو امتدادها في مجالات الحياة.

إن دعوة هود صلّى الله عليه وسلّم، وإن كان عمقها يتمثل في الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، إلا أننا لم نقف من خلال قصة هود صلّى الله عليه وسلّم على شريعة كان يحملها لقومه على غرار الشرائع التي أتى بها الأنبياء من بعده صلّى الله عليهم وسلّم.

لقد اصطفى الله تعالى هودا رسولا لقومه (عاد) ليهديهم للتي هي أحسن فأمن من آمن منهم وأغلبهم كان من الكافرين؛ فكان هاديا لهم لعبادة الله وحده، وبيّن لهم كلّ افتراءاتهم التي افتروها كفرا وشركا وضلالا.

وبيّن لهم أنه لم يأتِ لهم رسول ضلال بل أنه رسول هداية، ولذا فهو لم يسألهم أجرا، بل أجره كان على الله ربّ العالمين الذي جعله على الفطرة ودين الفطرة الحقّ مصداقا لقوله تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ

185 - الحاقة 6- 8.

أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جميعا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَربّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كلّ شَيْءٍ حَفِيظٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كلّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}186.

وعليه لقد كان هود صلّى الله عليه وسلّم رسولا هاديا إلى كثير من الفضائل التي منها:

. الإيمان بالله وتوحيده وأحدا أحدا (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ).

. أن يستغفر قومه عن كلّ ما يرتكبوه ويتوبوا إلى الله تعالى فهو الغفّار الودود الرّحمن الرّحيم، (تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ).

. الرحمة لا تكون إلا من الله والكرم بالمطلق لا يكون إلا من الكريم المطلق فأنبأهم بواسع رحمته عليهم إن اهتدوا واستغفروا وتابوا عمّا يفعلون من أفعال ضلال وشرك وكفر، ولهذا يدعوهم إلى الإيمان وعدم العودة إلى ما

186 هود 50 . 60.

كانوا يرتكبون من أفعال جرائم، (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ).

ومع كلّ النصائح التي قدّمها هود لقومه (عاد) ونصحهم بها ضلوا على الضلال والتكذيب له في كلّ ما قاله لهم، بل اتهموه بأنه قد أصابه ما أصابه من ألهتهم بسوء، (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ).

وبعد كلّ المحاولات معهم أنذرهم بقوله تعالى: (قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جميعا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كلّ شَيْءٍ حَفِيظٌ).

ومع كلّ محاولات هود صلّى الله عليه وسلّم لهداية قومه فقد ضلوا وكذبوه وهم منه يسخرون {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ربّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بكلّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ}187.

وكانت النتيجة المترتبة على عصيانهم هي الرحمة بهود ومن آمن معه وكان الهلاك لهم خير جزاء، (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ

187 الشعراء 123 . 136.

وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كلّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا ربّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ).

**من**

## صفات النبي هود

### 1. نبي رسول:

النبي الرّسول هو من يظُهره الله على أنباء من أنبائه العظام ويُكلّفه برسالة لقومه أو شعبه أو قريته أو أمته أو الكافة كما هو حال سيدنا محمّد رسول الكافة صلّى الله عليه وسلّم.

وفي اللغة: هو الذي أمره المرسل بأداء الرسالة بالتسليم أو بالقبض. وفي الشريعة: إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام.

قال الكلّبي، والفراء: كلّ رسول نبي، من غير عكس. وقالت المعتزلة: "لا فرق بينهما، فإنه تعالى خاطب محمّدا مرة بالنبي، وبالرّسول مرة أخرى"188.

والنبي: من أوحي إليه وحيا خاصا من الله بتوسط ملك أو بإلهام في قلبه، أو بالرؤيا الصالحة.

وقد ختمت النبوّة وانقطع الوحي بخاتم الأنبياء محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فالرّسول أخص منه لان الرّسول هو من أوحي إليه بالرسالة، وأمر بتبليغها189.

الرّسول هو إنسان حرٌّ ذكر بالغ فطن أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه للعباد سواء أكان له كتاب أم لا.

---

188 التعريفات للجرجاني، ج 1، ص 36.

189 - معجم لغة الفقهاء، ج 2، ص 78.

فخرج الملائكة والجن فإن الله تعالى لم يرسل إلينا ملكا ولا جنيا، وخرج العبد لأن الرّسول لا يكون إلا حرا، وخرج الأنثى والخنثى والصبي، وخرج الأبله والبليد والمتنبئ وهو من يدعي النبوّة وهو كذاب، وخرج أيضا من هذا التعريف النبي لأنّه قال: "أمره بتبليغه" فالنبي هو إنسان حرٌّ بالغ فطن أوحى الله إليه بشرع وإن لم يؤمر بتبليغه للخلق؛ فالرّسول أخص من النبي والنبي أعم؛ فكلّ رسول نبي وليس كلّ نبي رسولا، فبعض النبي رسول وبعض النبي ليس برسول إذا لم يؤمر بالتبليغ190.

يقول تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}191 هذه الآيات الكريمة تبين أن هود صلّى الله عليه وسلّم من رسل الله، فهو يخبرهم أن الله تعالى أرسلني إليكم، رحمة بكم، واعتناء بكم، وأنا أمين، تعرفون ذلك مني، فأدوا حقّ الله تعالى، وهو التقوى، وأدوا حقّي، بطاعتي فيما آمركم به، وأنهاكم عنه، فهذا موجب، لأن تتبعوني وتطيعوني وليس ثَمَّ مانع يمنعكم من الإيمان، فلست أسألكم على تبليغي إياكم، ونصحي لكم أجرا، الخطاب هنا يتمثل فيه الجانب الإبلاغي في التعريف بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم وبالرسالة، ثم بعد ذلك يستمر الرّسول بالإبلاغ إلى أن يشاء الله تعالى ما يشاء، فرسالة هود صلّى الله عليه وسلّم كانت نهايتها الهلاك لقومه، إذ يقول تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}192

190 - تهذيب شرح السنوسية أم البراهين، ج 1، ص 107

191 - الأعراف 123 – 126.

192 - هود 58.

وكما كان الرّسول هو المعلم الأوّل، بعد الله سبحانه وتعالى: {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}193 وكان هو المربّى الأكمل، فمهمة المعلم كذلك أن يكون هو القدوة لتلاميذه فيما يربّيهم عليه من مكارم الأخلاق وأن يهتم بتربّيتهم عليها، ولا يكتفي بتلقينهم المعلومات وتدريبهم على الخبرات، فأيّا كانت قيمة تلك المعلومات والخبرات فهي وحدها لا تصنع (إنسانا) ولا تحرك البشرية إلى عمل واحد من أعمال الخير. إنما الذي يحركها إلى عمل الخير هو إيمانها بالقيم العليا والمبادئ الإنسانية. والمدفع هو المدفع، ولكنه في يد المؤمن أداة لتمكين الحقّ في الأرض وإقامة العدل الرّباني في حياة النّاس، بينما هو في يد الكافر أداة للبغي والظلم والطغيان في الأرض بغير الحقّ. وكذلك كلّ ثمار (التقدم العلمي) هي أدوات يمكن استخدامها للخير كما يمكن استخدامها للشر. والذي يحدد وجهتها وغايتها هو القيم الكامنة في قلب من يستخدمها.

من أجل ذلك كانت المهمة الأوّلى للتعليم ـ قبل إعطاء المعلومات وتكوين الخبرات ـ هي تكوين هذا القلب الذي سيستخدم المعلومات والخبرات، لكي يستخدمها للخير لا للشر، يستخدمها لنفع البشرية لا لضررها194.

سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت: كان خُلُقُهُ الْقُرْآنَ 195.

عبارة مختصرة جامعة. معناها أن الرّسول هو الترجمان الحي لكلّ ما ورد في القرآن من توجيهات وأوامر ونواه وقيم ومبادئ وأخلاقيات

193 - القلم 4- 5.

194 - ركائز الإيمان، ج 1، ص 251

195 - مسند الإمام أحمد، ج 42، ص 183.

فإذا كان القرآن هو كتاب التربّية المنزل من السماء، فالرّسول هو النموذج الكامل هذه التربّية الرّبانية بجميع حذافيرها، ومن ثم فإن سيرته تشتمل على كلّ العناصر المطلوبة لتربّية المسلمين وفى أي جانب من جوانب التربّية بحث الإنسان، فسيجد في شخصية الرّسول وفى تعاليمه وتوجيهاته ومواقفه العملية كلّ ما يحتاج إلى معرفته في ذلك الجانب الصدق، الأمانة، التوقّي، نظافة الظاهر والباطن، عمق الإيمان بالله، الإسراع لتلبية داعي الله، الشجاعة، الصبر، الحكمة، الزهد، لباقة القول، حسن التصرف، لطف المعشر، لين الحب وحزم الجد.. الاتزان والتوسط في كلّ أمر.

والرّسول: هو من بعثه الله عزّ وجلّ إلى المخالفين ليبين لهم الدين والنبي: هو المخبر عن الله عزّ وجلّ فكلّ من أوحى إليه الله، فهو نبي بُعث إلى أهل الدين يحتاجون إلى النبي يأمرهم وينهاهم ويذكرهم لذا قال سبحانه وتعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}196.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ) أيها المسلمون عمومًا والعربّ خصوصا. (رَسُولٌ) الرّسول هو: من أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه.

وأمّا النبي فهو: من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.

هذا التعريف المشهور عند أهل العلم، ويذكره المفسرون عند قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

196 - الحشر 7.

حَكِيمٌ}197 فالرّسول: هو الرجل المبعوث من الله إلى النّاس بشريعة. والنبي: مَن أوحَى الله إليه بإصلاح أمر قوم بحملهم على شريعة سابقةٍ أو بإرشادهم إلى ما هو مستقر في الشّرائع كلّها.

وقد يوحى إلى النبي وحي خاص في بعض القضايا، لكن الغالب أنه يُبعث بشريعة سابقة، كأنبياء بني إسرائيل، أما الرّسول فإنه يُبعث بشريعة مستقلّة.

والمراد بتبليغه هنا: الجهاد والإلزام، أي: أُمر أن يُلزم النّاس بإتباعه، ويجاهدهم على ذلك، خلاف النبي فإنه يؤمر بالتبليغ، بمعنى: تعليم النّاس شرع من قبله وإفتائهم فيه. وهذا مأمور به غير الأنبياء، حتى العلماء.

فالتبليغ الذي معناه التعليم والإفتاء، وبيان الحلال والحرام والحقّ من الباطل، هذا مأمور به كلّ من عنده علم، إنما المراد بالتبليغ هنا: التبليغ الخاص الذي هو الإلزام، والجهاد على ذلك. والنبي أيضا يجاهد. لكن يجاهد على شرع من قبله.

{مِنْ أَنْفُسِكُمْ} أي: من جنسكم من العربّ، تعرفون لسانه، ويخاطبكم بما تعرفون، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}198، فهذا من نعمة الله أن جعل هذا الرّسول عربيًّا يتكلّم بلغتنا، ولم يجعله أعجميا لا نفهم ما يقول، ولهذا قال: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}199.

---

197 - الحج 52.

198 - إبراهيم 4.

199 - فصلت 44.

وما جاء به الرّسول هو:

الدعوة إلى التوحيد والدعوة إلى إفراد الله بما يستحقّه من الأسماء والصفات والرّبوبية والألوهية وترك الشرك وأهله، الدليل على ذلك قوله: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَربّكَ فَكَبِّرْ}200 أي عظمه بالتوحيد.

إنّ الرّسول هو الذي يرسل إلى أمة كافرة فيؤمن به بعضهم ويكفر به بعضهم، نوح صلّى الله عليه وسلّم أرسل إلى الكفار، آمن به بعضهم وكفر به بعضهم، هود رسول، صالح رسول.

والذين أرسلوا بشرائع يرسلون إلى أمم كافرة، وينزل عليهم شرائع، أوامر ونواهٍ، يؤمن به بعضهم، ويكفر به بعضهم، مثل نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونبينا محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

أمّا النبي فهو الذي يرسل إلى قوم مؤمنين أصلا . ولا يرسل إلى الكفار . يرسل إلى قوم مؤمنين، ويكلّف بالعمل بشريعة سابقة، فمثلا آدم صلّى الله عليه وسلّم نبي، لكنه نبي إلى بنيه، ولم يقع الشرك في زمانه، وشيث نبي.

ولهذا كان نوح أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد وقوع الشرك، فنوح أوّل رسول بعثه الله بعد وقوع الشرك، ولأنه أرسل إلى بنيه وإلى غير بنيه، أما آدم قبله، وكذلك أيضا شيث قبله، لكن ما وقع الشرك، وإنما وقعت المعاصي كما قتل قابيل أخاه هابيل.

ولهذا قال الله سبحانه: (كَانَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ)

وقال: (وَمَا كَانَ النّاس إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا).

---

200 - المدثر 1 – 3.

وبالمثل داود وسليمان أنبياء؛ لأنهم كلّفوا بالعمل بالتوراة جميعا إلى بني إسرائيل الذين جاءوا بعد موسى، داود وسليمان وزكريا ويحيى كلّهم كلّفوا بالعمل بالتوراة حتى جاء عيسى، هؤلاء هم الأنبياء، فالأنبياء على هذا.

فالصواب الذي أقره وحكمه أهل العلم: أن الرّسول هو الذي يبعث إلى أمة من أهل الشرائع الكبيرة، الذين يرسلون إلى أمم، إلى أمة كافرة، يؤمن به بعضهم ويكفر بعضهم.

والأنبياء هم الذين يوحى إليهم، ويرسلون إلى المؤمنين خاصة، ويكلّفون بالعمل بشريعة سابقة.

ولما كانت أساليب الشدة والعنف في تربيّة النّاس منفرة لنفوسهم، عقيمة الإنتاج فقد أرشد الله تبارك وتعالى رسله إلى اتخاذ أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن في توجيهها وتعليمها وتأديبها ثم التدرج بهم إلى كلّ ما من شأنه أن يحقّ الحقّ ويزهق الباطل ولو كره المجرمون، لذلك نلحظ أن الله الجنّة أمر رسله صلّى الله عليهم وسلّم باتخاذ الحكمة في دعوتهم، وهذا ما كان واضحا في أسلوب النبي هود صلّى الله عليه وسلّم.

وقد كان لنبي الله هود صلّى الله عليه وسلّم منهجه الأساس من تكلّيفه في دعوة قومه إلى توحيد الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، وكان ينذرهم بأس الله ويضربّ لهم المثل بقوم نوح، ويذكرهم بنعم الله تعالى عليهم حيث زادهم في الخلق بسطة وجعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح، وبوأهم أرضا مثمرة تدرّ عليهم الخير الكثير، وتنبت لهم الزرع الذي يعيشون به، والكلّأ الذي تعيش به أنعامهم وماشيتهم، فأخبرهم بواجب الشكّر تجاه هذه النعم التي أصبحوا بها أوّلي قوّة، وهنا يكون الواجب عليهم أن يستعملوا هذه القوّة التي خولهم الله إيّاها في طاعة الله، ولم يعطها لأحد سواهم، وأن

يستعملوا عقولهم التي هي إحدى نعم الله عليهم، بأن يفكّروا بها ليتبيّنوا أن ما يعبدونه من دون الله لا يملك لهم ضرا ولا نفعا، وأن الذي ينفع ويضر هو الله وحده الذي خلقهم وأعطاهم القوّة التي يفتخرون بها، وهو الذي بيده إحياؤهم وإماتتهم، وأنهم إذا تابوا إليه ممّا سلف من الكفر تاب الله عليهم وأغدق عليهم نعمه ظاهرة وباطنة وأمدّهم بقوّة إلى قوتهم وبزيادتهم عزّا إلى عزّهم، وهو لا يطلب منهم جزاءً ولا أجرا، وإنما أجره على الله، ولا يطلب منهم حمدا ولا شكّورا، وإنما الحمد والشكّر منهم لله تعالى الذي خوّلهم ما هم فيه، وهذه سنن النبوّة والرسالات أن الأنبياء والرّسل صلّى الله عليهم وسلّم لا يطلبون أجرا ولا مالا ولا زعامة، وإنّما دعواهم خالصة لله والدار الآخرة، ولكنهم سفهوه وكذّبوه وتجاهلوا الحجج التي جاء بها من الله تعالى والبراهين القاطعة التي أقامها على صدق ما يدعوهم إليه، فكانت إجابتهم: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}201.

إلا أنّ هودا صلّى الله عليه وسلّم بيّن لهم الغرض الذي يدعوهم من أجله والغاية التي يصبو إليها في دعوتهم بمنهج متكامل حكاه الله تعالى بقوله: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ ربِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ ربّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}202.

201 - هود 53.

202 - الأعراف 65- 69.

هذه الآيات وضحت أسس المنهج الذي اتبعه نبي الله تعالى هود صلّى الله عليه وسلّم في دعوة قومه إلى ما فيه نجاتهم بما يحمل المنهج من قضايا وما يتصف به هود صلّى الله عليه وسلّم من صفات، منها:

. الرفق بهم خوفا عليهم وحبا بهم كونهم قومه.

. الصبر على دعوتهم ونصحه لهم.

. التوكلّ على الله في تبليغ الرسالة.

غير أنّ قوم هود صلّى الله عليه وسلّم أعرضوا عن دعوته وكذبوه ولم يستجيبوا على ما سمعوه من الحقّ والنصح، ولذا كانت كلّمة (أفلا تعقلون) لها دلالة كبيرة في مواجهة موقفهم بما صدّوا عن دعوة الحقّ.

إنّ النتيجة التي يتوصل إليها العقل السليم هي أخذ النصيحة والاعتبار بالآخرين، لاسيما إن كانت النصيحة تصدر عن واحد من أبناء القوم مشهود له بالصدق والأمانة، ومن ثمّ النظر في عواقب الأمور، وإلا لم تكن للإنسان الذي خصه الله بالعقل مزية على غيره من المخلوقات الأخرى.

ومن هذا نتبيّن أن نبي الله هود صلّى الله عليه وسلّم وضع أمام قومه منهجا وجب عليهم أن يسلكوه، ولكنه أبوا. وهذا المنهج على بساطته وعلو قدره وعظيم فائدته أظهر سفه قوم هود عندما اتخذوه وراءهم ظهريا.

ويتمثل منهج هود صلّى الله عليه وسلّم الذي طلب من قومه تطبيقه والالتزام به، وهو أوّل المطبقين لما أخبرهم به، وأوّل الملتزمين بما أعلمهم بأمور عقدية ودنيوية وأمثال وعبر من أجل النصح والإرشاد والاتعاظ، كي يعدلوا عمّا هم عليه ويرجعوا ممّا هم فيه منها:

. العبادة لله وحده.

. عدم إشراك أي مخلوق مع الخالق.

. الابتعاد عن الظلم.

. تحذيرهم بأس الله تعالى.

. ضربٌ لهم الأمثال بمن سبقهم.

. ذكرهم بنعم الله تعالى عليهم.

. بيّن لهم أنه لا ضار ولا نافع إلا الله تعالى.

فقد أرسل الله تعالى إلى عاد أخاهم هودا صلّى الله عليه وسلّم، يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن الأوثان التي افتروها على الله تعالى واختلقوا لها أسماء الآلهة، وهو لا يريد على هذا النصح والبلاغ إلا هدايتهم رجاء خلاصهم من الكفر والشرك.

وإن كان ثمة ثواب، فإنّما يرجوه من الله تعالى الذي فطره على الفطرة السليمة، ولما كان إعراضهم ظاهر بادٍ واستنكروا منه ذلك، اتهمهم بعقولهم لا على سبيل الخبل والجنون، وإنما من قبيل عدم التمييز بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، فهو يدعوهم إلى ما يصلح لهم دنياهم وآخرتهم من غير أجر، بدليل أنه طلب منهم أن يستغفروا لتكفير الذنوب، فلو كانوا عقلاء، لأدركوا أن الاستغفار لا يعود على هود بشيء، ولا هم يخسرون به شيئا، فعندما رفضوا ذلك، وهو واضح جلي أنه لا نفع يعود على هود صلّى الله عليه وسلّم من استغفارهم، ولا هم يخسرون شيئا ومع ذلك أبوا قال لهم (أفلا تعقلون).

إنّ هودا صلّى الله عليه وسلّم كان الهدف الأساس في دعوته لقومه هو التوحيد وعبادة الله وحده وعدم الشرك به، فهم بقربهم من قوم نوح الذين كانوا يشركون بالله تعالى كأنهم أخذوا هذا الشرك عنهم، وقد جاء نوح

صلّى الله عليه وسلّم ليضع قومه على الطريق الصحيح وينتشلهم من الشرك وعبادة الأوثان، فكأن قوم هود ورثوا ذلك عن قوم نوح، ورسالة نوح خاصة بالتوحيد والدعوة إلى الله تعالى، ولذا نلاحظ رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم لقومه لا تحمل قضية أخرى غير التوحيد، فليس هناك بخس ولا ظلم أو استعباد لأحد، وإنما هم بخير من كلّ أمور الدنيا إلا أنهم يشركون بالله، فبعد الشرك لا ينفعهم عدل ولا صلة رحم ولا إنفاق، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ}203.

وعليه فإنّ لرسالة هود هدف واضح هو:

لقد اختار الله تعالى هودا صلّى الله عليه وسلّم من قومه لينذرهم ويحذرهم عذاب الله، لأنّهم تمادوا في غيهم وضلالهم وأوغلوا في الكفر من عبادة الأوثان والشرك بالله تعالى. وقد اجتمع معظمهم على تكذيبه وعدم التصديق بدعوته واحتقار من ابتعه من المؤمنين، ثُمّ أنهم تعجبوا بعد ذلك أن يكون وأحدا منهم، هو المختار من بينهم لهدايتهم، قال تعالى: {أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ ربّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}204.

وكذلك أنفوا واستكبروا أن يَدَعوا ما كان يعبد آباؤهم، ويتوجهوا إلى عبادة إله واحد هو الله تعالى الذي أمدهم بالرزق والقوّة وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح.

203 - التوبة 54.

204 - الأعراف 69.

إن مسألة خلافة قوم هود لقوم نوح في الأرض، وقربّ بعضهم من بعض في الفترة الزّمنية، جعلت قوم هود يرثون أشياء كثيرة عن قوم نوح منها:

. عبادة الأوثان والشرك بالله تعالى.

. التكبر والاستعلاء.

. الجدل بالباطل.

ولذا كان هدف رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم أن ينتشل قومه من براثن الكفر والشرك، وأن يضعهم على جادة الصراط المستقيم بالهداية والرشاد وصولا إلى التوحيد.

إن الله سبحانه وتعالى بعث الأنبياء والمرسلين لهداية النّاس، وكلّ نبي أو رسول يكون له مهمة إمّا:

. في الخصوص.

. وإمّا في العموم.

. وإمّا للكافة.

ولما كان هود صلّى الله عليه وسلّم رسول في قوم عاد فإنه من رسل الخصوص لهداية قومه إلى الحقّ في التوحيد والعقيدة، وفي كلّ ما يتصل بها أو يتفرع عنها من القيم والمبادئ، وفي كلّ ما يتعلق بتنظيم الحياة الإنسانية، بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والخالق عزّ وجلّ، ثمّ تخليص هذه الحياة من كلّ مسببات الفساد والإفساد، ومظاهر الانحراف أيّا كان نوعها أو حجمها أو امتدادها في مجالات الحياة.

إن دعوة هود صلّى الله عليه وسلّم، وإن كان عمقها يتمثل في الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، إلا أننا لم نقف من خلال قصة هود صلّى الله

عليه وسلّم على شريعة كان يحملها لقومه على غرار الشرائع التي أتى بها الأنبياء من بعده، كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلّى الله عليه وسلّم وعليهم أجمعين.

ومع هذا فإنّ دعوة التوحيد لهود صلّى الله عليه وسلّم وإن لم تحمل شريعة من الأمر،

غير أن جميع الرّسل أرسلهم الله تعالى بمبدأ واحد لا اختلاف فيه من حيث الزمان أو المكان أو الأقوام والأمم التي أرسلت إليها الرّسل، حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كلّ أُمَّةٍ رسولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حقّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}205.

فعبادة الله تعالى هو جانب الخير الذي تحمله جميع الرسالات وأمرت باتباعه، واجتناب الطاغوت هو جانب الشرّ الذي أمرت جميع الرسالات بتجنبه والابتعاد عنه.

وعليه:

إنّ أي رسالة سماوية بدعوتها إلى التوحيد، إنما لها صفات تحمل دلالات عميقة ضمن التوحيد تدل على مبلغ إسهامها في تغيير الواقع من الشرك إلى التوحيد، وعلى أهدافها في مجالات الحياة، وعلى هذا فإنها تدعو إلى:

. الهدى.

. البصيرة.

. النور.

205 - النحل 36

. البينة.

. الصراط المستقيم.

. المحجة البيضاء.

شأنها في الخصوص شأن جميع الرسالات السماوية في العموم، وقد حملت رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم إلى قومه عاد كلّ ما تقدم ذكره ضمن عبادة الله الواحد الأحد، ذلك أن التوحيد يكون مرجعا في الحكم على جميع القضايا الدنيوية والأخروية، بحيث يبيّن قواعد العقيدة السليمة التي تنطلق من حقّيقة واحدة مصدرها إله واحد، قال تعالى: {وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}206.

من المسلم به أن تحقّيق تلك الغاية التي بُعث هود صلّى الله عليه وسلّم من أجلها، ليس لها إلا طريق واحد هو الإيمان بالله تعالى، وبما يليق بهذا الإيمان، ومن ثمّ فإن هذه القضية تعد بيت القصيد في أي منطلق من منطلقات العقيدة الدينية الصحيحة والسليمة.

وعلى هذا، فإن الضرورات العقلية والعقدية تقضي الآتي:

آ . إذا كان هدف الرسالة هو إفهام النّاس بأمور العقيدة الصحيحة كما ذكرنا، فمن المستحيل أن يكون هود صلّى الله عليه وسلّم، قد ترك أية قضية من قضايا العقيدة وإن لم يكن لديه شريعة، سواء أكانت متعلقة بها، أم منبثقة عنها، دون أن يكون قد أوضحها غاية الوضوح وبينها غاية البيان لقومه.

ب – وإذا كانت قضية الإيمان بالله تعالى، هي أم القضايا ورأس الأمر كلّه وذرة التوحيد، فإنه يصبح من أشد الضرورات تأكيدا، أن يكون هود صلّى

206 - النحل 51

الله عليه وسلّم قد وفّاها حقّها، ولم يترك فيها لا شاردة ولا واردة إلا وأعطاها حقّها من البيان والتوضيح والشرح.

إن الرّسل صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين بعثوا إلى أمم متعددة وشعوب متفرقة ومختلفة في كثير من الأشياء، يكون هذا الاختلاف آية من آيات الله، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ}207.

فإن كان اختلاف الألوان معلوم ومعرف، فإن اختلاف اللسان قد يشكّل على البعض، عندما يفهم ذلك على أنه اختلاف في الأحرف والكلّمات، ولكن اختلاف الأحرف والكلّمات إنما هو جزء من اختلاف اللسان، ذلك أن اللسان المادّي هو ترجمان اللسان المنطقي للغة التفكير الإنساني في الطريقة والمنهج والأسلوب.

فهذه الأمم والأقوام ذات ثقافات ومناهج وطرق متنوعة في التفكير والتعامل مع القضايا الإنسانية والاجتماعية والعقدية، ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أنه لم يبعث نبي أو رسول في قوم أو أمة إلا منهم لهذه الأسباب، فيكون على معرفة بتاريخهم وحاضرهم وطرق تفكيرهم، وبذا يُحسن التعامل معهم، فلذلك تضمنت رسالة كلّ رسول القائمة على التوحيد الذي يؤدّي إلى التغيير أن يخطو خطوات مع قومه في اتجاه التغيير منها:

. التغيير الفكري.

. التغيير العقدي.

. التغيير الاجتماعي.

---

207 - الروم 22

وبصرف النظر عمن اتبع أو اعرض، فإن هذه الخطوات موجودة في أي رسالة عند أي رسول، ومنهم هود صلّى الله عليه وسلّم الذي سعى إلى:

. هدم المناهج الباطلة السائدة في قومه ومجتمعهم.

. بناء المنهج الصحيح البديل بتأصيله وتعميقه.

وبذلك يكون هود صلّى الله عليه وسلّم قد وضع أسس العقيدة للخطوات الممهدة للرسالة والتي تقوم عليها فيما بعد منها:

. هدم وبناء

. إبطال وتأسيس

. إخلاء وإحلال

. تفكيك وتركيب.

وهذا هدف رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم وضحها لقومه من خلال كلّمة التوحيد (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

فما لهم عليه إلا أن يدعوهم ويبيّن لهم، وما له عليهم إلا أن يؤمنوا أو يكفروا، هود صلّى الله عليه وسلّم:

. صدع بما أُمر.

. وضح الدعوة.

. جاء بالبيّنة.

. أقام الحجة.

فمنهم من آمن ومنهم من كفر، قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}208.

وهذه مهمة الرّسل في تبيين الرشد من الغي والدعوة إلى الصلاح، فمن كان يشكّلّ عليه الرشد والغي ولا يستطيع أن يميز بينهما، فقد انجلى الرشد وامتاز عن الغي بما يبيّنه النبي المرسل حتى لا تكون للناس على الله حجة بعد الرّسل.

ولما بيّن هود صلّى الله عليه وسلّم لقومه المنهج الذي جاء به من خلال التوحيد، وما يطلب على ذلك من أجر، لأن أجره على الذي فطره الفطرة السليمة كما أخبرهم، وبذا بدأ بهدم العقيدة الفاسدة التي يعتقدها قومه، وتأسيس العقيدة الصحيحة، بحيث نتج عن ذلك انشعاب في مجتمع قومه:

. قبول ورفض.

نتج عنه:

. إيمان وكفر.

فآمن قسم من قومه، فنالوا جزاء إيمانهم في الدنيا أن أنجاهم الله تعالى من العذاب، وأمّا القسم الآخر فنالوا جزاء أيضا لعدم إيمانهم، لأن الإيمان جاءهم ولم يأخذوا به، قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

---

208 - البقرة 256

وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كلّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}209.

## 2 . متوكلّ على الله:

المتوكلّ على الله هو الذي لا يلتفت إلى غير الله في شيء؛ فهو الذي يَقدِمُ على الأعمال الحِسان وله الصفات الحسنى المستمدة من صفات الله الحُسنى، فلا يخاف أحد غير الله ولا يعبد أحد إلا الله ولا يطيع أحد بالمطلق إلا الله ولا ينظر لأحد بنظرة الكمال إلا لله وحده، ولذا فهو الذي يشاور ويحاور ويجادل في سبيل الحقّ وينذر به ويبشّر به ويُحرّض عليه، وإذا عزّمَ في ذلك يتوكلّ مهما كره الكارهون وكاد الكائدون ومكر الماكرون فهو متوكلّ على خير الكائدين وخير الماكرين الله ربّه.

التوكلّ سمة من سمات الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، فهم رُسُل الله تعالى ينظر إليهم النّاس جميعا وعقولهم وقلوبهم ترى أن ما أمامهم يمثل جزء مهما من دعوة الله تعالى، ولهذا كان خطاب الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم يدور في فلك الدعوة ويستنطقها بشكّلّ تتمثل فيه الدعوة، ولهذا نجد أن خطابهم صلّى الله عليهم وسلّم تتمحور فيه كثير من القضايا التي تكوّن أحد طروحات دعوتهم، ومن بين هذه الطروحات أنه متوكلّ على الله تعالى، فمن خلال ذلك هو يدعو إلى أن العبد يجب أن يتوكلّ على الله تعالى في أموره كلّها، فإبراهيم صلّى الله عليه وسلّم يخاطب قولهم فيقول لهم: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

---

209 - هود 58- 60

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ}210، ويعقوب صلّى الله عليه وسلّم يرشد أبناءه إلى التوكلّ على الله تعالى وفي الوقت نفسه يجعل منها دعوة إلى التوكلّ على الله تعالى، إذ يقول تعالى: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}211، هذا النسق الدعوي يدعو إلى التوكلّ على الله تعالى كونه احد عناصر الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

يتشكّلّ التوكلّ مع عدة أمور يلتف حولها وتلتف حوله ليظهر للتوكلّ عدة أمور منها:

. التوكلّ هو تفويض الأمر إلى من يملك الأمر ويقدر عليه.

. التوكلّ هو الانقطاع بالكلّية عما سوى الحقّ وهو آخر الطريق والله ولي التوفيق.

. التوكلّ هو الحامل للأعمال كلّها، فلا توجد ولا تكمل إلا به.

. التوكلّ هو اعتماد القلب على الله تعالى، في جلب المنافع، ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبة، فإنه عزّيز رحيم، بعزّته يقدر على إيصال الخير، ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به، يفعل ذلك.

. إنّ حقّيقة التوكلّ أنه طلب نصر الله وتأييده في الأمر الذي يُرغب حصوله، وذلك داخل في الاستعانة وهو يستلزم الصبر على الضر لاعتقاد أنّه زائل بإذن الله.

---

210 - يونس 71 – 73.

211 - يوسف 67.

هذه الأقوال تطرح التوكلّ من بين أساليب الدعوة، ولهذا نرى أن دعوة هود ظهر فيها الأمر بوصفه أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله تعالى، إذ يقول تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ ربّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رزقا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}212 الاعتماد في ذلك معرضا عما عداه فانه القادر على كلّ مقدور وما عداه عاجز محض في حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمعزّل عن رتبة الاستمداد به في الاستظهار {واليه أنيب} أي ارجع فيما أنا بصدده في جميع أموري ويجوز أن يكون المراد وما كوني موفقا لإصابة الحقّ والصواب في كلّ ما أتى وما اذر إلا بهدايته ومعونته عليه توكلّت وهو إشارة إلى معرفة المعاد والتوكلّ على ثلاثة أوجه.

توكلّ المبتدي وهو ترك الأسباب في طلب المعاش. وتوكلّ المتوسط هو ترك طلب المعاش في طلب العيش مع الله. وتوكلّ المنتهى وهو استهلاك الوجود في وجود الله وإفناء الاختيار في اختيار الله ليبقى في هويته بلا هو متصرفا في الأسباب وان لا يرى التصرف والأسباب إلا لمسبب الأسباب213.

والجرجاني في تعريفاته يعطي معنى التوكلّ بقوله: "التوكلّ هو الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي النّاس"214؛ فأنه قد أدخله بين أمرين:

. الثقة.

. اليأس.

---

212 – هود 88.

213 – تفسير حقّي، ج 5، ص 489.

214 – التعريفات للجرجاني، ج 1، ص 97.

هذه المقارنة تطرح الإيمان وفق سياقين يكون النظر فيهما فيه كلّ أبواب التبصر والاتعاظ، فضلا عن الإيمان الذي يتأكد وفق معطيات واضحة تزحزح ما يشكّك الثقة بالله تعالى، ويمسح ويدفع اليأس إلى أعماق سحيقة لا تقم له قائمة بعد ذلك.

إنّ التوكلّ على الله هو السبب في دفع المكروهات. فإن يعقوب لم يقل لن أرسله معكم فقط بل اعتمد على الله تعالى بقوله: {فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} فتوكلّ يعقوب على الله عزّ وجلّ.

وردت لفظة (حسبي) مع التوكلّ على الله تعالى، في قوله تعالى: {إِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكلّتُ وَهُوَ ربّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}215

وقوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكلّ الْمُتَوَكلّونَ}216.

إذن كلّمة (حَسْبِيَ) دائما ترافقها كلّمة (اللَّهُ) تعالى، أي (حَسْبِيَ اللَّهُ) وهل يوجد غير الله لنلتجئ إليه وندعوَه؟ وكما نلاحظ كلّتا الآيتين فيهما أمر آخر هو التوكلّ على الله تعالى، وليؤكد لنا أن التوكلّ لا يكون إلا على الله. إذن ارتبط الالتجاء إلى الله بالتوكلّ على الله! فمن أراد أن يلتجئ إلى الله تعالى فعليه أن يتوكلّ على الله، فلا فائدة من التجاءٍ لا توكلّ معه.

كما أن الآية الأوّلى جاء التوكلّ فيها على لسان النبي الكريم عليه صلوات الله وسلامه، وهذا تشريفا لمقامه ومنزلته عند الله عزّ وجلّ. بينما في الآية الثانية جاء التوكلّ على لسان المؤمنين، وفي هذا إشارة لطيفة إلى ضرورة أن

215 - التوبة 129.

216 - الزمر 38.

يبدأ الإنسان بنفسه ثم بالآخرين، وهذا أسلوب عظيم في التربّية. ولذلك جاء التدرج البياني للآيتين مبتدئا بالرّسول الأعظم الذي هو مثال ونموذج وقدوة من أراد أن يتوكلّ على الله، ثم من بعده البشر هكذا:

عَلَيْهِ تَوَكَلّتُ.

عَلَيْهِ يَتَوَكلِّ الْمُتَوَكلّونَ.

وممّا فسر – إذا صح التعبير – من الآيات الكرام أستطيع أن أستنتج التوجيهات الإلهية التالية:

إن من يتوكلّ على الله حقّ التوكلّ لا يضل ولا يشقى فهذا موسى عليه السلام خرج من مصر خائفا ليس معه مالٌ أو طعام فدعا ربّه متضرعا "عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل" فهداه الله بفضله وبرحمته وكذلك المحسنين.

إنّ الله سبحانه وتعالى لا يترك عباده الصالحين يتخبطون في ظلمات الليالي فموسى صلّى الله عليه وسلّم أحس بأن الأرض ضاقت بما رحبت وأنه قد ابتلى بهذه الجريمة التي ارتكبها عن غير قصد فساق الله إليه رجلا فنصحه بالابتعاد عن مصر خوفا من أذى فرعون وآله فنجى موسى من هذا الشرك بفضل الله تعالى ورحمته وكذلك المحسنين.

إنَّ التوكلّ من أَعمّ المقامات تعلُّقا بالأَسماءِ الحسنى، فإِنّ له تعلُّقا خاصّا بعامَّة أَسماءِ الأَفعال، وأَسماءِ الصّفات، فله تعلُّق باسمه والرزَّاق، والمعْطِى؛ وتعلّق باسمه المعِزّ والمذِلّ، والخافض والرَّافع، والمانع من جهة توكلّه عليه فى إِذلال أَعداءِ دينه ومنهم أَسباب النصر وخفضهم؛ وتعلُّق بأَسماءِ القُدْرة والإِرادة، وله تعلُّق عام بجميع الأَسماءِ الحسنى، ولهذا فسّره من فسّره من الأَئمة بأَنَّه من المعرفة بالله، وإِنما أراد أَنَّه بحسب معرفةِ العبد يصحّ له مقام التَّوكلّ، فكلّما كان بالله أَعرف كان توكلّه عليه أَقْوَى. وكثير من المتوكلّين

يكون مغبونا في توكّله، وقد توكلّ حقّيقة التوكلّ وهو مغبون، كمن صرف توكلّه إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوّة توكلّه ويمكنه فعلها بأَيسر شيء، وتفريغُ قلبه للتوكلّ في زيادة الإيمان والعلم ونُصْرة الدّين والتأْثير في العالم خيرا، فهذا توكلّ العاجز القاصر الهمَّة؛ كما يصرف بعضهم توكلّه ودُعاءَه إلى وَجَع يمكنُ مُداواتُه بأَيسر شيء، أَو جوع يمكن زوالُه بنصف درهم، ويَدَعُ صَرْفَه إلى نُصرة الدِّين وقَمْع المبتدعين ومصالح المسلمين217.

عرضت سورة يونس قصص بعض الأنبياء الذين توكلّوا على الله فنجاهم الله تعالى وقد عرضت السورة الجزئية الخاصة بالتوكلّ في كلّ قصة من القصص المذكورة وهذا لخدمة هدف السورة. وهذه القصص تؤكد أن المؤمنين بقضاء الله وقدره يتكلّون على الله والذين لا يؤمنون هم المشكّكون والمجادلون في حكمة الله وعدله:

قصة نوح الذي توكلّ على الله تعالى فأنجاه الله ومن معه، إذ يقول تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ}218.

قصة موسى مع فرعون، يقول تعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ فَقَالُواْ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ربّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}219.

وعليه، فالوكيل هو من يحمل الأعباء نيابة عمن لا مقدرة له بها، فمن اعتمد عليه أعزه ومن اتخذه وكيلا نصره، فجنوده يملؤون الزمان والمكان،

---

217 - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج 1، ص 1609.

218 - يونس 71.

219 - يونس 84 – 85.

وهو القوي العزيز الذي لا يحتاج لجنود ينصرونه، ولكن على سبيل طمأنة المتوكلّ عليه حتى لا يدخل قلبه أقل من ذرة شكّ من أنّ الوكيل يتركه لتوهم أن الوكيل ينساه فهو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادون إيمانا بأنّه الوكيل ولا يرتابون ولا يقع في قلوبهم الخشية من قوّة الظلم مهما أعدّ لأنه ضعيف بتدبيره وعاجز في تفكيره ومهما جمع فهو قليل بجمعه ذليل بما يتوهم أن فيه العز قال تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}220، فتعالوا يا أهل الذل الذين جمعتم لأهل العز، أجيبوا علينا:

- هل تعلمون عددا لجنود الوكيل؟

-هل تعلمون مقدارا لقوّة جند الوكيل؟

-هل لديكم عزة الوكيل التي يهبها للمتوكلّ عليه؟

- هل لديكم القدرة في الجمع بين العزة والحكمة كما هو الحال فيمن نتوكلّ عليه (وكان الله عزيزا حكيما)؟

إنّ إجابتكم بالقطع ستكون بالنفي: لا نعلم ... لا نعلم ... لا نعلم.

أمّا نحن المتوكلّين عليه فنعلم عدد جنوده، فهي فوق العد وخارج حدود الإحصاء، لذا فنحن مطمئنون بتوكلّنا عليه ونعلم أن جنود ربّنا لا يعلم عددها إلا هو. {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}221.

وجند ربّنا الوكيل قد ترى، وقد لا ترى فهي متعلقة بقوّة الله الذي لا تدركه الأبصار ولا تحيط بقدرته البصائر، فمن جنده المدركة بصرا الريح قال

220 لسان العربّ، ج 11، ص 735.

221 المدثر 31

تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا}222

ومن غير المشاهدة:

{وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}223.

فالريح تحس ويرى أثرها في إطفاء النّار أو انتشارها أو في نقل السحاب أو تفرقه وفي نقل اللقاح للثمار أو في خلع الأشجار وهدم البنايات أو في تحريك السفن أو في إغراقها، فهي جنود مطيعة تفعل ما تؤمر فهي للسلام والتعمير وقد ذكرها الله في كتابه فقال: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ}224.

فالريح الرخاء من جند الله لنشر الخير ولجلب المسرة في النفوس بم تتركه من أثر طيب لدى المستفيد منها.

وقد تكون ريح ساكنة ولكنها مدمرة فتمنع حركة السفن في البحار وتجعل الموج راكدا، فهل من محرك لها من دون الله؟ قال تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكلّ صَبَّارٍ شكّورٍ}225 فجند الله جند مستعدون لأداء ما يطلب منهم في أي وقت وبأي كيفية وفي أي مكان في الأرض والبحر والجو لأنه سبحانه المهيمن على ملكه الحافظ لمن يتوكلّ عليه بتسخير جنوده له كيفما شاء.

ومع فرضية إمكانية النجاة من الريح العاصف والوصول على البر، فهل النجاة في البر مضمونة؟! بالتأكيد لا، لأن من يملك الريح في البحر يملك

222 الأحزاب 9.

223 الأحزاب 9

224 ص، 36

225 الشورى 33.

الريح في البر فيرسلها إلى البر فيحدث التصدعات فيهلك من على البر أو يرميهم بريح حاصب ترميهم بالحصباء أي بالحجارة، فبالله هل ينفع معها مصدّات للريح؟ أو مضادات للحجارة؟ سؤال إجابته كسابقيه!!

فهل يفهم من استخلف في الأرض؟ ويتوجه قلبا وقالبا للوكيل فيتوكلّ عليه وينطلق في ركب الخلافة فيكون خليفة لله متوكلّا عليه، أو سيقف متكاسلا خذولا لا يأخذ بالمبادرة في الحفاظ على دوره في خلافة الله وتعمير الأرض ومحاربّة المفسدين مستعينا بالوكيل الذي عنده جنود السموات والأرض والبحر وما غاب عنا أكثر.

وعليه فالوكيل: هو من يتولى الأمر، وهو من يُرجع الأمر إليه، وهو من يتوكلّ بأمر من يوليه أمره رعاية وعناية وحسن عاقبة.

والوكيل هو دائما وكيل أمر ووكيل حال، أي وكيل للرعاية والعناية الكاملة، وكذلك وكيل حسن تصرف وفقا لكلّ حالة وحال ووفقا لكلّ مكان وزمان سبحانه إنه الملك المتعال جلّ جلاله.

فمن يقف أمام حركة الكون الطبيعية لا يملك إلا أن يتقهقر وينزوي ويذوب ويذهب أثره، وهذا لا محالة حال من يفسد في الأرض الذي ضلت دعوته وضاعت كلّمته وتبدد أثره فلم يجد وكيلا يتوكلّ عليه فتوجه داعيا للباطل من وثن وصنم، وفكر فاسد لا يضر ولا ينفع، مع العلم الذي لا يرقى إليه شكّ أنّ المنجي هو الله الذي ينجيهم برحمته إلى البر قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا

لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا}226 وعند النجاة إلى البر هل يتحقّق الأمن من خسف؟ أو من ريح حاصب؟ أو الانتصار بأي وكيل غير الله؟

فلا منجي إلا الله ولا وكيل بحقّ غير الله فهو ينصر من ينصره ويتكفل بمن ألقى إليه همّه وألجأ إليه ظهره فهو بحقّ نعم الوكيل.

ومن جند الله الريح العقيم التي لا تبقي على شيء إلا وجعلته كالرميم الذي لا حياة فيه سيء الشكّل كريه الرائحة وقد سخر إليه هذا الجند على قوم من الظالمين وهي في خزائن ملكه في كتائب جنده تعمل بأمره وتدمر بحكمته وتندفع بمشيئته لنصرة من يتوكلّ عليه ولنأخذ العبرة من قوم عاد ولنستلهم العظة من قوم تركوا حقّهم في الخلافة معتمدين على قوّة واهية وجند مغلوبين لا محالة لأنهم وقفوا ضد حركة الكون وإرادة الله في تحقّيق الخلافة على الأرض قال تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ}227 وما تزال الريح العقيم موجودة لا يمنعها إلا رحمته، وهي من أدوات الوكيل لنصرة المتوكلّ عليه.

وحتى لا نطيل على المتتبع لتجليات الاسم الوكيل نقول إن الوكيل يكفي عبده المتوكلّ عليه من كلّ معلوم ومجهول وصدق الله في قوله: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}228 بلى الله كاف عبده في أي وقت، فهو قد كفى آدم عليه الصّلاة والسّلام وذريته من الخلفاء الذين تحقّقت فيهم الخلافة وأرادوا الإصلاح في الأرض من إبليس ووعيده بأنه سيحتنكن آدم وذريته فيدمرهم ويهلكهم ويقودهم إلى الهلاك وذلك لأن الله قد اختار آدم عليه الصّلاة والسّلام للخلافة ومن توفرت فيه شروطها من ذريته وأوّل ما كان من أمر

---

226-الإسراء67-69

227 الذاريات، 41 -42

228 الزمر 35.

ذلك الاختيار السجود لآدم طاعة لأمر الله وتكريما للخليفة، فكان طاعة ومعصية، طاعة من المجبولين على الطاعة، ومعصية لمن حقّت عليه اللعنة فهدد وتوعد قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا}229 ولكن الله الوكيل من تكفل بآدم وبحقّه في الخلافة لم يترك مكفوله فصرف عنه الشر متمثلا في إبليس ومن سار على نهجه، وأنذره بجند من جند الله، أنذره بالنّار التي سيكون لكلّ معترض على الخلافة والخليفة نصيب وافر من عذابها فقال سبحانه وتعالى: {قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا}230.

فالغرور من الشيطان الذي يعد المغبون الملعون بسلب الخليفة حقّه ومن يدفع طريد الهداية المتسربّل بالضلال المحتمي بالظلم المستنير بالظلام للفساد في الأرض التي أصلحها الله كرما منه لبني آدم فقال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}231 فضل الله بني آدم بالخلافة في الأرض على الجن والملائكة الذين كانوا في حضرة السجود وفضلهم على الملعون الذي طرده من رحمة الله غروره وصلفه، وكرمهم بأن تكفل ووكلّ أمرهم

229 الإسراء 61، 62

230 الإسراء 63، 64

231 الإسراء 70

ومنحهم شرف عبادته وكفاهم من سلطان الشر والفساد فقال الله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا}232.

فلا مجال للوصول بشرّ إلى أهل الخلافة لأنه لا سلطان لأحد عليهم لأنهم قد آثروا الحقّ على الباطل والعمار على الفساد والخير على الشر وهؤلاء خلاصة العباد أخلصهم لنفسه ووكلّ أمرهم واستثناهم دون بني آدم فقال سبحانه وتعالى: {قَالَ ربّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ}233.

ومن عباد الله المخلصين الأنبياء والصالحين والأوّلياء ومن كانوا في خفاء برحمة الله فلا يعلمهم إلا الله مثلهم كمثل اللؤلؤ في الأصداف لا يُعْرَفُون والله يعرفهم.

وعباد الله المخلصون قد آمنوا بالذكر فذكروا وأخلصوا فأُخْلِصُوا وانتصروا به فانتصروا وغالبوا له فغلبوا به، فوكلّ الله أمرهم وكفاهم، أما من تركوا وكالته وابتعدوا عن ذكره فكفروا وسوف يعلمون عاقبة كفرهم، مع نفاذ إرادة الله في نصر من توكلّ عليه، وغلبة من اعتمد على أسبابه، ويوضح السياق القرآني هذا في قول الله تعالى في بيان حال المبعدين والمخلصين قال تعالى: {لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}234.

---

232 الإسراء 65

233 الحجر 39-43

234 الصافات 168 -172

فالمبعدون يتمنون لو أن لهم ذكر من الأوّلين الذين أخلصهم الله، ولكنهم لما أتاهم الذكر كفروا به وشكّكوا في آيات الله، وهم لا يخفون على الله الذي يعلم ما تخفي الصدور وما تصدر وما يهمس الخاطر وما يهمهم اللسان فهو العليم البصير، وجزاء هؤلاء المبعدين نار جهنم فلا يجدون أمنا لأن الأمن للمؤمنين الذين آمنوا فأمنوا مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آَيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آَمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}235.

والمخلصون آمنوا بالذكر وبرسل الله عليهم الصّلاة والسّلام فكفاهم الله ونصرهم وأمدهم بجنده وجنده منصورون لأن مددهم من العزيز الغالب.

وممّا تقدّم نقول بفضل الله وتوفيقه إن اسم الله الوكيل له معان عدة منها:

الأوّل: المقيم على شئون الخلق.

الثاني: الكفيل برزق العباد.

الثالث: حفيظ لخلقه بتقدير أمر محياهم ومماتهم وبعثهم ونشورهم وحسابهم.

الرابع: الكافي الذي يكفي عباده هم الدنيا وما فيها وهم الآخرة وما خفي منها بما لا يعلمه إلا هو.

الخامس: الرّب الصاحب المالك الذي لا يملك أمر خلقه أحد سواه.

---

235 فصلت 41، 42

والوكيل بالإضافة وهو ما نبحث فيه ونبذل جهدنا لاستجلاء دور الخليفة لله من خلال التخلق بأسمائه فيأتي بمعنى (المتوكلّ) الذي يأخذ بالأسباب متوكلًا على ربّه خالقه وخالقها، والمتوكلّ في الجانب المشرق أو في الجانب الفاعل الإيجابي.

والمتواكلّ الكسول الذي غرته الأماني فأخلد إلى الهوى ومال عن طريق الحقّ ففقد نصيبه في الخلافة، هذا المتخاذل في الجانب المظلم الفاسد السلبي.

وسنربّط بين الاسم الوكيل وما ورد فيه من معان بين دفتي كتب اللغة والتراث وبين الطرح الذي ننطلق منه وهو تحديد العلاقة بين الاسم والخليفة، وبين الاسم ومن تنازل عن حقّه في الخلافة.

أوّلا:

في أَسماء الله تعالى الوَكِيلُ ما ورد في كتب اللغة وهو:

- "المقيم الكفيل بأَرزاق العباد وحقّيقته أَنه يستقلُّ بأَمر المؤْكول إِليه وفي التنزيل العزيز: {أَن لا تَتَّخِذوا من دُوني وكِيلا}236 قال الفراء: يقال: "ربّا "ويقال: "كافِيا"237. ومن تجلي الله الوكيل إنه مقيم أي قائم على شئون خلقه ومن مظاهر هذا التجلي الآتي:

- أنّه القائم على شئون العباد في أحوالهم كافة برعايته لهم في كلّ زمان ومكان.

236 الإسراء 2.

237 لسان العربّ، ج 11، ص 734

- هو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، لأنه لو أخذته السنة أو النوم لما كان مقيما. ومن لا تأخذه سنة ولا نوم فهو المقيم، ومن تأخذه السنة والنوم فليس بمقيم سبحانه جلّ جلاله.

- والمقيم هو المدبر لأمر الخلق بالتساوي في وقت واحد.

- والمقيم هو الذي يضع من يشاء على الطريق القويم الذي لا عوج فيه.

- والمقيم هو القائم على كلّ نفس بما كسبت مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كلّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ}238.

الثاني:

- والوَكِيلُ الحافظ239.

الثالث:

-والوَكِيلُ في صفة الله تعالى الذي توَكلّ بالقيام بجميع ما خَلَق240.

الرابع:

- والوَكِيلُ الكفيل ونِعْمَ الكَفِيل بأَرزاقِنا241.

238 الرعد 32- 34

239 لسان العربّ، ج 11، ص 734

240 لسان العربّ، ج 11، ص 734

241 لسان العربّ، ج 11، ص 734

وفي قولهم: (حَسْبُنا الله ونِعْم الوَكِيلُ): كافِينا اللهُ ونِعْمَ الكافي كقولك رازقنا اللهُ ونِعْم الرازق الوَكِيل بمعنى الرّب242.

وأوّل ما يلقانا من معان أن الوكيل مقيم على شؤون الخلق لذا سنطلق العنان في البحث والتفكر في هذا المعنى، فالوكيل المقيم لأنّه:

1- الملازم على فعل الشيء بانتظام دون خلل ولا كلّل ولا ملل.

ومن أمثلة الانتظام دون كلّل أو ملل:

- سقوط المطر في مواسمه إلا إذا منعه الله فهو جند من جنده يُسْتَخدمُ رحمة وعذابا ثوابا وعقابا. {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ}243.

- تسخير الفلك التي تجري في البحر بأمره وبقدرته ولا يجريها إلا جند من جنوده (الريح)، فإذا وثب علينا من يقول: أن هناك المحركات والنفط والطاقة النووية والشمسية فلا حاجة للريح الآن، نقول له وبكلّ بساطة أيها الظالم لنفسه المغرور بعقله الضال بعلمه إن ما تقول هو من جند الله وقد منحك العقل لتسخيره فلا تدفع بنفسك إلى الهلاك كمن قال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}244، لا فهو الذي سخر الفلك والأدوات التي تجريها في كلّ زمان ومكان {وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهن يديه}245 ويا لروعة النص الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فيعقب قضية تسخير حركة الفلك بحركة الزّمن الذي يعلم من الشمس والقمر.

---

242 لسان العربّ، ج 11،ص 734

243 إبراهيم 32.

244 القصص 78

245 إبراهيم 32.

- تسخير الشمس والقمر بصفة مستمرة لا يعتريها خلل أو اضطراب فقال الله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}246.

فلأنه الوكيل الذي إليه أمور الخلق فقد خلق السماوات والأرض بالحقّ لكي يستفيد منها الخليفة في تحقّيق الخلافة، وهذه الاستفادة لابدّ لها من أدوات تساعد على تيسيرها لذا فقد حفظ ماء الحياة في السماوات وينزله بقدر موزون في الوقت الذي يراه مفيدا لخلقه دون تمييز إلا إذا أراد من ذلك الماء أن يغير وظيفته من النفع إلى الضرر لحكمة يعلمها هو عزّ وجلّ.

وفي حالتنا هذه فهو الذي ينزل ماء السماء لإخراج كنوز الأرض الزراعية من ثمار وحبوب رزقا لجميع الخلق، وحتى تعم الفائدة سخر الفلك لنقل هذه الثمار من مكان إلى آخر، كما سخر الماء بنوعيه المالح والعذب لمهمة النقل: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) نعم تجري بأمره هو لا بأمرنا نحن لأنه لو أراد أن يعطل حركة الفلك لأوقف الريح التي تسيره ولأوقف الحركة التي أمرها بالمطلق بيده سبحانه لا إله إلا هو مالك الأمر والملك.

والله خلق الأرض وما فيها لغرض تحقّيق الخلافة وقد تكفل بنعيم مقيم للذين يتوكلّون عليه فلا ينظرون إلى متاع زائل يمنعهم من أداء دورهم السامي وهذا النعيم لا ينفد ولا يزول قد أعده الله للذين على ربّهم يتوكلّون، والذين على ربّهم يتوكلّون هم المعتدون عليه في حركتهم وسكونهم وفي صحوتهم ومنامهم وفي حياتهم ومماتهم وفي بعثهم يوم يبعثون، وينبه الله المنوط بهم أمر الخلافة إلى أن متاع الحياة الدنيا لا قيمة له لذا لم يعقبه

246 إبراهيم، 32، 33

بوصف مثل الغرور أو لقليل لأنّه أقل من أن يوصف في مقابل نعيم الله فيقول الله تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}247.

ولله الوكيل القدرة المطلقة على خلقه لأنه قائم وكيل على مصالحهم:

- فهو سبحانه الذي خلق السماوات والأرض.

- خلق الخلق في الأرض ونشرهم في عموم الأرض ولا يفعل ذلك إلا القائم على شؤون الخلق المتصرف في أمورهم الوكيل عليهم بهيمنته على السماوات وما فيها والأرض وما عليها وما تحويه في باطنها.

- ما يصيب الإنسان من ضرر على الأرض إنّما هو من صنع يديه ومن فساده هو ومن كسب يديه لا من النظام الذي وضعه القائم على الخلق الوكيل عليهم وصدق الله إذ يقول: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النّاس لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}248.

فثقب الأوزون وارتفاع حرارة الأرض والأعاصير والجفاف والجدب وانتشار أمراض ما عرفت من قبل وغير ذلك الكثير والكثير يمكن رده وبسهولة إلى ما كسبت الأيدي الشريرة الآثمة في تدخلها بالفساد في الأرض وهذا الفساد هو محك السؤال الذي سألته الملائكة لله سبحانه وتعالى وهو سؤال لاشكّ للاستفسار لا للاستنكار قال تعالى: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

247الشورى 36- 39

248 41 الروم

تَعْلَمُونَ}249، فالله حين قال: (إذ قال ربّك إني جاعل في الأرض خليفة) فالخطاب للنبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم الذي به ختمت الرسالات وفي رسالته أجمع بلاغ للناس وأوضح بيان، والخطاب فحواه تبليغ الثقلين والملائكة الكرام، بحقّيقة الخلافة وهي جعل خليفة في الأرض يخلف الله في تنفيذ أحكامه من أمر بمعروف ونهي عن منكر وإصلاح في الأرض والأخذ على يد كلّ مفسد وإن كان المفسد من ذرية الخليفة الأوّل آدم عليه الصّلاة والسّلام وذلك لأن المفسد قد تنازل عن حقّه في الخلافة ببعده عن منهج الحقّ وتخليه عن الوكالة التي أنيطت به ليؤدّيها.

والهدف من الخلافة تنفيذ أحكام الله في الأرض وبهذا يكون الوكيل بالإضافة أو المتوكلّ على الله الوكيل المطلق، وبيان ذلك أنه إذا أخذ منه حقّ أو قهر من ظالم بالاعتداء أو بالحيلة أو بشهادة الزور فماذا يصنع؟

يتوجه إلى الله بالدعاء بأن ييسر له أخذ حقّه، ثم يتوجه للخليفة ليساعده لنيل حقّه فإن أعانه ذلك المسؤول فقد حقّق الخلافة أما إن أهمله ولم يعنه لأخذ حقّه فقد تنازل عن حقّه في الخلافة، ومرد كلّامنا هذا إلى القول الفصل كلّام الله تعالى إذ يوضح تلك القضية مع نبي الله داود عليه الصّلاة والسّلام فيقول تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}250.

يا داود (إنا جعلناك خليفة في الأرض) الخلافة هنا نيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف والمنوب عنه حاضر لا يغيب يختبر ويبتلى الخليفة، وهو حي لا يموت دائم دواما سرمديا قديما أزليا، قادر مقتدر لا يعجزه شيء، وعلى هذا فيكون الوكيل المطلق

249 البقرة 30

250 ص، 26.

الذي لا يغيب ولا يموت ولا يعجز عن فعل شيء يكون وكيلا على غائب وميت وعاجز وهذا الإطلاق لله، والإضافة للخليفة وعلى هذا الرأي الذي نركن إليه استخلف الله أوّلياءه في الأرض فالخليفة ينفذ الحكم الإلهي وهو من كان متبعا للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وسنته. والاستخلاف على الملك في الأرض والحكم فيما بين أهلها بم أمر الله وفق إرادته التي خلق النّاس لها.

فالخلافة الحقّيقية ليست كسبا للإنسان وإنما هي وهبةً من الله يؤتيها من يشاء كما قال تعالى: (إنا جعلناك خليفة) والجعل هبة وعطاء لا كسبا وعملا.

-إن استعداد الخلافة مخصوص بالإنسان كما قال تعالى: (وجعلكم خلائف الأرض) ولا يصل إليها إلا المتوكلّ على الله الآخذ بأسباب الخلافة.

وعلى ذلك فقدرة الله المطلقة تحيط بمن يتوكلّ عليه تشمله وتكفله وترعاه ولا يستطيع أي خارج عن منهج الله أن يفر أو يخرج عن إرادته لا بالجدل أو بالفرار، وهنا نعود لما استشهدنا به من قول الله تعالى في المتاع الذي لا قيمة له والمتاع المقيم الدائم، لنستبين صفات من صفات المتوكلّين على ربّهم، فما ملك النّاس في الدنيا فهو متاع زائل لأنّ المتاع الحقّيقي يكمن في طاعة الله في الدنيا والفوز برضاه في الآخرة وهذا الفوز خير وأبقى ولا ينال هذا النعيم المقيم إلا المتوكلّون على الله فيقول الله تعالى: {وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}251.

وهؤلاء المتوكّلون من صفاتهم:

-(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ).

-( وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ).

-(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ).

-(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ).

-(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ).

-(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ).

-(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ).

ولأنّ هذه صفات المتوكلّ فهو "يعلم أن الله كافِلٌ رزقه وأَمْرَه فيرْكَن إِليه وحْدَه ولا يتوَكلّ على غيره"252. وهنا ننطلق إلى الجزئية التالية التي صدّرنا بها البحث في الاسم الوكيل.

المعنى الثاني:

-إنّ الله وحده الوكيل الذي تكفل برزق العباد.

فهو وكيل وكفيل وضامن لرزق من يتقيه في حركاته وسكناته وأنفاسه وخواطره ونيته وسره وجهره، فيجعل مخرجا للتقي من كلّ ضيق وفرجا من كلّ كربّ، ويسرا من كلّ عسر، ويكفيه كفاية شمولية تبلغ به إلى ما أراد

251 الشورى، 35-39.

252 لسان العربّ، ج 11، ص 734

الله من تنفيذ أمر واجتناب نهي، ولأن التوكلّ عمل وجهد يعقبه رزق وكفاية فقد جعل الله لكلّ شيء سببا دفعا لعباده المتوكلّين عليه للأخذ بالأسباب فقال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكلّ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكلّ شَيْءٍ قَدْرًا}253.

ومنهج الله شمل الزمان والمكان على العموم والإطلاق، فبالإضافة إلى السياق الأوّل لنزول الآية نقول:

إنّ المتوكلّ على الله هو الذي يتقي الله في السر والعلن ويكون جزاء ذلك:

- (يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) ومسألة الرزق واسعة، فمن الرزق ما هو مادي وما هو معنوي، والمادي كما في قوله تعالى:

قال الله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كلّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}254، فرزق الدنيا المادي بالعمل والسعي ورزق الآخرة برحمة الله تعالى وهذا الرزق يشبه رزق الدنيا في الاسم لا في الجوهر والحقّيقة.

وعلى سبيل المثال قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}255.

ودخول الجنّة برحمة الله للذين آمنوا وكانوا على ربّهم يتوكلّون ومن التوكلّ الأخذ بالأسباب بالعمل الصالح من صلاة وصيام وإنفاق في سبيله بالقول والفعل وبذل النفس لإحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل ونشر العدل والسلام

253 الطلاق 2-3

254 البقرة 25.

255 محمد، 12.

والمساواة بين النّاس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم، ولأن المؤمن قد أخذ بأسباب التوكلّ فقد نال ما لم ينله المتواكلّ.

المتواكلّ: هو الذي غرته الدنيا ونعيمها الزائل فقد أخلد إلى هواه واعتقد من وهمه وضلاله أن الله كما أنعم عليه في الدنيا سينعم عليه في الآخرة وقد تناسى أنه قد فشل في اختبار الخلافة وتنازل عن حقّه فيها وهذا هو لب القضية التي خلق من أجلها الإنسان، فيقول ذلك المغرور كما اخبرنا الله جلت قدرته في كتابه: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآَيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرّحمن عَهْدًا كلّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا}256 فالذي كفر بآيات الله ومنها البعث يعتقد أنه سينال الآخرة بما ناله في الدنيا فاغتر بماله وولده ولم يأخذ بأسباب النعيم الدائم فضاع منه شرف الأخذ بأسباب الخلافة في الدنيا وشرف الفوز بثواب الله عنها في الآخرة، "وقد نزلت الآية في العاص بنِ وائلٍ وكان لخبّابٍ بنِ الأرتّ عليه مالٌ فاقتضاه؛ فقال: لا حتى تكفرَ بمحمّد، قال: لا والله لا أكفرُ به حيا ولا ميْتا ولا حين بُعِثتُ، قال: فإذا بُعث جئني فيكونُ لي ثمّةَ مالٌ وولدٌ فأعطِيَك"257. فهذا العاص قد اعتمد على ماله وولده ووكلّ أمره لهما وهما ليسا له بل عليه لأنهما ابتلاء واختبار، فليعرف من أراد الخلافة هذا فإن المال والولد سببان لشكّر الله وتنفيذ منهجه لا للكفر ومعاداة أوّليائه وخلفائه الذين يصلحون في الأرض معتمدين عليه آخذين بالأسباب ذاتها لتحقّيق الخلافة المثلى على الأرض، ومثل آخر ضربّه الله في كتابه للمؤمن الذي يتوكلّ على الله وينتصر به، والكافر الذي يعتمد على الهوى والغرور ولا ينتصر بالله لأنه لم يتخذه وكيلا قال الله تعالى: {وَاضْربّ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ

256 مرم، 77-80.

257 تفسير أبي السعود، ج 4، ص 328

أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا}258.

فرجل مغرور بماله قد أعطاه الله له للاختبار فكفر بربّه وظن ظن السوء بأنه لن يزول ناسيا قدرة الله عليه وأنه خلقه من نطفة لا قيمة لها وسواه رجلا ليعرف طريق الهداية ولكنه ضل بمال ليس له وبقوّة ليست منه وغرته أوهامه بأنه سينال عند الله ما ناله في الدنيا بالرغم من صلفه وعنته وكفره، فهذا حال من أحوال المتواكلّ المغرور بالقوّة الفانية من مال وولد، أمّا المؤمن المتوكلّ على الله فقد أيقن أن الله هو الرازق المانح الكفيل بأن ينعم في الآخرة كما أنعم في الدنيا إن شكّر الإنسان وأقر بأن المنعم المتفضل هو الله، فلا يكفر الخليفة بربّه ويرد ما لديه من قوّة إلى المصدر الأوّل لها ولا يغتر ولا يفتخر ولا يتعالى بل يزداد توكلّا على الله سبحانه وتعالى.

وفي الحقّيقة فإن الكافر لا متعة له لأنه يتمتع متعة حيوانية مثل الأنعام وهو بذلك قد اختار متعة زائلة عن نعيم مقيم يقول الله تعالى:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكلّونَ كَمَا تَأْكلّ الْأَنْعَامُ وَالنّار مَثْوًى لَهُمْ}259.

وما أشد الفرق بين المؤمن والكافر، بين المتوكلّ والمتواكلّ، بين الذي على بينة من ربّه وهدى ونور وبين الذي على الضلال واتبع سوء عمله مصداقا

258 الكهف 32. 38.

259- محمد، 12

لقوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}260.

فالذي على الهدى هو الذي أخذ بأسباب الهداية وعمل للنعيم المقيم وتوكلّ على الله فجزاه الله برحمته النعيم الدائم الذي لا يحول ولا يزول وقد ضربّ الله لذلك النعيم مثلا على سبيل التقريب لا على سبيل الوصف الممّاثل، ثم أردف بالتعجب من حال الكافر الذي سيخلد في النّار ولا يشربّ إلا الماء الحميم الذي يقطع الأمعاء، فقال عزّ وجلّ: {مَثَلُ الجنّة الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّاربّينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ ربّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النّار وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُم}261

وما سبق من أمثلة الرزق المادي والمعنوي الذي يرزقه الله للمتوكلّ، ويغتر به المتواكلّ الذي يسعى للمتع الحيوانية ولا يأخذ بأسباب الرزق الحقّيقي الذي يحفظ الجسم للتعمير والإصلاح ويسمو بالروح إلى الملأ الأعلى، وهذا ما يسعى له الخليفة السمو بالروح والسمو بالجنس الإنساني من البهيمية الحيوانية إلى الروحانية المتمثلة في أن يكون خليفة في الأرض ولا فض الله فاه القائل:

إني أسوم الروح إلى ملأ علا.... غيري يسوق بهيمة الأنعام262.

فالخليفة هدفه السمو بالروح إلى المعاني السامية والأغراض النبيلة وممّالا شكّ فيه أن من تلك المعاني السامية والأغراض النبيلة تحقّيق الخلافة من

---

260 محمد، 14

261- محمد، 15

262 ديوان الإمام فخر الدين البر هاني، ص 76

تعمير وإصلاح وبناء وتعليم وزراعة وكفاية لحقّوق من كرمهم الله وأراد أن يكونوا خلفاء وهذا من الرزق المادي الذي يعد أساسا من أسس السمو بالروح.

وغير الخليفة من الذين يتمتعون ويلهون متعة بهيمية ويلهون لهوا حيوانيا يسوقون أجسادهم لمتع زائلة كما تساق البهائم من الأنعام.

والرزق المادي في الدنيا غير مرفوض ولا يُنْهَى عن الأخذ بأسباب استخراجه ولكن المهم في كيفية الانتفاع به واستخدامه وهذا دور الخليفة الذي يدعو إلى أخذ الأسباب من توكلّ على الله والعمل والكد باستخراج ما في الأرض من خيرات.

ومن التوكلّ على لله الجمع بين الصبر والتوكلّ فيكون ضمان الرزق من الله قال تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}263.

فقد ذكر الله الصبر والتوكلّ وفي الأمرين استغراق للزمن الماضي والحاضر والمستقبل، فالماضي لا ندركه ولا قدرة لنا على استرجاعه والعمل فيه ولا يؤمر الإنسان فيه بشيء، فبقي الحاضر ويصلح معه الصبر وبقي المستقبل ويصلح معه التوكيل، ومن هنا فالخليفة يصبر على ما يصيبه من الأذى في الحاضر، ويتوكلّ على الله فيما يحتاج إليه في المستقبل، ولأجل ذلك علينا أن نتوقف قليلا عند الزّمن الذي يحتوي في تقسيماته الماضي والحاضر والمستقبل لنتبيَّن الأمر، ولنتبيَّن ذلك الأمر علينا بالتوقف عند (الآن) التي هي المكون الرابط في كلّ زمان.

يقول ابن سينا: (الآن) هو (دائما وصل بين قبل وبعد، وهو قبل ما بعده، وبعد ما قبله)264. فالآن كالعلامة على الزمان ويشار به إلى الوقت

---

263 العنكبوت، 59، 60

الحاضر الذي يربّط الزّمنين الماضي والمستقبل اللذين هما الآخرين علامتين على الزمان، والزمان متصل غير منفصل، أما الوقت الذي هو المتكون من الماضي والحاضر والمستقبل فمتجزئ بأحداثه، وعندما نقول الزمان في تشبيهه كالحبل على البكرة، فالذي تم سبحه منه أصبح في الوقت الماضي، وما هو على البكرة هو في وقت الآن، وما لم يسحب بعد يقع في الوقت المستقبل، ولهذا تجزأ الوقت ولم يتجزأ الحبل (الزمان) فالحبل متصل لأنه حبل واحد، أما الوقت فلم يكن واحدا.

الآن إذا هو الظاهر في الحاضر، والكامن في الماضي، والمتناهي في المستقبل.

الآن البداية:

هو الذي لم يكن كما قال عنه ابن سينا (الآن دائما وصل بين قبل وبعد)265، بل الآن البداية هو بداية التوأم (الزمان والحركة) فلا زمان إلاّ من بعده ولا حركة إلاّ من بعده، ولا حياة إلاّ من بعده، وذلك لعدم وجود ماض سابق على وجوده، ولهذا الآن البداية هو دائما بداية لما بعده.

الآن الأوسط:

هو الذي ينطبق عليه ما قاله ابن سينا بأنه (دائما وصل بين قبل وبعد، وهو قبل ما بعده، وبعد ما قبله)، ولكن ليس بالضرورة أن يكون هو الوسط الحسابي بحيث تتعادل أطرافه، فإذا اعتبرنا الآن في هذا اليوم نقطة

---

264 إبراهيم العاتي، الزمان في الفكر الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربّي، 1993م، ص 183.

265 المرجع السابق 183.

وصل بين الماضي من البداية، والمستقبل إلى النهاية، فهل نحن متأكدون بأن ما قضيناه من الزمان يساوي ما تبقى منه؟

الآن النهاية:

هو دائما بعد ما قبله، وليس وصل بين قبل وبعد، فإذا كان للحجرة باب، فالآن هو المفتاح الذي أُقفلت به الحجرة. ولهذا الآن النهاية هو دائما نهاية لما قبله.

الآن الماضي:

هو المستوعب للتجاربّ التي وقعت أو التي حدثت بموجبها وسالبها، وهو الذي يكتمل بعد حدوث الفعل أو الانتهاء من التجربّة، ويتصل مع كلّ حاضر بالنقطة الآن. الماضي هو الوقت الذي سجلت فيه الأحداث والأفعال والتجاربّ في الزمان والحركة، وهو القابل للاستدعاء كأحداث وغير قابل للاستدعاء كزمان وحركة، والسبب هو الأفعال الماضية إلى جانب كونها تسجل في الزمان والحركة، فهي أيضا تسجل في العقول المدركة التي عندما تحاور بالأسلوب العلمي تتمكن من أن تستدعى ما سجل لديها من مخزون الماضي. أما الزمان الماضي والحركة الماضية فلا يمكن استدعاؤهما مع الأحداث الماضية إلاّ كمواقيت ودلائل لتسجيل الأحداث والمواقف والمواضيع والظواهر، ولذلك لا يمكن استدعاؤهما مجردين مع أنّهما يتكرران وفقا للدورة الفلكية المنتظمة. ولذلك نلاحظ تكرار الزمان والحركة، ونلاحظ اختلاف المحتوى، بمعنى أن اليوم يتكرر كلّ أربّع وعشرين ساعة، ولكن مضمون اليوم ومحتواه قد لا يتكرر، فعلى سبيل المثال: قد نجد اليوم درجة الحرارة أكثر أو أقل من حرارة يوم أمس، أو أنها أكثر أو أقل من حرارة اليوم الممّاثل لهذا اليوم من العام الماضي، مع أنّ هذا اليوم يماثل يوم العام الماضي من حيث الزمان والحركة، ولهذا يختلف

المضمون والمحتوى لكلّ وقت سواء من حيث الكم أو الكيف، ولكن بالنسبة إلى الحركة الذاتية والزمان الذاتي لا يختلفان بين هذا اليوم ويوم العام الماضي، فيوم 23 يوليو من هذا العام لا يختلف عن يوم 23 يوليو من العام الماضي، باعتباره أطول أيام السنة نهارا، ولكن من حيث المضمون والمحتوى فقد لا يكون بينهما تماثل، وهكذا يكون يوم الفاتح من سبتمبر من هذا العام لا يختلف عن يوم الفاتح من سبتمبر من العام القادم من حيث الزمان والحركة. إذا الماضي كأعمال لها مضمون ومحتوى يمكن استدعاؤها في الوقت الآن، والآن هو لحظة بداية ولحظة نهاية، ولهذا يقع الآن في الزمان كما يقع الزمان في الحركة، فلا حركة بدون الآن، ولا الآن بدون زمان، فالماضي لا يبدأ إلاّ به ولا ينتهي بغيره (بغير الآن)، وهكذا الحاضر هو الآخر بدايته الآن ونهايته الآن، وكلّ مستقبل لا يكون إلاّ به، فهو أمر البداية والنهاية، فسبحان ربّي إذا أراد أمرا فإنما يقول له كن فيكون، ولذلك قال الله تعالى: {ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربّك أحدا}266 فالأعمال التي وقعت في الماضي ستكون في المستقبل كما هي أمام مرتكبيها، ولهذا استدعاء الماضي ممكن، ولكن إعادة الزمان والحركة بالنسبة إلى المخلوقات غير ممكنة.

الآن المستقبل:

المستقبل هو الوقت المنتظر الذي يحتوي على الآمال وهو غير قابل للتذكر ولكنه قابل للتفكر، والتفكر لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة، بل هو المتطلع إلى ما هو متوقع، نتيجة استنتاجه واستقرائه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجاربّ وتتراكم فيه الخبرة، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن، ولذلك تتداخل

266 الكهف، 49.

المعلومات كما يتداخل الزمان مع الحركة، ممّا يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزمان والحركة، فلا زمان بلا حركة، ولا حركة بلا زمان ولا حياة بدونهما.

المستقبل لا يحصى، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ، مع أنّه مسجل كوقت في الزمان والحركة، ولهذا سيأتي بالقوّة الفاعلة من خلال قوّة الزمان والحركة الفلكية، فبما أن اليوم قد دخل والحركة مستمرة إلى النهاية مع الزمان، فبالضرورة سيأتي غد لا محالة، وغدا قد يكون نهاية لما سبق وقد يكون استمرارا له، وهذه بالنسبة إلينا غير معلومة مع أنّها متوقعة.

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هذه الكلّمة في حالة مواصلتي الكتابة، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه، وهو الزمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع، والذي من أجله نتنفس، ونشربّ، ونأكلّ، ونفكر، ونتعلم، ونعمل، ونتصدق، ونصلي، ونحب، ونتزوج، وندّخر وفق حاجاتنا، ونؤمن على أرواحنا وممتلكاتنا، ونخاف، وهو نهاية البداية وثبات الحركة، وعليه كلّ حركة من أجل المستقبل.

تتحرك الأرض والكواكب والنجوم بالأمس، فكان اليوم، وتستمر في حركتها من أجل أن يأتي غدا، وهكذا تكون الحركة إلى النهاية، وعندما تأتي النهاية يكون الثبات، وإذا كانت الحركة تتضمن وجود طاقة، فإن المستقبل يتضمن زمان ومجال توليدها، وهكذا تستمر الحركة والمستقبل، فلا حركة إلاّ لمستقبل، ولا مستقبل بدون حركة، ومنهما يحدث التغير، سلبا أو إيجابا.

يتكوّن كلّ من المستقبل والحركة من زمان، وفعل (محتوى ومضمون). وعليه لا يمكن أن يتحقّق المستقبل بدون زمان وفعل، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل، وعندما تصل الحركة إلى لحظة النهاية، يكون العدم،

وينتهي المستقبل بالنسبة إليها مادامت في حالة عدم، وعليه يستمر المستقبل كلّما كانت هناك حركة، وتستمر الحركة كلّما كان هناك مستقبل.

ولو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل، ولا أمانٍ، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا. وبناء على ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية، لكي نعرف من نحن، وما يجب علينا القيام به، ونعرف من أجل ماذا نفكر، ومن أجل ماذا نتعلم؟ ومن أجل ماذا ندرس، ونحلل، ونعالج؟ ولماذا طرحت هذه الأسئلة؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزمان، أم يقتصر عليه؟ إذا كانت الإجابة بتجاوزه فإننا نفكر، وإذا كانت بالاقتصار عليه فإننا نتذكر وننتظر، نتذكر الماضي، وننتظر حتى يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية، أي نعطل قدراتنا ومواهبنا ولا نفكر، لأن الغد لم يأتِ بعد. كلّ هذه وتلك الأمثال تجعلنا كما قال تعالى: {وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون}267، ويقول تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}268.

المستقبل يكمن في الزمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة، ممّا يجعل الشجرة تكمن في الزمان المستقبل في البذرة الآن، مع أنّ هذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي، وتكون الشجرة في الآن، وتكون الثمار في المستقبل. وهكذا في

267 الحشر، 21.

268 الأعراف، 175 . 178.

التقاء الأحبة الآن بين الحيوان المذكر مع البويضة يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة الشيخوخة المتأخرة.

إن ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضرا في الآن المستقبل، ولهذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلاّ في الآن، فالمؤمن الذي يعمل صالحا في دنياه يعمل في حقّيقة الأمر من أجل المستقبل، ومستقبله سواء أكان سالبا أو موجبا، هو ما كان له حاضرا في الماضي. إذن الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضرا في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتى يعاقب أو يجازي به، فيقول الله تعالى في سورة الأعراف: {يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوءٍ تودُ لو أنّ بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد}269.

تؤكد هذه الآية على أن كلّ عمل ماض هو من أجل المستقبل، وهكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي إلى أن يجد نفسه في الزّمن المستقبل، وذلك لأنه لم يكن من أجل الماضي، بل أنه العمل الذي قد تم من أجل المستقبل، ولذلك يكون الماضي كالخزينة المملوءة التي لم تفتح بعد الفتحة النهائية، بل إنها في الحياة الدنيا لا تفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب، ولهذا ينبغي أن نعمل في حاضرنا خيرا لكي يكون لنا مستقبلا خيّرا. وكلّ الأعمال التي تقع في الزّمن الآن تمسى في الماضي وتصبح على خير المستقبل، وحتى إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلى سجل الزمان والحركة، {يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصه الله ونسوهُ واللهُ على كلّ

269 آل عمران 30.

شيء شهيد}270. تؤكد هذه الآية على أن كلّ شيء وجد يمكن إحصاؤه، ولكن لقصور القدرات البشرية عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنّه محصى من قبل الخالق عزّ وجلّ، ولهذا كلّ عمل قد حدث سيكون حاضرا في المستقبل لتتم المسألة ويتحقّق له الجزاء.

الوقت منتظم في الزمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها، وبالتالي يمكن التعرف على الأوقات وحصرها وعدها، ولكنه من غير الممكن عد الزمان، فعندما تعد واحدة من حبات المسبحة المتكونة من المائة حبة تصبح هذه الأوّلى في الماضي، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين أصابعك في الآن، وتكون 98 حبة واقعة في المستقبل، ولكن إذا قررت أن تكرر التسبيح أو عد حبات المسبحة أكثر من مرة واحدة، تكون الحبة التي وقعت في الزمان الماضي هي الأخرى واقعة في المستقبل وذلك لأنها هي الأخرى سيتم عدها أو التسبيح بها مرة ثانية، وفي هذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح كما سبق وأن ذكرنا هي 98 حبة، بل يكون عدد الحبات المتبقية 99 حبة، وعلى هذا النحو يكون عدد الحبات في جميع الدورات هو 99 حبة عندما تكون الاستمرارية في التسبيح على أن تكون في كلّ دورة تسبيحية مفردة واحدة في الآن بين الأصابع، ولا يكون العد التناقصي إلى الصفر إلاّ في الدورة التسبيحية الأخيرة، وعليه كلّ الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضرا، مصداقا لقوله تعالى في سورة آل عمران: (يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوءٍ تودُ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد).

إذا كلّ ما قمنا به من أعمال سيكون حاضرا في المستقبل ونكون نحن مساءلين عنه، ولهذا لن ينتهي الماضي بعد، لأن نهايته هي في الآن

270 المجادلة 6.

المستقبلية وليست في الآن الماضية التي كنا نعتقد بأنها النهاية. ويكون قولنا إن الزمان كالخيط والأوقات منظومة عليه كحبات المسبحة هو المثال القريب لتوضيح أحداث الماضي التي وقعت في الآن الحاضرة وأصبحت في الماضي وفق دورة الحركة والزمان فلكيا. وستكون جميعها في المستقبل قبل المساءلة والمراجعة، وتكون بالضرورة في المستقبل عند بدء المراجعة، وكلّ حاضر منها سيكون هو الآخر في الماضي بعد إتمام عملية المراجعة أو المساءلة. فعند دراسة الحالات الفردية من الناحية السلوكية والاجتماعية والصحية. تتطلب بالضرورة مراجعة سجل الماضي الذي يتعلق بالحالة، والذي يتضمن الأحداث والأفعال والظروف التي أثرت في السلوك أو أثرت في الحالة الصحية، أي دراسة الماضي لمعرفة الأسباب والعلل التي تحتويها الحالة ممّا يجعل هذه الحالة بالنسبة إلى الباحث أو الأخصائي قبل بدء الدراسة هي في المستقبل، وفي أثناء التشخيص والتحليل تكون في الحاضر، وبعد العلاج تصبح الحالة في الماضي.

ومع أنّ الزمان لم يكن له شكّلٌ ولا صورة كما هو حال الأجسام الأخرى المتحركة، إلاّ أنه هو الآخر في حالة حركة، يقول الله سبحانه وتعالى: {وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربّكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكلّ شيء فصلناه تفصيلا}271. ولو لم يكن هناك ليل ونهار ما كانت الأيام ولا كانت الشهور ولا السنون والدهور، ولا كانت هناك حركة، أي لم يكن لدينا ما نعد من الزمان ونحن على سطح الأرض، أما رواد الفضاء عندما يخرجون عن قوانين حركة الأرض فقد تناسبهم مقاييس فيزيائية أخرى لا تعتمد على حركة الأرض، ولذلك لم يقل الله عزّ وجلّ لتعلموا عدد الزمان بل قال: {لتعلموا عدد السنين}، ولهذا قلنا الزمان والحركة لا يعدان، بل

271 الإسراء 12.

الذي يعد هو المتحرك الأرض والقمر والشمس وبقية الكواكب كلّ في فلكه، وهذه جميعها قابلة للمشاهدة والملاحظة، وهكذا حال الليل والنهار والفجر والمغربّ كمواقيت تشاهد وتلحظ وبالتالي فهي تعد. والفارق بين الأجسام والمواقيت هو أن الأجسام قابلة للمس المادي، أما المواقيت الزّمنية كالليل والنهار والفجر فلا يمكن لمسها ماديا، ولهذا من الممكن الاحتفاظ بشيء ما من الأجسام المادية كالأهلة والساعات الذرية في قوارير المعامل والمختبرات، ولا يمكن الاحتفاظ بشيء ما من المواقيت الزّمنية في قوارير المعامل والمختبرات. وعليه لو لم يكن الزمان في حالة حركة ما كان الليل والنهار، وما كان الفجر والمغربّ، وما عرفنا عدد السنين والحساب، وما عرفنا الوقت الذي تستغرقه الكواكب والنجوم والأجسام في حركتها الذاتية في مجال فلكها الذي تسبح فيه أو تمتد إليه.

والحركة والزمان شيئان لا يمكن مشاهدتهما مع أنّهما يلاحظان بسهولة ويسر، فالذي يشاهد هو المتحرك وليست الحركة، الكواكب تُلمس وتشاهد وتلاحظ حركتها، أما الليل والنهار والفجر والمغربّ فمع أنّها تشاهد وتلحظ إلاّ أنّها لا تُلمس، ومع ذلك كلّ ما يشاهد يعد حتى لو لم يُلمس كالليل والنهار، وذلك لأنّ لكلّ منهما بداية ونهاية يمكن رصدهما وتحليلهما وتسجيلهما.

الحركة والزمان كما سبق وأن وضحنا لا يمكن مشاهدتهما ولا لمسهما ولا ذوقهما ولا شمهما مع أنّهما يلحظان، ولذلك يمكننا التمييز بين الحركة والمتحرك، وبين الحركة والامتداد. فالامتداد هو مجال حركة الجسم أو الشكّلّ، فالمثلث هو امتداد بين نقاط زواياه الثلاث، ولو لم يحدث بينها امتداد ما كان للمثلث صورة أو شكّلّ متصل، وهكذا مجال تكوين الشكّلّ الدائري أو الرّباعي أو أي شكّلّ من الأشكّال الهندسية، فالامتداد يكون في تكوين الشكّلّ وفي تحديد اتجاه حركة الشكّلّ، كاتجاه حركة

الأرض في دورانها حول نفسها، ودورانها حول الشمس، فهي لا تمتد إلاّ في مجالها الفلكي، ولهذا فالامتداد هو الذي يرسم شكّلّ الدائرة، أما الحركة فهي الطاقة التي بها يمتد المتحرك سواء أكان المتحرك قلما لرسم مستقيم أو منحنى أو أي شكّلّ، أو حركة كوكب، أو حركة كائن من الكائنات.

الزمان والحركة متناهيان حيث أنهما محصوران بين قوّة الأوّل والآخر الذي خلقهما وجعل لهما امتدادا، ولذلك فهما المخلوقان في الآن والمكان الواحد، ممّا يجعل لهما أجلا واحدا (نهاية واحدة) ولو لم نؤمن بأنّ الزمان متناه فكيف نؤمن إذا باليوم الآخر؟ فاليوم الآخر هو الذي لا يكون فيه الليل والنهار والفجر والمغربّ (المعروفات) في حساباتنا، والتي بها تعد أيامنا وشهورنا وأعوامنا ودهورنا، والتي جميعها ستنتهي ليكون اليوم الآخر، واليوم الآخر هو الذي لم يكن مثل يومنا هذا الذي نعرفه، ولأنه الآخر فهو المختلف بالضرورة عما عرفناه في يومنا الأوّل. وبما أن للزمان بداية وللحركة بداية إذا ممّا لا شكّ فيه ستكون لهما نهاية.

حركة الزمان تماثل حركة الأجسام في قوتها وانتظام سرعتها، ولهذا تنتظم حركة المواقيت وتتزامن مع حركة الكواكب، فلا يأتي الليل مرتين في اليوم الواحد، ولا تتأخر حركة الأرض عن ميقاتها ومكانها ليتأخر الشروق عن النهار ويتضاعف زمن الليل، بل الكلّ في فلك يسبحون وفق سرعة ثابتة ومدارات ثابتة. فاليوم هو اليوم في كلّ دورة للأرض حول نفسها وحول الشمس، وذاك اليوم من العام الماضي لا يختلف عن هذا اليوم الذي يماثله من عامنا هذا، الاختلاف بينهما في المحتوى الذي تتضمنه الأيام، فمحتوى هذا اليوم قد لا يماثل محتوى العام الماضي من حيث درجة حرارته أو برودته أو من حيث الأحداث التي وقعت فيه، وعليه زمن اليوم لا يختلف وفق كلّ دورة سنوية، والمحتوى اليومي مختلف بين الحين والآخر،

فاليوم الذي ولد فيه محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هو اليوم الذي توفي فيه، ولذلك قلنا اليوم واحد والمحتوى مختلف.

الزمان دائرة متصلة يتواجد فيها الماضي جنبا إلى جنب مع الحاضر والمستقبل، ولو عُدنا إلى الماضي البعيد إلى أن نصل إلى النقطة الآن فلا نجد ماضيا على الإطلاق، بل نجد الاثنين معا الآن والمستقبل، ولا نجد الماضي، وذلك لعدم تكوّنه بعد، وبعد أن قُضيت الآن أصبحت ماضيا وحدها، وكلّ ما عداها مستقبل، ولهذا كان المستقبل هو الأكثر والأوفر الذي لا يقارن بأي وقت آخر، لا بالماضي الذي في تعداده إلاّ الآن الواحدة، ولا بالحاضر الذي لا يمتلك إلاّ اللحظة الآنية، وعليه بداية الحياة مستقبل ونهايتها مستقبل، فالمستقبل الأوّل هو المتكون من الحياة الدنيا، والمستقبل الآخر هو المتكون من نهايتها، ممّا يجعل نهاية الحياة الدنيا بداية للحياة الآخرة، والتي يكون فيها كلّ الماضي كمحتوى هو المستقبل الحسابي لمن وجد في اليوم الأوّل (الحياة الدنيا)، ولهذا لا يتم الاتفاق مع أرسطو ومؤيديه بأن كلّ ما هو ماضٍ قد فسد، فالزمان الماضي لم يفسد بل إنّه في السجل المحفوظ الذي فيه حسابنا ما ثقل وما خف منه.

وعليه من مستوجبات نجاح الخليفة في ممّارسة حقّوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته أن يراعي الزّمن ولا يهدره فيما لا يرضي الوكيل، الذي به آمن وأوّلى أمره إليه، وهذا لا يعني أن يترك أمره للوكيل وهو على حالة من الاتكالية، فالوكيل قال أعملوا وأنتم متوكّلون فيما تعملون على الله الذي بيده الأمر والملك. {وَلِكلّ دَرَجَاتٌ ممّا عَمِلُوا وَمَا ربّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَربّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِينَ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآَتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ

الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}272، وقال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}273، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}274، وقال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحمن فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحمن أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا وَعِبَادُ الرَّحمن الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً

---

272 الأنعام 132 . 135.

273 التوبة 105، 106.

274 الكهف 110.

وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا}275.

والمتوكلّ على الله صبور ولهذا فالصبر والتوكلّ صفتان لا تجتمعان إلا مع العلم بالله وقدرته والعلم بما سوى الله وضعفه، فمن العلم بالله يعلم الخليفة أنه تعالى الرازق ذو القدرة المطلقة على الرزق في كلّ مكان وكلّ وقت، وعالم بما سوى الله فغير الله زائل وهذا يجعل الأمر يهون عليه، فيلزم الصبر على الزائل الذي لا يدوم، ومن يؤذى في مكان ما ويضيق عليه رزقه فليخر ج صبرا وتوكلّا على الله لذلك النّاس قسمان:

- قسم قادر على الخروج وهو متوكلّ على ربّه، يترك الأوطان ويفارق الأهل والإخوان طلبا للرزق بصبر وتوكلّ، قال تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}276، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:(الْبِلَادُ بِلَادُ اللَّهِ وَالْعِبَادُ عِبَادُ اللَّهِ فَحَيْثُمَا أَصَبْتَ خَيْرًا فَأَقِمْ)277.

والإقامة برفق لأنّه لا رزق بغلظة، فروي في الإحياء "البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأي موضع رأيت فيه رفقا فأقم"278.

- وقسم خانع خاضع عاجز وهو يصبر بتواكلّ لا بتوكلّ. قال تعالى:

---

275 الفرقان 58 . 7.

276 النحل 126 . 128.

277 مسند أحمد، ج 3، ص 355

278 تخريج أحاديث الإحياء، ج 2، ص 284

{وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا الله يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السميع العليم} 279.

وفي الجمع بين الصبر والتوكلّ (الذين صبروا وعلى ربّهم يتوكلّون) ذكر ما يساعد على التوكلّ وهو بيان حال الدواب، ويأتيها كلّ يوم برزق جديد، والمطلوب منا أن نتخطى درجة الدواب فنسعى صبرا وتوكلّا بالعمل على لله الوكيل.

والرزق يتطلب الشكّر والشكّر فيه الزيادة فيضا من الله على الشاكر المتوكلّ على الله سبحانه، قال تعالى: {كلّوا مِنْ رِزْقِ ربّكُمْ وَاشكّرُوا لَهُ} 280.

ويوضح الله تعالى إن الرزق المعنوي أفضل من الرزق المادي، والرزق المعنوي عند الله، فقد خلق الرزق المادي للاختبار في دار الفناء، قال الله تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ ربّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} 281.

ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقّوق الله، وحقّوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحقّ الزوجات، والممّاليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، وكلّ أعمال الخير والإصلاح في الأرض والإعمار

279 العنكبوت 60.

280 سبأ، 15

281 الكهف، 46.

فيها، وكلّ هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثوابا وخير أملا فثوابها يبقى، ويتضاعف، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس عليها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجد في تحصيلها المجتهد، وضربّ الله مثل الدنيا وحالها وذكر أن فيها نوعين:

- نوع من زينتها، يتمتع به قليلا ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربّما لحقّته مضرته وهو المال والبنون.

-ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام وهو (الباقيات الصالحات).

ولمقارنة المادي بالمعنوي يقول الله تعالى: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا}282

## 3. مفطور:

الفطرة النشئة التي ينشأ الإنسان عليها نشوءا، وهي ما يُجعل عليه جعلا فالذي فطر هود صلّى الله عليه وسلّم هو الله تعالى الذي بيده أمر المشيئة للشيء إن شاءه فلن يكون إلا كما شاءه جلّ جلاله، ولهذا كان هود على المشيئة رسول كريم.

قال تعالى: {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ}283.

وهنا وقفة لابدّ منها في قوله (على الذي فطرني).

فلم يقل إنّ أجري إلا على الذي خلقني علما أنّ الذي فطره هو الذي خلقه.

---

282 مريم 76.

283 - هود 51

قال هود صلّى الله عليه وسلّم: (الذي فطرني) وهو أوّل نبي من الأنبياء والرّسل يذكر فطرة الله تعالى التي فطر عليها خلقه، والفطرة لها معانٍ منها:

المعنى اللغوي:

فقد جاء في كتاب العين: "وفطر الله الخلق، أي خلقهم، وابتدأ صنعة الأشياء، وهو فاطر السماوات والأرض، والفطرة التي طبعت عليها الخليقة من الدين، فطرهم الله على معرفته بربّوبيته، وانفطر الثوب وتفطّر أي انشق، وتفطّرت الجبال والأرض انصدعت"284.

وقال الجوهري في الصحاح: "والفطرة بالكسر: الخلقة. وقد فطره يفطره بالضم فطرا، أي خلقه. والفطر أيضا: الشق. يقال: فطرته فانفطر. ومنه فطر ناب البعير: طلع، فهو بعير فاطر. وتفطر الشيء: تشقق. وسيف فطار، أي فيه تشقق. قال عنترة:

وسيفي كالعقيقة فهو كمعي.... سلاحي لا أفل ولا فطارا

والفطر: الابتداء والاختراع. قال ابن عباس رضي الله عنه: كنت لا أدري ما فاطر السماوات حتى أتاني أعربّيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي أنا ابتدأتها"285.

وعلى هذا فلفظ فطر يدور معناه على الشق والابتداء والخلق.

المعنى الشرعي:

لقد ورد لفظ الفطرة في كتاب الله تعالى، في آية واحدة، هي قوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}286.

284 - معجم العين، ج 7، ص 418

285 - تاج اللغة وصحاح العربّية، ج 2، ص 781

كما ورد الفعل منه وهو فطر قال تعالى: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}287.

وجاء على صيغة اسم الفاعل فاطر في آيات منها قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ}288.

وجاءت فطور على صيغة جمع مفرد فَطْر في قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحمن مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}289.

وجاءت على معنى اسم مفعول منفطر في قوله تعالى: {السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا}290.

في هذه الآيات وآيات كثيرة يدور معنى الفطر فيها على الخلق، والابتداء، والانشقاق، أو عدم الانشقاق.

وقد ذهب العلماء والمفسرون والباحثون في معنى الفطرة إلى معانٍ منها:

. أن الفطرة هي الإقرار بمعرفة الله تعالى، وهي العهد الذي أخذه عليهم في أصلاب آبائهم، وأخرجهم من ذرية آدم صلّى الله عليه وسلّم وأشهدهم على أنفسهم بقوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ ربّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِربّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}291.

---

286 - الروم 30

287 - الأنعام 79

288 - فاطر 1

289 - الملك 3

290 - المزمل 18

291 - الأعراف 172

وعلى هذا فليس أحد إلا وقد أقر بالرّبوبية لله تعالى مصداقا لقوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}292. فكلّ مولود يولد على ذلك الإقرار.

. أنّ معنى كلّ مولود يولد على الفطرة، أي أن الله فطرهم على المعرفة والإنكار، وعلى الإيمان والكفر.

. أنّ الفطرة هي الإسلام لكنها خاصّة بالمؤمنين؛ لأنّه لو فطر النّاس جميعا على الإسلام لما كفر أحد منهم، وهذا خلاف ما دلت عليه النصوص كقوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}293.

. أنّ الفطرة هي الخلقة التي خُلق عليها المولود، من المعرفة بربّه، وكلّ مولود يولد على خلقة يعرف بها ربّه، إذا بلغ مبلغ المعرفة، يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم، التي لا تصل بخلقتها إلى معرفة ذلك.

ومثل هذا القول يفهم منه أنّ المراد بالفطرة، كلّ مولود يولد على السلامة خلقة، وطبعا، وبنية، ليس معها كفر ولا إيمان، ولا معرفة ولا إنكار، ثم يعتقد الكفر أو الإيمان بعد البلوغ عند إدراك المعرفة.

. الفطرة تعني البدأة التي ابتدأهم عليها الله تعالى، أي أن كلّ مولود على ما فطر الله عليه خلقه، من أنه ابتدأهم للحياة والموت، والسعادة والشقاء، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ من قبولهم عن آبائهم اعتقادهم أو رفضهم.

---

292 - الزخرف 87

293 - الأعراف 179

غير أنّ الذي نقوله نحن: من خلال ما يحمل قول هود صلّى الله عليه وسلّم من دلالات في قوله: (الذي فطرني) وهو يجادل قومه، أنّهم يعرفون معنى الفطرة، إذ ليس من المقبول عقلا أو منطقا، أن يجادلهم ويسوق لهم الحجج والبراهين بأمثلة ومعانٍ وأدلة ليس لديهم معرفة بها هذا من جهة.

أمّا من جهة أخرى، فقوله (الذي فطرني) تتضمن معنى وإياكم، لأنّهم لم ينكروا عليه الفطرة، وإنما أنكروا دعوته لترك ما كان يعبد آباءهم، وهذا يقودنا إلى الموازنة بين الخلق والفطرة.

إنّ الخلق مفطورون على التوحيد والإقرار بالرّبوبية لله تعالى بما أخذ عليهم من عهد وأشهدهم على أنفسهم في هذا الجانب ولم يشهدهم على أنفسهم في الجانب الخَلْقي.

وهذا يعني أنّ الفطرة منحها الله سليمة لخلقه من جملة النجدين، ونقول هذا لأنّ البلوغ والإدراك المعرفي هو الذي يتمسك بالفطرة ويعزّزها، أو أنه ينحرف عن فطرة الله الذي فطره عليها، بدليل أن الله تعالى لم يُقيّد الفطرة كما قُيّد الخلق، وإنما مثلها مثل الرزق، فمن النّاس من آتاه الله مالا فينفقها في مرضاة الله تعالى، ومنهم من آتاه مالا فتراه يعيث في الأرض فسادا، فهذا وذاك كان باختيار كلّ منهما، فكان هذا الرزق جميعه من الله تعالى بما كتبه لهم مقيدا أنه يرزقهم هذا الرزق، ولكنه لم يُقيّد إنفاقه، أي لم يتكفّل الله تعالى لأحد بوجه إنفاق ماله، وتركه مخيّرا في ذلك. نريد أن نخلص من هذا التحليل إلى النتيجة وهي: أن الله تعالى أعطى البشر الفطرة والخلق جميعا، ولكن قيّد الخلق وأطلق الفطرة، ومن حقّ القارئ أن يسأل:

ـ كيف قيّد الخلق وبماذا قيّده؟

ـ وكيف أطلق الفطرة ولماذا أطلقها؟

لقد جمع الله تعالى قيد الخلق وإطلاق الفطرة في آية واحدة بقوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}294.

فالفقرة الأوّلى من الآية في قوله تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر عليها النّاس) إن الدين الحنيف في توحيد الله وعبوديته هي الفطرة التي أعطاها لخلقه وكانت من ضمن النجدين، والنجدان هما السبيل الذي ذكره الله تعالى في قوله: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}295. فالشكّر والكفر هما الخير والشر اللذان يضمهما النجدان.

. ولما كان الإنسان إما شاكرا وإما كفورا فقد اختار أحد النجدين.

. الذي يختار نجد الخير فقد بقي على الفطرة التي فطره الله عليها وبقي على خلقه.

. الذي يختار نجد الشرّ، لم يبقَ على الفطرة التي اختارها الله له مع بقائه على خلقه.

. الفطرة متبدلة والخلق ثابت.

وهذا معنى قوله تعالى: (لا تبديل لخلق الله) وإن تغيرت فطرتهم.

إنّ هودا صلّى الله عليه وسلّم شأنه في الفطرة والخلق شأن جميع الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين، بقي على فطرته السليمة، وعلى خلقه الإنساني الذي كرمه الله على العالمين، فأراد من ذلك أن يعيدهم إلى الفطرة السليمة التي خلقهم الله عليها، فلما كان تبديل الفطرة باختيارهم، وتبديل الخلق غير ممكن، لما قيّده الله تعالى بقدرته، بدلوا الفطرة ولم

294 - الروم 30.

295 - الإنسان 3.

يستطيعوا تبديل الخلق، ومن هنا أدرك الشيطان أنّه لا يستطيع تبديل الخلق، فأوعزّ لأتباعه بتغييره كما وعد حيث قال تعالى: {إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا}296.

فلما تعهد الله الخلق بعدم التبديل، لجأ الشيطان المريد بالإيعاز لأتباعه بالتغيير لزجهم في تحدي الخالق عزّ وجلّ بالتدخل فيما خلق بمحاولات تغيير شكّلّ الخلق لأنهم لا يستعطون تبديله.

إن الفطرة السليمة لا تنافي العقيدة الصحيحة في عبادة الله تعالى، ولذا كان تذكيره لهم بالفطرة المرتكز الأساس لترسيخ العقيدة السليمة.

## 4. ناصح:

النصح رأي يقدَّم للآخر عن قصد من أجل أخذ الحيطة والانتباه ممّا هو آتٍ له في المستقبل المنتظر.

والناصح هو من له من الدراية والخبرة والنبأ العظيم ما يكفي لأن ينذر ويرشد الآخرين به إلى الهداية كي يجتنبوا ما يجب اجتنابه ويتركوا كلّ ما يؤدّي إلى الفساد في الأرض ويتجهوا إلى الأخذ بكلّ ما من شأنه أن يكون سببا عظيما في إعمارها.

ولذا فالنصح: تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه. قال تعالى: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}297، وقال تعالى: {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ

296 – النساء 117- 119

297 – الأعراف 79.

النَّاصِحِينَ}298، أما النصح فكان مع النبي هود صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}299. فكان ناصحا لأمته وكلّ نبي هو ناصح لأمته، ذلك أن النبي يرى ما لا يراه غيره من النّاس، فإدراكهم العقلي لا يتجاوز في كثير من الأحيان خطوات أقدامهم، وعند الحديث عن النصح نجدهم يقولون وهو من قولهم: نصحت له الود. أي: أخلصته، وناصح العسل: خاصله، أو من قولهم: نصحت الجلد: خطته، والناصح: الخياط، والنصاح: الخيط، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}300فمن أحد هذين؛ إمّا الإخلاص؛ وإما الإحكام، ويقال: نصوح ونصاح نحو ذهوب وذهاب301.

ومعاجم اللغة أيضا تسلك المسلك نفسه بالقول (نصح) نَصَحَ الشيءُ خَلَصَ والناصِحُ الخالص من العسل وغيره وكلّ شيءٍ خَلَصَ فقد نَصَحَ والنُّصْح نقيض الغِشّ مشتق منه نَصَحه وله نُصْحا ونَصِيحة ونَصاحة ونِصاحة ونَصاحِيةً ونَصْحا وهو باللام أفصح قال الله تعالى وأَنْصَحُ لكم ويقال نَصَحْتُ له نَصيحتي نُصوحا أَي أَخْلَصْتُ وصَدَقْتُ والاسم النصيحة والنصيحُ الناصح وقوم نُصَحاء وفي الحديث إن الدِّينَ النصيحةُ لله ولرسوله ولكتابه ولأَئمة المسلمين وعامّتهم قال ابن الأَثير النصيحة كلّمة يعبر بها عن جملة هي إِرادة الخير للمنصوح له فليس يمكن أَن يعبر عن هذا

---

298 - الأعراف 21.

299 - هود 34.

300 - التحريم 8.

301 - مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ج 3، ص 461.

المعنى بكلّمة واحدة تجمع معناها غيرها وأَصل النُّصْحِ الخلوص ومعنى النصيحة لله صحة الاعتقاد في وحدانيته وإِخلاص النية في عبادته والنصيحة لكتاب الله هو التصديق به والعمل بما فيه ونصيحة رسوله التصديق بنبوّته ورسالته والانقياد لما أَمر به ونهى عنه ونصيحة الأَئمة أَن يطيعهم في الحقّ ولا يرى الخروج عليهم إِذا جاروا ونصيحة عامّة المسلمين إِرشادهم إِلى المصالح وفي شرح هذا الحديث نظرٌ وذلك في قوله نصيحة الأَئمة أَن يطيعهم في الحقّ ولا يرى الخروج عليهم إِذا جاروا فأَيّ فائدة في تقييد لفظه بقوله يطيعهم في الحقّ مع إِطلاق قوله ولا يرى الخروج عليهم إِذا جاروا؟ وإِذا منعه الخروج إِذا جاروا لزم أَن يطيعهم في غير الحقّ وتَنَصَّح أَي تَشَبَّه بالنُّصَحاء واسْتَنْصَحه عَدَّه نصيحا ورجل ناصحُ الجَيْب نَقِيُّ الصدر ناصح القلب لا غش فيه كقولهم طاهر الثوب وكلّه على المثل قال النابغة أَبْلِغ الحرثَ بنَ هِنْدٍ بأَني ناصِحُ الجَيْبِ بازِلٌ للثوابِ وقومٌ نُصَّح ونُصَّاحٌ والتَّنَصُّح كثرة النُّصْحِ ومنه قول أَكْثَم بن صَيْفِيٍّ إِياكم وكثرةَ التَّنَصُّح فإِنه يورث التُّهَمَة والتوبة النَّصُوح الخالصة وقيل هي أَن لا يرجع العبد إِلى ما تاب عنه قال الله عزّ وجل توبةً نَصُوحا قال الفراء قرأَ أَهل المدينة نَصُوحا بفتح النون وذكر عن عاصم نُصُوحا بضم النون وقال الفراء كأَنّ الذين قرأُوا نُصُوحا أَرادوا المصدر مثل القُعود والذين قرأُوا نَصُوحا جعلوه من صفة التوبة والمعنى أَن يُحَدّث نفسه إِذا تاب من ذلك الذنب أَن لا يعود إِليه أَبدا وفي حديث أُبيّ سأَلت النبي صلّى الله عليه وسلم عن التوبة النصوح فقال هي الخالصة التي لا يُعاوَدُ بعدها الذنبُ 302.

النصح أو النصيحة: هي بذل النصح للغير والنصح معناه: أن الشخص يحب لأخيه الخير ويدعوه إليه ويبينه له ويرغبه فيه وقد جعل النبي صلّى الله عليه وسلّم الدين النصيحة وقد بايع رسول الله بعض صحابته على النصح

302 - لسان العربّ، ج 2، ص 615.

لكلّ مسلم وهي من حقّوق المسلمين فيما بينهم قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}303، وقوله تعالى: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}304.

والأمانة من صفات الأنبياء والمرسلين الذين ائتمنهم الله على رسالته إلى خلقه، والذين هم أمناء على ما يعود بالنفع على أمتهم، وحريصون على هدايتهم وإرشادهم.

والنصيحة من أهم المواضيع لبناء المجتمع الإسلامي وهي من مقومات المودة وأعظم لوازم المحبة ومن لم يكن ناصحا لأخيه فليس بأخ وهي الدرع الحصين.

ذكر القرآن الكريم أن الوظيفة الأساسية لبعثة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام هي النصح لأممهم فهي تعد من أفضل الأعمال عند الله يوم القيامة.

وقد تكون النصيحة موجهة من أناس مؤمنين كما جاء في قوله تعالى:

{وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ}305

وقيل إن المعني هو مؤمن آل فرعون فكان يوجه النصيحة الى نبي الله موسى ليحذره من أعدائه حتى ينقذه من القتل.

303 - الحجرات 10.

304 - الأعراف 62.

305 - القصص 20.

وتارة تكون النصيحة من امرأة مؤمنة وهي أخت نبي الله موسى صلّى الله عليه وسلّم حينما وجهت نصيحتها لحماية أخيها بدون خوف قال تعالى:

{إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}306.

قال تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ. قَالَ الْمَلا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنْ الْكَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ ربّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ}307، قبل أن ندخل في الحديث عن صفة الناصح للنبي هود صلّى الله عليه وسلّم نذكر حديث الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم الذي يطرح فيه دور الناصح، قال الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا"308 هذه هي رسالة الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم ألا وهي الأخذ بيد النّاس نحو النجاة، والنجاة لا تتحقّق حين تمس الدعوة شغاف قلوب النّاس وتتركهم دون أن تغير ما بهم من:

306 - طه 40.

307 - الأعراف 65- 68.

308 - الحديث أخرجه البخاري في الصحيح في كتاب الشركة: باب هل يقرع في القسمة، وكتاب الشهادات باب القرعة في المشكلات، ج 3، ص 182، ص 237 من حديث كريا والأعمش كلاّهما عن الشعبي عن النعمان بن بشير مرفوعا به وبنحوه.

كفر بالله تعالى.

شرك بالله تعالى.

انحراف عن طريق الفضيلة.

بل لابدّ أن يحصل التغيير وتظهر ثمار الدعوة بكلّ الوسائل سواء أكانت:

بالترغيب.

أم بالترهيب.

وإن لم يحصل التغيير بعد استخدام كلّ الوسائل تسقط كلّ الحجج التي يحاول أي واحد أن يلتمسها يوم القيامة، فالأدلة والبراهين جاءت واضحة مثل الشمس في كبد النهار، إذ يقول تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ ربّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حقّتْ كلّمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبّرينَ}309.

الاستكبار استعلاء عن الحقّيقة وجحود لمبرراتها ومعطياتها وهو معاندة بدون حُجَّة دامغة، فالمستكبر يقف على الحقّيقة ويغض النظر عنها، بعدم اعترافه بأنها الحقّ. وهذا الأمر لا يُنقِص من شأن الحقّيقة، بل يُنقص من شأن المستكبر عليها بغير حقّ.

قال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَإِنْ يَرَوْا كلّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا

309 - الزمر 71 – 72.

سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}310.

قال الزجاج: "معنى يتكبرون أي أنهم يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحقّ ما ليس لغيرهم، وهذه الصفة لا تكون إلا لله خاصة"311.

ومن الآية السابقة يتضح أنَّ الذين يتكبرون في الأرض هم الذين يتكبرون بغير الحقّ، وهذا يعني أن للتكبر صفتان:

الصفة الأوّلى: هي التكبر بالحقّ، عن المظالم وعن الأعمال الوضيعة التي تقلل من شأن مرتكبيها، وهذه من صفات الخالق والخلفاء المتصفين بصفاته، الذين يقولون الحقّ ويعملون على إحقّاقه ولو كره الكافرون والمجرمون، أي أنهم الذين يتعالون بإعلائهم كلّام الله تعالى في الأرض، وإن حكموا بين النّاس حكموا بالعدل، وإن قالوا صدقوا، وأن عملوا أصلحوا.

الصفة الثانية: التكبر عن الحقّ، بالحياد عنه والميل كلّ الميل إلى ما يؤدّي إلى إخفائه ومغالبته بالباطل، والمتكبّرين عن الحقّ هم الذين يقومون بأعمال الوضاعة التي تقلل من شأن مرتكبيها، بما يقدمون عليه من أفعال لا تُرضي الله ورسوله ولا تُرضي المؤمنين المستخلفين في الأرض، وهؤلاء هم الذين إن قالوا كذبوا، وإن عملوا أفسدوا.

إنَّ المفسدين هم الذين يتكبرون عن الإصلاح، أمَّا المصلحون فهم الذين يتكبرون بفعله، وفي هذا الأمر قال تعالى في إبليس عندما استكبر عن السجود لآدم عليه الصّلاة والسّلام: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ

310 الأعراف، 146.

311 مجدي صور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة ـ مكتبة العلم، 1999، ص 78.

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}312. إنَّ استكبار إبليس كان استكبارا عن الحقّ، أمَّا تكبُّر الملائكة فكان تكبرا بالحقّ. والسجود يدل ويُعبّرَ عن الطاعة وفي هذا الأمر ظهرت الاحتمالات الآتية:

الاحتمال الأوّل: أن السجود طاعة لمن أصدر الأمر وهو الله تعالى.

الاحتمال الثاني: أنَّ السجود اعتراف بتميز آدم في خلقه قال عزّ وجلّ: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}313.

الاحتمال الثالث: أنَّ السجود استغفار لله عما قاله الملائكة عندما قال لهم جلّ جلاله: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}314.

الاحتمال الرابع: التسليم بالعلم الذي يعلمه الله عزّ وجلّ، والذي أظهر شيئا منه لآدم حتى أظهر لهم منه شيئا وهو مقدرته على إنباء الملائكة بما لا يعلمون.

وفي كلّ الاحتمالات الأربّع السابقة فالسجود لله تعالى سواء لطاعة أمره، أو الاعتراف له فيما اختاره وفضَّله، أو لعلمه بالغيب الذي لا يعلمون منه شيء، أو لأنه استغفار له جلّ جلاله.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}315. الذين يستكبرون عن عبادة الله تعالى، هم الذين لا يلتزمون بما يأمر وبما ينهى، أي أنهم العاصون غير الطائعين لعبادته، وهؤلاء

312 البقرة، 34.

313 التين، 4.

314 البقرة، 30.

315 غافر، 60.

هم الذين سيدخلون جهنم. فالاستكبار: عدم الاعتراف بالشيء برغم وجوده، إنه الجحود والميل إلى ارتكاب ما يخالف الحقّ، وفي هذا الأمر تواطؤ مع ما لا يرضي الله عزّ وجلّ ممّا يجعل الاستجابة لهؤلاء هي الدخول في جهنم. وفي مقابل ذلك تكون الاستجابة لمن يسأل الله أو يدعوه بالعبادة المدخلة إلى الجنّة. وعليه فالذين يستكبرون عما أمر الله به ونهى عنه، يكونون في أسفل سافلين والذين يتكبرون مع ما أمر الله به ونهى عنه سيكونون في عليين. ولذلك فالله المتكبّر جلّ جلاله يودُّ لعباده الذين استخلفهم في الأرض أن يتكبروا عن النواقص فيكونوا من المتكبّرين مع تكبره، ولذا فهم لا يتكبرون إلا بالحقّ.

يقول الله تعالى: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}316. لن يستنكف المسيح تعني: لن يأنف ولن يحتشم في كونه عبدا لله تعالى، بل إنّه المتكبّر بالعبادة أي المتعالي بها عن النواقص، ولذا فإن العبادة تعالي مع وحدانية المتكبّر ورفعته. وكذلك الحال مع الملائكة الذين هم في حالة تكبر مع ما يأمر به المتكبّر الأعظم، أي أنهم الملتزمون بالطاعة والعبادة لأمر الله تعالى. وفي حالتي التكبر مع والتكبر عن، تكون المجازاة إمَّا بوفرة في الأجور وزيادة من فضل الله للذين يعملون الصالحات، وإما بالعذاب الأليم للذين يعملون السيئات.

الذين يعملون السيئات هم المتكبّرون عن الطاعة والعبادة لله تعالى، وهم الذين قال فيهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لا يدخل الجنّة أحدُ في

316 النساء، 173.

قلبه مثقال حبة خردل من كبر، ولا يدخل النّار أحدُ في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان"317.

قال تعالى: {وَعِبَادُ الرّحمن الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ ربّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا}318. المتواضعون من عباد الرّحمن هم الذين يمشون على الأرض هونا، أي بلين وثبات مخافة من تكبر في غير محله، واحتراما للأرض التي منها خلقوا وفيها استخلفوا. وهؤلاء هم الذين يلتزمون بما أمر الله تعالى، ويتصفون بالطاعة والعبادة، مع دعائهم بما يدفعهم إلى الإصلاح ويُحفزهم عليه، ويبعدهم عن الإفساد في الأرض التي أمرهم الله بالإصلاح والإحسان فيها.

وحتى لا يسود التكبر وتفسد الأرض جاء في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدكم على أحد ولا يبغي أحد على أحد"319. وفي حديث آخر رواه الترمذي قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "ألا أخبركم بمن يحرم على النّار؟ . أو تحرم عليه النّار . تحرم على كلّ قريب هين لين سهل"320.

---

317 صحيح ابن حبان، ج 1، ص 440.

318 الفرقان، 63 . 68.

319 سنن الترمذي، ج 7، ص 279.

320 المصدر السابق، ج 9، ص 28.

وقال عروة ابن الزبير رضي الله عنهما: "رأيت عمر ابن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربّة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين، دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها"321.

المتكبّر الحقّ هو المتكبّر بصفاته الحسان المتعالي بها إحقّاقا للحقّ وإزهاقا للباطل، والمتكبّر بالإضافة هو المقتدي بما ترمي إليه صفات المتكبّر جلّ جلاله، أما المتكبّر أو المستكبر بغير حقّ فهو الظالم لنفسه وعقله وبدنه وروحه، وهذا الظلم المركَّب يجعله في الدنيا يعيش القلق والألم معا، وفي الآخرة يذوق العذاب الشديد، ولهذا فهو لم يستخلف في الأرض ولن يُستخلف في الجنّة.

المتكبّر المطلق: هو المتعالي على عرشه، والمتكبّر عن ظلم عباده، وملكه لا يزول، وهو لا يخشى أحدا. أمَّا المتكبّر بالإضافة فهو الذي يخشى الله ولا يخشى غيره في إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، وهو المتكبّر عن الرذيلة والسيئات ونقيصة الآخرين أو ظلمهم. ولهذا فهو المعني بالاستخلاف في الأرض دون غيره، وهذا الأمر يجعل من الاستخلاف خصوصية تحتوي كلّ المؤمنين الطائعين العابدين الحامدين الشاكرين المسبحين المتكبّرين بحمد الله تعالى.

والمتكبّر بظلمٍ هو الذي يعرف الحقّيقة ولا يأبى إظهارها ولا يأخذ بها، ويشرك آخرون فيها وهم لا علاقة لهم بها، وهؤلاء إذا دعاهم لا يستجيبون له قال تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ

---

321 بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية، ج 3، ص 302.

هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}322. بطبيعة الحال لا برهان لهم إلا التكبر بغير حقّ، ولهذا فالتكبر بغير حقّ جرم كبير يُدخل مرتكبه النّار. والذين أمنوا وأطاعوا وعملوا الصالحات واقتدوا بصفات المتكبّر الحسان نالوا الأجر الكبير المدخل للجنة.

قال تعالى: {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ربّ السَّمَاوَاتِ وَربّ الْأَرْضِ ربّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}323. وله الكبرياء تعني: المتعالي بآياته العظام القابلة للملاحظة والمشاهدة والإدراك العقلي دون لبسٍ أو غموض، فالنجوم والكواكب والشروق والغروب آيات عظام في السماء، والكنوز التي تكوّن الأرض من ماءٍ دافقٍ ومعاشٍ طيب ومعادنٍ نفيسة ذات وفرة بين أيدي النّاس. والمستخلفون في الأرض هم الذين يوقنون أنه الحقّ فيزدادون إيمانا والذين كفروا بنعمة ربّهم يجحدون. ومن يجحد نعمة ربّه، لن يكون لله خليفة في الأرض، فخلفاء الله في الأرض هم الذين يتصفون بصفات من الله تعالى. أما أوّلئك الجاحدون الناكرون ليس لهم من صفات الله شيء، ومن لا يتصف بصفات الله الحسان لا خير فيه.

322 النمل، 59 . 64.

323 الجاثية، 36، 37.

قال تعالى: {إنَّ الذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته ويُسبحونه وله يسجُدون}324. الاستكبار من عمل الشيطان، مصداقا لقوله تعالى: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين}325 إن امتناع إبليس عن السجود لآدم كان معصية لأمر الله وهذا الامتناع هو تكبر عن الطاعة وعدم الاعتراف بقول الحقّ وفعل الحقّ، وهذا التكبر هو المعصية التي بها لُعِنَ إبليس. أما أوّلئك الذين لا يستكبرون فهم الطائعون لأمر الله تعالى وغير المتكبّرين عليه، وفي الآية السابقة المعنيين بالطاعة هم الملائكة الكرام الذين سجدوا لله تعالى اعترافا وإيمانا بأنه الحقّ وقوله الحقّ سبحانه وتعالى عما يصفون.

قال تعالى: {إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم أنَّ الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين}326 قلوبهم منكرة تعني، جاحدة للحقّ، ولا تعمل على إظهاره وهم في ذلك مستكبرون مع أنّه الحقّ من المتكبّر جلّ جلاله. ولهذا دائما الاستكبار لا يخفي الحقّيقة، بل في نظرية التحليل النفسي الاستكبار اعتراف غير مُعلن، ولكن يمكن استنباطه والعمل على إظهاره بالتي هي أحسن وذلك بعد إجراء عملية التحليل للشخصية المستكبرة عن الحقّ. وهؤلاء هم الذين قال فيهم عزّ وجلّ: {وَيْلٌ لِكلّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}327 فكأن لم يسمعها تعني: أنه سمعها ولكنه لم يأخذ بها ولا يعمل بها، وهذه دليل إثبات التكبر بغير حقّ، ودليل إثبات أن التكبر عن الحقّ لا يضعف

324 الأعراف، 206.

325 البقرة، 34.

326 النحل، 22، 23.

327 الجاثية، 8.

الحقّ في شيء أو يلغيه، وإن الجحود من البعض يدل على أن البعض قد آمن ولم يتكبر عنها، وبهذا التكبر يستمد صفته من المتكبّر المطلق.

يقول أبو حامد الغزالي: "المتكبّر من العباد هو الزاهد العارف الذي يتكبر عن كلّ شيء سوى الحقّ تعالى"328.

المتكبّر بالإضافة هو خليفة الله في الأرض الذي إن دعي لنقيصة تكبَّر عنها، وإن دعاه سائل استجاب وفق استطاعته، وإن لم يستطع فلا ينهر، ولذا فالتكبر صفة محتملة للإيجاب والسلب. فتكبر العبد عن ارتكاب المظالم وارتكاب المعاصي صفة إيجابية. وارتكابه للأفعال الذميمة والمفسدة في الأرض صفة سلبية. قال تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}329 وهم لا يستكبرون تعني: أنهم يعترفون بالإعجاز الإلهي في آياته العظام، وبالتالي هم الذين يتعاظمون معها علوا ورفعة حتى ينالوا الهيبة. والسجود اعتراف وتسليم وتكبر مع المتكبّر لا تكبر مع من سواه. وهم الذين كلّما رأوا آية أو نزلت عليهم آية وحدوا الله وكبروه تكبيرا أي عظموه وقدسوه تقديسا. فالمتكبّر بكماله وجماله يتكبر، والمؤمن بإيمانه يستعلى، والذين لا كمال فيهم ولا جمال ولا يؤمنون فهم الأذلاء الذين رضوا بأن يكونوا خوالف. ومن يرتضي بأن يخالف الحقّائق أو ينكرها يفتقد الحجة، ومن لا حجة له لا شرع في حكمه، ومن لا شرع في حكمه ظالم، ومن يظلم لا يتعاظم، ومن لا يتعاظم يركن ويستكين في مستنقعات الرذيلة والوضاعة. ولذلك فالاستكبار عن الحقّ ليس بحقّ.

---

328 أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. بيروت ـ دار الكتب العلمية، ص 52.

329 السجدة، 15.

المتكبّر الحقّ هو المتكبّر عن الرذيلة والوضاعة والسفاهة، والعازة والجهل، والمرض والتعب والجوع وعن الصاحبة والولد والشبيه والمثل. إنّه الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد، ولم يكن له ولي من الأمر، يضاعف الحسنات ويمحو السيئات، ويغفر الذنوب، ويكيد كيد الكائدين، ويزلزل الأرض ومن عليها، يحيي ويميت، فعَّال لما يُريد، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، يُتصف به ولا يَتصف بأحد، يعلم الغيب ولا يُطلع عليه أحدا، يُعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، ويغني من يشاء بغير حساب، يحقّ الحقّ ويُزهق الباطل، يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء، وإذا أراد أمرا يقول له كن فيكون.

إذن المتكبّر الحقّ هو المتكبّر بعزّته عن الاستكانة والمتكبّر بقوّته عن الوهانة، وباستطاعته عن المهانة. والمتكبّر بالإضافة هو المستخلف بكبريائه في الأرض، ولو لم يكن متكبرا ما كان الخليفة، فبتكبره يتعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وبكبريائه لا ينقاد لأحد إلا لله تعالى، لا يظلم ولا يستعبد النّاس، ولا يأكلّ حراما، إنه المتكبّر عن الشرك.

الكبرياء نقاء وصفاء مع الأنا الذي فيه كبرياء المخلوق، والذات التي فيها كبرياء المجتمع، وكبرياء الضمير الذي فيه تُقدَّر الإنسانية، وكبرياء الإيمان الذي به يتكبر المخلوق مع الخالق. فالصفاء كبرياء بين المخلوق والخالق وبين المخلوق ونفسه.

ومن صفات المتكبّر في ذاته المعطيات الآتية:

1 . المقدرة المطلقة على فعل أي شيء فهو الذي بيده الأمر يفعل ما يشاء كما يشاء وأينما يشاء، ومتى ما يشاء، فلا يَحدُّ من قدرته كائن ولو اجتمعت الكائنات جميعها سبحانه إنه على كلّ شيء قدير. {إِنَّ اللَّهَ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}330 وقوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا}331. ومع أنّه المقتدر والقادر على كلّ شيء، إلا أنه يُمهل الكافرين دون أن يَهمل أمرهم وكلّ أمر، ولذا فهو المتكبّر الذي لا يتوقف عند حالة حتى وإن كانت عاصية لأمره وذلك لأنه يعلم أن أمره نافذ ولكنَّ النّاس لا يعلمون بمقدرته التي يعلمها من آمن، ولأنه المتكبّر، فهو يعطي الفرصة لمن يُمكن أن يكون من المؤمنين، بعد أن يغفر له ما تقدم من ذنبه، وهو القادر على أن يغفر الذنوب جميعا ما تقدم منها وما تأخر سبحانه إنه على كلّ شيء قدير.

2 ـ عدم التساوي مع الغير. إنه الواحد الأحد ومالك الملك الذي تتعدد صفاته كما يتعدد ملكه، وهو الخالق الذي لا يتساوى في شيء مع خلقه، وفي هذا الأمر تنص القاعدة بالمطلق على: (أنَّ الخالق أفضل من المخلوق وأقدر) ولذا لا مجال للمقارنة، وفي ذلك يقول تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}332 وقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}333. إذا كان الصانع للشيء هو أفضل منه، فما بالك بخالق الأشياء كلّها، فالصانع صنع الأشياء من الأشياء، أما خالقها فهو الذي خلق الشيء من لا شيء سبحانه.

فنحن بنو آدم الذين يُراد لنا أن نرث الأرض ونستخلف فيها، صنعنا مستلزماتنا ممّا خلق الله تعالى، فمنها صنعنا الحاسوب وشبكات المعلومات والاتصالات المتطورة، وصنعنا الصاروخ والطائرة والتلفاز وكاميرات التصوير والتجسس على بعضنا بعضا، وصنعنا المقاعد والأقلام والورق، وصنعنا

330 البقرة، 20.

331 الكهف، 45.

332 النحل، 60.

333 الشورى، 11.

الجرة التي فيها يُحفظ الماء، وصنعنا الكثير ممّا نعد ونفتخر، إلا أننا نحن الصنَّاع أفضل ممّا صنعنا، فالذي صنعناه لا يساوينا في شيء، وذلك لأننا نحن المخلوقون خلقا. فما صنعناه من قوّة لا يساوي قوتنا المستمدة من القوي الأعظم سبحانه وتعالى مصداقا لقوله: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم). وبما أن ما صنعناه لا يساوينا، إذن بطبيعة الحال نحن لا نساوي من خلقنا.

3 . ليس له بداية ولا نهاية. {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}334. لم يكن من قبله شيء، ولم يكن من ورائه أحد، فهو الأوّل والآخر وهو على كلّ شيء قدير. إنه الله الذي تؤمن به القلوب، والذي تُدركه العقول، وترى آياته الأبصار في البر والبحر والسماء وما بينهما وما تحتويه من النعم التي أنعم بها الخالق على خلقه. فهو الأوّل الذي لم يكن قبله أحد، وهو الآخر الذي لم يكن بعده ثاني، ولأنّه هكذا في ذاته، فهو المتكبّر عن الصاحبة والولد، والمتكبّر عن المشاركة لأحد. فالذي لا يتكبر عن هذه هو الذي له بداية ونهاية، وهذه ليست من صفات المتكبّر جلّ جلاله.

4 . يَرى كلّ شيء ولا يراه شيء. {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}335 وقوله جلّ جلاله: {إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم}336. خلق الله لنا الأبصار نعمة لنرى بها آياته العظام في خلقه، ونرى بها الجمال الذي أبدعه في الأرض والسماوات العلا، ونحس به في علاقات المحبة والتعاون والتآنس في الأبوة والأمومة والأخوة والعمومة ومواثيق الروابط والعهود الوافية. فالله تعالى يرانا ولا نراه وفقا لما تنص عليه

334 الحديد، 3.

335 آل عمران، 5.

336 الأعراف، 27.

القاعدة: (الخالق يرى من خلق والمخلوق لا يرى خالقه مع أنّه يحس به ويدركه يقينا). وإن حاول أحد ليرى فليحاول، ليرى آياته العظام التي بها يدرك أنه الحقّ جلّ جلاله {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}337. الله عزّ وجلّ كلّم موسى مباشرة وأعطاه الحجة آية راءها بأم عينيه، وهي انعدام الجبل الماثل أمام أنظار موسى عليه الصّلاة والسّلام من الوجود في الزّمن غير المقدَّر قياسا، فصعق موسى عليه الصّلاة والسّلام، إلى أن أفاق بقوله (تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين). أي أنه اعترف برؤية الآية الدالة على رؤية الله تعالى. وهذا لا يعني أن موسى عليه الصّلاة والسّلام غير مؤمن ولكن كما قال إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام (ليطمئن قلبي). والآية التي أظهرها الله عزّ وجلّ كانت طمأنة تامة على نفس موسى. إنه عزّ وجلّ المتكبّر عن الرؤية التي بها يتم إدراك من له بداية ونهاية، ولذلك يُدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، فالرؤية تمتد للأجسام والأشكّال والألوان، ولكلّ ثابت ومتحرك، ولا تمتد للذي هو وراء كلّ حركة ووراء كلّ سكون سبحانه جلّ جلاله يرانا ولا نراه، وفي الآخرة رؤية الله تنسجم مع قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}338.

5 . يعلم ما لا يعلمه أحد. {لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}339. الساعة آية من آيات الله العظام التي نعلم بها ولا نعلمها، نعلم بها: علما من عند الله، ولا نعلمها: نعلم أننا لن نعلم سرها متى تكون؟ وكيف

---

337 الأعراف، 143.

338 القيامة 22.

339 الأحزاب، 63.

تكون؟، فهذه آية من علم الله تعالى. وبطبيعة الحال بما أننا لم نعلم البداية فإننا لن نعلم النهاية، ولأن الله هو الأوّل وهو الآخر، فهو إذن وحده الذي يعلم موعدها، ولأننا نحن الذين سينتهون، لذا فمن الطبيعي ألاَّ نعلم أمر نهايتنا على قيد الوجود، بل الذي يعلمها من يملك الأمر وهو الجبار العظيم.

قال تعالى: {وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}340 إنه يعلم بكلّ شيء، ما يُسرّ في الصدور وما يُعلن بالقول، ولذلك فالأعمال بالنيات التي يعلم سرها الله تعالى {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}341. أي أنّه لو لم يعلم ما لم يعلمه أحد ما أنزل هذه الآية على رسوله الكريم حتى يكون يقظا بمن حوله، وهذه الآية كما سبق أن أوضحنا أنّها نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين وهم لم يكونوا بمؤمنين بعد، فكانوا يقولون للرسول صلّى الله عليه وسلّم: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلأن، يريدون الصدقة ويمنون (قل لم تؤمنوا) حيث انعدام التصديق والثقة والطمأنينة التي بها تطمئن القلوب وتنقاد الجوارح لشرع الله فالإيمان قول باللسان واعتقاد بالإيمان وعمل بالأركان، (ولكن قولوا أسلمنا) أي دخلنا في السلم بإظهار الشهادتين، وترك محاربّة الرّسول ومن آمن برسالته السماوية الخاتمة، (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) تعني: إلى أن يأتي الوقت المناسب لإعلان إيمانكم حينها تصبحوا من المؤمنين الذين يُطمئن لهم باطمئنان قلوبهم بذكر الله تعالى.

---

340 طه، 7.

341 الحجرات، 14.

ولأنه المتكبّر فهو يعلم ما لم يعلمه أحد، ولأنه المتكبّر فهو لا يُطلِع على علمه أحدا إلا بمقدار ولمن ارتضى، {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}342.

6 . يتحكم في الأمر ولا أحدا يتحكم في أمره. {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}343 وقوله عزّ وجلّ: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}344. وفقا للقاعدة الطبيعية التي تقول: (الخالق يتحكم فيمن خلق) فإنّ المخلوق يُسلِم وجهه لخالقه، الذي بقوته يهيمن عليه ويتجبر ويتكبر بعزّته له إن كان مؤمنا، وبِذُلِهِ له إن كان كافرا. ولأنّ الله يتحكم في الأمر ولا أحد يتحكم في أمره، لذا فهو المتكبّر عن الطغيان الذي بإمكانه أن يُنَفِّذه فيمن لا يطيع أمره، ومع أنّه متحكم في الأمر، إلا أنّه عفو غفور، وبهذا العفو والغفران فهو يتكبر بتحكمه في الأمر ليعطي الفرص والآيات المتعددة لمن يريد أن يؤمن ويطمئن قلبه.

7 . يُطاع ولا يَطيع. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ}345 وقال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا}346. إنّه المتكبّر الذي بيده الخير، ولأن الخير بيده فهو الذي يُعطي ويَهب لمن يشاء، وهو القادر على كلّ شيء، وهو الفعَّال لما يريد، بيده الملك لا يحتاج لأحد، والكلّ يحتاج إليه. ولأنّه لا يحتاج لأحدٍ، فهو ليس في حاجة لِمن يَطيع.

---

342 البقرة، 255.

343 ياسين، 83.

344 الملك، 1.

345 النساء، 59.

346 التغابن، 16.

قال تعالى: {مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}347. الله جلّ جلاله بيده كلّ أمر يهب لمن يشاء الإناث ويهب لمن يشاء الذكور ويجعل من يشاء عقيما، ويدخل من يشاء الجنّة ويدخل من يشاء النّار ويرزق من يشاء بغير حساب. إنه مالك الملك الغني القوي، الذي جعل فينا الحاجة إليه ولم يجعل حاجة في نفسه إلينا سبحانه ما أعظم شأنه.

المخلوق لا يملك لنفسه شيئا إلا ما أعطاه الله، ولأن الله تعالى لم يكن في حاجة لأحد فلا ضرورة إذن لأن يَتبع أحد، وفي مقابل ذلك الكلّ في حاجة لله عزّ وجلّ، لذا الكلّ يَتبَع من بيده مشبعات حاجاته المتعددة والمتطورة عبر الزّمن؛ ولا يتبع سواه. فمن يؤمن بالله يُطع الله ورسوله، ومن يكفر لن يكون له في الجنّة نصيب.

المتكبّر سبحانه خلق كلّ شيء وتكبر عن كلّ ما خلق، ولهذا فهو لم يكن في حاجة ولن. أما الخلائف في الأرض فهم دائما في حاجة لرحمة المتكبّر في الحياة الدنيا والآخرة.

إنَّ تكبر المتكبّر جلّ جلاله على عباده، هو تكبر الوحدانية وهو التكبر عن الممّاثلة، فالجبار لا يتساوى مع أحد وليس له شبيه، إنه المتكبّر عمَّا يساويه بخلقه وهذا الأمر هو من طبيعة الخالق والمخلوق وفقا للقاعدة: (الخالق لا يتكافأ مع ما خلق) قال تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}348.

8 ـ يُحيي ويُميت. لو لم يكن متكبّرا ما كانت له المقدرة على الإحياء والإماتة، سبحانه خلق التراب وخلق منه خير خلقه، وخلق النور ثمَّ خلق الملائكة منه، وخلق النّار فكان الجن هو المخلوق منها، وهكذا خلق كلّ

347 النساء، 13.

348 الإخلاص، 4.

شيء من الطينة التي هو منها، وبهذا الخلق كانت الحياة تمد الكائنات بالحركة والاتصال. ولأنه تعالى خلق من كلّ زوجين اثنين فكان التكاثر والانتشار في الأرض، التي جعل فيها الإنسان خليفة ليُصلِح ما يفسده البعض من الكائنات الأخرى، ولكن الذي حدث جاء الفساد الأكبر من الذي يراد منه أن يكون مصلحا في الأرض، ممّا جعل الإيمان هو المتغير الموضوعي للإصلاح، ولهذا أصبح الاستخلاف نصيب المؤمنين الذين إذا حكموا بين النّاس حكموا بالعدل وإذا قالوا صدقوا وإذا عملوا لا يُفسدون، وإذا ركعوا أو سجدوا لا يركعون ولا يسجدون إلا لله وحده. قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}349 الزّبور كتاب داود (من بعد الذكر) أي التوراة، الذي كتب فيها أن الأرض يرثها عباد الرّحمن المتكبّر جلّ جلاله وهم عامة المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورُسُله وكتبه وبما أمر بالإتباع وبما نهى عن إتباعه طاعة تامة لله وحده.

الموت والحياة يتعلق أمرهما بالمتكبّر الذي يُنفِّذ أمره بهما متى ما شاء وفيمن يشاء، والموت والحياة لم يكن أحدهما ثوابا لأحد، والآخر عقابا لآخر، بل إن أمرهما يتعلق بطبيعة الخلق (كن) فيكون حيا، أو يكون ميتا، إلا أنَّ البداية هي الحياة التي يكون النّاس فيها متساوون، والنهاية هي التي يكونون فيها مختلفين {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}350. وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحقّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}351. ولأنّ الله يحيي الموتى فهو إذن يميت ويحيي، ممّا يدل على أن الحياة مرتين مرة في الحياة الدنيا، ومرة في الحياة الآخرة التي يترتب الاستقرار فيها على ما عملنا في الحياة الدنيا،

349 الأنبياء، 105.

350 فصلت، 46.

351 الحج، 6.

ولهذا فمن عمل صالحا دخل الجنّة، ومن عمل سوءا وإثما دخل النّار إن لم يرحمه الرّحمن الرّحيم. والفرق الكبير بين الحياتين، فالحياة الأوّلى: البقاء فيها مؤقت، والحياة الثانية: البقاء فيها دائم مع الحي الدائم.

قال تعالى: {يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}352، ولأن أمر الحياة والموت بيده عزّ وجلّ فهو بطبيعة الحال على كلّ شيء قدير. أصعب المهام على المستوى الإنساني الإحياء والإماتة، وهما في قائمة المستحيلات على هذا المستوى، أمّا بالنسبة لله تعالى فإنهما من أيسر خلقه، باعتبار أن الحياة هي البداية، وأن الممّات هو النهاية، وهما يخضعان للأمر الذي يصدره تعالى (كن) كن حيا، أو كن ميتا. لذا فإن الله لا يعمل ويبذل الجهد ويستغرق الوقت كما نحن نبذل الجهد حين نسعى ونعمل، بل هو مالك الأمر الذي إن أمر به شيئا جاءه طوعا أو كرها. قال تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}353.

9 . يَخلِق ولا يُخلق. من صفات الجبار أن يكون الخالق الأوّل والآخر، الذي له الحقّ كما له الملك في أن يتكبر على ما خلق سبحانه لا إله إلا هو المتكبّر جلّ جلاله.

المتكبّر جلّ جلاله هو الأوّل والآخر الذي خلق كلّ شيء وتكبر عن خصائص خلقه، فهم الذين يصيبون كما هم يخطئون، وهم الذين يجوعون ويشبعون، وهم الذين يمرضون ويشفون، وهم الذين يُكسرون ويُجبرون بقوته، وهم الذين يظمأون ويرتوون؛ لذا فإنَّ المتكبّر سبحانه وتعالى هو الذي لا تلحقّه هذه الحاجات ولا تلحقّه مُعقباتها، قال تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ

352 الحديد، 2.

353 فصلت، 11.

قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}354. بما أنّنا المخلوقون فلابدّ من وجود خالق جبار سابق علينا ولا يساوينا، أي أن من وراء خلقنا متكبر عظيم، ولأننا المفضّلون على الخلائق في تقويمنا، فبطبيعة الحال أن يكون خالقنا أفضل منا فلا يساوينا، ولهذا فإن الخالق هو الذي يَخلِق ولا يُخلّق. قال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}355.

10 ـ يمتلك الحكمة ويحتكم إليه. الحكمة هي السر الذي يكون وراء كلّ علة أو سبب أو وجود أو نهاية. وهي الحُجَّة التي يكمن فيها القول الحقّ أو الفعل الحقّ الذي يحتكم به أو يحتكم إليه قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}356. والحكمة هنا كما جاءت في تفسير البيضاوي هي تحقّيق العلم واتقان العمل، والخير الكثير: هو الخير الوافر في الحياة والممّات. قال عزّ وجلّ: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ ربّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ربّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}357 الحكمة هي مكمن القوّة المؤثرة في إدراك الحقّائق؛ وهي السبيل للبرهنة عندما يكون اللين هو الأسلوب السائد في عمليات الإقناع بين المتحاورين والمتجادلين، والأسلوب الجدلي يتضمن العزيمة والإصرار على إظهار البيّنة هي كما هي حتى يتم استيعابها وإدراكها وفهمها والأخذ بها واعتمادها دليلا وحُجَّة في إحقّاق الحقّ وتغيير المواقف من الرفض بدون حُجَّة أو سبب إلى القبول بإرادة وعن بيّنة.

---

354 الواقعة، 56 ـ 60..

355 النحل، 17 ـ 20.

356 البقرة، 269.

357 النحل، 125.

ولأنّ الله هو الحكيم العليم فهو مصدر الحكمة، التي يؤتيها لمن يشاء من عباده وهي الخير الكثير. {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ}358 بدون شكّ أنَّ الحكمة التي أوتي بها لقمان تكمن في شكّره لله تعالى، ومن يشكّر الله يزده من فضله مصداقا لقوله تعالى: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}359. ولذا فمن يمتلك الحكمة يحتكم إليه، ويعد مصدرا للثقة بعد معرفة تامة بما يقول من حِكم.

وعليه فإن في التكبر حكمة، أي أن التكبر عن النواقص والرذائل والأطماع التي تؤدّي بأصحابها إلى المذلة هي صفة حميدة ذات فضائل من متكبر حكيم.

ولأن المتكبّر تعالى هو الحكيم العليم، فهو مصدر الحكمة والعلم بها، ولأن الكتاب هو من الحكيم العليم فهو مجمع الحكمة، لذا فمن آمن به تَمكَّنَ من أخذها أو الأخذ منها ومن لم يؤمن حرم نفسه من فضائلها.

11 . يَعطي الآيات ويُنزلها ولا تُعطى له آية: سبحانه وتعالى إن نعد آياته لا نحصيها، ولكن إيمانا تاما كلّ ما خُلق وكلّ ما سَيُخلق هو آيات يأتي بها ولا نستطيع أن نُقدِّم له آية واحدة ولو اجتمعنا، الحياة آية متكاملة والموت آية متكاملة، وهكذا الزلزلة آية، والبصر والسمع والذوق والشم واللمس والإدراك والتفكر والتذكر والاستنباط والاستقراء والتعلم والحكمة وإلى النهاية كلّ شيء خلقه آية. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ

358 لقمان، 12.

359 النساء، 147.

لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}360 والآية فوق كلّ ذلك أننا لن نستطيع أن نخلق آية، ومن يخالفنا نقول له هل تستطيع أن تتدخل في خلقه أو تخرق نظامه المحكم بالزمان والحركة؟ بِطيب خاطر ستكون الإجابة بلا، مع إضافة أننا في دائرة الممكن سنصنع ما هو متوقع وما هو غير متوقع وهذه لن تكون آية. إنه وحده يعلم أمر الغيب ونحن نؤمن به، ولذا فهو يعلم مسبقا ما سنتوصل إليه ونحن لن نعلمه حتى يوم وصوله إلينا.

قال تعالى: {وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}361. ومع أنّنا أمام الإغراء الآياتي نجتذب، إلا أن المتكبّر تعالى لا يجتذب إليها فهو لم يكن في حاجة مثلما نحن في حاجة لأن

---

360 النحل، 10 . 20.

361 النحل، 65 . 69.

نشبع جوعا أو نروي ظمئا أو نشفي مرضا سبحانه إنه المتكبّر الذي يستوجب العبادة والطاعة.

12 . يُسبَّح باسمه ولا يُسبِّح باسم أحد: التسبيح مراجعة إيمانية مع النفس وتوحيد لله ربّ العالمين لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير. والمسبّح هو ذاكر إلهه بالوحدانية المطلقة، ولأن المتكبّر جلّ جلاله هو الإله بذاته العلية وهو الواحد القهار، لذا فلا إله له ليذكره بل هو وحده ربّ العرش العظيم، {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحقّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ}362. وقال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}363. إذن التسبيح اعتراف المخلوق بخالقه مع فائق التقدير والعرفان بالفضل. ولأن الاعتراف عقلي إدراكي وكلّ شيء يُسبح بحمده فإن الجماد والنبات والإنسان وبقية المخلوقات تتساوى في تسبيحها لله ربّ العالمين، ولكن الكلّ لا يفقه تسبيح الكلّ، ممّا يجعل كلّ مفردة من المخلوقات تعتقد أنها وحدها المسبِّحة باسم ربّها الذي خلقها. والآية الكبرى التي يَحفُها الاستغراب والاستفهام أن الإنسان العاقل يظن أنه الوحيد الذي يُدرك الله تعالى، ولكن بما أن الكلّ يُسبح بحمد الله الواحد القهار ألا يكون الكلّ دون تخصيص يدركون الله تعالى، وإلا هل يظن أن يُسبّح أحد لأحدٍ وهو لا يدركه حقّيقة لا شكّ فيها؟ قال تعالى: {إِنَّا

362 الزمر، 75.

363 الإسراء، 44.

سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ}364 وقال عزّ وجلّ: {ويُسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته}365.

13 ـ مُجيب الدعاء: المتكبّر عن النواقص إذا دعوته لأن تكون متكبرا عنها أجابك الدعاء بالرفعة، أمّا إذا دعوته لظلمٍ فلا تتوقع منه الإجابة، ذلك لأن الظلم ليس من صفاته ولا من أفعاله. قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}366 بالتأكيد من يستجيب لله بالطاعة يستجيب لدعائه إذا دعاه (اللهم يا الله يا متكبر اجعلنا من الصالحين، وارضي عنَّا وعن والدينا، وزوجاتنا والبنين، والأخوة أجمعين، وصحابتنا وصحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأمهاتنا زوجات النبي رضي الله عنهنَّ، اللهمَّ إنَّا بِكَ آمنا وعليك توكلّنا وإليك أنبنا وأوّلينا أمرنا وأمرهم وما نملك إليك فارحمنا وأحفظنا بحفظك يا الله في كلّ حين). فمن يُغلب بظلمٍ أو يمرض بداء فعليه بالعمل والدعاء قال تعالى: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ}367.

14 ـ يعز ويذل: قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}368 المتكبّر جلّ جلاله يعز من يشاء بمناصرته له في إحقّاق الحقّ، ويذل من يشاء بإزهاق الباطل، مصداقا لقوله تعالى:

---

364 ص، 18.

365 الرعد، 13.

366 البقرة، 186.

367 القمر، 10.

368 آل عمران، 26.

{بَلْ نَقْذِفُ بِالحقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمّا تَصِفُونَ}369.

15 . يُشبع الحاجة ولا ينتظر جزاء: لو لم يكن هو المتكبّر لكان من المنتظرين لنيل الجزاء أو الطمع فيه، ولأنه المتكبّر جلّ جلاله فهو الذي لم يطمع بالمطلق، ولا يحتاج حتى ينتظر المكافأة أو الجزاء. إنَّ الذي ينتظر هو المحتاج، وبما أنه ينتظر، فهناك من هو أكبر منه شأنا، أو أكثر منه مالا وولدا، ولأنه المتكبّر عن الحاجة للمال والولد والصاحبة وعن كلّ ما خلق فهو الذي بيده الملك أي بيده الخير الذي تحتاجه مخلوقاته، ولهذا فالكلّ ينتظر وهو الذي يجود ويجازي على الأعمال عاليها وسافلها بالثواب أو بالعقاب أو بالمغفرة، {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}370 وقال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ}371 وبما أن كلّ ما خلق يُسبح بحمد الله، والله هو المتكبّر عن الحاجة والعازة، وهو الأوّل والآخِر إذن لا وجود لمن يتم انتظاره، بل الذي يُنتَظر هو الذي يتعالى ويتكبر عن المطلب، إنَّه الله عزّ وجلّ {ذَلِكُمُ اللَّهُ ربّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}372 وقال تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}373.

16 . يُعرَف بذاته ولا يُعرَّف بغيره: المتكبّر هو الذي ليس له مثيل ولا شبيه مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ

369 الأنبياء، 18.

370 النساء، 123.

371 التغابن، 1.

372 الأنعام، 102.

373 الإسراء، 111.

لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}374. لم يكن له ولد ولم تكن له صاحبة ولا شريك: بما أنه المتكبّر تعالى، فهو لم يكن في حاجة لأحد حتى يتخذه ولدا أو صاحبة أو شريكا، إنه مالك الملك والكلّ في حاجة إليه ولم يكن في حاجة لأحد سبحانه جلّ جلاله قال تعالى: {وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}375.

أنه الخالق لكلّ مخلوق، بمن فيهم الصاحبة والولد والشريك، الكلّ خلقه، ولأن على المستوى البشري الولد يُنجب ولا يُخلق والزوج يُجبر ولا يُخلق وكذلك الشريك يُجبر ولا يُخلق، ولأنّ الله تعالى: (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد) إذن فهو بالمطلق لم يكن في حاجة لأحد. ولهذا قال تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}376.

المتكبّر الحقّ هو الذي خلق كلّ شيء وتكبر عن كلّ شيء، إنه المتعالي عن الجوع والعري والمرض والمشاركة وهو الظاهر بآياته والباطن بعزّته وقوته، وهو السابق على كلّ سابق وهو بكلّ شيء عليم {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}377.

17 . عفوا رحيما وشديد العقاب: {قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}378 ورحمته تعالى وسعت كلّ شيء: جاءت مُطلقة، ولهذا فإنّ رحمة الله واسعة لا يُستثنى شيء منها، إنّه الباب المفتوح في وجه من يرغب الدخول معه حتى الفوز بالجنّة، ومن لا يرغب الدخول معه

374 الإخلاص، 1 . 4.

375 الأنعام، 101.

376 الفرقان، 2.

377 الحديد، 3.

378 الأعراف، 156.

فسيكون مع الداخلين من أبواب العذاب الشديد بالقوّة، ولذا فإنّ العذاب يصيب به من يشاء، أما الرحمة فتعم الجميع دون استثناء إلا من يستثني نفسه منها. قال تعالى: {ولو يؤاخذ الله النّاس بظلمهم ما ترك عليها من دابة}379 إنه المتكبّر الذي لو لم يكن متكبرا لأخذ النّاس بظلمهم، وخسف بهم الأرض أو أغرقها إلى أبد الابدّين، ولأنّه المتكبّر المطلق عفا عن الكثير وغفر للكثير وعاقب الكثير مصداقا لقوله تعالى: {فَكلّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}380.

18 . قوله الحقّ وفعله الحقّ: قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابَ النّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا ربّنَا حقّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ ربّكُمْ حقّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}381 وقال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}382 وعدُ الله تعالى بالاستخلاف في الأرض كان للبعض وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولهذا قال تعالى: (منكم) وهي للتبعيض، (الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) هذا الخطاب موجه للرسول صلّى الله عليه وسلّم والذين آمنوا برسالته، ليجعلنهم الخلفاء في الأرض كما استخلف من قبلهم المؤمنين برسالة موسى وعيسى عليهما الصّلاة

379 النحل، 71.

380 العنكبوت، 40.

381 الأعراف، 44.

382 النور، 55.

والسّلام. قال تعالى: {وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحقّ من ربّك فيؤمنوا به}383.

19 . يُعبد ولا يَعبد: العبادة وفقا للقاعدة هي (التعلق بالأفضل المطلق) ولأنه لا أفضل مُطلق غير الله لذا فهو الذي يُعبد ولا يَعبد، ولهذا فهو الجبار جلّ جلاله. {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ ربّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}384.

20 . يحيط بكلّ شيء ولا شيء يحيطه: قال تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا}385. وبما أن الله المتكبّر محيط بكلّ شيء، إذن بطبيعة الحال لا يحيطه شيء، حيث لا شيء خارج محيطه عزّ وجلّ، {وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}386 أي لا تَخفى عليه خافية، كلّ شيء بين يديه بيِّن من حيث مكانه وزمانه وحركته أو سكونه وحجمه وطوله وعرضه ومساحاته وعلمه وحكمته وسره وعلانيته سبحانه المتكبّر المحيط بكلّ شيء علما.

ولأنه يحيط بكلّ شيء علما فهو المتكبّر عن مستوى العقول التي لن تتمكن من الإحاطة بما هو يحيط جلّ جلاله، ولأن المتكبّر مالك الملك يُذهب من يشاء ويستخلفهم بمن يشاء، أو يأتي بخلق جديد، فهو الذي يُحيط ولا يُحاط إنه مالك القوّة والأمر: {إن يشأ يُذهبكم ويستخلف من

---

383 الحج، 54.

384 الأنبياء، 19 . 22.

385 النساء، 126.

386 الطلاق، 12.

بعدكم ما يشاء}387. وقوله عزّ وجلّ: {إن يشأ يُذهبكم ويأتي بخلق جديد}388.

21 . يُحصي ونعمه لا تُحصى: بما أنَّه الجبار المطلق فهو الخالق المطلق، وبما أنه الخالق المطلق، فلن يكون غيره أدرى بما خلق، وبما انه الخالق المطلق فلن يكون غيره مدركا ولا حاصيا لكلّ ما خلق. وكما تتعدد صفات الله تعالى تتعدد نعمه وتتضاعف {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}389 بالرغم من أننا نحصي البشر والبحار والمحيطات والبحيرات والأشجار والكواكب والنجوم إن استطعنا، إلا أنّنا لا نستطيع أن نعد أو أن نحصي جميع الكائنات، فالإنسان بإمكانه أن يعد ما تحت يديه، ولكنه لن يستطيع أن يعد حبَّات الرمل ورذاذ الماء ولا متجزئات الغبار المتطايرة ولا الكائنات الحية على الأرض اليابسة ولا التي في البحار وأعماقها والمحيطات العظام. ومع أنّنا لن نستطيع إلا أنه جلّ جلاله يستطيع مصداقا لقوله تعالى: {إِنْ كلّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرّحمن عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا}390.

22 . يأمر بما يجب وينهى عما لا يجب: ولأن المتكبّر هو المتعالي، فهو يتعالى في ذاته عن كلّ نقيصة، النقيصة التي يجب على الخلفاء الابتعاد عنها اقتداء بصفات مستخلفهم في الأرض عزّ وجلّ، ولذا لن يكونوا خلائف إلا إذا تعالوا وتكبروا عن النزول إلى حيث لا يجب النزول، وأن يتكبروا ويتعالوا إلى حيث ما يجب والعمل به أو الأخذ به.

---

387 . الأنعام، 133.

388 إبراهيم، 19.

389 إبراهيم، 34.

390 مريم، 93 . 95.

قال تعالى: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}391 وقال عزّ وجلّ: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا}392.

23 . لا يظلم أحدا: الذي يظلم هو الذي يغضب ويفرح بغير حقّ، ويمرض ويتعافى ويطمع ويجوع ويشبع، ويختلف وينازع ويخاصم ويفارق، وهو الذي له أنداد وشركاء وله أوّلاد وله صاحبة، ولأن الله تعالى تكبَّر عن كلّ شيء لعدم حاجته له، ولهذا غضب الله وفرحه لا يكون إلا في محله الذي يستوجب الفرح أو الغضب، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}393 والله المتكبّر لا يظلم أحدا، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النّاس شَيْئًا وَلَكِنَّ النّاس أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}394. وقال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ ربّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}395. إنه القاضي بالحقّ ولهذا لا مبدل لحكم الله.

24 . يسأل ولا يُسأل: الذي يُسأل هو الذي يأخذ ويطلب ويتعلم، أمَّ الذي يَسأل فهو الذي يعطي ولا يطلب، فالذي يطلب هو المحتاج، والذي يُعطي هو الغني. ولأن الله تعالى هو الغني فهو الذي يُعطي ويجيب الدعاء ولهذا فهو الذي {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}396 أي يُسألون

391 التوبة، 112.

392 الكهف، 110.

393 المجادلة 14، 15.

394 يونس، 44.

395 الأنعام، 115.

396 . الأنبياء، 23.

عما عملوا فيما أعطي لهم ليجازوا الجزاء الأوفى أو ليعذبوا العذاب الشديد.

وفي معظم الأحيان يعتقد البعض أن السؤال يسبق الإجابة وهذا الاعتقاد ليس في محله، فالإجابة دائما تسبق السؤال، وإلا هل هناك من يُسأل عن شيء لم يدرسه أو يتعلمه أو يقال له أو يجده مبثوثا في شبكات المعلومات المتطورة، وعلى هذا الأساس تعطى المعلومات من المعلمين أوّلا ثم تلاحقّ ثانيا بالأسئلة لمعرفة مستوياتهم، وهكذا نزلت الرسالات والكتب السماوية من الله تعالى على الرّسل فبشروا بها العباد، فآمن من آمن وكفر من كفر والفرصة لا زالت إلى أن يأتي يوم الحساب الذي فيه يُسأل العباد عن أعمالهم.

وعليه المتكبّر سبحانه وتعالى هو المتكبّر عن العيوب والنقائص وصغائر الأمور، فهو الكامل بذاته فحقّ له أن يكون المتكبّر بكماله وجلاله، فهو الله مالك الملك، وهو الملك الذي بيده كلّ شيء فهل يقبل العقل والمنطق أن يكون سبحانه أن نساوي معه من لا يخلق ولا يقدر على شيء؟ قال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}397.

فالمتكبّر جلّ جلاله عليم بالمطلق فيعلم العلم المسبق للأمور ومجرياتها ولكلّ الخلائق وما ستكون عليه، وهذا يعطينا شعورا بالإجلال والتعظيم لهذا الخالق المتكبّر المتعال وبإحاطته بنا دائما فيشعرنا ذلك بالحماية والأمان ويوجب علينا الشكّر بأنه هو خالقنا ومولانا حيث عدله ورحمته ومغفرته.

المتكبّر هو العزيز:

العزيز المطلق الذي له العزة المطلقة سبحانه وتعالى، بكلّ معانيها فهو المتكبّر المتعال، المتكبّر بذاته عن ظلم عباده، قال تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ

397 النحل 17.

ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كلّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كلّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ قَالَ قَرِينُهُ ربّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ وَأُزْلِفَتِ الجنّة لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ}398، وهذا ما تبيّنه الآيات الكريمة السابقة من عدله في حسابه للعباد يوم يقوم الحساب، فهو جلّ جلاله لا يظلم مثقال ذرة من خير أو شر بحقّ الإنسان، إذ أنّ أعمال العباد ستشهد عليهم يوم الدين، فبذلك فإنه العزيز المترفع عن ظلم العباد والتمييز بينهم، فهل يا ترى يوجد من يستطيع أن يحاسب ويتكبر في حسابه عن الظلم سوى الخالق سبحانه وتعالى؟

فعلى خليفة الله ألا يرضى إلا بالعزّة في الحياة بين البشر، فيتكبر بهذه العزة عن ذل الجحود والمعصية، وأن يكون دائم التذكر بأنه بيد العزيز المتكبّر القوي فيردع نفسه عن ظلم الآخرين وسلب حقّوقهم ويترفع عن إذلال نفسه للشرور والمظالم، وأن يكون له من العلم النافع ما يكفيه ليصل إلى حقّيقة أنه كلّ ذنب يقترفه أو خطأ يقوم به هو بمثابة شهادة في حقّ الله بالعزة المطلقة والتكبر عن النقائص والعيوب.

وأن لا يطلب العزة إلا من الخالق عزّ وجلّ وليس من سواه، لأنّه المالك للعزة والوهّاب لها لمن يشاء ويستحقّ، قال تعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوّلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ

398 ق 20 . 31.

عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}399، فمن يستطيع أن يُذِل من أراده المولى عزيزا؟ ومن يستطيع أن يُعِز من أراده الله ذليلا؟

ولكن على خليفة الله أن يدرك أن عزة الخالق وتكبره هي حقّ وللحقّ وبالحقّ، لذلك عليه بالتالي أن تكون عزته غير مختلطة بالإثم وتجاوز الحدود لها، قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}400.

على خليفة الله تعالى أن يتكبرا عن التالي:

1- الجهل:

فالجهل أساس كلّ داء يصيب المجتمع الإنساني، لأن الجهل من شأنه أن يؤدّي بالإنسان إلى الانحطاط في مستوى التفكير الذي يجعله في صفوف الدواب، قال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}401، فالجهل في أمور الدين والدنيا يجعل من الإنسان مخلوقا يلهث وراء الباطل والهلاك، لا يدري أي الطرق يسلك مع أنّ الخالق عزّ وجلّ ميّزه بالعقل، تلك الملكات التي تكفيه مساعدة غيره في الوصول للحقّ إذا أحسن استخدامه، ولم يحجبه عن ما حوله من إبداع وخلق في هذا الكون الكبير، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كلّ يَجْرِي لِأجل مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ ربّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ

399 النساء 138، 139.

400 البقرة 206.

401 الأنفال 21 . 23.

كلّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكلّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أوّلئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأوّلئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأوّلئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}402، ففي الآيات الكريمة السابقة أكبر دليل على أن الإسلام دين يحترم العقل البشري ويدعو لاستخدامه بالشكّلّ الصحيح المؤدي للفوز والنجاح في الدنيا والآخرة، لأن الله تعالى جعل من هذا الكون كلّه آيات ظاهرة وماثلة أمام الإنسان ليستدل من التدبر فيه على الحقّ فيترفع عن الجهل بما يحيط به من يقين وحقّ، بل أن الله تعالى دعا الإنسان للتأمل في أقربّ المخلوقات إليه وهي نفسه في قوله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوربّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} 403، فقد دعا المولى عزّ وجلّ الإنسان لمجموعة من التأملات في الأرض وفي الأنفس وفي السماوات، أي تأملات في الظاهر والباطن، هذه التأملات من شأنها أن توصل الحبل بين العقل والحقّيقة.

إذن لابدّ أن يرفض الإنسان أن يكون جاهلا بما يحيط به من حقّيقة، بأن يتكبر ويترفّع عن هذا الجهل برفضه والدعوة للمعرفة الصحيحة، وألا نكون مثل الذين وصفهم الله تعالى في كتابه الكريم بقوله عزّ وجلّ: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}404، فالجهل يؤدّي للتكبر

402 الرعد 2 . 5.

403 الذاريات 20 . 23.

404 الأنفال 55.

والتكبر يؤدّي بدوره للشرك والضلال، فمن تكبر عن الانتفاع بعلم غيره وترفّع عن البحث عن الحقّيقة قضى حياته في ظلمات الجهل.

لذلك فعلى خليفة الله أن يكون متكبرا عن كلّ طريق مفتاحه الجهل بالدين والدنيا، وأن يكون متواضعا لكلّ من يدفعه لتلقي العلم الحقّ وأن يسعى خلف العلماء للوصول لأعلى درجات المعرفة.

2- الشهوات:

هذه الشهوات التي خلقها الله تعالى فينا ولكنّ البعض لم يحسن فهمها وتهذيبها وضبطها والسيطرة عليها، ممّا جعلها هي المسيطرة عليه وقائدته للهلاك بميله للباطل والفساد، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ والأنعام وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}405، فالشهوات متوافرة في الحياة الدنيا، ولكنّ البشر تفاوتوا في التعلق بها، فمنهم من اشترى الحياة الدنيا بما تحويه من هذه الشهوات، ومنهم من اشترى الآخرة بما فيها من خير عظيم وفوزٍ دائم، كما جاء في قوله عزّ وجلّ: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}406، وقوله سبحانه وتعالى أيضا: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآَخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ

405 آل عمران 14.

406 البقرة 212ز

وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآَخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} 407، فالإنسان حين تسيّره الرغبة فإنها تعمي بصيرته عن الحقّ والصلاح وتقوده نحو الانحطاط، لأن سيطرتها على المرء تعني سيطرة الشيطان الرجيم عليه الذي لا يضمر للإنسان إلا كلّ شر وكره وحقد.

لذلك لابدّ للإنسان من الترفّع عن هذا الانقياد الأعمى للشهوات ورفض سيطرتها عليه، وأن يتكبر عن هذه المفاسد المدمرة، فبتكبره الإيجابي هذا سينال الإنسان المنزلة الرفيعة عند خالقه، وسينال احترام نفسه أوّلا واحترام النّاس من حوله ثانيا، فالشهوات تجعل من الإنسان عبدا لها لا يملك لنفسه شيئا أمامها ولا يكون لديه حول ولا قوّة في وجهها لذلك فإن من شأن هذا الضعف والهوان أن يجعلا من هذا الشخص ذليلا مهانا لها يرضى بأي شيء في سبيل الحصول عليها، فينجرف وراء المفاسد والرذائل يسعى بأية طريقة للحصول على رغبته دون الالتفات لآدميته التي تستحقّ منه الترفع عن ذلك، كحب كنز وجمع المال الذي لا يترك لصاحبه أي مجال للتفكير الحر، إذ أن هذا الحب البغيض يجعل من الإنسان عبدا للمال، يفضّله عن كلّ شيء أحيانا حتى عن نفسه وعن أوّلاده، قال تعالى: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}408، وما نهى الخالق عن فعلٍ إلا لما يترتب عليه من ضرر عائد على الإنسان نفسه وعلى من حوله من البشر، فحب المال لا يؤدّي إلا لاستعباد الشخص وإذلاله والله يريد لنا الرفعة والكرامة لأنه منذ بدء الخليقة كرّمه عن كلّ المخلوقات وميّزه بالعقل حتى لا يهين نفسه ولا يتركها تتوه في الحياة، فهل يكون الإنسان نفسه سببا في ضياعها وإلحاق الإهانة بها؟

---

407 النحل 105 . 109.

408 الفجر 20.

لذلك على خليفة الله أن يجعل من نفسه مسيطرا على شهواته، وأن يترفع عن استعبادها له وتسييرها له، فلا يرضَ باللهث خلفها وترك ما فيه خيره وصلاحه، فليس من خلفاء الله تعالى من كان ذليلا أو مهانا أو عبدا لغير الله عزّ وجلّ.

3- الكبائر:

الكبائر هي أفعال يقوم بها بعض النّاس الذين لا يملكون الورع الديني الكافي الذي يحول بينه وبين هذه الكبائر، لأن الذنب قد يكون صغيرا أو كبيرا ولكن الكبائر لا يمكن تصنيفها إلى صغير وكبير بل هي أفعال محرّمة تؤدّي بصاحبها إلى عذاب الجحيم إذا لم يتكبر عنها ويسمو بأخلاقها الآدمية التي من المفروض أن ترفضها لسوء نتائجها الفردية والجماعية، عَنْ عَبْدِ الرّحمن بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم: "أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلَاثًا قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ قَالَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ"409، فالترفع عن الوقوع في هذه الكبائر هو أمرٌ من المولى عزّ وجلّ لجميع المسلمين، لما لها من عائد وضرر عظيم على الفرد وعلى المجتمع بصفة عامة إذا سادت هذه الكبائر في مجتمعٍ ما فلابدّ أن تكون نهايته كمجتمع آدمي أوشكّ على الانعدام، وهذه الكبائر هي:

أ - الإشراك بالله:

رأس الكبائر وأساسها هو الشرك بالله ومن المعروف أن الشرك به عزّ وجلّ له العديد من الأشكّال والأنواع التي تجعل من الإنسان عبدا للشيطان عدوه الأوّل، قال تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ

409 صحيح بخاري، ج 9، ص 136.

الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}410، وكذلك قوله تعالى في كتابه الكريم: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجنّة وَمَأْوَاهُ النّار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}411، فتوحيد الله جلّ جلاله هو أساس العلاقة الصحيحة بين العبد وخالقه وعدم التكبر عن توحيده وتعظيمه، لأن من تكبر عن توحيده فهو بالتالي عاصٍ لأوامره وناكر لنعمه وجاحد بها، وهو بذلك مترفع عن الحقّ، الذي أوضحه الله تعالى لنا وفرّق بينه وبين الباطل في جميع الكتب والرسالات السماوية التي توحدت واجتمعت على توحيد الخالق جلّ جلاله، قال تعالى: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}412، وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النّاس قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ

410 الحج 31.

411 المائدة 72، 73.

412 المائدة 76.

اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يَا أَيُّهَا النّاس اعْبُدُوا ربّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}413.

فالشرك بالله هو أكبر الكبائر وأساس المفاسد وهلاك الإنسان وضياعه ولذا لا يجد يوم الحساب ما يشفع له عند خالقه الذي تكبر عن توحيده وإجلاله والركوع إليه، بالرغم من أن كلّ ما حوله يدل على وجوب هذا التوحيد ووجوب الترفع عن الشرك الذي إن دل فإنّه يدلّ على جهل وضلال المشرك بكلّ ما حوله.

لذلك فعلى خليفة الله أن يتمسك بالدعوة إلى وحدانية المولى عزّ وجلّ مترفعا بحمله تلك الرسالة عن كلّ مواضع الجهل والانحطاط في التفكير، متمسكا برغبته في الوصول إلى رضا الله تعالى واستحقّاق جنته، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أَوّلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}414، فأصل كلّ المفاسد في الأرض هو عدم توحيد الله، وسبب انتشار الشرور في الأرض التكبر عن الانصياع لأوامره جلّ جلاله، فالتكبر السلبي والغبي عن الحقّ داءا يجعل من البشر ضائعين مفسدين لا يملكون لأنفسهم ذرة خير ينتفعون بها في الدنيا أو في الآخرة عندما يعلمون أنه الحقّ ولا حقّ سواه سبحانه وتعالى.

لذلك إذا تمسك خليفة الله في الأرض بهذه الدعوة فإنه سيعيش حياته مترفعا عن المفاسد والرذائل التي لا يمكن أن تدخل نفسه الموحدة لله والداعية للخير والآمرة بالمعروف بين النّاس.

---

413 البقرة 13 . 21.

414 المؤمنون 57 . 61.

ب- عقوق الوالدين:

الوالدان جناحا الحب والحنان اللذان يظلان الإنسان منذ ولادته إلى حد مماته، ألا يستحقّان أن نترفع عن معصيتهما وعقوقهما؟

قال تعالى: {وَقَضَى ربّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كلاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ ربّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربّيَانِي صَغِيرًا}[415]، ما أروع هذه الآية بما تحمله من معانٍ سامية إذا التزم المرء بها لكانت له الرفعة في الدنيا والآخرة، فقد جمع المولى عزّ وجلّ في هذه الآية الكريمة بين أساسين من أساسيات الخلق الكريم الرفيع المتعالي عن الضعة والإذلال وهما توحيد الله وطاعة الوالدين، ففي كلّ منهما رفعة للمرء وسمو بآدميته إذ أن توحيد الخالق عزّ وجلّ يجعل من الإنسان حرا لا يتذلل لأحد ولا يستطيع أيٍ كان أن يستعبده، فيترفع بذلك التوحيد عن كلّ أنواع وأشكّال العبودية والإذلال للعباد، وكذلك في طاعة الوالدين والإحسان إليهما ترفعا عن الانحطاط الأخلاقي والاجتماعي.

ففي طاعة الوالدين ومعاملتهما بالمعروف يتكبر المرء عن عقوقهما وعصيانهما، فلا يرضى لنفسه هذه الأخلاق السيئة الدنيئة التي تضع من قدره كإنسان كرّمه الله تعالى، وهذه الطاعة لها الكثير من الأشكّال والألوان التي تتجسد فيها حبنا وطاعتنا وإحساننا بالود تجاههما، بالرغم من أننا لا نستطيع أن نوّفي حقّهما علينا إلا أننا يجب أن نعمل على توفير أكبر قدر من الراحة والحب والاحترام لهما والرعاية والحنان والطاعة في غير معصية الله تعالى.

415 الإسراء 23، 24.

ومن يتكبر عن طاعتهما أو الاعتراف بحقّهما عليه ضيَّع رضاهما الذي هو من رضا الله عزّ وجلّ، لذلك فقد دخلت معصيتهما باب التحريم كما جاء في قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}416، فالإنسان العاقل لابدّ أن يدرك مدى منفعة الانصياع لأوامر الله والابتعاد عن نواهيه لما فيه خيرنا في الدنيا والآخرة فالله يريد بنا اليسر والخير ولن نصل إلى ذلك المستوى من الإدراك دون أن نترفع عن العصيان والاستماع لوسوسات الشيطان الرجيم.

لذلك فمن سعى لأن يكون من ضمن خلفاء الله في الأرض لابدّ له من أن يكون عالما بواجباته وحقّوقه ومتحمِّل لمسؤولياته، فلا يترفع ولا يتكبر عن تأدية واجباته ولا يتنازل عن حقّوقه وحمْل مسؤولياته، ففي أوامر المولى لنا رحمة وهداية وخير، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}417، فالمولى عزّ وجلّ بقوته وعظمته وغناه عن البشر لم يتكبر عن توضيح سبل الحقّ والهداية للبشر الذي يجعلهم يميزون بين الخير والشر، فهل نتكبر نحن البشر الضعفاء الفقراء إلى الله عن الأخذ بذلك!

فيا خليفة الله ترفَّع عن معصية الوالدين وإلحاق الأذى بهما، هذه الأفعال التي للأسف الشديد ما نلاحظها في هذا الزّمن كثيرا بسبب تكبر البشر عن فتح قلوبهم للاستماع لكلّام الله فجعلها ذلك ممتلئة بالقسوة والجحود،

416 الأنعام 151.

417 النساء 26.

بعكس خلفاء الله في الأرض الذين تمتلئ قلوبهم بالحب والحنان والمودة، فلا يمكن لعاصي الوالدين أن يكون من بينهم.

ج ـ قول الزور:

أي من يشهد بعكس الحقّيقة أو بغير علمٍ بها لكي يخدم مصلحة له أو لغيره، أو لغرضٍ ما في نفسه، فيجعل من الجاني بريئا ومن البريء جانيا، ويرضى لنفسه هذه الضعة والإهانة، وله من التأثير السلبي على المجتمع بصفة عامة، إذ أنّ شهادة الزور تغيّب الحقّيقة وتخفيها فكم من بريء داخل جدران السجن بسبب شهادة زور من أحدهم، وكم من مجرمٍ هو حر طليق بسبب هذه الشهادة، ويمكننا أن نتصور تأثير الضرر الناجم عن ذلك، لذلك فقد نهانا الله تعالى عنه وجعله من الكبائر، قال تعالى: {وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ}418، فقد حرّم المولى عزّ وجلّ هذا الفعل لما له من عواقب سيئة تعود على المجتمع الإسلامي بصفة عامة، لما ينشره من فساد وظلم وتجبر البشر بعضهم على بعض.

وشهادة الزور تمنع من ظهور الحقّيقة فيسود الظلم بين النّاس، ويأكلّ القوي حقّ الضعيف معتمدا على من يقف معه بتزوير الحقّيقة، فيفتري الإنسان ويكذب ويزوّر ويخدع وكلّها من الأخلاق الذميمة التي تؤدّي بالبشرية إلى الفساد والضلال.

لذلك لابدّ للمؤمن أن يتأكد من شهادته فلا يداخله أدنى شكّ حين ينطق شهادته، قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كلّ أوّلئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}419، فالعلم الأكيد بالقول وبشهادة الحقّ لابدّ أن تظهر فلا يخفيها الإنسان ولا يكتمها حين يحتاج

---

418 الحج 30.

419 الإسراء 36.

إليها كائنا من كان، قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}420.

إذن لابدّ أن يترفع الإنسان عن شهادة الزور بأن لا يرضى لنفسه إلا بشهادة الحقّ وقول الحقّ الذي يرتفع بأخلاق المؤمن إلى أعلى الدرجات، بأن يجعله حرا مالكا لنفسه.

وبذلك نصل إلى مفهوم وحقّيقة جليّة أمام أعيننا وهي أن سبب كلّ المفاسد والشرور في النفس البشرية هو التكبر، فالتكبر عن الحقّ والاعتراف به هو أصل كلّ ما نحن فيه من ذنوب وخطايا وعنف وخسائر، فلا يمكن أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمعا كريما متكاملا إذا كان بين أفراده من يتكبر ويترفع عن الحقّ لينزلق في متاهات الباطل والفساد.

ولابدّ أن يتخلص المؤمن من تكبره السلبي بالتالي:

. أن يكون محاسبا لذاته:

لا يجب أن يتكبر المؤمن عن محاسبة نفسه قبل أن يحاسبها المولى عزّ وجلّ، فلا يعيش في هذه الحياة دون أن يكون رقيبا على أقواله وأفعاله، عالما بما ينفع نفسه وما يضرها، مدركا أن التكبر عن ذلك سيكون سببا في انحداره إلى أدنى المستويات.

فأصل كلّ الخطايا هو التكبر عن الحقّ والاعتراف به، وما من هزيمة نفسية أو مادية يُبلى بها الإنسان أو المجتمع إلا وسنجد التكبر من أساسيات هذه الهزيمة، لأن من شأن الإنسان أن يحافظ على تواضعه الذي يجعل منه آدميا يستشعر معاناة الآخرين ويعيش داخل دائرة المجتمع ككلّ بفقيره

---

420 البقرة 104.

وغنيه، بقويه وضعيفه، فلا يتكبر عن مجالسة من هم أقل منه مكانة أو شأن، ولا يحصر آدميته مع من يراهم متوافقين معه في المستوى.

فكم من حقّوقٍ ضاعت بسبب التكبر عن استيعاب الحقّيقة الجلية، وكم من شرور عمت النفوس بسببه أيضا؟ لذلك لابدّ أن يسأل الإنسان نفسه لماذا لم أمد يد العون لمن هو بحاجة لذلك، ولماذا أتكبر عن مخاطبة نفسي وسؤالها؟ ولماذا نتكبر عن الاعتراف بالحقّيقة؟ ولماذا نتكبر ولا نسامح؟

لذلك فخليفة الله لابدّ أن يكون قريبا من ذاته، لا يهملها فتضيع وتتكبر فتهلك وتخسر في الدنيا والآخرة، بل عليه أن يقف عند خطئها قبل وقوفه عند محاسنها، وأن ينفي من داخله الشعور بأنه محسن وأن له من الفضائل على غيره الكثير، بل يجعل التقصير دافعا لأن يعمل ويندفع في الخيرات، ولا سبيل لذلك إلا بالحديث معها وتعرية الحقّائق أمامها وجعل نفسه دائمة البحث عن الخيرات والمنافع لها ولمن حولها، لذلك فلن تجد من بين خلفاء الله في الأرض من هو تارك العنان لنفسه تفعل ما تريد بل هم من يملكون زمامها ويردعونها عند الحاجة لعلمهم بأنه سيأتي يومٌ عليها ستقابل فيه خالقها الكريم فيحاسبها، بعد مراقبته لها وتسجيل أعمالها صغيرها وكبيرها، لأن المحاسب المطلق دائما معنا وهو الذي خلق لنا العقل لإدراك ما يمكن القيام به من أعمال تعود بالخير والمنفعة علينا، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}421، فالآية الكريمة السابقة تصوّر لنا مدى قربّ المتكبّر منا وعلمه بما يجول في نفوسنا، هذا العلم المطلق الذي ينشأ عن مراقبة ومتابعة دائمين، لذلك فحسابه جلّ جلاله يكون عادلا وقائما لا يمكن الهروب منه.

421 ق، 16.

فمن كان محاسبا لنفسه فقد فلح وفاز، وكان حافظا لنفسه من المفاسد والرذائل والشرور، هذه هي النفس التي يرضى عنها الله والتي يكافئها يوم القيامة بالثواب وبجنة النعيم، قال تعالى: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}422، فالخالق قد رفع من شأن هذه النفس الصالحة التي لا تتكبر عن الحقّ فاستحقّت أن يقسم بها المولى عزّ وجلّ من ضمن ما أقسم عليه من عظائم الأشياء.

ومن شأن مراقبة المرء لنفسه أن يقوّم من سلوكها، إذ أنه سيحاسبها إذا تعدت على الغير أو إذا قصّرت في حقّ من حقّوق الله عليها، أو تثاقلت عن واجب من واجبات الخالق علينا عزّ وجلّ، بذلك ستكون هذه النفس مؤدية لما عليها ومطواعة في الخير وسباقة للمعروف والإحسان، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}423

ـ أن يكون مستمعا لغيره لا ينفرد بما يفكر فيه:

فلا يترفع عن فعل شيء مع جهله به، لأن من شأن العلم ومعرفة الأمر أن تضيء أمام عقولنا كلّ العواقب والنتائج المؤدية لهذا الأمر، وكذلك فإن العلم بما نقوم به من أقوال وأفعال يجعل لنا بعد نظر واتساع أفق في إدراك

422 الشمس 1 ـ 10.

423 المؤمنون 1 ـ 11.

الأمور، فيصبح من حقّنا أن نترفع عن القيام بهذا العمل أو التفوّه بهذا القول.

ولنا في رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم- أسوة حسنة إذ أنه بالرغم من كونه رسولا ينطق بكلّام الله تعالى ولا ينطق عن الهوى، قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}424، وأن له من الأخلاق التي ربّاه عليها الله جلّ جلاله ما ينأي عن الزلل والخطايا، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}425، فقد كان مدرسة في تعليم التواضع وعدم التكبر عن الحقّ والسعي خلفه، فبالرغم من أن الخالق أغناه عن معونة من حوله بما وهبه من سداد رأي وحكمة وبعد نظر إذ أن الخالق عزّ وجلّ يوحي إليه بما يجب أن يكون، إلا أن ذلك لم يجعله متكبرا عن من حوله في أخذ آرائهم عندما يعتزم أمرا ما، فيأخذ من هذا وذاك، ويستمع إليهم ويشاورهم ليصلوا بذلك إلى أصوب الطرق للفوز والصلاح، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَلّ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}426، فمبدأ المشاورة الذي نصت عليه الآية الكريمة السابقة تتجسد فيه تواضع الرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام وتنفي عنه التكبر الذي يكون في غير موضعه، فقد رضي الرّسول عليه السلام برأي الصحابة وعمل به في أكثر من حادثة نذكر منها على سبيل المثال عندما أخذ النبي عليه الصّلاة والسّلام برأي سلمان الفارسي حين أشار عليه أن يحفر خندقا لمواجهة الأعداء في غزوة الأحزاب.

424 النجم 13 . 15.

425 القلم 4.

426 آل عمران 159.

فالإسلام بذلك يقرر مبدا مهما لو سار عليه المسلمون اليوم ما هزموا وهو عدم التكبر عن مساعدة بعضهم البعض وأخذ رأي بعضهم البعض والعمل به إذا تحقّق من منفعته ونتيجته التي تعود بالفائدة على جميع الأطراف، ولو سار على هذا المبدأ كلّ ربّ عمل ومسئول في مكانٍ ما فلم يتكبر عن سؤال ما يجهل ومشاركة مرؤوسيه عن بعض الأمور لكان وضع مجتمعاتنا المسلمة على أفضل حال ولتخلصنا من عنجهية المناصب وغرور المراتب العليا.

فلو تخلينا أن في كلّ مشكّلة نمر بها وما أكثرها في هذا الزمان فإننا لا ننفرد في حلها متناسيين من هم حولنا ومن لهم الحقّ في مشاركتنا هذه الحلول، فسوف نتخطى الكثير بأقل الأضرار والخسائر المعنوية والمادية، فتكون المصارحة والمشاركة وأخذ المشورة هي عنوان تعاملنا مع بعضنا البعض داخل مجتمعاتنا المسلمة التي بُنِيَت على الثقة والمشاركة في كلّ شيء، بذلك فقط سنصل إلى أعلى درجات الصلاح والرقي في التعامل، ولكن علينا أن نُحْسن اختيار من نشاورهم في أمرنا، فلا نلتجئ إلى من هو فاسد التفكير أو قليل الخبرة أو من هو بعيد عن الهداية والحقّ ولا نغفل عن أهمية التخصص والمتخصصين، فنضِل بمشورته علينا، بل علينا أن نتخيّر الصالحين وأهل العلم والدين لنصل إلى الرأي السديد النافع لنا في ديننا ودنيانا.

. أن يكون متيقنا أنّه وما يملك ملكٌ للخالق:

لقد خلقنا الكريم على درجات متفاوتة من القدرات والصفات والإمكانيات، فنجد من كان له حظا وافرا من المال، أو من القوّة الجسدية أو من كان له السلطان والجاه وغيرها من النعم التي يهبها الله سبحانه وتعالى على بعض عباده، فيكون في وجودها وفي فقدانها اختبارا لنفس المؤمن وامتحانا له على كيفية التعامل معها، فقد تنقلب هذه النعمة إلى

نقمة بتكبره السلبي بها وكأنها من صنع يديه ولا فضل لأحد عليه، كما حدث مع قارون حين أغدق عليه الخالق عزّ وجلّ من الأموال والخيرات ما لا يملكه أحد فانقلبت هذه النعمة بتكبره هلاكا له، قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أوّلِي القوّة إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قوّة وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}427، فقد أوضحت لنا الآيات الكريمة مدى الأضرار التي من الممكن أن يُلحقّها التكبر بالشخص نفسه وبمن حوله، فقد جلب للشخص ابتعاده وتكبره عن من حوله، وجعل منه جاحدا لنعمة الله عليه، متكبرا عن الاعتراف بما له وما عليه من حقّوق وواجبات، أما من حوله فقد كان تكبره فيصلا بين نوعين من البشر هما:

427 القصص 76 . 83.

النوع الأوّل: من كانت نفوسهم متكبرة عن الرضا بما لديهم وما أعطاهم الله تعالى، فانتزع هذا التكبر الرضا عن قناعة بما يملكون وتمني ما عند غيرهم.

النوع الثاني: من كان تكبر قارون دافعا لهم للرضا بما أعطاهم الله، فكانوا أشد قربًا للمولى ورضا بما قدّر لهم، فتكبروا عن تمني ما لدى قارون من أموالٍ وخيرات.

فكلّ ما لدى الخلق هو من عند الله تعالى ولابدّ للعبد أن يكون متيقنا من ذلك فلا يتكبر عن الاعتراف بهذه الحقّيقة، والشكّر على نعم الخالق علينا، قال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}428.

حتى النصر هو بحد ذاته رضا من الخالق علينا عندما لا نتكبر عن اتباع أوامر الله عزّ وجلّ وأوامر رسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم قال تعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ}429، فالنصر إذا كان من نصيب المسلمين هو نعمة من عند الله، فقد قال جلّ جلاله: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشكّرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ ربّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ ربّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}430،

---

428 النحل 18.

429 الأنفال 17، 18.

430 آل عمران 122 . 126.

فلا يجب أن تأخذ المسلمين العزة والتكبر بقوتهم وعددهم، فمن شأن هذا التكبر أن يؤدّي بهم إلى هزيمة محقّقة.

فمن ذلك نستطيع الخروج بأن التكبر هو أساس هزيمة الأنفس والقلوب، وهو أساس انكسار القيم والأخلاق في الإنسان بابتعاده عن الخالق عزّ وجلّ فهو لا يحب أي متكبر أو ظالم أو مغرور. فعلى خليفة الله أن يدرك أنه مهما وصل من قوّة ومن سلطان فإن له من القدرة الشيء المحدود التي سمح له الله بها، فهل من الممكن أن يستطيع أي إنسان أن يملك القدرة على تغيير ما في الأفئدة والنفوس مهما وصل من مكانة أو امتلك من قوّة؟

فقلوب العباد بين يدي الرّحمن فقط يستطيع أن يفعل بها ما يشاء وحده ولا قدرة لإنسان على ذلك، مهما وصل هذا الإنسان من درجة كريمة عند الله، قال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}431، وكذلك قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}432.

وعليه التكبر صفة كمال لله تعالى، ومن يستمد هذه الصفة منه يكون من المستخلفين في الأرض الذين يولون أمرهم بالمطلق للمتكبر المطلق.

ولذا المتكبّر هو الذي انفرد بالكبرياء والملكوت، وتوحد بالعظمة والجبروت، وهو الذي بيده الإحسان، ومنه الغفران، وليس لملكه زوال، ولا في عظمته انتقال.

431 القصص 56.

432 البقرة 272.

وعليه فإنّ الإسلام لم يترك النصيحة دون أن يضع لها آدابا حتى تحقّق مبتغاها وأهمها:

أن تكون في السر ما لم يجاهر بها صاحبها.

وأن تكون بالأسلوب المناسب وفي اللحظة المناسبة.

وأن تكون بنية الإصلاح والتغيير إلى ما هو أحسن.

وأن تكون خالصة لوجه الله تعالى، وأن يتجرد الناصح من حوله وقوته إلى حول الله وقوته. وعدم رعايته هذه الآداب قد يولد في نفس المنصوح نوعا من العزّة بالإثم، ويحاول التعبير عنها في شكّلّ مراء أو جدل ليبرر به ما هو عليه من خطأ، ولا يقبل النصيحة.

والنصح يكون محل ثقة ذلك أنّ الاستشارة تقصده لأنّه محل الثقة، فالواجب على العاقل السالك سبيل ذوي الحجّة أن يعلم أنّ المشاورة تفشي الأسرار فلا يستشير إلا اللبيب الناصح الودود الفاضل في دينه وإرشاد المشير المستشير قضاء حقّ النعمة في الرأي والمشورة لا تخلو من البركة إذا كانت مع مثل من وصفنا نعته.

وأمّا النصيحة للمسلمين بأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويشفق عليهم، ويرحم صغيرهم، ويوقر كبيرهم، ويحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم، وإن ضره ذلك في دنياه كرخص أسعارهم، وإن كان فيه فوات ربّح ما يبيع من تجارة، وكذلك جميع ما يضرهم عامة، ويحب صلاحهم وألفتهم ودوام النعم عليهم، ونصرتهم على عدوهم.

ودفع كلّ أذى ومكروه عنهم.

وقال ابن الصلاح: النصيحة كلّمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلا.

بيان النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فالنصيحة لله توحيده ووصفه بصفات الكمال والجلال، وتنزيهه عما يضادها ويخالفها ويجتنب معاصيه، ويقوم بطاعته ومحابته بوصف الإخلاص والحب فيه والبغض فيه، وجهاد من كفر به وما ضاهى ذلك، والدعاء إلى ذلك والحث عليه.

والنصيحة لكتابه الإيمان به، وتعظيمه وتنزيهه، وتلاوته حقّ تلاوته، والوقوف مع أوامره ونواهيه، وتفهم علومه وأمثاله وتدبر آياته، والدعاء إليه، وذب تحريف الضالين وطعن الملحدين عنه 433.

وأما الناصح فغرضُه بذلك إزالة عيب أخيه المؤمن واجتنابه له وبذلك وصف الله تعالى رسوله صلّى الله عليه وسلّم فقال: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عزّيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 434 ووصف بذلك أصحابه فقال: {محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِين مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}435 ووصف المؤمنين بالصبر والتواصي بالمرحمة، يقول تعالى: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}436.

---

433- غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، ج1، ص 63

434 - التوبة 28 1.

435 - الفتح 29.

436 - البلد 17.

### 5 . أمين:

الأمين هو من توفرت فيه اشتراطات الثقة مع وافر الصدق والوفاء دون أن يكون له طمع في غير وجه الله وما هو حقّ له، ولذا فهو من يُؤمن جانبه دون خوف، يقول الحقّ ويعمل على إحقّاقه وإن شهد لن يشهد زورا.

إذا الأمين هو الموثوق فيه من قبل الآخرين حتى أنهم يأتمنوه على أسرارهم وممتلكاتهم عند الحاجة والضرورة؛ فيكون خير أمين عليها طوال الوقت الذي تودع فيه عنده ليحفظها من الضياع أو الهلاك.

ولأن هود كان أمينا بُعث رسول ليكون أمينا على النبأ الذي بُعث به رسولا لقومه في البلاغ والهداية والتبشير والإنذار والتحريض على الحقّ وتجنب الخيانة والباطل والضلال.

أن الأمين هو الثقة، وهو فعيل من أمن يأمن أمنا فهو آمن وأمين بمعنى واحد.

فقوله تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ}437 وأُتبع (ناصح) بـ(آمين) وهو الموصوف بالأمانة لردّ قولهم له: (لنظنّك من الكاذبين) لأنّ الأمين هو الموصوف بالأمانة، والأمانة حالة في الإنسان تبعثه على حفظ ما يجب عليه من حقّ لغيره، وتمنعه من إضاعته، أو جعله لنفع نفسه، وضدّها الخيانة.

437 - الأعراف 65 – 68.

والأمانةُ من أعزّ أوصاف البشر، وهي من أخلاق المسلمين، وفي الحديث: (لاَ إيمَانَ لِمَنْ لاَ أمان له) وفي الحديث: "إنّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرّجال ثم عَلِمُوا من القرآن ثمّ عَلِمُوا من السُّنَّة ثمّ قال يَنام الرجل النّومة فتقبض الأمانة من قلبه إلى أن قال فيقال: إنّ في بني فلان رَجُلا أمينا ويقال للرّجل ما أعْقَلَه وما أظرفه وما أجْلَده وما في قلبه مثقالُ حبّة من خَرْدَلٍ من إيمان" فذَكَر الإيمان في موضع الأمانة. والكذبُ من الخيانة، والصّدق من الأمانة، لأنّ الكذب الخبر بأمر غير واقع في صورة توهم السّامع واقع، فذلك خيانة للسّامع، والصّدق إبلاغ الأمر الواقع كما هو فهو أداء لأمانةِ ما علِمَه المخبرُ، فقوله في الآية (أمين) وصف يجمع الصّفات التي تجعله بمحلّ الثّقة من قومه، ومن ذلك إبطال كونه من الكاذبين438.

الأمين هو من يؤتمن جانبه، وهو الذي يتقي الله ويخشاه في كلّ أمر يقدم عليه، إنَّه المؤمن بالحقّ قولا وعملا خالصا لله وحده، وهو الموثوق فيه من قبل الآخرين الذين تربّطه بهم علاقات موضوعية.

والأمين هو محل الأمانة والأمن، وأمين تعنى ممّا تعني:

. الحريص.

. المتقي لله تعالى.

. المتمكن من حُسن الأداء.

. الآمن.

438 – تفسير الرازي، ج 5، ص 364.

ولذا فكلّ هذه المعاني جاءت في الآية الكريمة السابقة ملتصقة تطابقا بسيدنا يوسف صلّى الله عليه وسلّم، فهو الحريص، والناصح، والمتقي لله تعالى.

والأمين الذي يؤمن جانبه ويوثق في قوله وفعله وعمله وسلوكه، وهو المخلص لمن ائتمنه، فلا يخالف ولا يخون ولا يزوِّر الكلّم عن مواضعه والحقّائق عن حُججها، وهو الذي إن عاهد وفَّى.

الأمين هو الصادق والمصدق الذي تودع لديه الأمانات وتسلم على يديه بالمحافظة عليها فلا تضيع ولا تُزوَّر ولا يزيد ولا ينقص منها شيئا.

والأمانة قد تكون من الله تعالى كما هو حال الأنبياء والرّسل الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ وجعل بين أيديهم أمانات منه للعباد تستوجب الإيمان والطاعة والتبشير والإنذار والتحريض والأخذ بما جاء فيها قولا وعملا، والانتهاء عمَّا نهت عنه وتجنب ما أنكرته وتحريم ما حرَّمته.

ولأنّ كلّ أمانة تستوجب أن يكون أحد أمينا عليها، والرسالات السماوية أمانات فقد اصطفى الله تعالى لها الصدِّقين رُسُلا حافظين ومبشرين ومنذرين وفاعلين بها بين العباد الخيرات الحسان، قال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ربّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}439.

بأسباب انتشار الكذب اتصف البعض به؛ فكانوا من الكاذبين كما كان قوم نوح صلّى الله عليه وسلّم الذين كذَّبوا الحقّ الذي جاءهم به مُرسلا من الله تعالى، ولأنهم كاذبون لم يقولوا على الحقّ إلا افتراء، فلو كان نوح مدعيا بما أتاهم به أنه من بنات أفكاره جاز لهم تكذيبه، ولكن نوحا صلّى الله

439 الشعراء 150 . 111.

عليه وسلّم لم يقل إلا الحقّ، وهو أنه مُرسل لهم من الله تعالى ليطيعوه ولا يشركوا به شيئا ويتقوه، ولذلك نوح لم يتاجر بالرسالة التي أؤتمن عليها بل أجره على الله ربّ العالمين، أي أن نوح لم يطلب مقابل منهم سوى الإيمان بالله ربّا وأحدا أحدا.

### 6. ناج:

النجاة هي السلامة من الأذى والألم والعذاب والعقاب وكلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الهلاك والضرر، والناجي هو الذي سلم من كلّ شر وكيد ومكر وعقاب وطامة، كما نجي سيدنا هود صلّى الله عليه وسلّم من الهلاك الذي تعرَّض له قومه بأسباب كفرهم وشركهم وضلالهم.

أرسل الله تعالى رسله الكرام صلّى الله عليهم وسلّم إلى أمم وأقوام كي يبلغوا رسالته، هذه الرسالة لم تجد لها صدى عند الكثير منهم، ذلك بأسباب كثيرة منها:

. التعنت.

. والتجبر.

. والصد.

. والرفض.

. والإنكار.

. والتكذيب.

وغير ذلك قد تغلل في عقول النّاس، ومنحهم تكبرا وتجبرا، ممّا كسى قلوبهم غلظة وتحجرا، إذ يقول تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ

أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}440 والنبي هود صلّى الله عليه وسلّم بعد أن ابلغ قومه رسالته ربّه ونصحهم، لم تكن نهايتهم بما جاءت به الرسالة من الثواب الجزيل والرحمة والمغفرة، بل كانت نهايتهم وفق اختيارهم الذي أرادوه، فكان عاقبتهم الخسران والعذاب الأليم.

إنّ النهاية يكون فيها طرفان:

. طرف خاسر وهو من حقّت عليه العقوبة.

. طرف ناج وهو من أصبح خارج دائرة العذاب الواقع، كي يرى من خلاله:

رحمة الله تعالى.

مصداق وعد الله تعالى لعباده.

نصر المؤمنين على المجحدين والمشركين.

عظمة ربّ العزّة وقدرته جلّ جلاله.

وكان هود صلّى الله عليه وسلّم من بين الناجين، إذ يقول تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}441، وقوله تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ}442. إن قوله: (وَلَمَّا جاء أَمْرُنَا)

---

440 - هود 50 – 53.

441 - هود 58.

442 - الأعراف 72.

أي عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله بها سبع ليال وثمانية أيام، تدخل في مناخرهم وتخرج من أدبارهم وتصرعهم على الأرض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية.

ذلك لشدة حرّها أو لشدة بردها أو لشده قوتها، فتخطف الحيوان من الأرض، ثم تضربّه على الأرض، فكلّ ذلك محمل.

وأما قوله: (نَجَّيْنَا هُودًا) فاعلم أنه يجوز إتيان البلية على المؤمن وعلى الكافر معا، وحينئذ تكون تلك البلية رحمة على المؤمن وعذابا على الكافر، فأما العذاب النازل بمن يكذب الأنبياء عليهم السلام فإنه يجب في حكمة الله تعالى أن ينجي المؤمن منه، ولولا ذلك لما عرف كونه عذابا على كفرهم443.

**7. مستغفر:**

الاستغفار قول كريم لا يقوله إلا مؤمن بعد أن يدرك الحقّ من الباطل، والاستغفار لا يقتصر على القول لسانا بل قول ضمير مع ندم على ما سبق من فعل استوجب الندم عن ارتكابه، والمستغفر هو كثير الاستغفار عن كلّ صغيرة أو كبيرة تمر به أو يمر بها؛ فهو عند كلّ تبيُّن يدفعه الندم لأن يستغفر الله ربّه، ولذا فالاستغفار في حقّيقته هو طلب توبة ومغفرة من الرّحمن الرّحيم الغفور الودود الذي بيده أمر المغفرة والتوبة والرحمة.

قال تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}444، هذه

443 - تفسير الرازي، ج 8، ص 429.

444 - هود 50 – 52.

الآيات الكريمة يتبين من خلالها دعوة هود صلّى الله عليه وسلّم، ومن بين ما دعا إليه هو الاستغفار، والاستغفار أسلوب من أساليب الدعوة، فدعوته للاستغفار صلّى الله عليه وسلّم تطرح صفة المستغفر له وتجعلها أحد عناوين دعوته.

وهذه الصفة تكررت في النسق الدعوي لأنّه يكمن فيها أمر تعبدي يكون من وراءه الخير الكثير، ففي دعوة نوح صلّى الله عليه وسلّم ظهر الاستغفار بصورة تدعو إلى التأمل، إذ يقول تعالى: {قَالَ ربِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كلّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}445 {فَقُلْتُ استغفروا ربّكُمْ} بالتوبة عن الكفر والمعاصي فإنه سبحانه لا يغفر أن يشرك به وقال ربّكم تحريكا لداعي الاستغفار {إِنَّهُ كَانَ غَفَّارا} دائم المغفرة كثيرها للتائبين كأنهم تعللوا وقالوا إن كنا على الحقّ فكيف نتركه وان كنا على الباطل فكيف يقبلنا ويلطف بنا الجنّة بعد ما عكفنا عليه دهرا طويلا فأمرهم بما يمحقّ ما سلف منهم من المعاصي ويجلب إليهم المنافع ولذلك وعدهم على الاستغفار بأمور هي أحب إليهم وأوقع في قلوبهم من الأمور الأخروية أعني ما تضمن446.

والله تعالى هو الرّحيم بقبوله التوبة عن عباده التائبين المستغفرين من ذنوبهم، قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ

445 - نوح 15 – 14.

446 - تفسير الالوسي، ج 21، ص 313.

أحسن الْخَالِقِين}447، قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}448، فرحمته تأتي نجاة وأمان للمذنب الراجع للخالق، فاتحة أبواب الأمل والرجاء ممّا يحفز النفس المخلوقة على التوبة والعمل الصالح، وتوصد أبواب اليأس والخوف، فبذلك تكون رحمته بالخلق أسبق من غضبه.

والرّحيم هو الخالق لكلّ الخلق لذلك هو فوقهم جميعا، قال سبحانه وتعالى: {الرّحمن عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى}449، بمعنى أنه القائم على أمور الخلق.

والتوبة في الشرع ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط فيه والعزّيمة على ترك المعاودة وتدارك ما أمكن أن يتدارك من الأعمال بالإعادة فمتى اجتمعت هذه الأربّع فقد كمل شرائط التوبة، وتاب إلى الله وتذكر ما يقتضي الإنابة، والتزم بأمره إقداما على ما يجب وانتهاء عن ما لا يجب الإقدام عليه، قال تعالى: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أوّلي الْإِربّةِ مِنَ الرّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْربّنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جميعا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ

447 المؤمنون 14.

448 الزمر 53.

449 طه 5، 6.

تُفْلِحُونَ}450، فمن رأفة الله تبارك وتعالى انه يقبل التوبة عن عباده ويطلب منهم عدم القنوط فيقول تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}451، يبين الله تبارك وتعالى كرمه للمسرفين من عباده ويحثهم على الإنابة، وعدم اليأس من رحمة الله جلّ جلاله، دون الإبقاء على المعصية أو الإصرار عليها، نتيجة التأويل الخاطئ أو التفسير الخاطئ الذي يقنعون به أنفسهم فيقولون قد تراكمت ذنوبنا، وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، وهذا كلّام بعيد كلّ البعد عن رحمة الله تبارك وتعالى، فرحمته وسعت كلّ شيء، وهو الرؤوف الرّحيم جلّ جلاله.

التوبة كلّمة ترددت في النصّ القرآني في مناسبات عدة، فهي تحمل مضمونا معرفيا ينساق خلف النصوص التي وردت فيها، فضلا عن ذلك أن وجود هذه الكلّمة يحيلنا إلى كلّمات أخرى مرتبطة بها من قريب أو من بعيد، كالذنب والحرام والتجاوز والفساد وغيرها من الكلّمات التي تنحو كما ينحو هذا المنحى، بمعنى آخر أن ارتباط هذه الكلّمات بكلّمة التوبة يفتح لنا ملفا أوجده الله تبارك وتعالى في تعامله مع عباده، فهو الذي يقبل التوبة، إذ يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}452، وقوله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التوّاب الرّحيم}453. إن وجود التوبة يحيلنا إلى استرجاع قراءة الآيات القرآنية التي تخللتها التوبة، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبّحُ

450 - النور 31
451 - الزمر 53
452 - الشورى 25
453 - التوبة 104

بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}454 في هذه الآية وردت كلّمة (يفسد) والفساد هو ضد الصلاح ممّا يترتب على فاعله الإثم والذنب، فلا يذهب الإثم والذنب إلا عن طريق التوبة التي خطها الله تبارك وتعالى لعباده، فبعد قبول التوبة تغلق صفحة وتفتح أخرى لتسجيل وقائع جديدة ترسم فيها رأفة البارئ عزّ وجلّ، فتتحقّق المغفرة التي أرادها الله تعالى، فمن الأمثلة البارزة التي تجسدت فيها التوبة ما حصل لآدم صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فأخرجهمَا ممّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدم مِنْ ربّهِ كلّمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التوّاب الرّحيم}455، وتجلي غفران الذنوب الكبيرة في قصة موسى صلّى الله عليه وسلّم حين قتل رجلا، قال تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ ربّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}456. والمغفرة لا تشمل الأنبياء فقط بل هي تتسع لكلّ عباد الله تعالى، إذ يقول تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أوّلئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ ربّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}457.

454 - البقرة 30

455 - البقرة 35 - 37

456 - القصص 15 - 16

457 - آل عمران 135 - 136

**8 . مجادل:**

الجدل هو ما ليس بتفاوض؛ فهو التوجُّه للناس بالحُجَّة لا للتفاوض عليها بل لأجل الأخذ بها؛ فالتفاوض يؤدّي إلى قبول التنازلات من كلّا الطرفين المتفاوضين، أمَّا الجدل فهو التمسُّك بالحقّ وتبيانه بحسن نية وصدق غايات دون تخلي عنه (عن الحقّ) ولو كرها الكارهون والمجرمون والفاسقون والكائدون والماكرون والمشركون والكافرون.

والجدل عند قوم هود صلّى الله عليه وسلّم ظاهر من خلال الآيات التي أوردت خبرهم مع نبيهم صلّى الله عليه وسلّم، وإن لم يذكر الجدل باللفظ كما هو حال قوم نوح، إلا أن حوار الجدل بين هود صلّى الله عليه وسلّم وبين قومه نقف عليه واضحا بيّنا من خلال الآيات التي تسوق الخبر في دعوتهم إلى الهداية، وردهم وإجابتهم على هود صلّى الله عليه وسلّم.

فهو أوضح لهم إنما جاءهم بالهداية، وليس هو رجل مال قد مكّنه الله من خزائنه، ولا يريد منهم على ذلك أجرا، وإنما هو إنسان ينتمي إلى نوع البشر اختاره الله تعالى لدعوتهم وتبليغهم أمره وهو أخوهم بمعنى أنه من أنفسهم.

ومن أجل إظهار جدل هود صلّى الله عليه وسلّم والوقوف على هذا الجدل بينه وبين قومه نستعرض بعض الآيات التي توضح ذلك:

. إن أوّل الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان الذي أتى على من كفر من قوم نوح صلّى الله عليه وسلّم، هم قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، قال تعالى: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}458.

458 – هود 53

. هم أوّل من ابتدع الشرك وعبادة الأوثان بعد قوم نوح، قال تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}459.

. لقد ذكّرهم هود صلّى الله عليه وسلّم بنعم كثيرة أنعم الله عليهم بها فقال لهم: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً}460.

أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش، وظاهر بيّن من الآية أن عادا كانوا جفاة كافرين، عتاة متمردين، فأرسل الله فيهم رجلا منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه، فأخذهم الله أخذ عزّيز مقتدر.

فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ}461.

لقد أجابت عادٌ هودا صلّى الله عليه وسلّم إجابة تنمّ عن جهل، أو رغبة في عدم مجاراته بما يقول لضعف الحجة والمنطق الواهي بحيث أنهم يريدون أن يرفضوا دعوته ورسالته دون الخوض في مناقشة منطقية تصل بالنتيجة إلى إظهار الحقّيقة، وبالتالي رفضوا الإيمان بالله تعالى والتسليم لواحديته عزّ وجلّ، وسنقف على هذا الجدل من خلال كلّ آية على حدة على التوالي لنتبيّن الحجج والبراهين، ونقف على منطق هود صلّى الله عليه وسلّم بما يحمل من رفق وشفقة على قومه وما يكنّون له من بغض وعداء وكراهية،

459 - الأعراف 70

460 - الأعراف 69

461 - الأعراف 66

ذلك أن استناده إلى الحجة المنطقية في حواره لهم ومجادلته إياهم بالمنطق السليم، أفقدهم التوازن في الجدل، لما يحمل رأيهم من ضعف في دحض حجة هود صلّى الله عليه وسلّم ممّا ألجأهم إلى القول: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}462.

فلو كانت هذه آلهة، آلهة حقّا، لما انتظرت أن يُطلب منها ما تفعله، بأن تعتري هودا بسوء أو بخير، ذلك أنّ الإله الحقّ هو الذي يقرر ما يفعل لا أن يملى عليه ما يريده الآخرون فعله.

فلو كان لهم أدنى مسكّة من العقل في فهم جواب هود صلّى الله عليه وسلّم لهم، لأيقنوا أن هذه الآلهة لا تملك لهم ضرا ولا نفعا، عندما تجاوزها هود صلّى الله عليه وسلّم فأشهد الله تعالى، وأشهدهم أنه بريء ممّا يشركون به في هذه الآلهة، ولو كانت آلهة حقّا لانتفضت وانتصر لنفسها عندما خلع هود صلّى الله عليه وسلّم القدسية عن الآلهة التي يعبدونها ويعتزون بها.

إنّ هودا صلّى الله عليه وسلّم، لم يطلب منهم ما هو فوق طاقتهم، وإنّما في حقّيقة الأمر هم يعبدون! ولكن هذه العبادة هي وبال عليهم، ولذا أراد أن يصحح لهم العقيدة بما أمره الله تعالى لما فيه خير دينهم ودنياهم: {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ}463.

. فعبادة الله تعالى حقّ للخالق على المخلوق وجبت تأديتها.

. عبادة الله تعالى واجب على المخلوق للخالق وجبت تأديتها.

---

462 - هود 54

463 - هود 50، 51

ـ الآلهة التي يعبدونها هي مخلوقة.

ـ المخلوق لا يملك لنفسه من الخالق شيئا.

هذه الأسس سار عليها جميع الأنبياء والمرسلين، آدم ونوح ومن بعدهما هود صلّى الله عليهم وسلّم، ومن جاء بعدهم من الأنبياء والمرسلين.

فما أمر به هود صلّى الله عليه وسلّم قومه، أمرت به جميع الأنبياء من بعده لأقوامهم، من تبيان أسس الرسالة السماوية في طريقة الدعوة والأعمدة التي تقوم عليها من التوحيد والتسليم والعبودية لله تعالى، وإرساء دعائمها بين البشر.

إنّ جدل هود صلّى الله عليه وسلّم مع قومه جاء وفق ما أمر به الله تعالى بما يقبله العقل المنير والقلب السليم، ولذا نجد موقف هود صلّى الله عليه وسلّم سُنّة عامة لدى جميع الأنبياء من بعده ولأقوامهم على حدٍّ سواء، حتى يبقى الأمر والمشهد قائمان في الزمان والمكان، ولا يكون على سبيل حكاية ماضية عفا عليها الزّمن، ومن ناحية أخرى يلخّص مهمة هود صلّى الله عليه وسلّم وتكلّيفه ويترجمها إلى حقّيقة واحدة تنسحب على جميع الرّسل والأنبياء من بعده (ما أسألكم عليه من أجر إنّ أجري إلا على الذي فطرني).

إنّ الله تعالى اصطفى هودا صلّى الله عليه وسلّم وأرسله لهداية قومه إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، الذي يتمثل في عبادة الله تعالى، والتسليم بواحديته والإخلاص له، وتحديد هدف هذه الرسالة ليصل بهم إلى الغاية من خلال الوسيلة التي قامت على الحوار والجدل بما يحمل من لين ورفق، على ما في قومه من غلظة وفظاظة في الرّد، حيث نرى هودا صلّى الله عليه وسلّم يجادلهم بالتي هي أحسن بأدلة وبراهين تقوم على:

ـ العقل.

. الحجة.

. المنطق.

فالعقل يسلّم بأن لابدّ لهذا الكون من خالق يعبد، وقومه يعبدون المخلوقين، فالخالق أحقّ أن يعبد، فهو يبلور مضمون الرسالة في حقّيقة واحدة(اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).

فهذا هو قوام الرسالة ومنهج هدفها وصولا إلى غايتها.

وأمّا الحجّة فهي قائمة عليهم لأنهم لم يستطيعوا مجاراة هود صلّى الله عليه وسلّم فيما يحاججهم به، لذلك لجئوا إلى التهربّ من مجاراته في الحوار بما ذكرناه من غلظتهم وفظاظتهم لعدم القدرة على الثبات أمام منطق الحقّ فقالوا: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}464.

وهنا تظهر ضعف الحجة التي يسوقونها ورداءة البرهان واضمحلال الدليل القائمة على:

. الشتم (نراك في سفاهة).

. الظن (لنظنك) فهم لا يستطيعون الجزم باتهامهم له.

. رموه بالكذب ظلما دون دليل.

غير أنّ ترفّع النبوّة والرّسالة عن أخلاق هؤلاء وأمثالهم، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، تجعل هودا صلّى الله عليه وسلّم يردّ عليهم

464 - الأعراف 66

بالحسنى: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ}465.

فإذا عدنا إلى موضوع وراثتهم لقوم نوح صلّى الله عليه وسلّم، نجد أنهم لم يرثوا غير الكفر والضلال والجدل بالباطل، حتى أن إجابتهم لهود صلّى الله عليه وسلّم، تتطابق مع إجابة قوم نوح لنوح صلّى الله عليه وسلّم ونلاحظ ذلك من خلال ما ورد في الآيات.

. قال قوم نوح لنبييهم: {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}466.

. أجابهم نوح: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ ربِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ ربّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}467.

وقوم هود صلّى الله عليه وسلّم لم يخرجوا عن قناعة قوم نوح بما ورثوه عنهم في:

. الكفر والشرك.

. منطق الحوار.

. الجدل بالباطل.

ولذا نجد أجوبتهم تكاد تتطابق مع قوم نوح فيما أجابوا به هود صلّى الله عليه وسلّم.

---

465 - الأعراف 67

466 . الأعراف 60

467 - الأعراف 61- 63

. فقد أجابوا هود: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}468.

. أجابوهم هود بالمنطق النبوي لنوح: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ ربِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ}469.

وعلى ما يتلقى هود صلّى الله عليه وسلّم من قومه الاتهام والشتم، إلا أنه يردّ عليهم بسماحة رسول وحلم نبي، وفي ثقته بالحقّ الذي جاء به، واطمئنانه إلى ربّه الذي أرسله، وفي وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه في شعوره.

. لا يردّ عليهم الشتم.

. لا يتهمهم.

. لا يدعي ادعاء باطلا.

ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهرا غير حقّيقته ولا على رسالته شيئا غير طبيعتها.

فالأمر ليس كما يظنون أو كما يعتقدون ممّا رموه به من اتهام، فقد بدأهم بقوله: (ليس بي سفاهة) في سماحة ومودة تنمّ عن علو منزلة وحسن خلق وأدب نبوي في التعامل مع الخصم، من أجل الوصول إلى قناعة مشتركة معه عندما يبدد الشكّوك ويزيل الحواجز، وينهي الفوارق، ويضع نفسه معهم على قدر المساواة، وينفي اتهامهم له، ولا يتهمهم بما هو فيهم من

468 - الأعراف 66

469 - الأعراف 67، 68

جهل وسفه وافتراء، ولا يحط من منزلة أحد في جدله مع الخصم، لأنه ترفع عنهم عندما رفض مجاراتهم فيما يدعون.

إنهم اعترضوا على دعوته: (أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا). فلم يكن موقفه منهم سلبيا على ما يقولون وما يدّعون، مع أنّ قولهم هذا لا يقتربّ من الصواب ولا يصل إلى الحقّيقة، ومع ذلك فإن هودا صلّى الله عليه وسلّم، لا يطلب منهم شيئا لنفسه، وإنما لأنفسهم من طلب التوبة والاستغفار، حيث قال لهم: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}470.

ولأنّه نبي رسول مختار مصطفى، ترفع عن إجابتهم بالمستوى الجدلي الذي طرحوه في مناقشته بكلّ ما يحمل الكلّام من دعة ورقة في السياق الجدلي، حيث يتناسى ما رموه به لأنه مختلف عنهم بما آتاه الله تعالى من رسالة كي يبلغها إليهم، فهو على بينة من الله تعالى باتصاله بالخالق عزّ وجلّ عن طريق الوحي، فهو بيّن في نفسه، مستيقن في شعوره بما لا يعلمون وإن شاءوا أن يعلموا فعليهم إتباعه.

ثمّ إن هناك خاصية لم يوهبوها وإن كانوا أشدّ النّاس قوّة على ما ذكروا، وهي أنّ الله تعالى آتى هودا صلّى الله عليه وسلّم من الخصائص ما أهّلته لحمل الرسالة: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ ربِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ}471.

والبلاغ يستلزم عدم الكذب وعدم الزيادة فيه أو النقصان منه، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم، والحرص على هدايتهم، لا يبتغي منهم أجرا، ولا يطلب نفقة، بل هو

---

470 - هود 52

471 - الأعراف 78

مخلص لله عزّ وجلّ في الدعوة إليه، والنصح لخلقه، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كلّه في يديه، وأمره إليه، ولهذا قال: {يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}472

فالعقل والمنطق يقتضيان في هذه الحالة أمام إنسان يريد بهم الخير ولا يطلب منهم على ذلك أي مقابل، فيجب على العقل أن يناقش الفكرة التي يدعو إليها هود صلّى الله عليه وسلّم من هذا المنطلق:

. لا يريد أجرا.

. لا يريد منفعة.

. لا يضمر عداوة.

لذا وجب مناقشة هذه الدعوة والوقوف على الأبعاد التي يريد هود صلّى الله عليه وسلّم أن يوصلهم إليها، فهو يدعوهم إلى الحقّ المبين الذي تشهد به فطرتهم التي خلقوا عليها، وهو دين الحقّ الذي بعث الله به نوحا صلّى الله عليه وسلّم من قبله وهلك من خالفه من الخلق وهم يعرفون ذلك. وها هو يدعوهم إلى ما دعا نوح قومه، ولا يسألهم أجرا عليه، بل يبتغي ذلك عند الله.

فماذا كان ردّهم؟

قال قوم هود له فيما قالوه: {يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ، إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ}473

---

472 - هود 51

473 - هود 53، 54

فهم يريدون آية معجزة تشهد له بالنبوّة والرسالة، ولذا قالوا: (ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك) فهم يدّعون أنهم لو رأوا البينة الخارقة التي تكون شاهدا على صدق رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم لربّما فكروا في الأمر، فهم لا يتركون ما كان يعبد آباءهم ويتجهون إلى إله واحد دون آية معجزة، وإنما مجرد دعوة هود لهم بالقول لا دليل يقيمه، ولا برهان ينصبه تبقى الدعوة مجرد ظن وكذب كما قالوا، ولذا لم يكن لديهم من جواب إلا أنه قد أصاب هود صلّى الله عليه وسلّم مسٌّ من الجنون اعترته به آلهتهم على ما يظنون. وهو قولهم: (إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ).

فلما أرادوا أن ينسبوا فعلا إلى هذه الأصنام، بأنها يمكن أن تضر أو تنفع بحيث تعتري أحدا بسوء، أو تصيب أحدا بخير، فما كان منه صلّى الله عليه وسلّم إلا أن جمعهم وآلهتهم وتفرد عنهم بنفسه، حيث أجابهم: {قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ، مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جميعا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِي}474.

وهي معجزة كافية لحسم الصراع في التحدي، إذ أنهم يعوّلون على هذه الآلهة في أن تنتصر لهم ولنفسها ممّا يرميه بها هود صلّى الله عليه وسلّم.

ولما لم تفعل آلهتهم ما كان مأمول منها، فإن القضية حسمت لصالح هود بالمعجزة، من جانبين:

ـ الأوّل:

أنّ هذه الآلهة يجب أن تنتقم ممن يسيء إليها أو يسفّه من يعبدها، ولم تفعل، وعلى هذا فقد أسقط في يديها بحيث لم تدرأ عنهم ما يكرهون ولا عن نفسها، فسقطت عنها الأُلوهية.

474 – هود 54، 55

ـ الثاني:

أنّ عادا أشدّ النّاس قوّة وبطشا وجبروتا، ومع ذلك عندما عجزت الآلهة المرجوة عن فعل ما كان مأمول منها، وجب عليهم أن يدفعوا عنها وعن أنفسهم، ولم يستطيعوا أن يفعلوا، وهذا بحدّ ذاته إعجاز في رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم.

ولذا: فقد أشهد الله تعالى أوّلا على بطلان ما قالوا عن قدرة آلهتهم التي يمكن أن تعتري أحدا بسوء، ثم أشهدهم أيضا على براءته ممّا يشركون به، هذا من جانب.

ومن جانب آخر إن كان لآلهتهم القدرة كما يزعمون فطلب منهم أن ينضموا إليها ويدبروا كيدهم، هم وآلهتهم فيكدوا لهود صلّى الله عليه وسلّم دون انتظار أو إنذار حتى يتبين صدق الصادقين إن كان لهم ولآلهتهم من الأمر شيئا.

وهذا تحد منه لهم، وتبرأ من آلهتهم وتنقص منه لها، وبيان أنها لا تنفع شيئا ولا تضر، وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله. فإن كانت كما يزعمون من أنها تنفع أو تضر فها هو منها ومنهم أجمعين، ولذا قال: {فَكِيدُونِي جميعا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ}475.

وهنا يُظهر التحدي صلّى الله عليه وسلّم، لهم ولآلهتهم جميعا إن كانوا يستطيعون بما يمكنهم أن يصلوا إليه ويقدروا عليه، فإن كان ذلك لهم وعندهم القدرة فلا يؤخروا ما عزّموا عليه، ذلك أنه صلّى الله عليه وسلّم لا يبالي بهم ولا بآلهتهم، فيجربّوا كيدهم إن كانوا قادرين، وأظهر لهم ذلك التحدي بما يستند إليه من تأييد بره تعالى فقال: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ

475 - هود 55

ربِّي وَربّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ ربِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 476.

فهو متوكلّ على الله تعالى ومتأيد به، وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لاذ به واستند إليه، فليس يبالي مخلوقا طالما أن الأمر بيد الخالق.

وهذا وحده برهان قاطع على أن هودا صلّى الله عليه وسلّم هو عبد الله ورسوله، وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم، لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولم ينالوه بمكروه.

فدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه، وهو معجزة لهود صلّى الله عليه وسلّم عندما ادعوا أنه لا أحد أشد منهم قوّة، ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا يضر هودا صلّى الله عليه وسلّم، مع استكبارهم وكفرهم حيث قال تعالى: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة أوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قوّة وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} 477.

وقد استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشريا، ولهذا قال لهم هود صلّى الله عليه وسلّم: {أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ ربّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} 478

فهذا الأمر ليس بعجيب لأن الله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وهو الذي يصطفي من الملائكة رسلا ومن النّاس.

---

476 - هود 56

477 - فصلت 15

478 - الأعراف 69

## النبي

## هود من السُنّة

هود عليه الصّلاة والسّلام نبي اصطفاه الله لقومه ليخرجهم من الظلمات إلى النّور، ويعود نسبه إلى قبيلة من القبائل العربيّة البائدة، المتفرعة من أولاد سام بن نوح، وهي قبيلة عاد، وسميت بذلك نسبةً إلى عاد بن إرم بن سام.

ولقد فصّل القرآن الكريم قصّة هود عليه السّلام مع قومه عاد وفقا للآتي:

. أنّ هود نبيا لقومه؛ فهو قد أرسل إلى قوم عاد الذين كانوا بالأحقّاف، وكانوا أقوياء الجسم والبنيان وآتاهم الله الكثير من رزقه ولكنّهم لم يشكروا الله على ما آتاهم من نعيم، وعبدوا الأصنام؛ فأرسل الله لهم هودا نبيا هاديا ومبشرا ومنذرا، ولكنّهم كذبوه وآذوه فنزل بهم عقاب الله.

أستخلف عاد عليه السّلام في الأرض من بعد قوم نوح، وكان قوم عاد أقوياء أشداء، ومترفين في الحياة الدنيا، وقد أمدّهم الله بأنعام وبنين، وجنّات وعيون، ولهم من مظاهر النعمة والترف ما لهم. وهم أهل بطش، جبارين. ومع ذلك فهم عبدة أوثان.

دعا هود قومه إلى عبادة الله، وأمرهم بالتقوى، وأنذرهم عقاب الله وعذابه، فكذّبوه وكفروا بدعوته وعصوا؛ فأرسل الله عليهم الرّيح العقيم، ريحا صرصرا عاتية، سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسومٍ. فدمّرت مساكنهم وما يملكون.

وقد أخبر الله تعالى عن هود عليه السّلام أنّه قال لقومه: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}479، وذكر تعالى عنهم في جوابهم له: {أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}480؛ ومن هنا فهم علموا أنّه أراد منهم قصر العبادة على الله وحده، وترك عبادة من سوى الله، وهذا هو مضمون لا إله إلا الله481. وقال ابن كثير في تفسير دعا هود قومه عادا، الذين كانوا يسكنون الأحقّاف وهي الجبال من الرّمل من جهة حضرموت بلاد اليمن؛ فبعث الله إليهم رجلا صالحا منهم رسولا وبشيرا ونذيرا فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه، فقال لهم هود كما قال نوح لقومه"482.

ولما ضجرت عاد من نبيها هود عليه السّلام، تحدّوه أن يقع فيهم إنذاره ووعيده، عند ذلك قال لهم هود عليه السّلام لابدّ أنْ يقع عليكم غضب من الله تعالى فانتظروا عذاب الله، وإنّي معكم من المنتظرين483. قال تعالى: {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَب أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}484

في هذه الآية كانت محاجّة هود لقومه الذين لم يأمنوا بالله الواحد القهّار محاجة تنتظر الدليل أو البرهان، وقد قبل هود ذلك بقوله (فَانْتَظِرُوا إِنِّي

479 الأعراف 59.

480 الأعراف 70.

481 المورد العذب الزلال في كشف شبه أهل الضلال، مطبوع ضمن الرسائل والمسائل النجية، الجزء الرّابع، القسم الأوّل، ص، 298.

482 تفسير ابن أبي حاتم – محقّقا، 13، ص 767.

483 منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 183.

484 الأعراف 71.

مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) قال هذا الأمر لأنّه يعلم أنّ الشهيد الأعظم شهيد على ما يقولون وما يعملون من مفاسد وظلم وضلال، وهو يعلم أنّه على الحقّ وقد جاءهم به مبشرا وناهيا وداعيا من أجل هدايتهم إليه، ولكنّهم قبلوا التحدّي وكأنّهم يمتلكون الحجّة، ولكنّهم قد أوقعوا أنفسهم في الفخ.

إذن قول هود: (فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) كان حكم يقين أنّ الشهيد جلّ جلاله قريبا سميعا مجيبا، وعندما جاء الحكم كان هود عليه السّلام شهيدا عليهم بما وقع عليهم، ومن ثمّ فالشهيد هو "المطّلع على جميع الأشياء؛ فهو قد سمع جميع ما قيل وما يقال، خفيها وجليَّها، وأبصر جميع الموجودات، دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها. وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده، وعلى عباده، بما علموه"485.

الشهيد هو الباقي الدّائم في القبل والبعد، وفي الحياة والممّات والبعث وفي الحساب توابا وعقابا وهو على كلّ شيء قدير.

الشهيد يرى ويسمع ويلاحظ ويحكم ويجيب ويقدر ويهيمن وهو بكل شيء محيط وعليم، والشهيد بالإضافة هو من يستمدّ صفات الشهادة الحميدة حتى تكون شهادته الحقّ والعدل كما كانت شهادة النبي هود على قومه الذين تحدوه باطلا فكان الحقّ تنزيلا من الشهيد الجليل.

الشهيد دليل إثبات الشهادة، فلو لم يكن ما كانت، ولأنّه الشهيد بالمطلق فهو يُشَاهِد ولا يُشَاهَد {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}486، وفي غير ذلك يكون الشهيد بالإضافة تحت المشاهدة والملاحظة، ولذا فالشهيد المطلق يشهد الظاهر والباطن ويعلم بالمطلق علم اليقين، والشهيد بالإضافة لا يشهد ولا يعلم إلا ظاهرا وفي دائرة الممكن يستنبط ويستقرأ.

485 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 58.

486 الأنعام 103.

الشهيد المطلق الله جلّ جلاله، وشهادة الله لا تقابلها غيبة، فلا غيب لديه، وعالم الغيب والشهادة بمعنى إنه يعلم ما يغيب عنّا وما نشهده، وعلمه يسع ما يعلمه جميع الخلق وما يغيب عنهم، من علم ملائكي وجنّي وبشري وكائناتي، وغير ذلك من علم معلوم ومجهول، ومشهود ومحجوب، وغائب ومغّيب قال الله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}487، ويقول الله تعالى:{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}488 ويقول الله تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النّاس إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}489

فالشهيد: هو الذي لا يغيب عنه شيء وقيل: هو العالم الرائي فيرجع معناه إلى صفة العلم وصفة الرؤية490.

وهو سبحانه وتعالى –كما قلنا– عنده الشهادة المطلقة فلا يوجد عنده غيب فالغيب ما غاب عنا، ولا ينبغي أن نقول: إن عند الله غيب، فالغيب خلق من خلقه فكيف يغيب المخلوق عن خالقه، ولا أن نقول إن الشهيد مشتق من الشهادة، بل هو سبحانه وتعالى خالق الشهادة التي لغيره أما شهادته غير مخلوقة وهي ذاتية سرمدية بلا أولية ولا انتهاء لأنه الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية.

487 البقرة 255.

488 طه 110.

489 الحج 75،76.

490 الاعتقاد، ج1، ص60

كما لا نقول: إن الشهيد مبالغة في الشهادة بل نؤكد: إن الشهيد جلّ جلاله له العلم المطلق الذي يليق به وبالكيفية التي يعلمها هو ولا نعلمها نحن على مر الآجال والأجيال.

والشهيد الحاضر يقال شهدت الشيء وشهدت به وأصل قولهم شهدت به من الشهادة التي هي الحضور، واليوم المشهود يوم القيامة لأنه معلوم كونه لا محالة فكان معنى الشهيد العالم491.

والشهادة لا تقتصر على فرد واحد بل تتعداه لجماعة وتتعداها لأمة بأكملها، فقد يكون الفرد شهيدا كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرّسول لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}492، فالرّسول عليه الصّلاة والسّلام شهيدٌ.

أو الجماعة تكون شهيدة، لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبّعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}493، فالشهادة هنا كي تكون مقبولة لابدّ أن يجتمع فيها أربّعة شهداء كي يُعْترف بها، إذا فالشهادة في هذه الحالة تعدت الفرد الواحد إلى جماعة، لأنها أصبحت من شروط الإدانة في هذه الحالة اجتماع أربّعة شهداء، ولا يُقبل شاهد واحد فقط.

أو الأمة بأسرها قد تكون شهيدة كقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس وَيَكُونَ الرّسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}494،

---

491 تفسير أسماء الله الحسنى ج1/ ص53.

492 النساء 40: 42.

493 النور 4.

494 البقرة 143.

فالأمة هنا في هذه الآية ستكون شاهدة على نفسها، ومن المعروف أن الأمة تشمل الكثير من الأفراد، فلا يمكن أن تدخل في إطار الجماعة.

والشهادة تكون دائما ملازمة للحقّ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا}495 فشاهد الزور ليس بشهيد، لأنه لا يشهد بالحقّ بل هو مزيف للحقّيقة كاذب يقلب الأمور حسب مصلحته.

**الشهيد هو الحي القيوم:**

لا يمكن أن تأتي الشهادة من غير الحي، فالحياة لازمة لحصول الشهادة لأن الحياة تدل على القيومية وهذا بالتالي يجعل من الحي المطلق شهيدا مطلقا لا يمكن أن يغفل أو ينام وذلك كما جاء في قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}496، فالشهيد المطلق هو من كان مطلق العلم بعباده وبما خلق لما تتطلبه الشهادة من متابعة ومراقبة وعلم وعدل وهذه الصفات لا تكون مطلقة إلا لدى الواحد الأحد الذي يشهد على كل صغيرة وكبيرة ويجعل من كل منها شاهدة على الإنسان في كتابه يوم تقوم الساعة فيقف بين يدي الحي القيوم كما في قوله تعالى:

495 الفرقان 72: 77.

496 البقرة 255.

{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}497، ولا يمكن أن تكون هذه الدقة وهذا النظام إلا بوجود شهيد دائم الحياة والقيومية لا يغفل ولا ينسى ولا ينام ولا يظلم، وفي تقديمه للصغائر عن الكبائر أكبر دليل على عدل شهادته ودقته وعلمه المطلق بكل شيء، فالغافل لا يمكن أن يدرك كل ما حوله والنائم لابدّ أن تفوته الكثير من الأمور والميت تنتهي علاقته بكل شيء منذ ساعة موته، وهذا ينتفي مع صفات الله تعالى الذي يحاسب على كل شيء فكيف يحاسب الإنسان على أمر من غير أن يكون شهيدا عليه.

ولله المثل الأعلى إذ أنه لابدّ لولي الأمر أن يكون دائم الانتباه والمراقبة على رعيته، بذلك فإنه سيكون شاهدا على أغلب ما يقومون به من أعمال وهذا لا يمكن أن يحصل إلا إذا كان قائما عليهم منتبها لهم فلا يستطيع الرعية عند ذلك التحايل عليه وإيقاعه في الخطأ فيظلم بدون علم منه بوقوع هذا الظلم، فكيف يدرك ذلك وهو لم يكن شاهدا على ما حصل بسبب إهمال أو غفلة أو جهل؟

ونستطيع أن نمثّل لذلك بحالة انفصال الزوج والزوجة عن بعضهما البعض فينشغل كل من الزوجين بأموره الخاصة دون الالتفات لوضع الأبناء النفسي الذي لابدّ وأن يكون الطلاق له بالغ الأثر فيه، فغياب الأم مثلا أو اضمحلال دورها وغفلتها عن ما يقوم به الأبناء بسبب ابتعادها عن البيت وبقاء الأبناء مع الأب ذلك من شأنه أن يجعل منهم معرضين للفساد الأخلاقي، ممّا يجعل منهم ضائعين لا يجدون صدرا حنونا يضعون رؤوسهم عليه عندما يشعرون بحاجتهم لذلك، وهذا الحرمان يولّد أحيانا القسوة والعناد، فيكبرون بهذه النفسية دون شاهد عليهم يراقبهم ويراعيهم،

---

497 الكهف 49.

وكذلك الحال في غياب الأب الذي له الدور الكبير في ردع الأبناء عن كل ما هو غير مرغوب بتعلمه.

فالوالد والوالدة لابدّ أن يكونا شاهدين على الأبناء كي يؤدّيا واجبهم بشكل كامل، ولابدّ لهما من يكونا على وعي تام بأهمية دورهما في حياة الأبناء، فلا يجعلا من الأبناء شهداء على الانهيار الاجتماعي الذي قد يحدث بين الزوجين في كثير من الأحيان فبذلك يكون المجتمع ضعيفا مفككا لا يُرجى منه شيء.

لذلك فالشهادة ليست بالأمر الهين الذي يستطيعه الكل بل هي مسؤولية كبيرة ومهمة تصعب على الإنسان تحملها لأن عاقبتها لا تقتصر عليه فقط بل تمتد لتشمل الكثير ممن حوله، ولأن الشهادة أمرٌ عظيم كانت من أسماء الله تعالى الحسان وبالتأكيد لا يتصف الخالق إلا بعظائم الصفات والأفعال.

وكل شهيد بالإضافة مصيره إلى الفناء والموت حتى وإن كانوا رسل الله – صلوات الله عليهم وسلّم- كما جاء في قول الله عزّ وجلّ: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}498، لذلك فإن شهادتهم تقتصر على فترة حياتهم وتنقطع بعد ذلك لعدم قيامهم على أمور قومهم، أما الشهيد المطلق فهو دائم الحياة فلا ينقطع

498 المائدة 116: 118.

عن عباده ولا يغفل عما يقومون به ويفكرون فيه، فشهادته يوم الحساب أول شهادة على الإنسان كما جاء في قوله تعالى: {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}499، ففي هذه الآية الكريمة دلائل تامة للشهادة المطلقة وهي:

أ- الكفاية: فالاكتفاء بالأمر يعني الاستغناء عن غيره، فشهادة المولى عزّ وجلّ تفصل بين الحقّ والباطل بشكل قطعي لا شك ولا رجوع فيه فتتحقّق الكفاية بهذه الشهادة التي لا يمكن أن تكون إلا للشهيد المطلق سبحانه وتعالى.

والاكتفاء لا يتوفر إلا إذا كان الشهيد مطلق العلم والخبرة والعدل، والمولى عزّ وجلّ هو الشهيد المطلق بقيوميته الأزلية وببقائه الابدّي.

ب- الخبرة بالعباد: وهذا ما تستند إليه الشهادة الحقّ، فلا يمكن أن تكون شهادة الحقّ صادرة عن شاهد جاهل أو غافل بل لابدّ أن تكون عن وعي تام وخبرة تامة بالغير، فكيف بالله الخبير المطلق الذي خلق الخلق؟

بما أن الله تعالى قائم على أمور عباده عليم بما يسرون ويعلنون فهو الشهيد الحقّ عليهم، هذا بخلاف الخليفة الذي لا يستطيع التعمق في خفايا الصدور بل تتحكم به وبشهادته ظواهر الأمور، قال تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}500

ج - البصر المطلق: البصر لدى الشهيد عزّ وجلّ يصل إلى ما تخفي النفوس وتسِّر، فلا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فهو المطلع على أمور العباد خيرهم وشرهم صلاحهم وفسادهم، قال تعالى: {هُوَ

499 الإسراء 96.

500 الملك 13: 14.

الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}501، فالخالق تعالى بصير بمن خلق وبصره المطلق شاهد أزلي على خلقه.

والخليفة يجب عليه أن يكون شهيدا على نفسه طالما هو حي على وجه الأرض، وأن يكون على ثقة تامة بأنه تحت الشهيد عزّ وجلّ الذي يحييه ويميته، فيراقب الشهيد في كل ما يفعل وما ينطق به فيجعل من نفسه مستحقّا للحياة بأن يكون داعيا للحقّ والصلاح، لأن شهادة الحقّ من شأنها أن تزرع الأمن والطمأنينة بين البشر لعدم ضياع الحقّوق، فشهادة الخليفة تجعل منه حيا بضميره وإيمانه وخوفه من الشهيد بالمطلق، وعلى الخليفة أن يكون قائما على أمر نفسه وأهله وعلى المسلمين، رادعا للظلم والزور والخطأ.

وشاهد الزور هو إنسان ميت بالرغم من حياته، لأنه من فقد صلته بالله مات وهو على قيد الحياة، فمن يميت ضميره ويشهد زورا وافتراء فقد علاقته بالله لأنه من شأن هذه العلاقة أن تجعل المرء من اتباع الشيطان فيكون مأمورا بكل ما فاسد ومخجل.

**الشهيد هو العدل:**

الله تعالى هو العادل المطلق الذي فعله وقوله حقّ عزّ وجلّ، فحكمه عادل فلا جور ولا ظلم عند الشهيد العادل، إذ تنتفي المصالح الدنيوية عنده عزّ وجلّ، فلا قيمة لإنسان يوم القيامة إلا إذا كان ميزانه مليء بالخيرات مصداقا لقوله تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحقّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

501 التغابن 2: 4.

الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآَيَاتِنَا يَظْلِمُونَ}502 فشهادة الله تعالى فعلية إذ يكون ميزان أعماله شاهدا على الإنسان نفسه، فلا تزوير ولا نقص ولا زيادة وكيف ذلك والحكم يومئذ للحكم العدل الشهيد؟

العدل في الدنيا لا يتحقّق بوجود الظالمين والمتكبرين والعاصين والمنافقين، مع أنّ العادل بالإطلاق أمرنا بالعدل مع أنّفسنا ومع من حولنا من أقربّاء وغيرهم، وجعل من العدل منهجا لحل الأزمات والوصول إلى النتائج المرضية، قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}503، ففي الآية الكريمة السابقة نجد أنه:

* من أساس طرق الحل والعلاج هو الإصلاح وعدم الإفساد.

* من وجوه العدل أن يُرد بالقوّة على الظلم والاستبداد لردع الطغيان والظلم.

* العدل أساس الحقّ فلا إحقّاقٌ للحقّ دون عدل.

فالشهيد بالإطلاق هو العادل بالإطلاق في شهادته، فلا يظلم أحدا ولا يُنقص عمل إنسان، قال تعالى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالحقّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ

---

502 الأعراف 8: 9.

503 الحجرات 9: 10.

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ قَالَ قَرِينُهُ ربّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}504، فالشهيد لا يحتاج إلى سجل أو كتاب ليسجل فيه أعمال البشر ولكنه بالرغم من ذلك يجعل من كتاب أعمال الإنسان شهيدا عليه يوم القيامة كي لا تكون حجة لأي كافر أو جاحد على الله تعالى.

ومن عدله تعالى في شهادته أنه:

أ- لا يغفل عن صغيرة أو كبيرة لقوله تعالى: {وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ ربّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}505، فالعدل الحقّ هو عدم إغفال صغائر الأفعال قبل الكبائر.

ب- عدم تجاوز الحد في العقاب كما في قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنّة يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ}506.

ج- لا فرق بين العباد لديه إلا بالتقوى والعمل الصالح، كما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}507، فالفروقات الدنيوية بين البشر التي يصنعها المال أو اللون أو تصنعها القوّة والسلطة هي فروقات ظالمة، يلغيها العادل بالمطلق عندما يقف البشر بين يديه

504 ق 19: 30.

505 يونس 61.

506 غافر 40.

507 الحجرات 13.

للحساب، فيكون شاهدا على الغني والفقير وعلى القوي والضعيف وعلى المسلم وغير المسلم وعلى البشر أجمعين حيث تتحقّق العدالة التامة التي لا يستطيع البشر الارتقاء إليها بما في نفوسهم من ضعفٍ وغفلة، وبما للشيطان من سلطة على أتباعه.

لذلك فالشهيد عادل في شهادته على كل شيء وكيف لا يكون كذلك وهو الخالق العظيم القائم على أمور الخلق؟

وعلى الخليفة أن يثق أنه لا عدل مطلق إلا عدل الله الشهيد المطلق، فإذا حكم بحكمه تعالى كان العدل والحقّ، وإذا اتجه لغير حكم الله تحقّق الجور والظلم، وعليه أن يلزم العدل في القول قبل الفعل مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}508 فهناك أمر في الآية الكريمة السابقة للمؤمنين بأن يعدلوا مع القريب والغريب، بل إن في هذه الآية منهجا قويما للطريق الصحيح وهو البدء بالنفس دائما في الإصلاح فلا يمكن مثلا أن نعدل مع من حولنا ونكون في نفس الوقت ظالمين لأنفسنا، فالذي يظلم نفسه من المستحيل أن يعرف العدل طريقه لقلبه وعقله، ومن كان عادلا مع نفسه فمن المستحيل أن يكون ظالما لغيره جائرا عليهم.

فالإصلاح دائما ينبعث من النفس فإنها إن صلحت صلح المجتمع وإن فسدت فسد المجتمع، لذلك بدأ الشهيد بالعدل مع النفس في البداية ثم مع الوالدين والأقربّاء.

---

508 النساء 135.

وعلى الخليفة في الأرض أن يلزم شهادته العدل فلا يظلم نفسه وغيره بقول الزور والكذب والافتراء الذي قد يصل إلى درجة الافتراء على الله تعالى كما جاء في قوله عزّ وجلّ: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ}509 وهذا أسوأ درجات الكذب والافتراء الذي تكون نتيجته جهنم وبئس المصير.

**الشهيد هو الرقيب:**

إن الشهادة تحتاج إلى مراقبة مستمرة كي تكون شهادة حقّ، فلا يمكن أن تأتي الشهادة وصاحبها غائب أو غافل عما حوله، إذا فالشهادة لا تكون إلا من حي وقائم ورقيب كي تكون شهادته شهادة عادلة وشهادة حقّ.

فالشهيد عزّ وجلّ على عباده هو الرقيب عليهم بالتأكيد، بل بمراقبته لهم تكون شهادته وعدله في جزائهم، وهذا من شأنه أن يجعل من الإنسان رقيبا على نفسه لشعوره بأن الرقيب بالإطلاق يبصره ويسجل أعماله ويشهد عليها، فسبحانه وتعالى لا يغفل عن صغيرة ولا عن كبيرة لقوله تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا}510 فلفظة (كل) هنا في هذه الآية تدل على جميع الأقوال والأفعال فلا يفلت من مراقبته أي شيء مهما صغر حجمه، فهو الرقيب على الأنفس لقوله سبحانه وتعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}511، في الآية الكريمة السابقة تحذير من الله تعالى سببه مراقبته للأنفس وما تحمل الصدور وعلمه المطلق بما يدور في أنفسنا، فمراقبة الله

---

509 يونس 59: 60.

510 الأحزاب 52.

511 البقرة 235.

وشهادته تتعدى الأقوال والأفعال لتصل إلى ما في النفوس البشرية، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}512، والرقيب بالإطلاق هو الشهيد بالإطلاق على الخلق ومراقبته هذه لا تنقطع ولا تتغير كما جاء على لسان عيسى – صلّى الله عليه وسلّم– في قوله تعالى: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}513 ففي هذه الآية نجد أنه:

أولا: الرّسل صلوات الله عليهم وسلّم هم شهداء بالإضافة لا يمكن أن تستمر شهادتهم لعدم استمرار حياتهم.

ثانيا: المراقبة مهمة أوكلها الله لخلفائه.

ثالثا: اسم الله الرقيب يتفق مع اسمه الشهيد.

لذلك فعلى خليفة الله أن يكون أولا رقيبا على نفسه، فلا يجعل منها مسكنا للفساد والشر بأن يكون على يقين بأن الشهيد هو الرقيب على الضمائر والأنفس فكيف الحال بما نفعل أو نقول؟ في هذا اليقين عصمة للخليفة من الخطايا والشرور والرذائل، بأن يخلص لله في السر والعلانية، فهذه المراقبة والشهادة تلزمان الإنسان بالسير على الطريق الصحيح الذي أمره المولى عزّ وجلّ بالسير عليه.

وعلى الخليفة أن يجعل من مراقبته مراقبة علم ونفع لتكون مراقبة إيجابية تعود بالنفع والخير على الخليفة نفسه وعلى من غيره، ولا يجب أن تكون

---

512 المائدة 116.

513 المائدة 117.

مراقبته لدافع سيء يعود بالضرر عليه وعلى غيره، كأن يراقب الجار جاره لمجرد الفضول.

وإذا داوم العبد على مراقبة نفسه وتيقن من اطلاع الله تعالى على خفاياه وظاهره فإنه يصل إلى خير نفسه وصلاح حاله، وتوصل إلى حالة من الود لله والخشية من الله توصله لأن يكون في مواجهة مع نفسه ومراقبة لذاته في كل لحظة وحين، فيراعي الشهيد والرقيب عليه في قلبه ولسانه، فيكون خالصا لله تعالى عالما بما يرضيه مبتعدا عما يغضبه.

فمراقبة الشهيد عزّ وجلّ هي عبادة تقربّ العبد من ربّه وتحفظه من وسوسة الشيطان الرجيم الذي لا سلطان له عليه كما في قوله تعالى: {قَالَ ربّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ ربّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}514.

ومن شأن اسم الله الرقيب أن يجعل من العبد متيقنا بأن الشهيد قد وكّل ملكين يحصيان أعماله وأقواله وأن حسابه يكون مكافئا لهذه الأعمال والأقوال، فينعكس ذلك على حياته فيبتعد عن الباطل ولا يكون غافلا عن وقته الذي يجب أن يستغله في طاعة الله وحبه، فيعمر قلبه بالإيمان بأن الشهيد يراقبه ويشهد ما يقوم به دون انقطاع لأن الله يراه، فعندما سُئِل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عن الإحسان قال: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"515، فالشهيد يرانا ويراقبنا فطوبى لمن كان رقيبا شاهدا على نفسه جاعلا من عقله وقلبه شاهدين عليه.

---

514 الحجر 36: 42.

515 صحيح مسلم ج1، ص30.

**الشهيد هو الحافظ:**

بما أن الله تعالى هو الشهيد كما أسلفنا القول على أقوالنا وأفعالنا وعلى إسرارنا وإعلاننا فهو بالتالي الشهيد الحقّ الرقيب على كل العهود والوعود التي تتم بين البشر بغرض حفظ الحقّوق، فالله هنا هو الحافظ الشهيد أي الراعي لأي عهد أو اتفاقية أو دين أو معاملة أو عقد، ولو استحضرنا هذه الفكرة في أبسط مثال ألا وهي عقود العمل وعقود الزواج ففي حالة أن كل طرف من الأطراف المشتركة في العقد يضع نصب عينيه أن المولى عزّ وجلّ شهيدا على هذا العقد المبرم وأن يكون الشهداء على أي عقد مستحضرين هذا الاسم الكريم في أنفسهم لاستطعنا أن نصل بفكرنا لضرورة حفظ الحقّوق وأنه يجب أن يوفي كل شخص بما يمليه عليه بنود هذا العقد الذي شهد عليه أو اتفق عليه مع الطرف الآخر وأن ينفذه بكل أمانة وإخلاص وصدق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}516، وبذلك تكون النتيجة رائعة بمراعاة كل طرف مرضاة وصون

---

516 البقرة 282.

حقّوق الطرف الآخر كما يمليه عليه العقد، وكذلك في حالة عقد النكاح الذي يتم بين طرفين ينويان الارتباط للشروع في تكوين أسرة، ذلك الارتباط الشرعي الأساسي في تكوين المجتمع المسلم والذي يجب أن يقوم على أساس الاحترام والحب والمودة في أجمل صورها.

لذلك فلو أن كل إنسان وضع نصب عينيه أن الله هو الشاهد الأول في كل عقد لتوصل إلى صونه والحفاظ على حقّوقه وحقّوق الطرف الآخر حتى ولو تطلب ذلك بذل جهد وتضحية، فإذا كان هذا حال الإنسان فما بالك بالشهيد المطلق والحافظ المطلق والذي يوفق بين العباد كيفما يشاء، فهو مثلا الذي يوفق الزوج للتواصل مع زوجته باحترام وحب وهو الذي يهبهم الأبناء أمانة كي يحافظوا عليهم بالتربّية السليمة والرعاية الشاملة وبذلك نكون على قدر المسؤولية بأن نستطيع أن نكوّن أسرة نموذجية صحيحة نفسيا فالأسرة هي نواة المجتمع وبذلك نكون من المساهمين في تكوين مجتمع مسلم يرضى عنه الله تعالى، كما أرادنا المولى عزّ وجلّ في قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}517، فإذا توصلنا لتحقّيق هذا المجتمع الذي أفراده على هذا القدر من الوعي والالتزام والأمانة فسيكون قد توصلنا إلى معرفة أساس الخلق الذي يحفظ للمجتمع آدميته ويجعله مستحقّا لخلافة الأرض، هذا المجتمع الذي يبحث عنه الغربّ بالوسائل والتقنيات والآليات.

ولا يوجد منه هو حافظ لكل شيء غير الحافظ المطلق الذي يحفظ بعلمه المطلق وشهادته المطلقة ما يشاء، وطوبى لمن كان في حفظ الله، قال تعالى:

517 آل عمران 110.

{فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}518، فهو الحافظ لنا برحمته وقدرته وبشهادته.

فهو الحافظ لنا من المرض برحمته، والحافظ لنا من النّار بمغفرته، والحافظ لنا حقّوقنا بشهادته، والحافظ لنا المال والبنون بكرمه.

فعلى الخليفة أن يكون حافظا للتالي:

لحدود الله: قال تعالى: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}519، فالله تعالى أعلم البشر بحدوده ومن يتجاوز هذه الحدود فإنه ظالم لنفسه، فلا حقّ لإنسان بتعدي حدود الله تعالى، والله بالتالي شهيد على من يحفظها وعلى من يتعداها، ومن أراد النجاة فما له إلا أن يبقى ضمن هذه الحدود حافظا لها، واسم الله الشهيد من شأنه أن يذكّر الإنسان بالحفاظ على هذه الحقّوق لأن من تجاوزها فإنه الله يشهد عليه بذلك.

والشهيد أعلم بالإنسان من نفسه لذلك فقد جعل عقابا لمن تجاوز حدوده سبحانه وتعالى، وجعل ثوابا لمن حفظها، ولنا في رسلنا وأنبيائنا القدوة الحسنة في حفظهم لحدود الله، عَنَ عَائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِى سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ –صلّى الله عليه وسلّم– فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ –صلّى الله عليه وسلّم–. فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلّى الله عليه وسلّم– "أَتَشْفَعُ فِى حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ. ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ: أَيُّهَا النّاس إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ

---

518 يوسف 64.

519 الطلاق 1.

أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"520.

فيجب أن نراعي حدود الله ونحفظها في أنفسنا وفي أهلنا وأقربّائنا، فلا أعظم من أن نكون عادلين وحافظين لهذا العدل وهذا الحقّ.

وحافظا لشهادته: فهو بالتالي حافظا للحقّ من الضياع وحافظا للعدل أن يسود ويعم النفوس البشرية التي تلجأ أحيانا لطمس هذا الحقّ، فلا يجب أن يترك المؤمن مؤثِرا يؤثر عليه لتغيير شهادته لأن في ذلك ضياع للحقّوق وعدم حفظ حدود الله تعالى.

حافظا لنفسه

من يحفظ الله تعالى فقد حفظ نفسه من النّار ومن سوء العقاب، فالله حافظ المؤمن من وسوسة الشيطان الرجيم، قال تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ ربّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ ربّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}521، فمن أراد أن يكون في حفظ الله لابدّ أن يكون على يقين بأن الله شهيد عليه في كل لحظة فيراعي الله في كل ما ينطق به أو يفعله، بالتالي فهو يحفظ الشهيد في نفسه والشهيد يكون حافظا له من الشيطان الرجيم.

---

520 صحيح مسلم ج5/ ص114.

521 الحجر 32. 42.

حافظا لصلة رحمه: قال سبحانه وتعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}522، فقد أوضح الله تعالى الحقّوق المادية كما جاء في الآية السابقة لصلة أرحامنا، وكذلك أوضح الحقّوق المعنوية لهم في قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا}523، فهذه الحقّوق المادية والمعنوية التي تؤدّي كل منهما إلى الآخر من الأمور المهمة التي أمرنا الله بأن نكون حافظين لها وهو شاهد على من يحفظها ومن يضيعها.

فمن أثر اسم الله الشهيد أن يجعل منا حفظة لكل حدوده التي بيّنها لنا وأشهد عليها ملائكته ورسله، فلا مهربّ من مسؤوليتنا أمام الله عند تجاوز هذه الحدود وكيف ذلك وهو الشهيد على كل شيء؟

**الشهيد هو الكريم:**

الله سبحانه وتعالى هو الشهيد علينا وعلى الرّسل والملائكة وعلى كل عملٍ نقوم به، فمثلا وفي أبسط صورة حينما نقف للصلاة أو القيام بأي نوع من أنواع العبادات متذكرين أن الله تعالى شهيدا علينا لوجدنا انفسنا تهفو للمزيد من هذه الطاعات والقيام بها على أكمل وجه، وقد أكرم الله تعالى الإنسان محفزا إياه للطاعة والعمل الصالح والزيادة في سعيه وراء الحسنات في قوله تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا

522 البقرة 215.

523 الإسراء 23 . 25.

يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}524، وكذلك قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}525.

فالكريم يعطي الإنسان من أوسع أبوابه ويضاعف الحسنة بعشرة أمثالها ولا يكتب السيئة إلا بسيئة مثلها، وهو الشهيد فشهادته بمثابة فرحة عظيمة للإنسان المسلم الذي يجعل من هذا المسلم يسارع في فعل الخيرات لنيل جنة النعيم، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}526 وبذلك يكرمه الله بنجاته من النّار ودخوله جنات عدن، ونستطيع أن نتصور كيف ستكون همة الساعي لطاعة الله ونيل رضاه فهمته ستكون في أعلى مراتبها وأروع صورها وهذا يجعل من المؤمن مستشعرا بلذة السجود لله تعالى الشهيد عليه وعلى ما في قلبه، فليتنا نتخيل مدى الجمال الذي يتمثل في قمة العبودية له سبحانه وتعالى وهذا يكون انطباع المؤمن وإحساسه تجاه الله تعالى في لحظة سجوده لله تعالى وهو يشهد عليه بالإضافة إلى أن في سجوده هذا يتخلص من الكثير من الأعباء والهموم وقد أثبت العلم الحديث في دراسة جديدة أن الإنسان يتخلص من بعض الشحنات الكهربّائية الزائدة والتي تساعد على الحصول على راحة نفسية لا يمكن وصفها.

---

524 الأنعام 160.

525 البقرة 261: 263.

526 المؤمنون 60: 61.

والكريم هو الذي يعطينا الخير أما الشر فيأتي من أنفسنا، لأن الله رفع الحجة عن البشر ببعثه للرسل والأنبياء، وشهد على تبليغهم كلمات الله وهداه، وهذا كرم من المولى الذي لا يريد إلا الخير بنا مصداقا لقوله تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}527، فمن الآية الكريمة السابقة يتضح لنا أن الحسنة والخير من عند الله تعالى لأنه الكريم والكريم لا يمكن أن يبخل بالخير على غيره فكيف بالكريم المطلق؟ أما الشر والفساد فمن يد الإنسان نفسه بإتباعه خطوات الشيطان الرجيم الذي لا يدل إلا على المفسدة والمعصية، لم يكن الله تعالى ليشهد على كفر أو إيمان أي إنسان إلا بعد أن يكرمه بتوضيح طريق الحقّ من الباطل وبعد ذلك لا يكون للبشر حجة على الله في كفرهم وعصيانهم.

ومن شأن الوصول إلى اليقين بأن السيئة تأتي للإنسان من نفسه أن يحاول على الفور الابتعاد عن كل ما هو سيء وفاسد، فعلى الإنسان أن يبحث عن الخلل ويحاول إصلاحه ويساعده في هذا الإصلاح كل سبل الهداية من الكريم جلّ جلاله.

**الشهيد هو الوكيل:**

تتخلص الصلة بين اسم الله الشهيد واسمه الوكيل في هذه الآية: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا}528 بما أن الله تعالى دائم الحياة وقائم على أمر العباد وبما أنه الحي فهو الشاهد على كل شيء، والشاهد على كل شيء لابدّ أن يكون الوكيل عليهم، وإذا وصل المسلم لفهم هذه العلاقة لتوكل على الشهيد الذي لا يموت.

527 النساء 79.

528 الفرقان 58.

والوكيل المطلق هو الذي يشهد على حفظه ما وكله به عبده صغيرا كان أم كبيرا، وبعدله المطلق يحفظ حقّوق الخلق ولا يظلم المولى سبحانه وتعالى أحدا وهذا ما وصل إلى قلوب الخلفاء في قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}529، فالاكتفاء بتوكيل الله تعالى في أمورنا هو أساس الإيمان والطاعة للمولى جلّ جلاله.

ويتوكل على الله كل مؤمن بقدرته وبأنه شاهد على كل شيء، فما من حقّ أو أمانة أو اتفاق إلا وكان الله شهيدا عليه، الله هو الوكيل الذي يجب أن نتوكل عليه وحده ونثق بعدله وحكمه وقضائه، فلا تضيع الحقّوق لديه عزّ وجلّ ولا تُكتم الشهادات عنده بل هو الحافظ لما وكلناه به الله شاهد بعلمه وقدرته المطلقين.

ولذلك فإنّ الخليفة من وكّل أمره لله واثقا به ومسلما أمره له عزّ وجلّ، وهذا يجعل منه راضيا بما قدّر له من تقسيم رزق، وأن يجعل من الله وكيل على كل ما يقول أو يفعل كما فعل سيدنا موسى — صلّى الله عليه وسلّم- في قوله سبحانه وتعالى:{وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النّاس يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ ربّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ

529 آل عمران 173.

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}530، ذلك بأنه الشهيد على القول والفعل سرا كان أو جهرا، والخليفة من يتبرأ من أمره ويفوضه للشهيد عليه، فهو يشهد حاجته ويعلم ما ينفعه وما يضره.

**الشهيد هو العليم:**

الشهيد عليمٌ بمن يراقبهم ويحفظ أعمالهم، فلا تكون شهادته بها نقصٌ أو عيب وهذا ما يتفق مع أنّه تعالى منزه عن النقائص والعيوب، فعلمه عزّ وجلّ يحيط بكل شيء والإحاطة تتوفر في مراقبته عزّ وجلّ، وبهذه المراقبة هو الشهيد علينا.

وعلمه عزّ وجلّ لا يقتصر على ما ظهر من أعمال وأقوال بل يتعداه لما تخفيه الصدور لقوله تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}531، فبعلمه وخبرته يشهد على عباده فهو الذي لا يعزب ولا يغيب عنه أي شيء في الأرض أو في السماء، وكذلك علمه لا يتحدد بزمن أو وقت فهي يعلم ما كان وما سيكون.

فالعليم عزّ وجلّ شاهد على العباد بعد أن جعلهم مدركين عاقلين بما وهبهم إياه من نعمة العقل لكي يميزوا بين الحقّ والباطل، فقد جعل من الأرض والسماء شواهد على قدرة الله يخاطبان عقل الإنسان ويهديانه إلى

530 القصص 23 . 28.

531 التغابن 1: 4.

قدرة الله تعالى لقوله عزّ وجلّ: {نَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النّاس وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}532 وأعلمهم بالخير بإرساله الرّسل والأنبياء مبشرين ومنذرين، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرّسل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}533 ففي الآية الكريمة السابقة نجد أنه:

- الله يعلم ما ينفع البشر وما يضرهم ويعلم مسبقا بما سيكون في نفوس العباد.
- الله والملائكة يشهدون على الإنسان يوم القيامة.
- خطاب الله تعالى للرسول عليه الصّلاة والسّلام بأنه شهيد إنما المقصود به تأكيد للبشر على كفاية شهادة المولى عزّ وجلّ.

ولذلك فإن خليفة الله يجب أن يملك من العلم ما يرفع به خُلُقه ويرقى به ليصل إلى استخلاف الأرض وإعمارها، فالعلم يكون شاهدا على صاحبه بالنفع والخير.

الشهيد هو الحليم

بالرغم من أن المولى عزّ وجلّ شهيدا على عباده ويعلم العاصي والجاحد منهم إلا أنه لا يسارع في عقابهم لحلمه بهم، فلو عاجل الله تعالى العاصي

532 البقرة 164.

533 النساء 165: 166.

والمذنب لما وجدنا تائبا أو مستغفرا، ولكن الله تعالى العليم بعباده وبضعفهم يمنحهم الفرصة تلو الأخرى كي يرجعوا للحقّ وهو شهيد عليهم، فالله شهيد على المؤمن والكافر والتائب وهو أيضا حليم بهم ومحيط بهم جميعا عليم بما في صدورهم، قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}534 فالحليم هو الشهيد على ما في النفوس فيحلم بأصحابها كي يرجعوا للحقّ والصواب.

وبالرغم من أن المولى عزّ وجلّ شهيد على خلقه إلا أنه لا يمسك فضله عن عباده عقابا لهم على ذنوبهم، فلا يغضب لعصيان عاصي ولا لذنب مذنب بل إنه يحلم بهم ويجعل من حلمه بهم حافزا لهم للتوبة والندم.

وحلمه على العباد شاهد على أنه سبحانه وتعالى قادر ورحيم في ذات الوقت، فهو يملك القدرة ولكنه يعاملنا بالرحمة والود، فهو الشهيد وهو الحليم الذي يؤخر عقابه بعلمٍ وخبرة، قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا}535.

لذلك فعلى الخليفة أن يحلم على غيره بكونه شاهدا عليهم فلا يغضب لأقل الأسباب ولا يجعل من شهادته رد للإساءة وعقاب لما آذاه، قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}536.

للشهادة مراتب منها:

أولا: الشهادة بالمطلق:

---

534 البقرة 235.

535 فاطر 45.

536 الشورى 40.

وهذه الشهادة لا تليق إلا بالشهيد المطلق ولا تتحقّق إلا فيه فهو الشهيد بالإطلاق الذي خلقنا وشهد علينا: قال سبحانه وتعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ}537، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الحقّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}538، فشهادته عزّ وجلّ هي الفاصل بين الحقّ والباطل، فلا تضيع حقّوق العباد لديه وهو الشاهد عليها، فيشهد للظالم بظلمه ويعاقبه على ذلك ويشهد للمتقي بإيمانه ويكافؤه على ذلك، قال تعالى: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا

---

537 الحشر 11 . 14.

538 يونس 27 . 30.

فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجنّة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}539، فشهادته تعالى تثبيت للحقّوق ورد للمظالم ومكافأة لأحبائه، فلا يداخلها تزوير أو تحيز أو تفريق بين العباد، وكيف ذلك وهو العادل الواحد الأحد الرقيب الحسيب؟

فنحن نلاحظ أن في بعض القوانين التي وضعها البشر نقصٌ وعيوب وثغرات يستطيع الظالم أن يدخل منها لطمس حقّوق الآخرين دون أن يكون عليه شاهد دنيوي من بني الإنسان فهنا القانون يكون غير عادل وخاصة إذا أخذ بأقوال شهداء الزور، ومن هنا كان شرع الله الشهيد على نفوس البشر أصلح منهاج للحفاظ على الحقّوق لأن هذا الشرع يشهد عليه الشهيد بالإطلاق الذي لا يشوب شهادته أدنى شك لتنزيهه عن كل النقائص والعيوب.

ومن شأن الإيمان بذلك أن يتوكل الخليفة على مولاه عزّ وجلّ وهم مدرك أنه شهيد له وعليه، فيطمئن ويهدأ ويتيقن أن حقّه في الدنيا وإن سُلِب فإنه سيرجع إليه يوم القيامة عندما يشهد الحقّ بذلك فلا يبقى حقّ مسلوب ولا مظلمة إلا ويرجعها الشهيد لأصحابها.

ثانيا: الشهادة التي لا يتطرق إليها شك:

كشهادة الملائكة المكرمين والرّسل الكرام الذين ينطقون بما أمرهم الله به، وإذا كان هذا حالهم فكيف لا تكون شهادتهم شهادة صدق؟

---

539 النحل 26 . 32.

فالملائكة لا تعمل ولا تقول إلا ما يرضي الله تعالى، وبالطبع لا يرضى الشهيد الحقّ تزوير الشهادات ولا يمكن أن ينطق بها من يعملون بأوامر الله قولا وفعلا مصداقا لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}540، وكذلك قوله تعالى: {لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}541.

وكذلك الرّسل والأنبياء الذين اصطفاهم الله تعالى للتبشير والتحذير، فهم بهذا الاصطفاء لا يمكن أن يكونوا شهداء على الباطل فذلك يتنافى مع كونهم ينطقون بما يوحي إليهم المولى عزّ وجلّ قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}542، فالله شهيد على أنهم شهداء على أقوامهم في فترة مكوثهم بينهم، وهذه شهادة لا يمكن أن يداخلها شك أو كذب أو افتراء ممّا يتنافى مع أخلاقهم وصفاتهم التي ربّاهم الله عليها، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}543، فمن وصفه ربّه بأنه على خلقٍ عظيم لا يمكن أن يتطرق الشك في شهادته التي هي أمر من الله لنبيه محمد عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

540 النحل 49، 50.

541 النساء 166.

542 المائدة 116: 117.

543 القلم 4.

وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا}544، وهذه الشهادة تشمل جميع الرّسل، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا}545.

ثالثا: الشهادة التي تداخلها الشك:

بما أن الإنسان خُلق ضعيفا فإنه متعرض للغفلة والوهن ممّا يجعل منه متذبذبا بين الحقّ والباطل، يخضع أحيانا هذا الإنسان لنداء ضميره وأحيانا يقع تحت وسوسة الشيطان الذي لا يقود إلا للهلاك والضياع، لذلك فإنه شهادة هذا الإنسان يتطرق إليها الشك، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ}546، فشهادة الإنسان يتداخلها شك فكان لابدّ من مستند تستند عليه وهو أن الله الشهيد الحقّ، وفي هذا تذكير للإنسان الذي سيؤدّي اليمين بأن الله شهيد على شهادته.

وبالرغم من ذلك نجد بعض النفوس البشرية الضعيفة التي تلجأ للحصول على مال اليتيم الذي نهانا الله عن القربّ منه بغرض اختلاسه وسلبه من أصحابه، قال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} 547، وقد يجلب هذا الإنسان الطماع بعض من يشهد معه زورا على سلب هذا الحقّ مقابل قدر من المال، وكأن كل منهما على ثقة بأن

544 الأحزاب 45: 46.

545 المزمل 15.

546 النور 6: 10.

547 الأنعام 152.

لا أحد يدرك ما يصنعان أو يتآمران عليه، في حين أن الشهيد المطلق يكشف حتى ما في النفوس قبل الخروج منها، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}548

ولهذا فعلى الخليفة أن يراعي الله الشهيد في كل ما ينطق به أو يقوم بفعله، وإذا كان في موضع لأن تُؤْخذ شهادته يجب أن يتذكر بأن الشهيد يراقبه ويكتب شهادته فيكون معتدلا غير متحيز لقرابة أو علاقة بل يجب أن تكون علاقته بالشهيد من أول الأمور التي تكون في حسابه عند الشهادة.

وقد جعل الله من الإنسان شاهدا على نفسه، بالرغم من شهادة الشهيد عليه ولكنه جعل من جسده وأعضائه التي هي أقربّ شيء فيه شاهدة عليه يوم الحساب مصداقا لقوله تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النّار فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرِبّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنّار مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ}549 ففي الآية الكريمة السابقة نجد أنه:

* الله العليم الصبور على عباده حدد وقت شهادة الإنسان على نفسه في أصعب الأوقات التي لا يمكن أن ينكر فيها المرء ما نطقت به أعضاءه.

---

548 التغابن 4.

549 فصلت 19: 24.

* الإنسان يميل إلى إنكار الحقّيقة والشهادة بها لذلك فقد أنطق الشهيد كل ما شهد على الإنسان من نفسه.

* ما أضعف الإنسان إذ أنه لا يملك حتى السيطرة والتحكم في أعضائه! فهي تعمل بما أمرها الله تعالى به فهو خالقها ومالك أمرها.

ما العلاقة بين الشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله) وبين اسم الله الشهيد؟

هاتان الشهادتان فيهما أكثر من معنى، فالمعنى الأول فيها هو الشهادة لله بالوحدانية متضمنة شهادة بالعبودية لله من قِبَل هذا المتشهد، والمعنى الثاني اليقين بأن محمد – صلّى الله عليه وسلّم- خاتم الأنبياء والمرسلين، والمعنى الثالث أن الإنسان مسؤول عن مراعاة هذه الشهادة التي أقرها في قلبه قبل النطق بها بلسانه.

فالإيمان ينحصر في العمل ضمن هاتين الشهادتين، فلا عمل يُقبل دون الإقرار والتصديق بهما، وفي النطق بالشهادة رجاء من الإنسان إلى الشهيد بالإطلاق كي يشهد على ما شهد على نفسه، أي أن الإنسان المؤمن يحب أن يكون الله شهيدا عليه، فهو لن يُظلم أن يُفتَرى عليه من عند الله جلّ جلاله الذي نزّه نفسه عن كل العيوب والنقائص.

كما إن اسم الله الشهيد يعلّم الخليفة درسا في القوّة والانتصار، لأن الشهيد بالإطلاق هو القوي الذي يملك أن يكون شهيدا وحده وعلى كل شيء وفي كل وقت، والخليفة بما أنه يستمد صفاته من صفات المولى عزّ وجلّ فإن من شأن اسم الله الشهيد أن تصل بالشهيد بالإضافة إلى قوّة اليقين بالله الواحد الأحد فننطق بالشهادتين بقوّة إيماننا بهما وبالتالي فإن ذلك الإيمان يمنحنا القوّة التي نفتقدها في زمننا هذا، فلو رجعنا إلى زمن بعث الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – بالهدى والقرآن المنير نجد أن قلة

من العربّ الذين أسلموا بذلك وصدّقوا به وبالرغم من ذلك فقد واجهوا الكفر بطغيانه وجبروته ودخلوا في حروب مع أهل الكفر والجهل بشكل غير متكافئ إذا قارنا بين المسلمين والكفار من جهة العدة والعتاد، وقد كانوا يواجهون ملوك الفرس والروم هاتان القوتان اللتان كان يخشاهما العربّ أجمع ومع ذلك كله استطاع المسلمين القلة أن ينتصروا على كل أولئك، يا ترى كيف نعجز الآن نحن المسلمين من رد أي أذى عن بلدٍ مسلم أو حتى في صون كرامتنا كمسلمين؟

السبب بسيط جدا يتلخص في مدى صدق النطق بالشهادتين، وبمدى يقيننا بأن الله هو الشهيد على ما نشهد به له من وحدانية له وعبوديتنا له عزّ وجلّ فنستمد منه هذه القوّة التي نستطيع بها أن نحيا أعزاء وأحرار كما أرادنا الله تعالى.

فالشهادتان لا يمكن أن تكونا مجرد جملتين نرددها بين الحين والآخر بل لابدّ أن تكون مركز القوّة والطاقة التي تمدنا بالقدرة على كل شيء في الحياة، فقد كان رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – يجعل من الصحابة ومن معه من المسلمين يصلون بأنفسهم إلى جوهر هذا المعنى فكانوا جبالا في الطاقة والقوّة المعنوية والنفسية والقدرة على التحمل، لأنهم كانوا يضعون الشهيد بالإطلاق نصب أعينهم عند النطق بالشهادة فيستشعر بواجبه تجاه هذه الشهادة أمام الشهيد سبحانه وتعالى، فنجحوا في إرساء دعائم المجتمع المسلم القوي والصحيح.

وقد تجل أيضا صدقهم مع الشهيد عليهم حتى في معاملتهم مع الكافرين وأهل الكتاب فما الذي كان يجبرهم على احترام العهود معهم والتزام حسن الخلق في التعامل معهم؟

ما كان شيء يجبرهم إلا علمهم أنهم تحت الشهيد الذي يشهد ما يفعلونه، فالإحساس لدى كل مسلم بأن الله تعالى يراقبه يجعله قويا صابرا متوكلا مكتفيا بشهادة الشهيد على كل قول أو فعل يصدر منه، وهذا بحد ذاته أكبر رادع للإنسان المسلم كي يحسن التصرف والكلام فيشعر بالخجل بما تفوّه به من رذائل الكلام كالنميمة والكذب والسخرية كما نهانا الله تعالى في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}550، فلا يصل الإنسان إلى هذا الخلق الكريم الذي يرقى بآدميته إلا إذا كان مدركا بأن الشهيد معه في كل همسة وكل فعل صغُر أو كبر، فيراعي الشهيد في كل أمر من أن يقوم بما لا يرضيه عزّ وجلّ.

الشهيد هو الحقّ وكل من كان شاهد حقّ هو شهيد، فالذي يشهد الزور هو مانع للخير والصلاح فلا يعتبر شهيدا على الباطل.

الشهادة لها حقّوق علينا ألزمنا الشهيد المطلق بها وهي:

1- عدم تزوير الشهادة:

عند اللجوء إلى شهادة شاهد في أمرٍ ما فإن هذه الشهادة تحتمل الحقّيقة أو تزييف هذه الحقّيقة وهذا يرجع إلى ضمير الشاهد ودرجة إيمانه، فمن كانت نفسه مطمئنة بحبها لله وذكره فإنها لن ترضى إلا بشهادة الحقّ، وإن كانت النفس تحت سيطرة الشيطان فإنه بالتأكيد سترضى بشهادة الزور،

550 الحجرات 11: 12.

قال تعالى: {وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا}551، والسوء هنا يقع تحته كل ما هو قبيح وفاسد ومن ضمن ذلك شهادة الزور، على عكس من اتبع الله وخاف عقابه فهؤلاء لا يرضون بغير الحقّ وشهادة الحقّ، فشهادة الحقّ من صفات المؤمنين الذين قال تعالى عنهم: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}552.

فمثلا نجد في بعض قضايا الطلاق يلجأ أحد الطرفين لتزييف الحقّيقة لهدف مادي يحلم أحد الطرفين بالحصول عليه ولا يهم الأسلوب الذي يتبعه للوصول لهدفه، وهذا الطمع المادي يُخْسِر الإنسان رضا ربّه الشهيد على ما يفعل بل إنه يتناسى ويغفل عن الشهيد المطلق الذي لا ينام ولا يغفل.

2- عدم كتم الشهادة:

إذا كتمتَ شهادة حقّ فاعلم أنك بالتأكيد قد أضعت حقّ إنسان وأن الله شهيد عليك فيها، لأنه حين نكتم شهادة حقّ معنى ذلك الظلم قد وقع على إنسان قدّر لك الله أن تكون شاهدا في أمره

كتم الشهادة من شأنه أن ينشر الفساد والظلم بين البشر، وفيه طمس للحقّ وإظهار للباطل، ومن يكتم شهادته يكون في غفلة عن الله الشهيد عليه وعلى ما في نفسه، فإنه كتمها عن البشر فكيف يكتمها عن الشهيد بالمطلق الذي أمره بقولها لما فيها من نفه وحفاظ على الحقّوق والمصالح، قال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

551 النساء 38.

552 الفرقان 72.

الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}553.

3- عدم إنقاصها:

بل يجب أن تكون كاملة لا نقص ولا زيادة فيها لأن الحقّ لا يحتمل النقصان أو الزيادة، فمن الطبيعي أن يكون في نقص الشهادة إنقاص للحقّ، وهذا لا يمكن أن يُرضي الشهيد بالمطلق الذي أمرنا بأداء الشهادة كما هي كي نتجنب الظلم والفساد والضياع.

والشهيد المطلق شاهد على نفسه قبل أن يكون شهيدا علينا، قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}554.

والشهادة في الدنيا تكون اختيارية، فقد يشهد المرء بالحقّ وقد لا يشهد وذلك يرجع كما أسلفنا القول إلى إيمانه وخوفه من الشهيد بالإطلاق، أما في الآخرة فهي إجبارية لا يتحكم فيها الإنسان بل الذي شهد عليه في الحياة الدنيا مصداقا لقوله تعالى: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ

553 البقرة 283: 284.

554 آل عمران 18: 20.

عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّار مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحقّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ}555.

وشهادة الحقّ تؤدّي إلى:

إظهار الحقّ: بما أن الإنسان مخلوق ضعيف قابل للفساد والمعاصي فإنه متعرض للذنوب والأخطاء ولكن عند الأمر بشهادة الحقّ فإنه من شأن ذلك أن تُظهر الحقّ على الباطل، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ}556.

**إعادة الحقّوق:**

أحيانا بشهادة حقّ واحدة ينطق بها لسان بشري يخاف الله خالقه ومولاه يُرجع بها حقّا مسلوبا أو يُرفع بها ظلما واقعا على شخصٍ ما، فتُرَد الحقّوق النفسية والمادية الضائعة لأصحابها بهذه الشهادة التي تحي الحقّ وتميت الباطل، إنها شهادة إن نطق بها لسان الإنسان أصبح مسؤولا عنها وإن كتمها أن علمها فهو أيضا مسؤول عنها، فلابدّ أن يراعي حقّ ربّه وحقّ نفسه وحقّ غيره فيها.

555 فصلت 19: 25.

556 النور 6: 9.

**ردع لفساد والظلم:**

لا يأمر الشيطان إلا بالفساد والشرور والظلم، لذلك كان لابدّ من شهداء حقّ على الحقّيقة كي يحاربّوا اتباع الشيطان ويمنعوهم من نشر الظلم والرذائل على الأرض التي هي مسؤولية كل من عليها إذ أنها أمانة نحن مستخلفون فيها، فإذا زُيفت الحقّيقة وتزيفت ضاع الحقّ وتاه وسط هذا الفساد والباطل، ولأن الله جعل من شهادة الحقّ رادعا للظالمين والفاسدين الذين يريدون أن تعم الفاحشة بين البشر.

فإذا عمت شهادة الزور وشملت النفوس واستوطنت فيها فإن ذلك يكون باعث لتفشي الرذيلة دون خوف أو رادع.

الشهادة تتطلب:

الأمانة:

الأمانة في الشهادة هي أن تُؤدى بكاملها فلا نقص يعتريها ولا زيادة ولا كتمان، قال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ

يُسْرًا ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا}557.

والشهيد بالإطلاق عندما استخلف الإنسان في الأرض وضّح له طريق الحقّ والهداية، ومن ضمن ذلك أنه في اسم الشهيد يعلّم الإنسان الأمانة، فالإنسان كفرد لابدّ أن يكون شاهدا على نفسه أمينا فيها قبل كل شيء، فلو وصل كل مسلم لهذه الدرجة من الأمانة لعم الخير والصلاح، لأنه إذا كان أمينا مع نفسه وحدث خلل لديه مع نفسه لوجد غيره ممن يحيطون به يساعدونه على لمس هذا الخلل سواء كان أخا أو أبا أو صديقا أو قريبا، فالأمانة مع النفس سببا قويا لإحقّاق الحقّ ولتكوين مجتمع أمين سليم مطمئن.

فعلى الخليفة أن يكون أمينا داعيا للأمانة بين العباد الأمر الذي يبعث الراحة والطمأنينة في نفوس العباد، إذ أن الخيانة أساس كل الرذائل وأصل كل المفاسد ومن شأنها أن تنزع الثقة من النفوس.

الصدق:

فمن صفات شهداء الحقّ الصدق، ومن كان صادقا مع نفسه كان صادقا مع ربّه ومع غيره، ومن شأن الإنسان الصادق أن يكسب ثقة من حوله وهذا يؤدّي إلى أن تكون شهادته شهادة صادقة لا يداخلها التزييف والافتراء الذي يتنافى مع أخلاق الإنسان الصادق، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا

557 الطلاق 1: 5.

مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}558 في الآية الكريمة السابقة توضيح بأن الصادق في الدنيا هو الصادق في الآخرة حيث يشهد الله تعالى بأنه صدقه وصدق رسله، وهذا هو المكسب الكبير، وقد كان الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم– من صفاته الصدق والأمانة إذ كان يلقب بالصادق الأمين وهو خير أسوة لنا نقتدي به ونسير على منهجه، فإذا اجتمع الصدق والأمانة فقد اجتمعت مكارم الأخلاق الذي بعث الله تعالى سيدنا محمد عليه السلام كي يتممها بين البشر.

وإذا عم الصدق وانتشرت الأمانة بين المسلمين لما لاحظنا هذا الارتفاع الكبير في نسبة الجريمة وهذا الفساد الذي عم السواد الأعظم من النفوس المسلمة، لذلك فهذه مهمة الخلفاء كي يسيروا داعين لها عاملين بها.

لذلك فإنه من المستحيل أن يكون من بين الخلفاء من هو كاذب أو خائن أو مفتري، لأن ذلك يتنافى مع رسالته التي عرضها له الله تعالى لصلاح الأرض وخيرها، فالصدق يجعل من الخليفة موضع ثقة واحترام مع نفسه ومع من حوله.

العدل:

في حال انتشرت الأمانة في أداء الشهادة يتحقّق العقاب للذي يستحقّه فلا يُظلم أحد من وراء شهادة كاذبة، لأن الشهادة هي التي تحدد نوع العقاب وعلى من يستحقّه، ولابدّ كي يتحقّق العدل بين النّاس أن لا

---

558 المائدة 116، 120.

يكون لدى القانون مستويات للبشر كالغنى والفقر والقوّة والضعف، فإذا كان هناك فرق وتمييز لبعض الأفراد عن البعض الآخر فلن تفيد شهادة الحقّ طالما هناك تمييز بين البشر.

لذلك على ولى الأمر أن يكون عادلا في حكمه وعادلا في سماعه للشهادة وعادلا في قوله لها مهما كانت الظروف، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}559.

القوّة:

لا تأتي شهادة الحقّ إلا من إنسان قوي بالله وبحبه له تعالى فيكون هذا الحب هو الدافع له لكل عمل خير يقوم به، فلا يضعف تحت تأثير مالٍ أو جاهٍ أو سلطة، فالمتوكل على الله والواثق بأنه شهيد عليه وعلى كل ما يقوم به سيشعر بالخجل من أن يزيف شهادته وسيخاف من عقاب الشهيد عليه.

الإيمان:

درجة الإيمان في صدر كل إنسان تتحكم في تصرفاته وأفعاله، وأشدها هو أن يصل الإنسان إلى حد الإحسان وهو أن تدرك وتتأكد من أن الله يراك

559 المائدة 106: 108.

في كل لحظة وكل طرفة عين، بذلك يراعي الله في كل حركاته وسكناته، أما إذا نقص الإيمان في قلب الإنسان فسوف يكون معرضا للفساد والهلاك وإتباع طريق الشيطان الذي لا يعد الإنسان الذي يتبعه إلا بالسوء والفاحشة.

فالإيمان الحقّ يجعل من الإنسان مستحضرا للشهيد في نفسه في كل لحظة وكل حين، وهو الذي يصل بالإنسان إلى قناعة أن الشهيد دائم الشهادة عليه.

العلم:

العلم يجعل من صاحبه مدركا لخطورة مجريات الأمور من حوله، أما الجاهل فسوف يخلط الأمور بعضها ببعض فلا يدرك عواقب الأمور، لذلك كلما كان المرء على درجة من الوعي والفهم والإدراك لارتقى بنفسه من رذائل الأمور التي تهين آدميته وتُلقي به إلى الهاوية، وتقع على عاتق الإنسان المتعلم مسؤوليات عدة أكثر بكثير من الإنسان الأمي الذي لابدّ أن يكون للمتعلم دور في نشر مفاهيم صحيحة تعين هذا الأُمي على السير الصحيح تجاه الخالق عزّ وجلّ، فلا يكون معرضا ضعيفا تحت أي ضغط، أو ساذجا من السهل التحايل عليه.

الحرية:

والمقصود بالحرية هنا هو عدم تحكم شخص في الشاهد بأي شكل من الأشكال، لأنه يجب أن يكون حر الرأي وأن تكون الشهادة خالية من أي استعباد لها من طرف آخر، وأن يكون الشاهد يملك من قوّة الشخصية وبعد النظر ما يكفي لأن يكون حر نفسه، لا يتبع سلطان المال أو الشهوة أو غيرهما.

وللشهادة أطراف وهي:

شاهد: من شهد الفعل أو القول بنفسه، فيكون ملزما بأداء هذه الشهادة على أتم وجه لأنه منذ أن شهدها أصبح مسؤولا عنها، فإظهارها أو طمسها يكون مرتبطا بمدى أخلاق الشاهد، قال تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ}560.

مشهود عليه: الشخص الذي شهد له أو عليه، فكل أمر يتطلب الشهادة لابدّ أن يكون هناك طرف على حقّ وطرف آخر على باطل.

مشهود به: الفعل.

وفي اسم الشهيد تحذير للعباد من أن الله تعالى يراقبهم ويحصي أعمالهم خيرها وشرها، فهو الشهيد على ما يفعله البشر وبذلك لن يفلت إنسان إطلاقا من هذه الشهادة، ولكن بالرغم من هذا التحذير يغلب أحيانا طبع الإنسان المغرور على عقله، حتى أن أهل الكتاب أنفسهم بعد أن مَنَّ الله تعالى عليهم بالكتاب كفروا وازدادوا غرورا وفجورا رغم أن لديهم الدليل والبرهان الذي يقطع أي حجة على الله تعالى، وبالرغم من علمهم أن الشهيد يراهم ويكتب ما يعملون كما جاء قوله سبحانه وتعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ

---

560 يوسف 23 . 24.

الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}561 فلو تدبر كل مسلم الآية الكريمة السابقة والسؤال الذي فيها لاستشعر فيه التحذير ورد الحجة على أصحابها بعدم العلم، بالرغم من أن الشهيد بالإطلاق قدّم لهم الدليل المادي للإيمان به والخوف منه وهو الشهيد عليهم، لكن الذي حصل هو ازدياد كفرهم وعنادهم.

والله هو الشهيد على عباده لأنه يحبهم وهو الكمال والعدل بذاته، وهو الشهيد عليهم كي يترك في نفس الإنسان الإحساس بأنه يرتبط بالله ولا يمكن أن تنقطع هذه الرابطة سواء كان مؤمنا فهو الشهيد عليه أو كان كافرا فهو الشهيد عليه أيضا، وهذا يترك انطباعا في نفس المؤمن بأنه على اتصال بربّه لأنه تعالى مطلع عليه ليلا ونهارا، وقد منحنا الله تعالى صورة وافيا لكي نصل إلى هذه القناعة حيث أنه قال تعالى: {وَإِذَا حُشِرَ النّاس كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحقّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}562، ففي هذه الآية دافعا لأن نكون ممن أحبهم الله ورضي عنهم فيغفر لهم ويرحمهم.

وبما أنّ الشهيد المطلق هو شهيد على كل شيء فإنه يُعفي الإنسان المؤمن بهذا الاسم من التفكير بأن يُسلّم لله تعالى الذي يعلم ما في قرارة نفسه وهذا من شأنه أن يزيح عن كاهل هذا المؤمن عبء التفكير وانتفاء حاجته لمن يطلعه على ما في نفسه، لأنه بذلك يكون قد وصل إلى مرحلة من الارتباط بالشهيد القريب منه باستمرار والمحيط بكل ما فيه، فلا يحاول

561 آل عمران 98، 99.

562 الأحقّاف 6: 8.

شرح ما فيه لأحد ولا يتعب من البحث عن مستمع أمين، وهذا يجعل من المؤمن يشعر بالراحة والاطمئنان لأن الشهيد عليه هو الودود والرّحيم والقريب والسميع والبصير، فالله بعظمته وكبريائه وبجلاله شهيدا على أفعالنا وأقوالنا فإننا نصل إلى أنه أيضا الغفور الذي يعلم سيئاتنا ولو أننا سترناها عن كل الخلق، فشهادته عزّ وجلّ علينا لا تمنع رحمته ومغفرته فالحمد لله الذي كان شهيدا علينا غفورا رحيما بنا.

لذلك فلا يجب على الخليفة عندما يكون شهيدا على أحد أن يطغى ويتجبر وأن يسرع في الشهادة بل عليه أن يتأنى ويتحرى الحقّ ثم الحقّ وهنا نجد أن شعورا بالطمأنينة يسكن نفس المؤمنين بما في ذلك من إيجابيات ينعكس على سلوكهم من ثقة ومودة واحترام، فيتكون لدينا مجتمعا مؤمنا واثقا يملأ نفسه الطمأنينة لبعضهم البعض إذ يكون المؤمن شهيدا على أخيه المؤمن فلا يزور ولا يخون ولا يكتم ما يجب أن يظهر من الحقّائق.

ولو تمعنّا في هذا الاسم الكريم لوجدنا فيه حلا للكثير من مشاكلنا الاجتماعية وأمراضنا النفسية، التي تحتاج إلى راحة وطمأنينة لا تتحقّق إلا إذا اتصفنا بالأمانة والصدق في الشهادة.

والله تعالى في هذا الاسم يبعث لنا تحذيرا لنتحرى الطريق الصحيح في تصرفاتنا وأفكارنا وسلوكياتنا، وأيضا إنذارا لنا قبل أن نغادر هذا الحياة الدنيا لننجو من عذاب الحريق بالتحلي بمكارم الأخلاق التي تتضمن شهادة الحقّ والابتعاد عن قول الزور، قال تعالى: {وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا}563.

ومن شأن الإيمان بهذا الاسم أن يعلّم المؤمن الصبر والتحمل في حالة ضياع حقّه في الدنيا، إذ أنه قد يتعرض أي فرد فينا للظلم فيأتي هنا اسم الشهيد ليبرّد نار الظلم التي تشتعل في النفس البشرية بأن هناك الشهيد العادل الذي يرد كل حقّ ويسجل كل شيء فيعلم أن هذا الحقّ وإن لم يستطع أخذه في الدنيا فإن هناك الوكيل الذي يجب على المؤمن أن يوكل أمره إليه، وأن يتيقن أن هذا الحقّ سيرد إليه إما في الحياة الدنيا أو في الآخرة عندما يقف بين يدي الشهيد على حقّه الضائع.

وعليه:

لما تمادى قوم هود عليه السّلام في الباطل والضلال، باتخاذ آلهة ما أنزل الله بها من سلطان، دعا هود ربّه أن ينصر دينه، وقد أجاب الله تعالى دعوته، قال تعالى: {قَالَ ربّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالحقّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}564. فأهلكهم الله وأبادهم، وصارت أجسامهم كأنّها أعجاز نخل منقعر، وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ونجّى الله هودا والذين آمنوا معه برحمة منه: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ ربّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحيم}565

قال تعالى: {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ

563 الفرقان 71: 76.

564 المؤمنون 39. 41.

565 الشعراء 8، 9.

مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}566 أي: يا قَوْمِ لا (أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ) يعني على تبليغ الرّسالة (أَجْرا) لآخذه منكم (إِنْ أَجْرِيَ) ثوابي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي يعني: خلقني فإنّه هو الذي رزقني في الدنيا ويثيبني في الآخرة. (أَفَلا تَعْقِلُونَ) يعني فتتعظون (وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ) أي آمنوا به؛ فالاستغفار هنا بمعنى الإيمان لأنّه هو المطلوب أوّلا ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ من شرككم وعبادتكم غيره ومن سالف ذنوبكم يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرارا يعني: ينزل المطر عليكم متتابعا مرّة بعد مرّة في أوقات الحاجة إليه وذلك أنّ بلادهم كانت مخصبة كثيرة الخير والنّعم فأمسك الله عنهم المطر مدّة ثلاث سنين فأجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم؛ فأخبرهم هود عليه السّلام أنّهم إن آمنوا بالله وصدّقوه أرسل الله إليهم المطر فأحيا به بلادهم كما كانت أوّل مرّة، وقوله: (وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلى قُوَّتِكُمْ) يعني شدّة مع شدتكم، وقيل: معناه أنّكم إن آمنتم يقوّكم بالأموال والأولاد وذلك أنّه سبحانه وتعالى أعقم أرحام نسائهم فلم تلد؛ فقال لهم هود عليه السّلام إن آمنتم بالله أرسل الله المطر فتزدادون مالا ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت عليه فيلدن فتزدادون قوّة بالأموال والأولاد وقيل: تزدادون قوّة في الدين إلى قوّة الابدّان (وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) أي: ولا تعرضوا عن قبول قولي ونصحي حال كونكم مشركين. (قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ) أي ببرهان وحجّة واضحة على صحة ما تقول (وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ) أي: وما نترك عبادة آلهتنا لأجل قولك (وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) بمصدقين (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ) يعني إنك يا هود لست تتعاطى ما تتعاطاه من مخالفتنا وسبّ آلهتنا إلا أنّ بعض آلهتنا أصابك بخبل وجنون لأنّك سببتهم فانتقموا منك بذلك ولا نحمل أمرك إلا على

566 هود 51 . 53.

هذا؛ فقال هود مجيبا لهم (إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ) على نفسي (واشهدوا) واشهدوا أنتم أيضا علي: (أَنِّي بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ) يعني هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها (فَكِيدُونِي جَمِيعا) أي: احتالوا في كيدي وضرّي أنتم وأصنامكم التي تعتقدون أنّها تضرّ وتنفع فإنّها لا تضرّ ولا تنفع (ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ) ثم لا تمهلون، وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السّلام، وذلك أنّه كان وحيدا في قومه، فما قال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت إلا لثقته بالله عزّ وجلّ وتوكله عليه وهو قوله تعالى: (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ) يعني أنّه فوّض أمره إلى الله"567 وفي تفسير الخازن قال في قوله سبحانه وتعالى: (وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا) يعني بإهلاكهم وعذابهم (نَجَّيْنا هُودا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وذلك أنّ العذاب إذا نزل قد يعم المؤمن والكافر، فلما أنجى الله المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه (وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ) يعني الرّيح التي أهلكت بها عاد وذلك أنّ الله سبحانه وتعالى أرسل على عاد ريحا شديدة غليظة سبع ليال وثمانية أيام حسوما وهي الأيام النحسات؛ فأهلكتهم جميعا وأنجى الله المؤمنين جميعا فلم تضرّهم شيئا، وقيل: المراد بالعذاب الغليظ هو عذاب الآخرة وهذا هو الصحيح ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى أنّه تعالى كما أنجاهم من عذاب الدّنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة، ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظا لأنّه أعظم من عذاب الدنيا (وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ). ولما فرغ من ذكر قصّة عاد خاطب أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم فقال: (وتلك عاد) رده إلى القبيلة وفيه إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنّه قال سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا بها ثم وصف حالهم بقوله تعالى (جحدوا بآيات ربّهم) وهي المعجزات التي أتى بها هود عليه السّلام وعصوا رسله، وهنا جاء التعظيم

567 تفسير الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، 2، ص 489.

لهود عليه السّلام، لأنّ من كذب برسول فقد كذب كلّ الرّسل (وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) ذلك لأنّ السفلة منهم اتبعوا المتمردين، (والعنيد) المعاند الذي لا يقبل الحقّ ولا يتبعه"568.

قال تعالى: {وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرارا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}569 وهنا جاء في تفسير الرّزي، اعْلَمْ أَنَّ هَذَا هُوَ النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ التَّكَالِيفِ الَّتِي ذَكَرَهَا هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَفِي هَذَا الْمَقَامِ دَعَاهُمْ إِلَى الِاسْتِغْفَارِ ثُمَّ إِلَى التَّوْبَةِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: اسْتَغْفِرُوا: أَيْ سَلُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ مَا تَقَدَّمَ مِنْ شِرْكِكُمْ ثُمَّ تُوبُوا مِنْ بَعْدِهِ بِالنَّدَمِ عَلَى ما مضى وبالعزم على أن لا تعدوا إِلَى مِثْلِهِ ثُمَّ إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: (إِنَّكُمْ مَتَى فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فاللَّه تَعَالَى يُكْثِرُ النِّعَمَ عِنْدَكُمْ وَيُقَوِّيكُمْ عَلَى الِانْتِفَاعِ بِتِلْكَ النِّعَمِ) وَهَذَا غَايَةُ مَا يُرَادُ مِنَ السَّعَادَاتِ، فَإِنَّ النِّعَمَ إِنْ لَمْ تَكُنْ حَاصِلَةً تَعَذَّرَ الِانْتِفَاعُ وَإِنْ كَانَتْ حَاصِلَةً، إِلَّا أَنَّ الْحَيَوَانَ قَامَ بِهِ الْمَنْعُ مِنَ الِانْتِفَاعِ بِهَا لَمْ يَحْصُلِ الْمَقْصُودُ أَيْضًا، أَمَّا إِذَا كَثُرَتِ النِّعْمَةُ وَحَصَلَتِ القوّة الْكَامِلَةُ عَلَى الِانْتِفَاعِ بِهَا، فَهَهُنَا تَحْصُلُ غَايَةُ السَّعَادَةِ وَالْبَهْجَةِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: (يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرارا) إِشَارَةٌ إِلَى تَكْثِيرِ النِّعَمِ لِأَنَّ مَادَّةَ حُصُولِ النِّعَمِ هِيَ الْأَمْطَارُ الْمُوَافِقَةُ، وَقَوْلُهُ: (وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلى قُوَّتِكُمْ) إِشَارَةٌ إِلَى كَمَالِ حَالِ الْقُوَى الَّتِي بِهَا يُمْكِنُ الِانْتِفَاعُ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ جَامِعَةٌ فِي الْبِشَارَةِ بِتَحْصِيلِ السّعَادَاتِ وَأَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَيْهَا مُمْتَنِعَةٌ فِي صَرِيحِ الْعَقْلِ، وَيَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَتَأَمَّلَ فِي هَذِهِ اللَّطَائِفِ لِيَعْرِفَ مَا فِي هَذَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ مِنَ الْأَسْرَارِ الْمَخْفِيَّةِ، وَأَمَّا الْمُفَسِّرُونَ فَإِنَّهُمْ قَالُوا الْقَوْمُ كَانُوا مَخْصُوصِينَ فِي

---

568 تفسير الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، 2، ص 490.

569 هود 52.

الدُّنْيا بِنَوْعَيْنِ مِنَ الْكَمَالِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ بَسَاتِينَهُمْ وَمَزَارِعَهُمْ كَانَتْ فِي غَايَةِ الطِّيبِ وَالْبَهْجَةِ570، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: {إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ}571، وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا فِي غَايَةِ القوّة وَالْبَطْشِ وَلِذَلِكَ قَالُوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة}572.

ويخبر الله تعالى عَنْ تَمَرُّدِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ عَلَى هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قالُوا (أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ) وهذه مثل قول الْكُفَّارُ مِنْ قُرَيْشٍ {وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هَذا هُوَ الحقّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ}573. وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا فَصَنَمٌ يُقَالُ له صدا وآخر يقال صَمُودٌ وَآخَرُ يُقَالُ لَهُ الْهَبَاءُ وَلِهَذَا قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ ربّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَيْ قَدْ وَجَبَ عَلَيْكُمْ بمقالتكم هذه من ربّكم رجس قِيلَ هُوَ مَقْلُوبٌ مِنْ رِجْزٍ وَعَنِ ابْنِ عباس معناه سخط وَغَضَبٌ"574.

وعليه فإنّ قول النبي هود لقومه الذين لم يؤمنوا بالله الواحد القهّار: (وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) كان قول شهيد على ما يفعلون من محرّمات، ومع ذلك كان حريصا على أن يؤمنوا؛ فهذه رسالته وهؤلاء قومه، ولهذا قال لهم: (وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) وفي هذا القول لا يوجد عناء ولا استحالة بل التيسير التّام (الاستغفار والتوبة)، ولكنّهم عصوا. وهنا جاءت المغفرة فضيلة أولى، وجاءت التوبة فضيلة ثانية، ولأجل فهم هاتين الفضيلتين كان لزاما علينا معرفة المصدر الذي استمدتا منه.

570 تفسير الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، 18، ص 363.

571 الفجر 7، 8.

572 فصلت 15.

573 الأنفال 32.

574 تفسير ابن كثير ط العلمية، 3، ص 390.

وهنا أقول: استمدّت فضيلة المغفرة من الغفور الغفّار عزّ وجلّ، واستمدت فضيلة التوبة من التوّاب عزّ وجلّ.

ولتلبان ذلك أبحث في هاذين المصدرين.

أوّلا: الغفّار: وهو الله كثير المغفرة وعظيمها، ومن هنا فإنّ النّاظر إلى دور الخليفة في رسالته سواء أكان ظاهرا أو باطنا يجده مبنيا على الحرص في أن ينجح فيما كلف به من الدعوة إلى العزيز الغفّار فيكون شعاره قوله تعالى: {وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الغفّار}575. أي الدعوة إلى عبادة العزيز في انتقامه ممن كفر به، الذي لا يمنعه إذا انتقم من عدوّ له شيء، الغفّار لمن تاب إليه بعد معصيته إياه، لعفوه عنه، فلا يضرّه شيء مع عفوه عنه، فهذا الذي هذه الصفة صفته اعبدوه، فتكون دعوته إلى إتباع طريق النجاة بعبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه فيهم وتحذيرهم من النّار بعدم اتباعه ودعوتهم له بالشرك كما جاء في كتابه العزيز، قال تعالى: {وَتَدْعُونَنِي إِلَى النّار تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ}576 أي: جهل بلا دليل وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الغفّار الذي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، وإلى النظر إلى هذا الكون وما فيه من نعم لا تحصى ولا يكون العمل بخلاف طاعته سبحانه فقد قال تعالى: {وَآَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}577. فقوله: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا) يقصد الكثرة والوفرة الزائدة عن الحاجات المتنوعة والمتعددة والمتطورة ويخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب: "إنّ حقّ الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإنّ نعم الله أكثر من أن

575 غافر 42.

576 غافر 42.

577 إبراهيم 34.

يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين"578. ولذا فمن يهجر الذنوب وينكب على التقوى يجد له الغفّار مخرج من كل ضائقة، ويره من آياته فضل كبير، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}579، فإنه يجد الله ولا أحد غيره ليغفر ذنوبه، حيث لا أحد قادر على ذلك إلا هو جلّ جلاله، ولذا مع أنّ لكلّ معصية عقاب إلا أنّ الذي يفرض العقاب للمعاصي يُقر المغفرة مكفرة عن الذنوب دون الشرك به، ودون إصرار على معصية، فقوله تعالى: (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) أي ولم يثبتوا ويعزموا على ما فعلوا. "وقال مجاهد: أي ولم يمضوا. والإصرار هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه. وقال قتادة: "الإصرار الثبوت على المعاصي"580 وقيل: الإصرار هو أن ينوي أن يتوب فإذا نوى التوبة النصوح خرج عن الإصرار. وروي عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: (لا توبة مع إصرار)27. وفي ذلك قال العلماء: "الباعث على التوبة وحل الإصرار إدامة الفكر في كتاب الله العزيز الغفّار، وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنّة ووعد به المطيعين، وما وصفه من عذاب النّار وتهدد به العاصين، ودام على ذلك حتى قوي خوفه ورجاؤه فدعا الله رغبا ورهبا، والرغبة والرهبة ثمرة الخوف والرجاء، يخاف من العقاب ويرجو الثواب"581. هكذا حال الخليفة فهو الطائع لله تعالى وبطاعته له جلّ جلاله ينال راضاه ومغفرته، وفي مقابل هذا الحال يكون حال العصاة كما يقولون كمن حاله بين المطرقة والسندان

578 تفسير ابن كثير، ج 4، ص 511.

579 آل عمران 135.

580 تفسير القرطبي، ج 4، ص211.

581 تفسير القرطبي، ج 4، ص211.

وأكثر شدة، ولن تفرج الشدة عنهم إلا بالرجوع إليه بالطاعة والاستغفار والتوبة من الذنوب، حينها يجدونه غفار شكور. فالإنسان لا يتفكر في وعد الله ووعيده إلا بتنبيهه، فإذا نظر العبد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه فوجدها مشحونة بذنوب اكتسبها وسيئات اقترفها، وانبعث منه الندم على ما فرط، وترك مثل ما سبق مخافة عقوبة الله تعالى صدق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك كان مصرا على المعصية وملازما لأسباب الهلكة.

وفي قوله تعالى: (وهم يعلمون) أي هم على دراية بما فعلوا وعملوا من سيئات أو حسنات ولهذا فهم لم يكونوا مغيبين عن ذلك، لهم عيون يبصرون بها وأذان يسمعون بها، والسُنُ ينطقون بها وعقول يفكرون بها، فكيف إذن لا يعلمون؟ العلم بما حدث يعرف من قام به، ويعلمه من شهد عليه. وفي هذا الأمر هم يعلمون بما أمر الله حيث كل في كتاب محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مصداقا لقوله تعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ ربّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ}582 ولذلك فإن تابوا تاب الله عليهم وإن كفروا فعليهم كفرهم وما ربّك بظلام للعبيد.

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلّم فيما يحكي عن ربّه عزّ وجلّ قال: "أذنب عبد ذنبا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا فعلم أنّ له ربّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربّ اغفر لي ذنبي فذكر مثله مرتين، وفي آخره: اعمل ما شئت فقد غفرت لك"583 وفيه دليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب، لأن التوبة الأولى طاعة وقد انقضت

582 فصلت، 42، 43.

583 أخرجه مسلم في صحيحة، ج13، ص321. تفسير القرطبي، ج 4، ص 212.

وصحت، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثاني إلى توبة أخرى مستأنفة، والعود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه، لأنه أضاف إلى الذنب نقض التوبة، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها، لأنه أضاف إليها ملازمة الإلحاح بباب الغفّار الكريم، وأنه لا غافر للذنوب سواه. قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيم وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ}584. المقصود بالمتقين هم الخلفاء الذين كانوا على ما أرادهم الله عليه من أقوال وأفعال وإيمان تام به واحد أحد لا شريك له في الملك والأمر. وآخر الكلام خبر عن حال المخاطب بأنه مغفور له ما سلف من ذنبه، ومحفوظ إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه. ودلت الآية والحديث على عظيم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه، قال صلّى الله عليه وسلّم: "إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه"585. والذنوب التي يتاب منها إما كفر أو غيره، فتوبة الكافر إيمانه مع ندمه على ما سلف من كفره، ولذا فإن حقّوق الآدميين فلابدّ من إيصالها إلى مستحقّيها، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسار فعفو الله مأمول، وفضله مبذول، فكم ضمن من التبعات وبدل من السيئات بالحسنات. (ألا هو العزيز الغفّار) (ألا) تنبيه أي تنبهوا فإنّي أنا (العزيز) الغالب (الغفّار) الساتر لذنوب خلقه برحمته586. قال تعالى: {وَادْعُوهُ خَوْفا وَطَمَعا إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}587.

584 الحجر 45 . 51.

585 صحيح البخاري، ج9، ص148.

586 تفسير القرطبي، ج 15، ص 235.

587 الأعراف 56.

فما دام العبدُ يُلحُّ في الدُّعاء، ويَطمعُ في الإجابة من غير قطع الرّجاء، فهو قريبٌ من الإجابة، القاعدة تقول: (مَنْ أَدمن قرعَ الباب، يُوشك أنْ يُفتح له).

ومن أهمِّ ما يسألُ الخليفة ربّه مغفرةُ ذنوبه، أو ما يستلزم ذلك كالنجاة من النّار، ودخول الجنّة، وقد قال النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: "حولَها نُدنْدِن"588 يعني: حول سؤال الجنّة والنجاة من النّار589. وقال أبو مسلم الخَولاني: "ما عَرَضت لي دعوةٌ فذكرتُ النّار إلا صرفتُها إلى الاستعاذة منها"590.

ومن رحمة الله تعالى بالخليفة أنَّ الخليفة يدعوه بحاجةٍ من الدنيا، فيصرفها عنه، ويعوِّضه خيرا منها، إما أنْ يَصرِفَ عنه بذلك سوءا، أو أنْ يدَّخِرَها له في الآخرة، أو يَغفِر له بها ذنبا، ولأنه غفَّار فهو رحيم بمن آمن به واهتدى إلى الحقّ سبيلا. وسبيل الحقّ يحتوي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ما يفسده المفسدون في الأرض، وتقوى الله ومخافته في كل أمر.

وعن أبي سعيدٍ، عن النَّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: "ما مِنْ مُسلمٍ يَدعو بدعوةٍ ليس له فيها إثمٌ أو قطيعةُ رحمٍ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاثٍ: إما أنْ يُعجِّلَ له دعوته، وإما أنْ يدَّخرها له في الآخرة، وإما أنْ يكشِفَ عنه من السُّوءِ مثلها "، قالوا: إذا نُكثر؟ قال: "الله أكثرُ"591. وبكلِّ حالٍ، فالإلحاحُ بالدعاء بالمغفرة مع رجاء الله تعالى موجبٌ للمغفرة. وهذا من طبيعة الخلفاء المستغفرين الذين يعرفون الله حقّ المعرفة فيمارسون حقّوقهم

588 أخرجه ابن ماجه 910. و3847.، وابن حبان 868..

589 النهاية، ج2، ص137.

590 جامع العلوم والحكم، ج 42، ص5.

591 مسند الإمام أحمد، ج3، ص18. و" صحيح الحاكم، ج1، ص493.

بإرادة دون خوف من أحد إلا منه جلّ جلاله، ويؤدون واجباتهم بكل حرية طاعة لعبادة الله وحده لا شريك له، ويحمْلون مسؤولياتهم ومسؤوليات من لهم علاقة بهم دون خوف إلا منه عزّ وجلّ، ولذا فهم المستخلفون على الطاعة والشهادة بالحقّ ولا طاعة لهم في غير ذلك.

أسباب المغفرة:

السبب الأوّل:

من أعظم أسباب المغفرة أنَّ العبد إذا أذنب ذنبا لم يرج مغفرته من غير ربّه، ويعلم أنه لا يغفر الذنوبَ ويأخذ بها غيرُه، فعن النَّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: "إذا دعا أَحدُكم فليُعظِم الرَّغبَةَ، فإنَّ الله لا يَتعاظَمهُ شيءٌ"592. فذنوب العباد وإنْ عظُمَت فإنَّ عفو الله ومغفرته أعظم منها وأعظم، فهي صغيرةٌ في جنب عفوِ الله ومغفرته. وعن جابر أنَّ رجلا جاء إلى النَّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم يقولُ: واذنوباه، واذنوباه، مرَّتين أو ثلاثا، فقال له النَّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم:" قل: اللهمَّ مغفرتُك أوسَعُ من ذنوبي، ورحمتُك أرجى عندي من عملي"، فقالها، ثم قال له: عُدْ، فعاد، ثم قال له: عُدْ، فعاد، فقال له: "قُمْ، فقد غفر الله لك"593. وفي هذا يقول بعضهم:

يا كَبير الذَّنب عفوُ اللَّه مِن ذنبك أكبر..... أعظَمُ الأشياء في جَنب عفوِ الله يَصغرُ594

السبب الثاني:

طلب الحفظ: يعتبر الاستغفار مفتاح خير للدخول مع أبواب الحفظ، وهو إعلان رجعة من ارتكاب خطايا أو أقوال خطايا، وبهذا يعد الاستغفار

592 صحيح مسلم، ج8، ص64، 2679.

593 المستدرك، ج1، ص543 - 544، جامع العلوم والحكم، ج 42، ص7.

594 ديوان أبي نواس، ص620.جامع العلوم والحكم، ج 42، ص 8.

عودة إلى الصواب، أي عودة عن انحراف وتخلي عنه، بعد مقارنة مع الموجب المفضل مع توفر النية المكفّرة عن الخطأ أو الذنب، ولأنّ النية هي المفتاح الممكّن من القبول والرحمة فإن الاستغفار عن الكافرين لا يفيد إن لم يهتدوا للتي هي أحسن وأقوم ويوحدوه واحد أحد لا شريك له. قال تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}595. ولهذا قلنا الاستغفار هو مفاتح المغفرة المحقّقة للسترة، أي السترة من الذنوب والخطايا. عَنْ النَّبِيِّ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم قَالَ: "لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمْ السَّمَاءَ ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ عَلَيْكُمْ". والاستغفارُ: طلبُ المغفرة، والمغفرة: هي وقاية شرِّ الذنوب مع سترها596. وقد كثر في القرآن ذكرُ الاستغفار، فتارةً يؤمر به، كقوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}597، وقوله: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}598. وتارةً يمدحُ أهلَه، كقوله: {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ}599، وقوله: {وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}600، وقوله: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ}601. هذه الآيات الكريمة هي التي يعكف الخليفة على التمسك بأفعالها وأعمالها، ويدعوه بها غفارا لكل ذنب، وهي مفاتيح الإجابة للعبد الصالح المطيع لله تعالى. ولأن الله يغفر لمن استغفره، قال تعالى: {وَمَنْ

595 التوبة 80.

596 سنن ابن ماجه، ج 12، ص 299.

597 البقرة 199.

598 هود 3.

599 آل عمران 17.

600 الذاريات 18.

601 آل عمران 135.

يَعْمَلْ سُوءا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورا رَحِيما}602.
وكثيرا ما يُقرن الاستغفارُ بذكر التوبة، فيكون الاستغفارُ حينئذٍ عبارةً عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلوب والجوارح603. وقد يفرد تعالى ذكره الاستغفار، ويُرتب عليه المغفرة، فقد قيل: إنَّه أريد به الاستغفارُ المقترن بالتوبة، وقيل: إنَّ نصوص الاستغفار المفردة كلّها مطلقة تُقيَّدُ بما ذكر في الآية 135 التي سبق ورودها من سورة آل عمران. التي وعد الله فيها المغفرة لمن استغفره من ذنوبه ولم يُصر على فعله، فتُحْمَلُ النُّصوص المطلقة في الاستغفار كلّها على هذا المقيد، ومجرَّدُ قولِ القائل: اللهمَّ اغفر لي، طلبٌ منه للمغفرة ودعاءٌ بها، فيكون حكمه حكمَ سائرِ الدعاء، فإنْ شاء الله أجابه وغفر لصاحبه، لاسيما إذا خرج عن قلبٍ منكسرٍ بالذنب أو صادف ساعةً من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصلوات55. ويُروى عن لُقمان عليه الصّلاة والسّلام أنَّه قال لابنه: "يا بنيَّ عَوِّدْ لسانك: اللهمَّ اغفر لي، فإنَّ لله ساعاتٍ لا يردُّ فيها سائلا"604.

وقال الحسن: "أكثِروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طُرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم أينما كُنتم، فإنّكم ما تدرون متى تنْزل المغفرة"605. وعن مُغيث بن سُميٍّ، قال: "بينما رجلٌ خبيثٌ، فتذكر يوما، فقال: اللهمَّ غُفرانَك، اللهمَّ غُفرانك، اللهمَّ غُفرانك، ثم مات، فغُفِر له"606. ولهذا فهو الغفّار الودود الرّحمن الرّحيم.

---

602 النساء 110.

603 جامع العلوم والحكم، ج 42، ص8.

55 جامع العلوم والحكم، ج 42، ص 9.

604 نوادر الأصول لحكيم الترمذي، 2ج، ص294.

605 جامع العلوم والحكم، ج 42، ص 9.

606 الحلية لأبي نعيم، ج6، ص68.

وأمّا استغفارُ اللسان مع إصرار القلب على الذنب، فهو دُعاء مجرَّد إنْ شاء الله أجابه، وإنْ شاء ردَّه. وقد يكون الإصرار مانعا من الإجابة. فالاستغفارُ التامُّ الموجبُ للمغفرة: هو ما قارن عدمَ الإصرار، كما مدح الله أهله، ووعدهم المغفرة، قال بعض العارفين: "من لم يكن ثمرةُ استغفاره تصحيح توبته، فهو كاذب في استغفاره"607. وكان بعضُهم يقول:" استغفارُنا هذا يحتاج إلى استغفارٍ كثير"، فأفضل الاستغفار ما اقترن به تركُ الإصرار، وإنْ قال بلسانه: أستغفر الله وهو غيرُ مقلع بقلبه، فهو داعٍ لله بالمغفرة، كما يقول: اللهمَّ اغفر لي، وهو حسن وقد يُرجى له الإجابة، وأما من قال: توبةُ الكذابين، فمرادُه أنَّه ليس بتوبة، كما يعتقده بعضُ النّاس، وهذا حقّ، فإنَّ التَّوبةَ لا تكون مَعَ الإصرار608. وإن قال: أستغفر الله وأتوبُ إليه فله حالتان:

إحداهما: أن يكونَ مصرّا بقلبه على المعصية، فهذا كاذب في قوله:" وأتوب إليه " لأنه غيرُ تائبٍ، فلا يجوزُ له أن يخبر عن نفسه بأنَّه تائبٌ وهو غير تائب.

والثانية: أنْ يكون مقلعا عن المعصية بقلبه، فاختلف النّاس في جوازِ قوله: وأتوب إليه، فكرهه طائفةٌ من السَّلف609، وقال جمهورُ العلماء بجواز أنْ يقول التائب: أتوبُ إلى الله، وأنْ يُعاهِدَ العبدُ ربّه على أنْ لا يعود إلى المعصية، فإنَّ العزم على ذلك واجبٌ عليه، فهو مخبر بما عزم عليه في الحال، لهذا قال: "ما أصرَّ من استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرة "610.

607 جامع العلوم والحكم، ج 42، ص 11.

608 جامع العلوم والحكم، ج 42، ص 12.

609 المصدر السابق، ص12.

610 سنن أبي داود، ج4، ص 310.

الاستغفار نعمة أنعم بها الله على عباده وهو نتاج اعتراف إذا ما قيل بنية صافية كانت له الاستجابة من الغفّار المطلق جلّ جلاله. ومن المفضل في الاستغفار التيقن بأنه هو عزّ وجلّ صاحب القول الفصل، وأنْ يبدأ الخليفة بالثَّناء على ربّه الغفّار الودود، ثم يثني بالاعتراف بذنبه جهارا نهارا حيث لا تخفى عنه خافية في الليل ولا في النهار سواء كانت منطوقة أو منوي بها ومكتومة في الصدور، ثم يسأل الله المغفرة فهو سميع بصير ومجيب الدعاء مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}611.

السبب الثالث:

التوحيدُ، وهو السببُ الأعظم، فمن فقده، فَقَدَ المغفرة، ومن جاء به، فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة، قال تعالى: {إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}612، فمن جاء مع التوحيد بقُراب الأرض وهو ملؤها أو ما يُقاربّ ملؤها خطايا، لقيه وفقا لمشيئته تعالى بقُرابها مغفرة، فإنْ شاء غَفَرَ، وإنْ شاء أخذ العبد بذنوبه، ثم كان عاقبته أنْ لا يُخلَّد في النّار، بل يخرج منها، ثم يدخل الجنّة. قال بعضُهم: الموحِّد لا يُلقى في النّار كما يُلقى الكفار، ولا يَلقى فيها ما يَلقى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار، فإنْ كمُلَ توحيدُ العبد وإخلاصُه لله فيه، وقام بشروطه كلِّها بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عندَ الموت، أوجبَ ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلِّها، ومنعه من دخول النّار بالكلية. فمن تحقّق بكلمة التوحيد قَلبُه، أخرجت منه كلَّ ما سوى الله محبةً وتعظيما وإجلالا ومهابةً، وخشيةً، ورجاءً وتوكُّلا، وحينئذ تُحْرَقُ ذنوبه وخطاياه كلُّها ولو كانت مِثلَ زبد البحر، وربّما قلبتها حسناتٍ، فإنَّ هذا

611 البقرة، 186.

612 النساء 48.

التوحيدَ هو الإكسيرُ الأعظمُ، فلو وضع ذرَّة منها على جبالِ الذنوب والخطايا، لقلبها حسناتٍ ولهذا فهو وحده غفار الذنوب613.

قال تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}614. بطبيعة الحال لو لم يكن المسيء أو مرتكب السيئات والخطايا جاهلا بأمره وأمر ربّه جلّ جلاله، وأمر الدين الذي ارتضاه الله للعباد، ما كانت له التوبة، ولهذا حال الجاهل بالأمر أخف من حال العالم به ويعمل السوء.

ثم يتوبون من قريب: أي أنّ زمن الرجوع عن الخطايا والسيئات ليس ببعيد، فالمستغفر لم ينس ما ارتكبه من ذنب ويعلم به ويدركه جيدا ويدرك الأمر الذي يخلصه منه وهو الاستغفار فيقدم على فعله فيفعله وينال التوبة. قال تعالى {قل متاع الدنيا قليل} فعمر الدنيا قليل قريب الانقضاء فما ظنك بعمر فرد ومن تبعيضه أي يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمى ما بين وجود المعصية وبين حضور الموت زمانا قريبا ففي أي جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب. فأولئك يتوب الله عليهم: بقبول توبتهم، وكان الله عليما، بخلقه فيعلم إخلاصهم في التوبة وحكيما في صنعه والحكيم لا يعاقب التائب. فعلى الخليفة المؤمن أن يتدارك الزلة بالتوبة والاستغفار ويسارع في الرجوع الى الملك الغفّار، ويدعو المستخلفين لذلك بتوجههم إلى طريق الاستغفار والتوبة النصوحة ليكونوا من المقبولين في الدارين. رُوِيَ أن جبريل عليه السلام أتى سيدنا محمد عند موته فقال: "يا محمد الرّب يقرئك السلام، ويقول من تاب قبل موته بجمعة قبلت توبته"، قال صلّى الله عليه وسلّم:" الجمعة كثيرة"، فذهب، ثم رجع، وقال: قال: "الله تعالى من تاب قبل موته بساعة قبلت توبته"، فقال: "الساعة كثيرة"

---

613 مسند الإمام أحمد، ج 6، ص425.

614 النساء 17.

فذهب ثم رجع، وقال: "إنّ الله يقرئك السلام، ويقول: إن كان هذا كثيرا فلو بلغ روحه الحلق ولم يمكنه الاعتذار بلسانه واستحيى مني وندم بقلبه غفرت له ولا أبالي"، قال صلّى الله عليه وسلّم: "إنّ الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر"615. قبل أن يبلغ روحه الحلقوم وعند ذلك يعاين ما يصير إليه من رحمة أو هوان ولا ينفع حينئذ توبة ولا إيمان، فالتوبة مبسوطة للعبد يعاين قابض الأرواح وذلك عند غرغرته بالروح وإنما يغرغر به إذا قطع الوتين فشخص من الصدر الى الحلقوم فعندها المعاينة وعندها حضور الموت فيجب على الخليفة أن يتوب قبل المعاينة والغرغرة وهو معنى قوله تعالى: (ثم يتوبون من قريب).

والتوبة فرض على المؤمنين ولها سبعة شروط:

الشرط الأول: الاعتراف بالذنب.

الشرط الثاني: الندم بالقلب.

الشرط الثالث: ترك المعصية.

الشرط الرابع: العزم على ألا يعود الى مثلها.

الشرط الخامس: إعلان الطاعة والتمسك بالتوبة.

الشرط السادس: تجنب الخطايا.

الشرط السابع: الإقدام على القول الحقّ والفعل الحقّ.

خاصية الاسم الغفّار:

615 بغية الحارث، ج1، ص80، سنن ابن ماجه، ج12، ص304.

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب"616. هذا الحديث موجه للخليفة، فمن يطيع رسول الله فقد أطاع الله تعالى، ولأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هو مستخلف من عند الله اصطفاء، ورسول الله يوصي المستخلفين من بعده بالاستغفار، الذي يقصد به ربّط العبد بخالقه، والرجوع إليه في كل أمر وكل حين واحد أحد لا شريك له، لذا فإن الاستغفار اعتراف ظاهر بالقول وباطن بالقلب، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فلن يجد لغير الله سبيلا.

قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}617. بموجب هذه الآية الكريمة فإنّ طاعة الرّسل صلوات الله عليهم جميعا واجبة، للأسباب الآتية:

السبب الأول: طاعة الله.

السبب الثاني: طاعة أمر الله.

السبب الثالث طاعة رسول الله.

ولأن رسول الله خليفة مصطفى من عند الغفّار المطلق فهو يملك الاستغفار لمن يتوب ويسلم على يديه. أي من يستغفر أمام رسول الله يُقبل استغفاره من عند الله تعالى وكأن الاستغفار أمامه ساعة استجابة والحمد لله ربّ العالمين.

---

616 سنن أبي داود، ج4، ص314.

617 النساء، 64.

بموجب هذه الآية فإن طاعة الخليفة واجبة في غير معصية الله؛ لأن من أطاع الرّسول فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}618. أي فبايعهن على ما ذكر وما لم يذكر لوضوح أمره وظهور أصالته في المبايعة من الصلاة والزكاة وسائر أركان الدين وشعائر الإسلام أي بايعهن إذا بايعنك بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء فإن المبايعة من جهة الرّسول هو الوعد والثواب ومن جهة الآخر التزام طاعته، وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن على المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهن إليها، واستكمالا لموجبات الخلافة فقد أمر الله خليفته بقوله: (واستغفر لهن الله) وذلك لأن المستغفر يعلم عاقبة ما لم يعلمه المستغفر من أجله. ولهذا من يدرك العاقبة السلبية لا يقدم على الأفعال المؤدية إليها، وهنا يكون الجهل بالشيء أو الظن به يضعف المستوى اليقيني للعباد، ممّا يجعل الخليفة المتيقن (المؤمن) يستغفر لأخيه الذي لم يعلم بعد العاقبة هي كما هي.

والاستغفار طلب المغفرة للذنوب والستر للعيوب (إن الله غفور رحيم) أي أن الله مسبقا يعلن أنه غفور، فمن تاب إليه يجد الغفور برحمته غفار لكل ذنب. ولذا فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيده أمر المغفرة ومفوض به من عند الغفّار المطلق، فمن جاءه مبايع فغفور له، ولأن هذه الآية جاءت على مبايعة النسوة لرسول الله على أن لا يشركن ويسرقن ولا يزنين الآية: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ

618 الممتحنة 12.

أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فيغفر لهن ويرحمهن إذا وفين بما بايعن عليه.

لذا جعل قلب العبد محلا ومعدنا لمعرفته ومحبته فعلى الخليفة أن يطهره عن لوث التعلق بما سوى الله فإن الله تعالى لطف به بوجود القلب في جوفه ووصف نفسه بأنه لطيف خبير مطلع على ما في الباطن فإذا كان هو المنظر الإلهي وجب تخليته عن الأفكار والأغيار وتحليته بأنواع المعارف والعلوم والأسرار وتجليته بتجلّى الله الملك العزيز الغفّار بوجوه أسمائه وصفاته بل بعين ذاته.

وحظ الخليفة منه أن يستر من مستخلفيه ما يجب أن يستر منه ولا يفشى منه إلا أحسن ما كان فيه ويتجاوز عما يندر عنه يكافئ المسيء إليه المخطئ في حقّه بالصفح عنه والأنعام عليه نسأل الله سبحانه أن يجعلنا متخلقين بأخلاق خلفائه الكريمة ومتصفين بصفاتهم العظيمة إنه هو الغفور الرّحيم. ونسألك يا ربّنا أن تعفو عنا بأن تمحو عنا ما ألممنا به من ذنوب وتتجاوز عنها، وأن تغفر لنا سيئاتنا بأن تسترها ولا تفضحنا بإظهارها فأنت وحدك الغفّار الستار. والخليفة من شأنه أن يغرس في النفوس الخلق القويم، وأن يغريها بالاتعاظ والاعتبار حتى تكون ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ويرجع السبب الرئيس لحلول العقوبة لاشتمال السيئات وإحاطتها بالإنسان فيكون قد أحاط نفسه بالخطايا والآثام فقد قال تعالى في حقّ مرتكبها: {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}619. قال صاحب الكشاف: (بلى) إثبات لما بعد حرف النفي لقولهم وهو قوله تعالى: {لَن تَمَسَّنَا النّار}620، أي بلى

619 البقرة 81.

620 البقرة 80.

تمسكم أبدا بدليل قوله: (هُمْ فِيهَا خالدون). أما السيئة فإنها تتناول جميع المعاصي. قال تعالى: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}621، قال تعالى: {مَن يَعْمَلْ سُوءا يُجْزَ بِهِ}622. إنه الأمر الطبيعي أن من يعمل سوء يجازي به، ومن يفعل خير يجازي به، وذلك لأن الله لم يكن ظلاما للعبيد، ولكن بما عملت أيدي العباد يكون العقاب إن لم تكن المغفرة. وفي أمر السترة والإحاطة أمران:

أحدهما: أنّ المحيط يستر المحاط به والكبيرة لكونها محيطة لثواب الطاعات كالساترة لتلك الطاعات، فكانت المشابهة حاصلة من هذه الجهة.

والثاني: أنّ الكبيرة إذا أحبطت ثواب الطاعات فكأنها استولت على تلك الطاعات وأحاطت بها كما يحيط عسكر العدو بالإنسان، بحيث لا يتمكن الإنسان من التخلص منه، فكأنه تعالى قال: بلى من كسب كبيرة وأحاطت كبيرته بطاعاته فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون، فإن قيل: هذه الآية وردت في حقّ اليهود، قلنا: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، هذا هو الوجه الذي استدلت المعتزلة به في إثبات الوعيد لأصحاب الكبائر623.

وبعد هذا التفصيل في مسألة صاحب الكبيرة فإن هناك سؤال يُطرح فيما يتعلق بصاحب الكبيرة: هل للخليفة أن ينتقم منه؟ للإجابة على هذا السؤال نرجع إلى تفسير قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}624. قال الإمام الرازي: في قوله تعالى: (واستغفره) في هذه العبارة وجوه:

621 الشورى 40.

622 النساء 123.

623 تفسير الرازي، ج 2، ص 176.

624 النصر 3.

أحدها: لعله عليه السلام كان يتمنى أن ينتقم ممن آذاه، ويسأل الله أن ينصره، فلما سمع: (إِذَا جَاء نَصْرُ الله) استبشر، لكن لو قرن بهذه البشارة شرط ألا ينتقم لتنغصت عليه تلك البشارة، فذكر لفظ النّاس وأنهم يدخلون في دين الله وأمره بأن يستغفر للداخلين لكن من المعلوم أن الاستغفار لمن لا ذنب له لا يحسن فعلم النبي صلّى الله عليه وسلّم بهذا الطريق أنه تعالى ندبه إلى العفو وترك الانتقام، وهذا هو سلوك الخليفة الحقّ؛ لأنّه لما أمره بأن يطلب لهم المغفرة فكيف يحسن منه أن يشتغل بالانتقام منهم؟ ثم ختم بلفظ التوّاب كأنّه يقول: إنّ قبول التوبة من اختصاص الغفّار المطلق ومن اختصاص من أذن له بذلك وهو الرّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا فالمغفرة مكرمة من الله تعالى على عباده الصالحين المستخلفين في الأرض فله الحمد والشكر على كل مغفرة ومكرمة، واستغفر الله من كل ذنب أو خطيئة والحمد لله ربّ العالمين الذي له الملك وهو على كل شيء قدير.

الله سبحانه وتعالى عادل في ملكه ويتوب على عباده فيقبل التوبة من التائب أينما كان ويكون، وهكذا قبل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه توبة المكي والمدني دون أن يفرق بينهما، فحين قالوا له: أخ كريم وابن أخ كريم قال لهم: {لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ اليوم يَغْفِرُ الله لَكُمْ}625. أي وكأنه يقول: قد أمرني الله تعالى أن استغفر لكم، فلكم استغفر الله حتى يتوب عليكم ويرحمكم بواسع فضله.

وثانيها: أن قوله: (استغفره) إما أن يكون المراد واستغفر الله لنفسك أو لأمتك، فإن كان المراد هو الأول فهو يتفرع على أنه هل صدرت عنه معصية أم لا؟ فمن قال: صدرت المعصية عنه ذكر في فائدة الاستغفار وجوها:

---

625 يوسف 92.

أحدها: أنه لا يمتنع أن تكون كثرة الاستغفار منه تؤثر في جعل ذنبه صغيرة.

وثانيها: لزمه الاستغفار لينجو عن ذنب الإصرار.

وثالثها: لزمه الاستغفار ليصير الاستغفار جابرا للذنب الصغير فلا ينتقض من ثوابه شيء أصلا، وأما من قال: ما صدرت المعصية عنه فذكر في هذا الاستغفار وجوها:

أحدها: أن استغفار النبي جار مجرى التسبيح وذلك لأنه وصف الله بأنه غفار.

وثانيها: تعبده الله بذلك ليقتدي به الخليفة من بعده إذ لا يأمن كل مكلف عن تقصير يقع منه في عبادته، وفيه تنبيه على أنه مع شدة اجتهاده وعصمته ما كان يستغني عن الاستغفار فكيف من دونه.

وثالثها: أن الاستغفار كان عن ترك الأفضل.

ورابعها: أن الاستغفار كان بسبب أن كل طاعة أتى بها العبد فإذا قابلها بإحسان الرّب وجدها قاصرة عن الوفاء بأداء شكر تلك النعمة، فليستغفر الله لأجل ذلك.

وخامسها: الاستغفار بسبب التقصير الواقع في السلوك لأن السائر إلى الله إذا وصل إلى مقام في العبودية، ثم تجاوز عنه فبعد تجاوزه عنه يرى ذلك المقام قاصرا فيستغفر الله عنه، ولما كانت مراتب السير إلى الله غير متناهية لا جرم كانت مراتب هذا الاستغفار غير متناهية.

وهناك احتمال: وهو أن يكون المراد واستغفره لذنب أمتك فهو أيضا ظاهر؛ لأنه تعالى أمره بالاستغفار لذنب أمته في قوله: {واستغفر لِذَنبِكَ

وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات}626. فههنا لما كثرت الأمة صار ذلك الاستغفار أوجب وأهم، وهكذا إذا قلنا: المراد ههنا أن يستغفر لنفسه ولأمته627.

ومادمنا في هذه الآية فإنه ثمة إشكالية تطرح نفسها، وهو أن التوبة مقدمة على جميع الطاعات، ثم الحمد مقدم على التسبيح، لأن الحمد يكون بسبب الأنعام، والأنعام كما يصدر عن المنزه فقد يصدر عن غيره، فكان ينبغي أن يقع الابتداء بالاستغفار، ثم بعده يذكر الحمد، ثم بعده يذكر التسبيح، فما السبب في أن صار مذكورا على العكس من هذا الترتيب؟ وجوابه من نواحٍ:

أولها: لعله ابتدأ بالأشرف، فالأشرف نازلا إلى الأخس فالأخس، تنبيها على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق.

وثانيها: فيه تنبيه على أن التسبيح والحمد الصادر عن العبد إذا صار مقابلا بجلال الله وعزته صار عين الذنب، فوجب الاستغفار منه.

وثالثها: للتسبيح والحمد إشارة إلى التعظيم لأمر الله، والاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق (الله)، والأول كالصلاة، والثاني كالزكاة، وكما أن الصلاة مقدمة على الزكاة، فكذا ههنا.

وقد يخطر ببال الإنسان هل الآية تدل على أن عليه الصّلاة والسّلام كان يجب عليه الإعلان بالتسبيح والاستغفار؟ وجوابها يكون نعم، وذلك من وجوه:

---

626 محمد 19.

627 تفسير الرازي، ج 17، ص 278.

أحدها: أنه عليه الصّلاة والسّلام كان مأمورا بإبلاغ السورة إلى كل الأمة حتى يبقى نقل القرآن متواترا، وحتى نعلم أنه أحسن القيام بتبليغ الوحي، فوجب عليه الإتيان بالتسبيح والاستغفار على وجه الإظهار ليحصل هذا الغرض.

وثانيها: أنه من جملة المقاصد أن يصير الرّسول قدوة للأمة حتى يفعلوا عند النعمة والمحنة، ما فعله الرّسول من تجديد الشكر والحمد عند تجديد النعمة.

وثالثها: أن الأغلب في الشاهد أن يأتي بالحمد في ابتداء الأمر، فأمر الله رسوله بالحمد والاستغفار دائما، وفي كل حين وأوان ليقع الفرق بينه وبين غيره، ثم قال: واستغفره حين نعيت نفسه إليه لتفعل الأمة عند اقتراب آجالهم مثل ذلك.

وفي الآية سؤلات:

أحدها: وهو أنه قال: (إِنَّهُ كَانَ تَوابًا) على الماضي وحاجتنا إلى قبوله في المستقبل.

وثانيها: قال: غفارا كما قاله: في سورة نوح.

وثالثها: أنه قال: (نَصْرُ الله) وقال: (فِي دِينِ الله) فلم لم يقل: بحمد الله بل قال: (بِحَمْدِ ربّكَ).

والجواب عن الأول من وجوه:

أحدها: أن هذا أبلغ كأنه يقول: ألست أثنيت عليكم بأنكم: خير أمة أخرجت للناس ثم من كان دونكم كنت أقبل توبتهم كاليهود فإنهم بعد ظهور المعجزات العظيمة، وفلق البحر ونتق الجبل، ونزول المن والسلوى عصوا ربّهم. وأتوا بالقبائح، فلما تابوا قبلت توبتهم فإذا كنت قابلا للتوبة ممن دونكم أفلا أقبلها منكم؟

وثانيها: منذ كثير كنت شرعت في قبول توبة العصاة والشروع ملزم على قبول النعمان فكيف في كرم الرّحمن؟

وثالثها: كنت توابا قبل أن آمركم بالاستغفار أفلا أقبل وقد أمرتكم بالاستغفار؟

ورابعها: كأنه إشارة إلى تخفيف جنايتهم أي لستم بأول من جنى وتاب بل هو حرفتي، والجناية مصيبة للجاني628.

والجواب: عن السؤال الثاني من وجوه:

أحدها: لعله خص هذه الأمة بزيادة شرف لأنه لا يقال في صفات العبد غفار، ويقال: تواب إذا كان آتيا بالتوبة، فيقول تعالى: كنت لي سميا من أوّل الأمر أنت مؤمن، وأنا مؤمن، وإن كان المعنى مختلفا فتب حتى تصير سميا لي آخر الأمر، فأنت تواب، وأنا تواب، ثم إنّ التوّاب في حقّ الله، هو أنه تعالى يقبل التوبة كثيرا فنبه على أنه يجب على العبد أن يكون إتيانه كثيرا.

وثانيها: إنّما قيل: توابا لأنّ القائل قد يقول: أستغفر الله وليس بتائب، إن قيل: فقد يقول: أتوب، وليس بتائب، قلنا: فإذا يكون كاذبا، لأن التوبة اسم للرجوع والندم، بخلاف الاستغفار فإنه لا يكون كاذبا فيه، فصار تقدير الكلام، واستغفره بالتوبة، وفيه تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار، وكذا خواتيم الأعمال.

والجواب: عن السؤال الثالث أنه تعالى راعى العدل فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين:

أحدهما: الرّب.

628 تفسير الرازي، ج 17، ص 279.

والثاني: التوّاب.

ولما كانت التربّية تحصل أوّلا والتوّابية آخرا، لا جرم ذكر اسم الرّب أولا واسم التوّاب آخرا629.

وعليه قد يتساءل البعض:

هل يستطيع المؤمن أن يعيش دون أمل أو رجاء في المغفرة؟

من المؤكد أن المؤمن بحاجة للغفران المتكرر والدائم، وهذا هو الأمل الذي يمنع اليأس والقنوط من الولوج إلى قلب المؤمنين، فالإنسان بصفة عامة كثير الزلات والأخطاء لا يخرج من خطأ وإلا ويقع في آخر طبعا مع تفاوت هذه الزلات والأخطاء، فما من إنسان ممنوع عنها أو لا يقع في إحداها، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفًا}630، ولكن التفاوت فيها يأتي بين المسلمين من التالي:

أولا: حجم هذا الخطأ:

هناك الكثير من أنواع وأشكال الأخطاء والذنوب التي من الممكن أن يرتكبها الإنسان عندما يكون ضعيف في نفسه أو عندما يكون على خطوات الشيطان، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس كُلُوا ممّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}631، فخطوات الشيطان لا تقود إلا للهلاك والضلال والخسران الكبير، فإذا سيطر على النفس البشرية جعل منها تابعا أعمى وأصم وأبكم لا يفقه شيء، بأن الشيطان يسلبه نعمة العلم والتفكير والإدراك الصحيح، كما أن الإنسان يفقد كل

629 تفسير الرازي، ج 17، ص 280.

630 النساء 28.

631 البقرة 168، 169.

مقومات الآدمية حين يُلغي علمه وتفكيره ووعيه فلا يتوانى عن القيام بأي فاحشة أو ذنب أو رذيلة من شأنها أن تجعله خاسرا بعصيانه لله تعالى دنياه وآخرته.

ولكن تأثير هذا الشيطان الرجيم يتفاوت بين النّاس، فهناك من يتبعونه دون أدنى وعي أو تفكير أو اعتراض، كالكافرين الذين يشاهدون بأم أعينهم آيات الله في الكون وفي أنفسهم ولكنهم لا يلقون بالا لها، ولا يتلفتون بعقولهم إليها، قال تعالى: {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحقّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آَيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آَيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}632، وقال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}633، فالخالق عزّ وجلّ وهب لنا من الإمكانيات ما تجعلنا مدركين للحقّ وللباطل وترك لنا التخيير، ولكن هناك من يميل إلى اتباع الضلال والباطل فيكفر ويجحد بهذه النعم، وهناك نوع ثاني من البشر من يملكون من الإيمان القدر الذي يردعهم عند ميلهم ميلا مؤقتا وراء الشيطان الرجيم، وهذا النوع من المسلمين المذنبين الذين يقعون في الذنب ثم لا يلبثوا أن يستفيقوا منه، خائفين وراغبين في رضا الغفّار عنهم، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}634، قال تعالى أيضا: {وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ

632 الجاثية 3 . 9.

633 الذاريات 21.

634 النور 5.

بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنَّ ربّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}635، أولئك الفئة هم بحاجة دائمة للغفار المطلق الذي وهب وأنعم عليهم بغفران لما ارتكبوه من ذنوب رحمةً بهم ورأفة كي لا يقنطوا من هذه المغفرة التي وسعت كل شيء، كما جاء في قوله جلّ جلاله: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}636.

إذن هذه الفئة من المسلمين التي تضم عددا كبيرا منهم تسعى دائما للبحث عن الغفّار بعد ارتكابها الذنب والخطأ، فتجده غفارا رحيما بها مشترطا عليها التوبة الصادقة، وهناك الفئة الثالثة من العباد وهم من لا يملك الشيطان أية سلطة عليهم، فقد وصلوا إلى درجة عند خالقهم بما قدموه لا يستطيع معها الشيطان أن يجعلهم تابعين خاسرين، قال تعالى: {قَالَ ربّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ ربّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}637.

إذن فالخطأ له أحجام منها ما يصل الكفر والجحود وهو ما لا يغفره الله تعالى لعباده، لأن الغفّار اشترط في منح مغفرته لمن يستحقّها عدم الإشراك به، فلو أشرك الإنسان به مُنعت عنه مغفرته يوم الدين، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}638، وقال تعالى أيضا: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ

---

635 الأعراف 153.

636 الزمر 53.

637 الحجر 36 ـ 42.

638 النساء 48.

يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنعام وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا}639، أما الفئتين الباقيتين فهما اللتان ترجوان غفران الله دائما، وتطلبه وتسعى خلفه.

فما من مسلم ولو كان كثير الذنوب إلا في زاوية من زوايا قلبه يرقد جزء من محبة اللجوء إلى الله، والحاجة لمغفرته والعفو عنه، لذلك على المسلمين أن يبحثوا عن هذا الجزء الراقد فيهم كي يستطيعوا أن يفيقوا من هذه المفاسد والشرور التي بدأت تغزو مجتمعاتنا المسلمة من جرّاء غفلة المسلمين عن دقائق أمور ديننا ودنيانا.

ثانيا: تأثير هذا الخطأ في نفسه وفيمن حوله:

هناك أنواع من الأخطاء يكون مردودها السيئ على الشخص نفسه أكثر من الآخرين، وهناك من الأخطاء التي يرتكبها المرء يكون مردودها السيئ متكافئ عليه وعلى من حوله، وبالتأكيد كلما زاد ضرر الخطأ وعم وكبر كلما كان الذنب أكبر كانت العقوبة أشد، فمثلا في موضوع الزنا فقد وضع الخالق عزّ وجلّ العقابين في حالات الزنا: قال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَأجلدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}640، وكذلك في أنواع القتل نلاحظ أن لكل نوع

639 النساء 116، 121.

640 النور 2، 3.

عقوبة مفروضة تناسب نوع القتل إذا كان متعمدا أو خطا أو شبه العمد، لأن كل نوع من تلك الأنواع لها تأثيرها المختلف في النفوس ممن حوله.

لذلك فالذنب الصغير الذي يعود بالضرر على صاحبه يختلف عن الذنوب الكبيرة التي تستوجب عقوبة شديدة إذا لم يتم التراجع والتوبة الصادقة عنها.

ثالثا: العوامل المحيطة به:

الإنسان لا يعيش بمفرده في المجتمع، فالمولى عزّ وجلّ جعل الإنسان مخلوق اجتماعي لا يستطيع أن يعيش وحيدا مغتربًا عن باقي البشر، وهذا المجتمع يتدرج بدايةً من الأهل إلى الأقاربّ ثم إلى الأصحاب والجيران وأخيرا إلى من يعملون معه، وبما أن الإنسان مخلوق ضعيف فإنه سريع التأثر بمن حوله، وهذا التأثير إمّا أن يكون سلبي أو إيجابي حسب المؤّثرين فيه، فأحيانا نجد أن أقربّ النّاس للمرء وهما الوالدان يكون لهما تأثيرا سلبيا عليه من خلال الجهل في التعامل معه، أو من خلال نقص الوازع الديني لديهما أو لدى أحدهما، أو لأي سبب آخر، ممّا يؤدّي بهذا الشخص إلى الهروب لزاوية مظلمة في الحياة وهي معاقبة الوالدين على سوء التعامل فيغرق في الضلال والفساد، وأحيانا يكون لعامل سوء اختيار الأصدقاء فيؤثر تأثيرا سلبيا على المرء، إذ أنّه يسير خلفهم دون أن يملك القدرة على تمييز الحسن من الخبيث في أفعالهم، أو أنه يقلّد من حوله في الشر والضياع.

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ – صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم– قَالَ: "إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"641، ولنا في رسول الله – صلّى

641 صحيح مسلم، ج 13، ص73.

الله عليه وسلّم- أسوة حسنة فقد حذّرنا من مخالطة أصدقاء السوء لما في ذلك من نتيجة سيئة تحيق بنا وبمن حولنا.

كذلك معاملة المجتمع ككل معه وطريقة التفاهم المتبعة في المجتمع نفسه والأسلوب الذي ينشأ بين أفراده كلها عوامل من شأنها أن تجعل من الشخص إنسانا مسلما راقيا بفكره وتعامله أو أن تجعله منحرفا لا يسعى إلا للدمار والفساد، ولذلك فقد جعل العادل المطلق الأوضاع التي تم فيها ارتكاب الذنب أساسا لتحديد العقوبة، قال تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[642]، فقد فرّق الغفّار المطلق العلم بالذنب قبل ارتكابه بالجهل به وبعواقبه، وهذا الجهل يأتي أحيانا من تقصير الأهل في إفهام الأبناء ببعض الأمور، أو أحيانا يكون من الجهل بأمور ديننا بالرغم من الفرص المتاحة حاليا التي تجعل من المسلم واعيا عالما بما ينفعه وما يضره.

لذلك ليس العالِمِ بالذنب كالجاهل به، إذ أن العلم بالذنب قبل ارتكابه له عقوبة شديدة إذا لم يتب ويصدق التوبة، ولكنّ الجاهل به فقد يغفر الله له لعدم علمه وفهمه لعواقب ذلك.

رابعا: الزمن الذي يستغرقه للعودة عن الذنب

بما أن المسلمين قد اختلفوا في قبولهم لارتكاب الذنوب والغرق فيها فقد كان لزاما أن يتفاوتوا أيضا في زمن الصحوة التي يحتاجها كل مسلم لأن يفوق من هذه الذنوب، ولهذه الصحوة التي تستحقّ غفران الله تعالى له

642 النساء 17، 18.

عدة عوامل تؤثر في تأخيرها أو تقديمها، مثل الطريقة التي يتبعها الأهل في علاج الخطأ أو الذنب الذي قام به الفرد، وكذلك نظرة المجتمع له فيما بعد، ووجود الأشخاص المتعلمين المثقفين ممّن حوله لكي يأخذوا بيده ويساعدوه في تصويب ما في عقله وقلبه من أفكار هدامة ومدمرة، وهناك أيضا الضمير الذي أوجده الخالق فينا كي يكون القاضي العادل داخل كل نفس بشرية، فهناك من يستمع إليه بأسرع ممّا قد يستمع إليه شخصٌ آخر، وهذا الضمير من شأنه أن يصحّح خطانا إذا استمعنا إليه.

خامسا: مدى صدق التوبة:

قد يتوب الإنسان بعد ارتكابه ذنبا معينا، ثم نجد أنه قد عاد إليه بشكلٍ أكبر، وذلك بعد أن يكون قد عزم على عدم العودة إليه، ولكنه يضعف أحيانا أخرى فيرجع له، لذلك فتكرر الذنب والخطأ تطلب المغفرة المتكررة والمستمرة، ولو أن الغفّار عزّ وجلّ اشترط لنزول مغفرته أن يكون ذنبا واحدا لما كان الأمل في النجاة من الجحيم يراود الكثير من المسلمين العاصين الآن، لأن الذنب الواحد لا يمكن أن يرتكبه عامة المسلمين، أما الذنوب المتكررة فهي موجودة بين المسلمين يشكل كبير جدا، لذلك فالله غفار كثير المغفرة، ولكن لكي نستحقّ مغفرة الغفّار سبحانه وتعالى لابدّ لنا من أن نصدقه أولا في توبتنا، فلا نستسهل الرجوع عنها والعودة للخطأ مع علمنا به، لأنك حين تتوب إلى الله تعالى عن ذنبٍ كنت قد ارتكبته فكأنك تقطع عهدا قد عقدته مع خالقك، فكيف تستسهل قطع العهد؟

لذلك فقد جعل الخالق عزّ وجلّ من شروط قبول التوبة واستحقّاق مغفرته صدق التوبة، فالصدق أساس كل تعامل ناجح، ولا يمكن أن تولد الثقة واليقين إلا بوجود الصدق في كل فعل وقول، لذلك كان نصيب الصادقين من رحمة الله ومحبته وكرمه كبيرا جدا، قال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}643، وقال تعالى أيضا: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}644.

إذن صدق التوبة هو الطريق للوصول إلى استحقّاق المذنب لمغفرة الله بل وتبديل سيئاته حسنات، لأن الله هو الغفّار الذي يحب أن يغفر لعباده ويرحمهم لا أن يعذبهم ويأخذهم بذنوبهم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّار وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}645.

فعلى خليفة الله أن يحفظ نفسه من الزلات والذنوب بما أهداه الخالق من عقل يميّز به الحقّ من الضلال، فنعمة التفكير والتحليل من شأنها أن تصل بالخليفة إلى أعلى مراتب العلم الصحيح الذي يجعله من الفائزين عند الله تعالى، ويجعله ينأي عن الذنوب والخطايا.

وبهذا العقل يصل الخليفة إلى أن يعيش حياته بالشكل الصحيح البعيد عن الأخطاء والذنوب وذلك باتباع الآتي:

ـ اتباع القرآن الكريم:

---

643 المائدة 119، 120.

644 الأحزاب 24.

645 النساء 144 ـ 147.

فالقرآن الكريم هو هداية للبشر أجمعين فهو شامل لكل أساليب الترغيب بالهداية والنجاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {طس تِلْكَ آَيَاتُ الْقرآن وَكِتَابٍ مُبِينٍ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}646، وقال تعالى أيضا: {الم تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}647، فإتباع القرآن هو طريق الحفظ للنفس البشرية من وسوسة الشيطان الرجيم الذي يقود إلى الهلاك، إن في المحافظة على اتباع القرآن الكريم وما جاء فيه لخيرا عظيما، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم قَالَ: "إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القرآن كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ"648، فالتمسك بالقرآن الكريم يحيط الإنسان بالحفظ والحماية من كل رذيلة أو مفسدة، ويجعله قريبا من الخالق عزّ وجلّ مستحقّا لحبه ووده ورحمته ومغفرته.

اتباع سنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

من اتبع سنة رسول الله عليه الصّلاة والسّلام لن يضيع أبدا، لأن من شأن ذلك أن يجعل من المسلم ذو خلقٍ نبيل لاقتدائه بالرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام، الذي ربّاه الله وعلّمه، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}649، فهذه الأخلاق إذا حاول السير عليها أي مسلم فإنه بالتأكيد سوف يصل إلى أقصر الطرق لحب الله، هذا الحب الذي يحفظ المرء من الذنوب والخطايا، لأن من سكن حب الله في قلبه نجا من عذاب الحريق.

---

646 النمل 1، 2.

647 لقمان 1 . 5.

648 موطأ مالك، ج 2، ص 120.

649 القلم 4.

الاقتداء بصحابة رسول الله عليه الصّلاة والسّلام يقوّم من سلوك المؤمن لما يجده في سيرتهم من نقاوة وطهارة وحسن تدبير، ولما في موقفهم من معاني سامية تحمل المؤمن للتحلي بأروع الصفات، وكيف لا يكونوا كذلك وقد عايشوا رسول الله – صلّى الله عليه ويلم- لحظة بلحظة وشربّوا من نبع نصائحه ومواعظه، فتخلّقوا بخلقه الكريم، لذلك فمن اتبع سيرة الصحابة رضوان الله عليهم وسار على نهجهم ما خسر أبدا، فمن شأن ذلك أن يربّي النفس على الصبر على الشهوات التي تؤدّي إلى المفاسد والمهالك، وتقدّم حب الله ورسوله الكريم عليه الصّلاة والسّلام عن أي حب آخر.

لذلك فعلى خليفة الله أن يشربّ من هذه الينابيع ليقي نفسه ارتكاب الذنوب والخطايا، وليكون سدا في وجه الرذائل، فكيف سيؤدّي الأمانة وهو نفسه لا يملك القوّة للسيطرة على نفسه، فكيف سيصلح من كان به الخلل!

وتتجلى في مغفرة الله تعالى رحمته المطلقة التي لا تخفى على أي إنسان مسلم أو كافر، إذ أن الله تعالى يوضّح لنا مدى وده وحبه بالكشف عن رحمته بنا حينما نذنب أو نخطئ، فالمحب يغفر دائما لمحبوبه ويعطي له الفرصة لكي يعود عن ذلك، وبالتالي لابدّ للمحبوب أن يكون حريصا لعدم الوقوع ثانيةً في الأخطاء والزلات خجلا واحتراما لذلك المحب، فكيف إذا كان هذا المحب هو خالقك جلّ جلاله، الذي هو بغنى عنك وليست له حاجة فيك، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}650، فهذا الحب والود ليس لمصلحة أو لمنفعة له عزّ وجلّ، وبالرغم من ذلك فإنه إلى جانب هذا الحب فإنه سبحانه وتعالى قد خص البشر برحمة منه، ونلاحظها متجلية في التالي:

650 فاطر 15 . 17.

تقديم النصيحة والموعظة:

إنّ الخالق عزّ وجلّ منذ بدء الخليقة وضّح طريق الخير من الشر، وجعل الخيار للإنسان أي الطريقين يريد أن يسلك، وقد جعل من الكتب السماوية طريقا وسبيلا واضحا يكشف ما قد يحتار المرء فيه، فكانت المواعظ والنصائح بعدم اتباع طريق الشيطان الذي توعد بتضليل الإنسان بسبب حقّده عليه وكراهيته له، وبالرغم من ذلك نجد أن هذا الإنسان أحيانا يسعى خلفه ويأتمر بأمره، وقد بعث الله تعالى الرّسل والمنذرين لكي يبلّغوا النّاس رسالة ربّهم، ناصحين لهم، قال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}651، وكثير من القصص التي تدل على اعتماد الرّسل والأنبياء طريق النصح والإرشاد لهداية البشر، وهذا بحد ذاته يمثّل رحمة الله بعباده ورأفته بهم، وحرصه عزّ وجلّ على إبعادهم عن طريق الضلال والخسران المبين.

651 الأعراف 74. 79.

وقد قال تعالى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا}652، ففي هذه الآية تصريح برغبة الخالق عزّ وجلّ في إرشاد الخلق للنور والحقّ، فقد بيّن للناس أنه يريد الخير بهم ولكن بعضهم يميل عن الحقّ بالرغم من معرفتهم به بإتباعهم أولياء الشيطان الذين يدعون الخلق للفساد واللهث وراء الشهوات التي لا تدفعنا إلا للهلاك والخسارة في الدنيا والآخرة.

تبديل السيئات حسنات:

من رحمة الغفّار بعباده التائبين منهم، أنه لا يكتفي بغفران الذنب بل يبدّل أحيانا سيئاتهم حسنات، قال تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}653، فيقلب الغفّار سيئاتهم إلى حسنات، أية رحمةٍ أكبر من هذه الرحمة، وأي كرم أشد من هذا الكرم!

وعليه فلا يأس من رحمة الله للتائب الصادق التوبة، الذي يسعى لنيل رضاه بعد أن استحقّ عقابه، ولكنّ الغفّار يعطي للإنسان الذي يمد يده إليه راجيا طامعا أكثر ممّا يتوقع، لأنه الرّحيم الذي تتسع رحمته كل شيء قال تعالى: {يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ}654.

عدم تسجيل الذنب إلا بعد وقوعه:

من رحمة الله بعباده أن لا يتم تسجيل عمل الإنسان السيئ إلا بعد وقوعه فعلا، في حين أننا نجد أن مجرد التفكير أو نية عمل فعل خيّر يقع أجره أي يسجله الخالق على الإنسان وكأنه قام به، فمثلا من كان له نية الحج

652 النساء 27.

653 الفرقان 70، 71.

654 الإنسان 31.

صادقة ومات وهو لم يدركها كتبت له حجا، من غير أن يقوم بها فعلا لأن الله يريد الرحمة بعباده المؤمنين، أما بالنسبة للعمل السيئ أو الذنب فإنه لا يُسجَل في كتاب الإنسان إلا بعد وقوعه فعلا بالرغم من علم العليم المسبق بذلك، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ- صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم قَالَ – " يَقُولُ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أجلي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ"655، فلا يُكتَب الذنب على صاحبه إذا نوى وحسب، بل يجب أن ينفذ ما نوى لكي يكتبه عليه الله تعالى، ولو كان الوضع مختلفا، أي أن تسجل الملائكة نوايانا الشريرة والفاسدة لما بقيَ لأكثر المسلمين أملا في رحمة الله، ولكن الغفّار أخّر تسجيل ما نوى المسلم من شر.

عدم مضاعفة الذنب:

إن الذنب يكتب كما هو فلا يُضَاعف لعشرات أمثاله، كما في الحسنات، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنّة يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ}656، وهذا بابٌ واسع لمعرفة مدى رحمة الغفّار بعباده، فلو تخيلنا مثلا أن كل ذنب يقوم به المسلم يضاعفه له الخالق جلّ جلاله فكيف سيكون ميزان أعمالنا؟

ولكن من رحمته وحبه لمغفرة ذنوبنا وتشجيعه للتوبة واللجوء إليه فقد جعل من الذنب عملا لا يتضاعف العقاب عليه، وجعل بالمقابل الحسنة بعشرة أمثالها، كما جاء في قوله تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ

---

655 صحيح بخاري، ج23، ص20.

656 غافر 40.

جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}657، كم تتجلى في هذه الآية رحمته المطلقة بعباده، وحبه في ترغيب المذنبين في التوبة والعودة للحقّ، إذ أن مغفرته سبحانه وتعالى تسبق عقابه ورحمته تسبق عذابه وهذا كله لأنه الغفّار المطلق الذي لا يترك بابا مقفلا في وجه من يطلبه.

عدم أخذ الإنسان بجريرة غيره:

الحمد لله ربّ العالمين الذي هو ربّنا وخالقنا، فهو الرّحيم بنا بمغفرته المطلقة، فالخالق عزّ وجلّ من حبه للمغفرة ومن باب عدله في مغفرته لم يأخذ أي عبدٍ من عباده بجريرة والده مثلا أو أمه أو أي إنسان يربّطه به صلة، فمثلا إذا جاء الطفل إلى هذه الدنيا عن طريق الزنا بين اثنين، فلا يحمل هذا الطفل جريرة أحد والديه، بارتكابهما هذه الكبيرة التي نهانا عنها المولى عزّ وجلّ، بل أن الله تعالى جعل لكل إنسان حسابه الذي لا يستطيع أحد أن يزيد فيه أو ينقص منه، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}658، وكذلك قوله جلّ جلاله: {ذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ ربّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاس أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}659، وهنا يضع ربّ العالمين الميزان العادل للحساب، فلا يتعدى حدود العقاب العادل لكل إنسان يوم يقوم الحساب.

فعلى خليفة الله أن يكون مدركا لمدى هذه الرحمة، من المسارعين لطلب مغفرته ورضاه، ومن الدائمين على الاقتراب منه عزّ وجلّ، ومن الحريصين

657 الأنعام 160.

658 الأنبياء 47.

659 الزلزلة 1 . 8.

على الابتعاد عن خطوات الشيطان التي ترسل الإنسان إلى دار العذاب، فالخليفة عليه من العمل الكثير في الأرض، فالتبشير بكل تلك الأبواب المفتوحة لقبول المغفرة أوّل أعمال الخليفة في الأرض، كي لا يبقى يائسا أو قانطا من هذه المغفرة، وكذلك عليه ترغيب من حوله من المسلمين في اللجوء للتوبة الصادقة، وعدم السماح للركض وراء الرغبات والشهوات، بمثل هذه النفوس المليئة بالأمل والحب والرغبة في المحاولة سوف نصل إلى نتيجة مذهلة في المجتمعات المسلمة من شجاعة نفسية وعقول متفتحة وتوكل على الله تعالى.

وليكن خليفة الله متصفا بصفات الله تعالى التي من ضمنها المغفرة، فلابدّ أن يكون في قلبه من الرحمة ما يجعله غافرا للإساءة، كما جاء في قوله تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ}660، طالبا بهذه المغفرة أجرا كبيرا من عند المولى عزّ وجلّ كما جاء في قوله تعالى: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}661، فهذه الآية توضّح أهمية المغفرة التي تتطلب الصبر والتريث، فلا يمكن أن تغفر وأن دائم التعجل والسرعة، فالإنسان العجول دائم الزلل والخطأ فتعجله يجعله منتقما ومحبا للرد والعقاب السريع، أما من شروط أن تغفر لمن أساء إليك فهو الصبر الذي يجعلك تغفر وتسامح كما أرادك الخالق أن تكون، وبالطبع فإن ذلك

660 الشورى 36 ـ 41.

661 الشورى 42.

الأمر ليس بمتناول جميع البشر، لأنه يتطلب درجة عالية من الورع وتقوى الله سبحانه وتعالى وحب الاتصاف بصفاته.

وصف الغفران هي نعمة أودعها الخالق جلّ جلاله في قلوب من شاء من عباده الذين رضي عنهم وأحبهم فغفر لهم وجعلهم من الذين يغفرون السيئة ويحفظون الحسنة ويدعون للغفران بين المسلمين، قال تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}662.

ولأنّ الغفّار هو القادر لذا فهو المستطيع أن يجازي أو يعاقب، ولهذا فالمولى غفور لمن يشاء، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}663، وقوله تعالى أيضا: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}664، فمشيئة المولى عزّ وجلّ في المغفرة لمن أراد تنبع من قدرته على فعل كل شيء.

لذلك يجب على خليفة الله في الأرض أن يكون قادرا على الغفران، أي أن يكون غفرانه عن قوّة لا عن ضعف واستكانة، وإلا لتطاول عليه الجميع وظل عاجزا عن فعل شيء، فالمغفرة تتطلب قدرة وقوّة متلازمتين كي تكون في موضعها الصحيح، فلا تأتي المغفرة إلا من قادر عليها لا مرغم عليها.

---

662 الجاثية 14، 15.

663 النساء 48.

664 آل عمران 129.

ولأنّ الغفّار هو العليم لذا فالمغفرة تتطلب علما مسبقا بمن استحقّ مغفرته وعفوه، فالخالق عزّ وجلّ علمه مطلق لا حدود له وبهذا العلم اللامحدود يدرك أنّ في مغفرته خيرٌ.

فمن البشر من هو مصر على الظلم وارتكاب الذنب، ومنهم من يتركه ثم يرجع إليه، ومنهم من يرتكبه دون علم به، وقد وافق علم الله بالنفوس البشرية استحقّاق مغفرته لمن علم به خيرا.

فعلى خليفة الله أن يكون عالما بمن يستحقّ غفرانه وسماحه والمقدار الذي يستحقّه والزمن لذلك، لأن الجهل بذلك يجعل منه إنسانا ضعيفا في أعين النّاس من حوله، فلا يقيمون له وزنا، لذلك فالعلم ضروري.

فليتذكر خليفة الله في الأرض قوله تعالى: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} 665، لكي يكون ذاكرا لهذه المغفرة التي لولاها لما بقي على الأرض من أمل في قلب أي إنسان في النجاة من عذابه الشديد جلّ جلاله، فيحفظ بذلك نفسه من النزوات والميل وراء الأهواء، بذلك ينأي عن الذنوب وتجد توبته طريقها إلى القبول عند المولى عزّ وجلّ.

وإن شاء الله نكون ممن امتدحهم المولى عزّ وجلّ في كتابه العزيز، في قوله تعالى: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ ربّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النّار الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ}666، وكذلك في قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ ربّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا

665 غافر 3.

666 آل عمران 15 . 17.

قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حقّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}667، فهؤلاء هم من رضي عنهم الله تعالى وقربّهم منه وجعلهم من عبيده الصالحين المستخلفين والوارثين.

وقد تساوى الأنبياء والرّسل مع العباد الآخرين في طلب مغفرة المولى عزّ وجلّ، وهذا دليل على حاجة البشر وضعفهم لله الغفّار الكريم، قال تعالى: {قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ ربّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}668، فهل نتكبر ونترفع عما قام به أفضل العباد، وهو الاستغفار والتوبة لله تعالى؟

ولابدّ لخليفة الله أن يدقق في معنى الغفّار الذي بمشيئته يغفر ليعطي للإنسان المؤمن حبا وأملا في الاستغفار والتوبة، لا أن يتهاون في ردع نفسه عن ارتكاب الذنوب بحجة أن الله تعالى هو الغفّار الذي سيغفر له كل مرة يعود فيها عن ذنبه، بل إن الله تعالى شديد العقاب لمن يتعمد فعل الذنب والإصرار عليه مع علمه به، لذلك فالخليفة هو من كان لهذا الاسم التأثير الإيجابي في نفسه، فلا يهمل عقاب الله ولا ينسى أن الخالق عالم بما في نفسه وعالم بما يستحقّه كل إنسان من ثواب ومن عقاب.

ثانيا التوّاب:

التوّاب "هُوَ الَّذِي يَتُوبُ عَلَى عِبَادِهِ، فَيَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ كُلَّمَا تَكَرَّرَتِ التَّوْبَةُ تَكَرَّرَ الْقَبُولُ، وَهُوَ يَكُونُ لازِمًا وَيَكُونُ مُتَعَدِّيًا بِحَرْفٍ يُقَالُ: تَابَ اللَّهُ عَلَى

667 الذاريات 15 . 16.

668 ص 24، 25.

الْعَبْدِ بِمَعْنَى وَفَّقَهُ لِلتَّوْبَةِ، فَتَابَ الْعَبْدُ كَقَوْلِهِ: ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا، وَمَعْنَى التَّوْبَةِ عَوْدُ الْعَبْدِ إِلَى الطَّاعَةِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ"669.

التوّاب اسمه الذي شاء له أن يكون على هذا المبنى اللغوي لنتذكر فتعيه أذان واعية، فقد جعله على صيغة فعّال ليُذَكِّرَ عباده بأنه: {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}670، ومعلوم أنها صيغة تدل على الكثرة، أما الاستمرار فقد دلت عليه الشدة المؤكدة الموجودة في اسمه الجنّة (توّاب) وهو الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين. فكل من تاب إلى الله توبة نصوحا، تاب الله عليه. فهو التوّاب للتائبين: بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم، قبولا لها، وعفوا عن خطاياهم671.

قال تعالى: {إِنَّهُ هُوَ التوّاب الرّحيم}672 أي إنه يتوب على من تاب إليه وأناب.

التوّاب كثير الإثابة، والتوّاب صفة تلاحقّ الخطائين الذين يخطئون ويتوبون، والذين تتكرر خطاياهم وتتكرر توبتهم إلى الله تعالى، ولذا فهو التوّاب بالمطلق.

التوّاب هو الذي تستمد التوبة منه، وهي صفة مرسّخة لصفة الرّحمن والرّحيم والرءوف والودود، وبهذا تعد صفة إصلاحية للذات الإنسانية.

والتوّاب عالم بعباده فهو الخبير البصير علم أنهم يأتون السوء كما يأتون الخير قال تعالى: {وَربّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ}673، ثم

---

669 الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 195.

670 البروج 16.

671 شرح أسماء الله الحسنى، ج 1،57.

672 البقرة 37.

673 القصص 69.

قال لهم مرغبا ومبشرا وراحما عباده: {وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}674، فكتب عليهم أن يعملوا عملا صالحا ليتوب عليهم، فما هي هذه الأعمال التي تحقّق التوبة:

1 . أول هذه الأعمال وأصلحها الإيمان بالله عزّ وجلّ، وإتباع هداه وكل عمل لا يقترن بذلك فهو عمل محبط: {ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}675، والإحباط هو إبطال عمل البر من الحسنات بالسيئات وأشار التوّاب إلى نمط العمل المحبط فقال: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّار وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}676، وعلى العبد أن يسعى للتكفير عن عمله المحبط وذلك بالإكثار من الحسنات بعد السيئات، لأن التوّاب يكفر السيئات: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}677، ثم أبدل لهم التوّاب سيئاتهم حسنات بعد التوبة: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}678، فعلى الخليفة أن يحرص أيما حرص على أن يسود العمل الصالح في أوساط من استُخلف عليهم، وأن يقبل من المسيء عودة، فينظر في عمله اللاحقّ فإذا كان من المخلصين ترك الأخذ بما سبق من عمله ونظر إلى عمله الجديد وجزاه بالخير عليه.

674 الفرقان 71.

675 الأنعام 88.

676 هود 16.

677 محمد 2.

678 الفرقان 70.

2 . عمل الطاعات: قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}679، وهذه وإن كانت من الفرائض التي لا يمكن لعبد أن يتركها إلا أن التوّاب جعل لهذه الفروض ثوابا في الدنيا والآخرة، فلا شك أن الصلاة هي أعظم فرائض الإسلام العملية فقد مدحها الله عزّ وجلّ، وأثنى على مقيميها في غير ما آية، فقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}680، فبدأ بها قبل غيرها من صفات المؤمنين المفلحين، ثم ختم بها فقال: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}681، وقال تعالى في ثوابها: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ}682، أما الزكاة فلها فوائد دنيوية يتحصل من خلالها العبد على الثواب ففيها تطييب لنفوس الفقراء وسد لحاجاتهم وهي إنفاق في سبيل الله وقد خصه التوّاب بالفضل فقال: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}683، وفيها تقوية لروابط المحبة بينهم وبين الأغنياء لاسيما ذوي القربى، لأن التوّاب يأمر بالإنفاق على ذوي القربى بل جعلهم أول من ينفق عليهم العبد في كل آيات الإنفاق في قوله: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى

679 البقرة 110.

680 المؤمنون 1، 2.

681 المؤمنون 11.

682 المعارج 34-35.

683 البقرة 261-262.

الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}684. ولا شك أن ثوابها في الآخرة عظيم من لدن التوّاب الكريم، أما دور الخليفة على الأرض فهو أن يحرص على الإحسان للمطيعين من العباد، وأن ينظر إلى أعمالهم هذه بإجلال وتقدير، وأن يبتعد عن الاستخفاف بأعمال النّاس وإن كانت من المفروضات عليهم لأن مثل هذه النظرة يمكن لها أن تفقد العباد إحساسهم بالجدوى فيتحولوا من الطاعة إلى المعصية.

3 . ومنها العفو: والعفو تسامح وليس إهمال أو تنازل بغير حقّ، وهو المقربّ للتقوى قال تعالى: {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}685، والعفو ترك التشدد المنفر للآخرين وترك الإقصاء، في كل ما يتعلق بممّارسة الحقّوق وأداء الواجبات وحمل المسؤوليات، ويدخل فيه أيضا التخلق مع النّاس بالخلق الطيب، لاسيما فيما يدور من جدل وحوار بكل مسألة تتعلق بالدين أو غيره كما يعلمنا المولى سبحانه في قوله تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظّا غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ}686، وعليه فالعفو صفة استيعابية، والاستيعاب قيمة احتوائية لا إقصائية، تعتمد تقبل الآخر والاعتراف بوجوده وبممّارسة حقّوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته. واستنادا على مبدأ التقبل يستوعب الخليفة النّاس كما هم لأجل أن ينقلهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه. ولذا لا تتم دراسة الحالات ولا تتم عمليات التفاوض ولا تُحل المشاكل بين النّاس إلا بالاستيعاب الذي يُحفّز على التقاربّ ويؤدّي إلى التفاهم.

---

684 البقرة 177.

685 البقرة 237.

686 آل عمران 159.

الاستيعاب يُمكِّن الباحث والمبحوث من الإلمام بالموضوع ومتغيراته السلبية والإيجابية المؤثرة فيه بشكل مباشر أو غير مباشر، ويُمكِّن من التشخيص الموضوعي، ولذا على الخليفة أن لا يغفل عن الآتي:

أ ـ استيعاب الإيجابيات، والتأكيد عليها، ونقلها للآخرين بوسائل مبسطة، تمكنهم من التعرف عليها، وتحفِّزهم على العمل بها.

ب ـ استيعاب السلبيات، وتحديدها، وإبراز عيوبها وأسبابها والعمل على إزالتها، وتنقية الموضوع منها، وتبيان الأضرار التي قد تنجم عنها.

وبناءً عليه لم يكن التحليل الاستيعابي إبقائي بالتمام، ولم يكن غرضه تثبيت المعلومات كما هي (سالبها وموجبها) بل إنه تحليل تثبيتي إزالي، به تُثبت المعلومات الموجبة، وتُزال السالبة، ولهذا يتم استيعاب المعلومات السالبة كما يتم استيعاب المعلومة الموجبة، من اجل معرفة نقاط الاتفاق والاختلاف، حتى تتم عمليات التثبيت للموجب المفضَّل، والإزالة للسالب غير المفضل.

الاستيعاب قيمة احتوائية، تقبل بالاختلافات وتعمل على احتوائها. فمن طبيعة الخلق أنهم لا يتساوون في القدرات والاستعدادات والمهارات ولا حتى في الرغبات والحاجات، ولا في درجة الفهم والمعرفة، ولذا فمن الضروري أن يقع الاختلاف الذي يستوجب التقدير، حتى تتمم الفروق الفردية بين النّاس بعضها البعض. ولهذا كل مفردة هي في حالة نقص، ولا تستكمل إلا بآخر يستوجب الاستيعاب. وإن لم يحدث الاستيعاب تصبح الفرقة بين النّاس هي السائدة، ولأجل ذلك فإن قيم ممّارسة الفضائل الحسان وحدها التي تمكن من الاستيعاب. وبدونها لا يمكن أن يتحقّق التفهم والتفاهم بين الأفراد والجماعات والمجتمعات.

الاستيعاب عملية تفاعلية بين الأنا والآخر تعتمد على القيم الآتية:

. الفهم: فهم الموضوع أو الحالة والإلمام التام بها، من حيث تاريخها، وما يؤثر فيها بالسلب والإيجاب، وفهم متغيراتها وعللها وأسبابها ومراميها والغايات التي من ورائها.

. التفهُّم: تفهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والنفسية والذوقية والثقافية التي تلم بالعباد، ومراعاة آثارها على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي أو الإنساني.

. الاعتراف: الاعتراف بالنّاس من حيث أن لهم حقّوقا ومن حقّهم أن يطالبوا بها ويمارسوها. وأنّ عليهم واجباتٍ فليقدموا على آدائها. وأنّ عليهم مسؤولياتٍ فلا يتأخرون عن حمْلها، وتحمّل ما يترتب عليها من أعباء.

. التقدير: تحسيس الأفراد بأن لهم قيمة في ذواتهم، وأنهم مُقدَّرون في أنفسهم وفي قراراتهم، ومشاعرهم وخصوصياتهم، وفيما يرغبون أو يقبلون أو يرفضون.

ولذا فالخليفة يدعو الخلق إلى الدين الحقّ بالرفق واللطف، كما قال تعالى: {وجادلهم بالتي هي أَحْسَنُ}687، ويجب أن يكون العفو شعار الخليفة ودثاره لما فيه من روح المسامحة التي تسهم في تهيئة سبل الحياة من خلال إقامة التواصل ونبذ القطيعة، وكذلك فإن العفو يفتح أفق الحوار ويسمح للعقل بالحرية في التفكير ممّا يسهل على الخليفة القيام بأمر الخلافة.

4 . الإقراض: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ

687 النحل 125.

فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}688، إن حرص التوّاب على الإثابة على الإقراض هو بمثابة درس للخليفة فيجب عليه أن يفهم معنى استخلافه لاسيما في أمر المال فلا يجعله حكرا عليه فيبخل به، ولا يجعله سائبا فيضيع، وإنما يكون وسطا بين ذلك كما علمه التوّاب: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}689.

5 . الإنفاق في غير الفرض وتنحصر في الصدقات التي قرنها التوّاب بقبول التوبة فقال: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التوّاب الرّحيم}690، وهذه الصدقات محصية إحصاءً دقيقا من التوّاب لأجل الجزاء بالأحسن: {وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}691، ومن أبرز مهام الخليفة على الأرض التي استخلف عليها أن يكون منفقا على المحتاج من العباد، وذلك بتحري المحتاج الحقّيقي وعليه تجنب الإنفاق في غير محله، ونقول: يتحرى لأن المحتاج الحقّيقي في

---

688 البقرة 282-283.

689 الإسراء 29.

690 التوبة 104.

691 التوبة 121.

الغالب الأعم يتعفف ولا يُظهر حاجته، فيجب على الخليفة تحري هؤلاء لكي ينطبق عليه وصف التوّاب بالإضافة: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَربًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النّاس إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}692، فالخليفة يجب أن يكون عالما وليس جاهلا، هنا وجب أن يكون التحري من مهماته الأساسية في هذا المجال، وبخلاف ذلك سيكون إنفاق الخليفة في غير محله فيذهب المال إلى غير المحتاجين ويصبح كما وصفه التوّاب متداول بين الأغنياء أنفسهم: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُربَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}693.

6 ـ العمل لمصالح النّاس في الدنيا: قال تعالى: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}694. أي عمل خير يجازي التوّاب عليه العباد القائمين به، ولذا فمن يشكر فإنما يشكر لنفسه، والشكر عرفان بالفضل الذي هو بالمطلق من عند الله عزّ وجلّ، وهو بين النّاس في حالة تبادل، ولهذا فالعمل الصالح صفة رئيسة للاستخلاف في الأرض، فمن أراد أن يكون من المستخلفين فعليه بالإصلاح في الأرض ثم الاستصلاح والفلاح والإعمار دون إفساد ولا سفك دماء بغير حقّ. قال تعالى: {أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}695، هنا يأتي دور الخليفة الذي يجب عليه العمل الجاد من أجل

---

692 البقرة 273

693 الحشر 7.

694 سبأ 13.

695 سبأ 11.

تحقّيق الخير والتسامح والتواد، وأن يكون له يد في كل ما من شأنه أن يحقّق عدلا وتعاونا على أفعال الخير وأعماله.

7 . العدل: قيمة بينيَّة تحكيمية تتوسط طرفين أو أكثر، مركزها الاتزان وأطرافها من توازن. تؤسس قيمة العدل على إعطاء كل ذي حقّ حقّه. لذا فهي قول حقّ وفعل، يقول الله تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}696 قال: إذا حكمتم بين النّاس ولم يقل إذا حكمتم النّاس. فالذين يريدون أن يحكموا الشعوب باسم الدين، فالدين لا ينص على حكم النّاس، بل ينص على أن يكون الحُكم بينهم بقوله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم) جاء الأمر هنا مطلقا، والأمر هو كل ما يتعلق بالنّاس ومصائرهم، (السلم والحربّ، والسياسة الداخلية والخارجية، الزواج والطلاق وكل ما يتعلق بالإنتاج ووسائله). قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}697، وليس للخليفة إلا أن يعمل بالعدل وينشره بين من استخلف من بينهم لما له من فضائل فهو وجه من وجوه تقوى الله الذي قال في محكم كتابه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}698، وهو المحقّق للمساواة من خلال إقرار الأحكام العادلة التي هي من قضاء الله: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ

696 النساء 58.

697 النساء 135.

698 المائدة 8.

بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}699، وفي العدل تكون الحياة أكثر سعادة واستقرار وأمن وذلك من خلال تطبيق القصاص وعدم التساهل فيه لأنه يحقّق كل ذلك: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}700، لذا يجب على الخليفة أن يعي ما في العدل من فوائد، فيجب عليه أن يكون عادلا في إقرار القوانين، وفي تنفيذها، وفي اختيار العباد المؤهلين لإقامة العدل بين النّاس، فلا يكون الاختيار إلا بعد وثوق تام بصدق السريرة، وإخلاص العمل، وصلاح السيرة.

8 ـ نصرة الذين آمنوا: قال تعالى: {وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}701، وهذا دور الخليفة في الأرض أن ينصر عباد الله بالقول والفعل، فبالقول بأن يكون مخلص النصيحة صادق اللسان معهم فلا يماريهم على حساب الحقّ فيكون لهم ناصح أمين، وأن يرشدهم إلى التي هي أحسن وأصوب، قال تعالى: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ}702، أما بالعمل فيكون بالانتصار بعدم تفشي الظلم لأن التوّاب الذي استخلفه في الأرض ليس بظلّام، أو بالانتصار لمن ظلم منهم بالحقّ ودون إسراف، وأن لا يتأخر عن تأدية الواجبات العظام في كل ما أمر الله به ونهى عنه دون أن يظلم أحدا. قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ}703.

---

699 المائدة 45.

700 البقرة 179.

701 الأنفال 72.

702 الأعراف 68.

703 الشورى 39-41.

9 . بر الوالدين: قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}704.

وكل هذه الأعمال وغيرها من الصالحات هي لصالح العبد يحصيها التوّاب له ليجزيه يوم القيامة بها قال تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}705.

لكن رحمة التوّاب أوسع من حصر التوبة بالعمل، فجعل من كرمه على عباده الاستغفار يقابل العمل الذي يؤدّي إلى التوفيق للتوبة من الذنب: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا}706، وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه، فهو اللطيف بعباده الذي يعلم ما في صدور عباده من خير أو شر {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}707، فيوفق من يشاء للتوبة ويمنع من يشاء لا لبغض أو رغبة في إيقاع العذاب، ولا كيد بالعباد، وإنما لأنه عالم بالمخلص من غير المخلص: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}708، والخليفة يجب أن ينزه نفسه

704 العنكبوت 8.

705 آل عمران 195.

706 النساء 11.

707 الملك 14.

708 النساء 146-147.

عما تحمل النفوس من أضغان وحقّد وكراهية، ولا يجعل أحدها سببا في منع قبول التوبة والتراجع عن الخطأ من بعض العباد، وعليه أن يجعل الإخلاص في العمل هو المقياس الذي يميز به النّاس فيقربّ المخلص ويقبل منه ويبعد الخائن والغادر والغشاش عنه ولا يقبل منه قولا أو عملا إلا أن يتوب توبة حقّيقية صادقة لله ربّ العالمين.

والتوّاب يتوب على عباده رحمة منه فهو الرّحيم: {إِنَّ اللهَ هُوَ التوّاب الرّحيم}709، وواضح أن إتباع اسم الرّحيم لاسم التوّاب فيه دلالة واضحة على أن التوبة إنما هي رحمة من التوّاب الرّحيم، وهي رحمة بالعبد الذي تصيبه العلل فتؤدّي به إلى الخطأ والزلل، فهي رحمة خالق خبير يعلم عن العبد ما فيه وهو أنه:

أ . هلوع: أي لا يَصْبِرُ على خَيْرٍ ولا شَرٍّ حتى يَفْعَلَ في كُلٍّ واحِدٍ مِنْهُمَا غَيْرَ الحقّ710، {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا}711، وعلى الخليفة أن يفهم هذه الخصلة في نفسه وفي غيره، فيعامل العباد معاملة العارف بهلعهم من حيث صبره عليهم وإدراكه لما يصيبهم من علل تؤدّي بهم إلى الوقوع في الخطأ.

ب . عجول: {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا}712، والعجل شكل من أشكال الضعف، إما أمام رغبة يتعجل في تحقّيقها، أو في قول يسبق إلى النطق به وهذا محاسب عليه كما الفعل لان المحصي الجنّة يقول: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}713،

709 البقرة 37.
710 تاج العروس، ج 1، ص 6531.
711 المعراج 19.
712 الإسراء 11.
713 ق 18.

وعلى الخليفة أن يتأنى في النظر إلى الأمور وأن يتأنى في الحكم على الأشياء حتى لا يسمح للعجلة بأن توقعه بما لا يريد التوّاب له أن يكون فيه من فعل أو قول.

ج . جزوع، وهو قلة الصبر، قال تعالى: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا}714، والتوّاب يدعو إلى الصبر على العسر والضيق والفاقة والمرض، ويمني الصابرين بحسن الجزاء: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}715، لذا وجب على الخليفة أن يكون صابرا وأن يُعلِّم من معه الصبر على ما تجزع النفس منه.

د . يؤوس: قال تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا}716، يؤوس من إجابة دعائه قنوط بسوء الظنّ بربّه، ويؤوس من زوال ما به من المكروه قنوط بما يحصل له من ظنّ دوامه، وهما صيغتا مبالغة يدلان على أنه شديد اليأس عظيم القنوط717، واليأس من أمراض الروح الهدامة التي يجب على الخليفة محاربّتها وإلا فشل في مهمة الاستخلاف، لأن اليأس يمنع من القيام بمهمة إعمار الأرض التي هي المهمة الأساسية للخليفة.

هـ . منوع: أي مانع للخير: {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}718، وإذا كثر ماله، ونال الغنى تراه يبخل على المحتاج، فلا ينفق في سبيل الله، ولا يقرض محتاجا مع توصية التوّاب له بذلك ونسبة القرض إليه بقوله: {مَنْ ذَا الَّذِي

---

714 المعراج 20.

715 البقرة 155.

716 الإسراء 83.

717 فتح القدير، ج 6، ص 363.

718 المعراج 21.

يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}719، وذلك كله لأنه يحب المال حبا شديدا يجعله يمتنع عن إتيان المستحقّ لبعض هذا المال وإن قل: {وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}720، وعلى الخليفة أن لا ينظر إلى ما بين يديه من المال على أنه الملك المطلق الذي لا يشاركه فيه أحد، بل يجب عليه أن يقوم بمهمة الإشراف على إنفاق هذا المال فيما يريد التوّاب منه فيجعل للمحتاج نصيبا ويجعل لنفسه نصيبا يساعده على مهمة الاستخلاف.

وضعيف: قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}721، وضعف الإنسان أمر بدأ مع خلق آدم، فقد ضعف آدم أمام الشيطان فاستجاب لدعوته بمخالفة الخالق: {وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآَتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة وَنَادَاهُمَا رَبّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ}722، ثم ضعف ابن آدم أمام رغبته الدنيوية: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالحقّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ربّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النّار وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ

719 الحديد 11.

720 الفجر 18-20

721 النساء 28.

722 الأعراف 19-22.

لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}723، والآيات التي توضح صور الضعف الإنساني كثيرة وكلها تشير إلى أن الإنسان غير قادر على أن يكون قويا بالمطلق لأنه ليس القوي المطلق، فالقوي المطلق هو الله فكان لابدّ أن يظهر الضعف فيمن سواه، أما الخليفة فيجب أن يحرص على استلهام القوّة من القوي المطلق وذلك بإتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأن يتحرى الحقّ فمن الحقّ تأتي القوّة.

والتوّاب يريد التخفيف عن العباد بهذه التوبة التي يهبها لمن يشاء لأنّه: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}724، فقد رحمنا التوّاب فخفف علينا قيام الليل: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}725.

كما أباح لنا التمتع بغرائزنا لعلمه بالضعف الحاصل عند الإنسان في مواجهة غرائزه فلم يمنعنا من شهوة النساء ولا من شهوة الطعام بالحلال، قال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا

723 المائدة 27-31.

724 البقرة 185.

725 المزمل 20.

عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}726.

ومن التخفيف ما كان في الفروض فما من فرض إلا وتجد معه تخفيفا لغير القادر، فالصلاة تُقصر للمسافر رحمة من التوّاب: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا}727، والصيام يؤجل للمسافر أو المريض: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}728، والحج للمستطيع فقط ولو كان لزاما على القادر وغير القادر لأصيب العباد بعناء شديد مادي وجسدي ومعنوي: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النّاس حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}729، والزكاة لمن يملك مالا مجمدا وخارج حاجته وليس من ماله الذي ينفقه على أهله وعياله: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

---

726 البقرة 187.

727 النساء 101.

728 البقرة 183-184.

729 آل عمران 96-97.

وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}730، من هذه الآيات يجب أن يعي الخليفة دوره في التخفيف عن العباد فلا يتشدد في المعاملات، وأن ينهج نهج ربّه في التماس العذر للمضطر وغير القادر، وأن يتحرّى أسباب ذلك لكي يُسهِّل على أصحاب الضرورة حياتهم.

والتوّاب يتوب على عبده بفضله إذا تاب إليه من ذنبه، بالرجوع والنَّدم على ما فَرَط فيه731، {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ}732، ومن فضله أنّه يقبل التوبة ويتبعها بالعفو العام المطلق أي أن لا يكون للذنب السابق أثر في اللاحقّ من الأعمال الصالحة للعبد إن لم يرجع: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}733.

والتوّاب إذ يتوب على العبد إنما ينقذه من المعاصي: {إنه هو التوّاب الرّحيم}734 يعني: الراجع لمن أناب إليه بطاعته إلى ما يحب من العفو عنه، جاء بالرّحيم بعد ذلك للإشارة إلى الرحمة المنجية من العذاب، والتوّاب هو المنجي من عاقبة السوء التي تلحقّ بالمصرّين على السيئة وذلك بالتوبة على المؤمنين من العذاب: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ}735، والنجاة تكون بالرحمة، وتختص بالقليل من الذين صدقوا الإيمان: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ}736، وفي هذه المنجاة

---

730 الأعراف 156.

731 تهذيب اللغة، ج 5، ص 26.

732 النور 10.

733 الشورى 25.

734 البقرة 54.

735 الأعراف 64.

736 الأعراف 72.

حكمة عظيمة تتمثل في كونها عبرة للعباد لكي يتأمل ويدرك حاجته إلى التوبة المنجية: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}737.

والتوّاب هو الذي يرجع إليه تيسير أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرى بما يظهر لهم من آياته ويسوق إليهم من تنبيهاته ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته، حتى إذا اطلعوا بتعريفه على غوائل الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه فرجعوا إلى التوبة فرجع إليهم738. قال تعالى: {وأنا التوّاب الرّحيم}739، يقول: وأنا الذي أرجع بقلوب عبيدي المنصرفة عنّي إليَّ، والرّادُّها بعد إدبارها عَن طاعتي إلى طلب محبتي، والرّحيم بالمقبلين بعد إقبالهم إليَّ، أتغمدهم مني بعفو، وأصفح عن عظيم ما كانوا اجترموا فيما بيني وبينهم، بفضل رحمتي لهم. فييسر لمن يشاء أسباب التوبة ويمنع من يشاء، {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}740، فالتوّاب هو الذي يهب التوبة لمن يشاء من عباده ويمنع من يشاء، فهو الوهاب الذي يوفق من أحب من عباده لفعل ما يرضاه من أعمال ويسهل له القيام بها فيجعلها من أسباب قبول توبته. وهو قادر على ذلك لأنه القدير على أن يخلق الإنابة والرجوع في قلب المسيء ويزين جوارحه الظاهرة بالطاعات بعد ما لوثها هو بالمعاصي خطيئات741، فالإنابة هي أساس التوبة ومعناها الرجوع إلى الله الذي يهدي من أناب أمره إلى الحي القيوم: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ

737 العنكبوت 15.
738 أسماء الله الحسنى، ص 99.
739 البقرة 160.
740 آل عمران 128-129.
741 تفسير حقّي 1،308

آَيَةٌ مِنْ ربّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ}742، والإنابة، تأتي بعد ذنب يتوب منه العبد خوفا من ربّه وطاعة له بعد تدبر، قال تعالى: {مَنْ خَشِيَ الرّحمن بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ}743، أو فتنة، {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ}744، هناك مجموعة روايات في هذا الأمر ولنأخذ منها ما روي عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "قَالَ سُلَيْمَانُ لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلاَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَايْمُ الذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ"745، فذلك قوله: (وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان)، وهناك قول آخر: يقال بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه، (وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ) منه جَسَدا وذلك لشدة المرض ثُمَّ أَنَابَ أي رجع إلى حال الصحة746.

والتوّاب هو المتفرد بقبول توبة التائبين من عباده، ولا يشركه في ذلك أحد، قال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ}747. وفي الآية إشارة واضحة إلى تفرده سبحانه بفعل التوبة وذلك واضح في تأكيد الاسم الظاهر (الله) بالضمير الظاهر (هو) ممّا يدلل ولا شك على قدرته على القيام بالتوبة وغيرها. ويذكر الفخر الرازي عدة فوائد لإيراد هو في الآية هي: " قوله: {هُوَ يَقْبَلُ التوبة} في فوائد:

---

742 الرعد 27.

743 ق 33.

744 ص 34.

745 صحيح البخاري، ج 22، ص 68.

746 تفسير الرازي، ج 13، ص 193.

747 التوبة 104.

. الفائدة الأولى: "(هُوَ يَقْبَلُ التوبة) تنبيه على أن كونه إلها يوجب قبول التوبة، وذلك لأن الإله هو الذي يمتنع تطرق الزيادة والنقصان إليه، ويمتنع أن يزداد حاله بطاعة المطيعين وأن ينتقص حاله بمعصية المذنبين، ويمتنع أيضا أن يكون له شهوة إلى الطاعة، ونفرة عن المعصية، حتى يقال: إن نفرته وغضبه يحمله على الانتقام، بل المقصود من النهي عن المعصية والترغيب في الطاعة، هو أن كل ما دعا القلب إلى عالم الآخرة ومنازل السعداء، ونهاه عن الاشتغال بالجسمانيات الباطلة، فهو العبادة والعمل الحقّ والطريق الصالح، وكل ما كان بالضد منه فهو المعصية والعمل الباطل، فالمذنب لا يضر إلا نفسه، والمطيع لا ينفع إلا نفسه كما قال تعالى: {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}748، فإن كان الإله رحيما حكيما كريما ولم يكن غضبه على المذنب لأجل أنه تضرر بمعصيته، فإذا انتقل العبد من المعصية إلى الطاعة كان كرمه كالموجب عليه قبول توبته. فثبت أن الإلهية لما كانت عبارة عن الاستغناء المطلق، وكان الاستغناء المطلق ممتنع الحصول لغيره تعالى، كان قبول التوبة من الغير كالممتنع إلا لسبب آخر منفصل، أو لمعارض أو لمباين.

الفائدة الثانية: في هذا التخصيص هو أن قبول التوبة ليس إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إنما إلى الله الذي هو يقبل التوبة تارة ويردها أخرى. فاقصدوا الله بها ووجهوها إليه، وقيل لهؤلاء التائبين اعملوا فإن عملكم لا يخفى على الله خيرا كان أو شرا"749.

واسم الله التوّاب يدل باللزوم على أنه الحي القيوم: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}750، لما في الاسم من معنى الاستمرار فهو توّاب لمن يتوب

748 الإسراء 7.

749 تفسير الرازي، ج 8، ص 143.

750 آل عمران 2.

بدوام طلب التوبة فهو حي قيوم، وأنه سميع بصير يسمع توبة التائب سرية كانت أم علنية: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}751، وأنه عالم يعلم التوبة الحقّ فيقبلها، ويعلم التوبة المزيفة فيردها على صاحبها: {إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}752، ويدل على القدرة فهو القادر على قبول التوبة في كل وقت ومن كل العباد في وقت واحد أو في أوقات مختلفة وهذا كله من قدرته سبحانه وتعالى على ذلك قال: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}753، وعلى الرأفة: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}754، وعلى العفو: {فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا}755، وعلى والرحمة: {وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا}756، وعلى الحكمة: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}757، وغير ذلك من أوصاف الكمال التي يجب على الخليفة تحري معانيها والسعي جاهدا للعمل بها فيحرص على أن يكون حيا بمعنى الحضور الدائم لخدمة العباد وأن لا يكون متكاسلا أو عاجزا عن القيام بأمرهم، وان يمتلك القدرة التي تؤهله لذلك، وأن يتحلى بصفة الرأفة فلا يكون جبارا لأنه لا يحصل من

---

751 المجادلة 1.

752 فاطر 38.

753 آل عمران 29.

754 النور 20.

755 النساء 99.

756 النساء 16.

757 النساء 26.

التجبر إلا على الخيبة: {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}758، وأن يتحلى بصفة العفو وأن يكون قادرا عليه، وكل ذلك بحكمة يستمدها من حكمة من استخلفه في الأرض ليصلح فيها ولا يفسد.

والتوّاب يدل على كثرة ما يتوب به على عباده، وهذه المعادلة، أي كثرة الذنب مقابل كثرة التوبة، إنما هي من تقدير العالم بخلقه الذي يعلم بكثرة خطأ عباده، وهو ما ذكره المصطفى صلّى الله عليه وسلّم: "كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التوّابونَ"759، والكثرة تدل ولا شك على كرم التوّاب حيث تأتي الشدة في التوّاب (فعّال) للدلالة على كثرة من يتوب عليهم، ولأنه يُكثر في قبول التوبة بحيث ينزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه760 قال تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}761، هذا من جانب ولأنه يتوب على كثير الذنوب من جانب آخر، فالتوّاب هو الذي يغفر الذنوب جميعا ليتوب على عبده من المسرفين الذين أكثروا من الخطايا: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}762.

التوّاب متصل التوبة، أي مثوبته لا تنقطع أبدا، والتوّاب استجابة لفعل خيِّر، وطلب صادق، ونية طيبة، ونفس ودودة محبة للآخرين ومتعاونة معهم فيما يفيد الجميع.

والتوّاب يقبل التوبة، فما هي التوبة التي يقبلها التوّاب؟ وما أنواعها؟

---

758 إبراهيم 15.

759 سنن الترمذي، ج 9، ص 401.

760 تفسير حقّي، ج 17، ص 460.

761 النور 31.

762 الزمر 53.

التَّوْبةُ الرُّجُوعُ من الذَّنْبِ، قال النبي -صلّى الله عليه وسلّم- "النَّدَمُ تَوْبَةٌ"763، وتابَ إِلى اللهِ يَتُوبُ تَوْبا وتَوْبةً ومَتابا أَنابَ ورَجَعَ عن المَعْصيةِ إِلى الطاعةِ، وأصل التّوبة في اللغة النّدم فالله التّائب على عبده يقبل ندمه والعبد تائب إلى الله يندم على معصيته، والتّوبة رجوع عما سلف بالنّدم عليه والتّائب صفة مدح لقوله "التّائِبون العابِدون" فلا يُطلق اسم تائب إلاّ على مُستحقّ للمدح من المؤمنين، وقيل حقّيقة التّوبة الرّجوع والأوّاب الرّاجع عن ذنبه والأوْبَة الرّجوع764، ومن المعاني الدالة على التوبة الأوبة ممّا يكرهه الله إلى ما يرضاه قال تعالى: {وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التوّاب الرّحيم}765.

والتوبة من العبد ومن الرّب، فتوبة العبد إلى ربّه أوبته ممّا يكرهه الله منه بالندم عليه، والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه، وتوبة الرّب على عبده: عوده عليه بالعفو له عن ذنبه، ومحو العقوبة، مغفرة له من التوّاب.

والتوبة على نوعين:

الأوّل: أن يوقع التوّاب في قلب عبده التوبة والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة، وشروطها من الإقلاع عن المعاصي، والندم على فعلها، والعزم على أن لا يعود إليها، واستبدالها بعمل صالح.

الثاني: توبته على عبده بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها، فإن التوبة النصوح تجبُّ ما قبلها766. قال تعالى: {ربّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ

---

763 سنن ابن ماجة، ج 12، ص 458.
764 المخصص، ج 8، ص 90.

765 البقرة 128.
766 شرح أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 57.

ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التوّاب الرّحيم}767.

والتوبة النصوح هي ألا يعُودَ إلى ما تاب عنه768، وهي التوبة التي حضنا التوّاب عليها فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى ربّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ ربّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}769.

والتوبة تختلف باختلاف التائبين فتوبة سائر المسلمين الندم والعزم على عدم العود ورد المظالم إذا أمكن، ونية الرد إذا لم يمكن، وتوبة الخواص الرجوع عن المكروهات من خواطر السوء، والفتور في الأعمال، والإتيان بالعبادة على غير وجه الكمال، وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات770.

ولابدّ من الإشارة إلى نوع من التوبة أكرم التوّاب أمة محمد بأن أعفاها منه، وهي توبة كانت زمن بني إسرائيل وأشار التوّاب إليها فقال: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التوّاب الرّحيم}771، فاقتلوا أَنفُسَكُمْ الفاء للتعقيب، والمتبادر من القتل، القتل المعروف من إزهاق الروح وعليه جمع من المفسرين والفعل معطوف على سابقه، فإن كانت توبتهم هو القتل إما في حقّهم خاصة، أو توبة

767 البقرة 128.

768 معجم العين، ج 1، ص 193.

769 التحريم 8.

770 تفسير الالوسي، ج 2، ص 10.

771 البقرة 54.

المرتد مطلقا في شريعة موسى عليه الصّلاة والسّلام، فالمراد بقوله تعالى فَتُوبُواْ اعزموا على التوبة ليصح العطف وإن كانت هي الندم والقتل من متممّاتها كالخروج عن المظالم في شريعتنا فهو في هذا السياق على معناه، وظاهر الأمر أنهم مأمورون بأن يباشروا كل قتل نفسه، وفي بعض الآثار أنهم أمروا أن يقتل بعضهم بعضا، وروي أنه أمر من لم يعبد العجل أن يقتل من عبده، والمعنى عليه استسلموا أنفسكم للقتل، وسمى الاستسلام للقتل قتلا على سبيل المجاز، والقاتل إما غير مُعيَّنٍ، أو الذين اعتزلوا مع هارون عليه السلام، والذين كانوا مع موسى عليه الصّلاة والسّلام، وجملة القتلى سبعون ألفا، وبتمامها نزلت التوبة وسقطت الشفار من أيديهم، وأنكر البعض أن يكون الله تعالى أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم وقالوا: لا يجوز ذلك عقلا إذ الأمر لمصلحة المكلف وليس بعد القتل حال تكليف ليكون فيه مصلحة، أما علموا بأن لنفوسنا خالقا بأمره نستبقيها؛ وبأمره نفنيها وأن لها بعد هذه الحياة التي هي لعب ولهو، حياة سرمدية وبهجة أبدية، وأن الدار الآخرة لهي الحيوان، وأن قتلها بأمره يوصلها إلى حياة خير منها772.

وإذا عرفنا حقّيقية التوبة فلابدّ من السؤال؛ لمن تتحقّق التوبة؟

1- لكل تائب لأن التوّاب عم العباد برحمته فشملهم أجمعين بقبول التوبة إذا كانت خالصة فقال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التوّاب الرّحيم}773. ويلاحظ في الآية الكريمة أنه تعالى بدأ بذكر اسم الله، ثم قال هُوَ يَقْبَلُ التوبة، وفي ذلك إشارة إلى "أن كونه إلها يوجب قبول التوبة، ويجب على الخليفة أن يفهم هذه المعاني، فيقبل التوبة من الجميع لا يمنعه بغض ولا حقّد، وأن ينأى

772 تفسير الالوسي، ج 1، ص 318.

773 التوبة 104.

بنفسه عن الانتقام الباطل وهو الذي يصدر عن هوى سرعان ما يقود إلى الندم.

2- للمتقي الذي يضطر لأي سبب من الأسباب إلى الوقوع في الذنب: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}774، والاضطرار هو: "كون الشيء بحيث لا يقدر الإنسان على الامتناع منه بسبب موجب لذلك"775، وهذه الحالة تحدث للمتقي أكثر من غير المتقي، لان غير المتقي لا يكون مضطرا بل هو مختار بنفسه لهذا العمل أو ذاك، فإذا أكل من محرم فباختياره في الغالب، أما المتقي فلا يأكل إلا مضطرا: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}776، هنا يتضح فعل التوّاب مع المضطر، الذي خصه التوّاب بآية في الذكر الحكيم فقال: {أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}777، وهي رحمة من عالم خبير بخلقه، يعلم أنه مخلوق يصاحبه الخطأ والزلل في جل أعماله، ضعيف أمام حاجاته الغرائزية والفطرية التي فُطر عليها خلقه، ما يدفعه إلى الاضطرار لفعل ما لا يرضاه التوّاب، هنا تأتي الرحمة بقبول توبة المضطر. أمام حاجاته الغرائزية.

3- النادم: الندم هو الشعور بالأسف لفعل سابق ورغبة صادقة في عدم العودة إليه لقباحته أو لتعارضه مع صراط التوّاب الرّحيم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ

774 الحجرات 12.

775 الفروق اللغوية، ج 1، ص 66.

776 البقرة 173.

777 النمل 62.

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}778، فالوارد في الآية دعوة صريحة إلى ترك العمل السيئ المتمثل بالظن السيّئ، والتجسس بغير حقّ، والغيبة، فجعلها الله من قبيح العمل حيث جاء التشبيه بما تشمئز منه النفس وذلك باستخدام صورة أكل لحم الميت لما فيها من قبح وذلك ليستشعر العبد قبح هذه الأفعال المخصوصة في الآية، ثم قال واتقوا الله وتلك التقوى تكون بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه، فإنكم إن اتقيتم تاب الله عليكم بتيسير ترك ذلك وتقبيحه في نفوسكم، ومثله قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التوّاب الرّحيم}779، والخليفة وبموجب ما يملك من علم يدله على النادم الصادق عليه أن يقبل توبة هذا النادم ويعفو ويتسامح ويغفر، وأن يجعل ما سلف منه من عمل ندم عليه في حساب أفعاله الحسنة فلا يعيره به ولا يجعله مانعا لخير قدر لهذا العبد.

4- لمستغفر تائب، يقول التوّاب: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}780، فقدم الاستغفار ثم الحقّه بالتوبة لأن القائل قد يقول: أستغفر الله وليس بتائب، فقد يقول: أتوب وليس في قلبه توبة كما تدل على ذلك الأفعال فهو كاذب، لأن التوبة اسم للرجوع والندم، أما الاستغفار فإنه فعل قولي ما أن ذكره حتى أصبح صادقا، لذلك قال واستغفره إنه كان توابا وفيه دلالة واضحة على ضرورة اقتران الاستغفار بالتوبة، وهذه التوبة لها نصيب عظيم من الأجر والثواب في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا هي من موجبات نعم الخالق على عباده، فهي التي تهدي العبد للرزق الحلال ويُبارك له فيه: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا ربّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ

778 الحجرات 12.

779 البقرة 159-160.

780 النصر 3.

مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ}781.

وهي التي تأتي بالغيث الذي غالبا ما يكون بعد الانحباس لان كلمة غيث تحمل معنى الإغاثة وهي المعونة لمعدم محروم: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قوّة إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}782، وهي التي توجب إجابة الدعاء: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}783، وهي التي تنزل بعدها الرحمة التي لا غنى لعبد مهما كان عنها: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}784.

5- الجاهل هو فاعل الفعل على محمل الصواب مع الشك فيه، وله توبة رحمة من التوّاب الرّحيم قال تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}785، وربّما يكون مصدر هذا الفعل هو الاضطراب بين الصواب والخطأ وهو ما يقع فيه الجاهل فيسيء التقدير: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النّاس إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}786، وهنا يأتي دور الخليفة الذي يجب عليه بعد التميز الدقيق أن يفسر بعض الأخطاء على أنها جهل من بعض العباد، فيقبل

---

781 هود 3.

782 هود 52.

783 هود 61.

784 هود 90.

785 النساء 17.

786 البقرة 273.

توبتهم ويقوم بتعليمهم الصواب لكي لا يعودوا إلى مثله فيكونوا من المصرين وهؤلاء لا توبة لهم.

6- للكافر توبة، يقول التوّاب: {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}787، والمعنى أن يتوب عليه منهم لحكمة والمراد يوفقه للإسلام والله غَفُورٌ يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي ورَّحِيمٌ يتفضل عليهم ويثيبهم بلا وجوب عليه سبحانه788.

7- للمشرك والزاني والقاتل وشاهد الزور توبة، يقول التوّاب الرّحيم: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}789.

الخالق خلق الإنسان عاقلا بعقل ليميز به بين ما يجب وما لا يجب، وبه يتدبر الأمر، وبه يتفكر ويتذكر، والهدف من ذلك التوبة والهداية، ولهذا فالعقل هو الصلة بين العبد وربّه، ليتوب عليه وهو التوّاب الرّحيم. وعليه أتساءل:

1 . هل يمكن أن يؤمن الإنسان بإرادة لو لم يكن عاقلا؟

2 . هل يمكن أن يتدبر أمره لو لم يكن عاقلا؟

---

787 التوبة 26-27.

788 تفسير الالوسي، ج 7، ص 198.

789 الفرقان 68-71.

3 . هل يمكن أن يتذكر لو لم يكن عاقلا؟

4 . هل يمكن أن يتفكر لو لم يكن عاقلا؟

5 . هل يمكن أن يتوب لو لم يكن عاقلا ومميزا؟

6 . هل يمكن أن يتضرع وهو ينتظر الإجابة من ربّه لو لم يكن عاقلا؟

7 . هل يمكن أن يُطلب منه قصاص لو لم يكن عاقلا؟

8 . هل يمكن أن يطلب منه أن يعدل أو يحكم بعدل بين النّاس لو لم يكن عاقلا؟

كل الإجابات بالطبع لا.

أ . لا يمكن أن يؤمن الإنسان لو لم يكن عاقلا مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرّسول يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}790، وقال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النّاس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}791.

ب . لا يمكن أن يتدبر الخليفة أمره لو لم يكن عاقلا مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرّسول وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا}792، وقال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ

790 الحديد 8، 9.

791 البقرة 44.

792 النساء 82، 83.

آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}793.

ج. لا يمكن للخليفة أن يتذكر لو لم يكن عاقلا، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}794، وقال تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ}795.

د. لا يمكن للإنسان أن يتفكر لو لم يكن عاقلا، مصداقا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}796، وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

793 محمد 21 ـ 24.

794 الزمر 27 ـ 29.

795 الدخان 58، 59.

796 الرعد، 3، 4.

يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ وَمِنْ آَيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آَيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}797.

هـ . لا يمكن أن يتوب الخليفة لو لم يكن عاقلا ومميزا، قال تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}798، وقال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}799

و . لا يمكن أن يتضرع الخليفة وهو ينتظر الإجابة من ربّه لو لم يكن عاقلا، مصداقا لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا

---

797 الروم 20 ـ 24.

798 النساء 17، 18.

799 المائدة 39.

خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا}800

د . لا يمكن أن يطلب منه قصاصا لو لم يكن عاقلا مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}801.

ر . لا يمكن أن يطلب منه أن يعدل أو يحكم بعدل بين النّاس لو لم يكن عاقلا، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}802، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}803.

8- للمتخلفين عن أمر الله ورسوله: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}804، والآية تدلل على شمول التوبة لكل العباد بشرط الإخلاص

800 الفرقان 68 ـ 77.

801 البقرة 178، 179.

802 النساء 58.

803 المائدة 95.

804 التوبة 105- 106.

في النية والعمل، فحتى الذين تخلفوا عن أعظم فرض (الجهاد)، ومع أعظم الخلق محمد صلّى الله عليه وسلّم كانت لهم توبة من لدن تواب رحيم.

9- للظالم: قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}805، والظلم من عظيم الذنوب لذا أوجب التوّاب أن يسبقه استغفار لتحصل التوبة على هذا الفعل، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسول لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}806، والخليفة لم يكن ليظلم ولكن يجب عليه عدم السكوت على الظلم، وأن يمنع الظالم من أن ينال من العباد إلى أن يحقّق العدل، وهو بعد ذلك يجب عليه قبول توبة الظالم إذا عاد عن ظلمه بالمطلق. فإذا كان الله توابا رحيما فلماذا لا يكون عباده كذلك وهم يستمدون هذه الصفة منه توابا عظيما؟

10- للمنافق: النفاق إظهار الإيمان مع إسرار الكفر، وهذا أمر يصعب على الإنسان تميزه لدى الآخر لكونه من بواطن الأمور، لكن العليم الخبير الذي يعلم السر وأخفى ويعلم كل شيء في السموات والأرض مصداقا لقوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}807، فهؤلاء تبقى توبتهم موقوفة على أمر الله لا يعلم تحقّقها من عدمه إلا هو: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}808.

805 المائدة 39.

806 النساء 64.

807 التغابن 4.

808 الأحزاب 24.

11- للمتذبذب بين الخير والشر: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}809، ويواجه الخليفة في مهمته الكثير من هؤلاء وعليه أن يصبر عليهم، وأن يدعوهم في كل حين إلى الصواب، وأن يعلمهم العمل الصالح الذي ينجيهم من السوء المهلك، فإذا وعوا ما هم فيه وعادوا إلى الحقّ وجب عليه قبول توبتهم، وهو بعد ذلك مراقب لما هم فيه فإن عادوا إلى السوء وجب عليه العودة إلى العقاب. قال تعالى: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}810.

هذه هي التوبة، فما هي شروط التوبة؟

أولا: النية: تتعلق النية بأعمال الضمير التي تخفى عن العباد ولا تخفى عن خالق العباد جلّ جلاله، وهي دليل على عدم المنافقة عندما تكون خالصة لوجه الله تعالى، وصفاء النية صلة تربّط التائب بمن تاب إليه، فتصبح معلومة لأثنين فقط هما: التائب والمتوب إليه وهو الله عزّ وجلّ، وإما الآخرين ستظل استقراءاتهم استنتاجيه فقط. ولذا تعد النية مكمن الحقّيقة تجاه الموضوع الإيماني أو أي موضوع آخر، والنية دائما تكمن في الصدور التي علم حقّيقتها عند الله جلّ جلاله. قال تعالى: {يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}811، ولذا إن خلصت النية صفت القلوب ووضحت الرؤية واستقام الأمر، وإن لم يتم ذلك يكون النفاق سيدا في ميادين التعامل بين النّاس، وحينها لا تجد

809 التوبة 102.

810 الإسراء 8.

811 آل عمران 154.

المصادق مكانا تستقر فيه. قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}812. ولأنّ النية هي مكمن الحقّيقة جاءت العبادات بكاملها قائمة على هذه الركيزة، فالشهادة النية مع الإظهار، والصلاة النية ثم الإظهار، وهكذا الحج النية شرطه الأساس، والزكاة والصوم كذلك. ولهذا قلنا: إنّ الظاهر هو ما ليس بكامن أو بباطن. فالظاهر هو:

ما ليس بكامنٍ ما يجعله خاضعا للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر. ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحليل ظواهر من بعدها، وهكذا تُحلل المعلومات وفق البيانات المشاهدة، والملاحظة والمحسوسة، سواء كانت سلوكا، أو شكلا، أو كما، أو فعلا؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من أجل التعرف عليه، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضحا، بل معظم الظواهر تحتاج إلى توضيح، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية. والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن، وبما ظهر عنه من أفعال، أو أقوال، أو إنتاج، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل، وهكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن.

الظاهر هو الذي لا يعد مخفيا عن المشاهدة والملاحظة ما يجعله بيّن للمعاملة والتعامل الموضوعي، وهو الذي من وراء ظهوره غاية، ما يجعله قابل للامتداد والحركة ويتجسّد في السلوك والفعل بالنسبة لِما يتعلق بالحياة البشرية. الظاهر ما ليس بكامن، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين النية والفعل، فالنية ساكنة كامنة إلى حين تتوفر معطياتها فتمتد من حيز سكونها إلى الظهور في الفعل والسلوك. ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة

812 الحج 46.

وعندما تغرس النواة في التربّة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها للمشاهدة والملاحظة وتنتهي النواة وتصبح هي الأخرى محمولة (كامنة) في النخلة عندما تثمر.

وعليه، فالإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خيّر أو شرير إلا بعد التعرف عليه عن قربّ بالمشاهدة والملاحظة والمشاركة. وكثيرا ما يكون الظاهر نتيجة للكامن، ووسيلة للتعرف عليه. ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف على الكامن، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر. ولهذا يتم التعرف على الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر بإصلاح الكامن. فالسلوك كظاهر، قد يكون أمام المشاهد سويا، أو مثالا أو فيه القدوة، ولكنه في الواقع، قد يكون غير ذلك، فالابن، أو الابنة كما سبق أن أوضحنا كثيرا ما يكونا أمام أسرتهما، وخاصة الوالدين، على خلق والتزام وأدب، ولكنهما في حقّيقة الأمر قد يكونا غير ذلك من ورائهما، فمن خلفهما قد يقومان بأكبر الانحرافات السلوكية، وعندما يتم إبلاغهما (إبلاغ الأبوين) بأن أحد أبنائهما منحرف مع الاتجاهات السلبية، فإنهما قد يفورا رافضين وبغضب هذا الادعاء، مع أنّه الحقّيقة، ولذلك الحكم بالظاهر على الظاهر قد لا يؤدّي إلى الصواب، والظاهر قد يكون شكلا وصورةً، وقد يكون قولا أو سلوكا، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعى في تقصي الحقّائق. في العلوم الطبية، والتحليل النفسي، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد والظاهر، إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية الدراسة، أو التشخيص، أو العلاج، لأن الحكم على الظاهر بمشاهدته ووصفه، أو تحليله وكأنه غاية في حد ذاته، قد لا يؤدّي إلى نتائج علمية، يمكن اعتبارها والاعتماد عليها، والظاهر قد يكون مشاهدا، وقد يكون محسوسا (ملموسا ومدركا) مثل ارتفاع حرارة المريض، التي باللمس يتم التعرف عليها، وعند قياسها يمكن تحديدها بدقة، ولكن

الذي يود أن يعرفه الطبيب، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي هو معرفة الأسباب التي تكمن ورائها، وعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي لمريض مصفر الوجه، هل يتوجه هؤلاء الأخصائيون إلى معالجة الاصفرار الظاهر؟ أم إلى البحث عما يكمن ورائه من علل، وأسباب؟ لذلك يكون الاصفرار كظاهر مؤشرا إلى البحث عن كامن، لأن الاصفرار مسبب، وبما أنه مسبب، إذن لابدّ وأن تكون له أسباب، ومسببين له، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرى ظاهرة بعد التعرف عليها، كأن يكون سبب الاصفرار هو مرض عضوي لا قدر الله في الكبد، أو المرارة وغيرها من المسببات الظاهرة، وقد يكون السبب غير ظاهر، كأن يكون سبب اصفرار الوجه الخوف من الامتحان، أو من نتائج مترتبة على ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدين والقانون أو المجتمع أو نتيجة مواقف قد تعرضه إلى الهلاك، وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حيالها، مثل الجندي في جبهة القتال، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك، دون أن يكون له رأي، أو حتى وجهة نظر في ذلك.

أمّا الكامن فهو:

الذي لم يبح به بعد برغم وجوده شاغل لحيز، وهو المضمون الذي عليه الظاهر، ولهذا فالمعرفة العلمية والمنهج الفلسفي بصفة خاصة يهتم بالظاهر والكامن في التعرف على الأشياء أو المواقف والظواهر والحالات الفردية والجماعية والمجتمعية.

الكامن ما ليس بظاهر، وفي ذلك يقول الخوارزمي في كتابه (مفاتيح العلوم) الكمون هو استتار الشيء عن الحس. ويقول إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلي الكمون هو: أن تكمن بعض الأشياء في بعض. وفي نظرية التعلم هو مقياس للفترة ما بين ظهور الدافع وحدوث الاستجابة.

ولذا فإن الكمون هو مكمن كل حقّيقة، وعلاقته بالظاهر كعلاقة السكون بالحركة، فهو الموجود في الذهن أو العقل ويشغل حيزا لا تراه العينين ولكن يدركه كل عقل ناضج سليم. وهكذا تكمن الأسرار في الصدور حتى يباح بها فتنتشر في ميادين المعرفة813.

والكامن في حاجة للاستثارة أو الاستفزاز وقد يظهر للعيان بما يُبذل من جُهدٍ، وقد يظهر شيء منه في فلتات اللسان، ولهذا لا ينبغي أن يغفل الخليفة في حال توليه المسؤولية عمّا يرد من فلتات اللسان، مع الملاحظة والمشاهدة الواعية واتقاء الله في كل كبيرة وصغيرة حتى لا يظلم أحدا.

معرفة الظاهر لا تتحقّق إلا بالتعرف على جوهره، على أسراره وخفاياه، فالإنسان يكمن في جوهره كما يكمن في بصماته، وعليه فدراسة الظاهر قد لا تكون غاية في ذاتها، بل الغاية فيما وراءها. ولذلك فإن تحليل البصمات لم يكن الغاية منه التعرف على البصمة، بل الغاية معرفة صاحبها أولا، ثم معرفة علاقته بالفعل المرتكب أو السلوك ثانيا، وثالثا معرفة العلل والأسباب التي دفعت الإنسان إلى ارتكابه، وهنا تكمن الحقّيقة موضوع البحث. وعندما يختفي الشيء عن الحس ولم يتم التعرف عليه بالمشاهد والملاحظ، يكون كامنا في الشيء ذاته. وليس معنى ذلك أن الكامن هو الذي لا يشاهد، فكثيرا من الأشياء الكامنة يمكن مشاهدتها، ولا يمكن التعرف عليها إلا بعد معرفة مكمنها، فالسارق قد يقوم بفعل السرقة، ولم يتم القبض عليه، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن السارق وآثاره لكي يبعد عنه الجريمة أو التهمة، وكأنه لم يكن سارقا، وبعد إجراء عملية المقارنة البصمتية، تم القبض عليه فكان هو السارق.

813 عقيل حسين عقيل، المفاهيم العلمية (دراسة في فلسفة التحليل) ص 231.

إذن الإنسان كظاهر يكمن في بصماته، كما تكمن المطر في السُحب، وكما يكمن الزيت في حبة الزيتون، وهكذا يكمن الكائن في النطفة وتكمن السنبلة في البذرة.

وبناء على ذلك قد يكون الكامن مشاهدا، وقد لا يكون كذلك. وقد يتوحَّد الكامن في الظاهر كما تتوحد الأسرة في أفرادها، والمجتمع في حشوده. ولذا فإن الزواج والطلاق والأسرة والمجتمع، لا يمكن أن تشاهد، ولكنها تُلحظ، وإلا هل هناك من يستطيع أن يرى (يشاهد) الزواج؟ لا يمكن أن يخضع الزواج للمشاهدة، بل الذي يخضع لذلك هو التقاء الزوجين (فردين) على موضوع متفق عليه بعقد شرعي ويعلن عنه ويُدعى النّاس إليه. إذن الذي تتم مشاهدته، هو الزوجين الذكر والأنثى، والعقد المكتوب بينهما على ورق، والنّاس الذين حضروا لأجل ذلك، وهذا كله لم يكن الزواج، بل هذه مراسم الزواج. الزواج توادد، وتقاربٌ وجداني يسمو بالزوجين إلى التباس بعضهما، حبا واشتياقا وفق اتفاق على مستقبل مشترك، يجعل الآخرين شاهدين على ذلك بأنه الحقّ، ومحرضين عليه. إذن الزواج كموضوع يكمن في العلاقة بين أسرة وأسرة، وذكر وأنثى، وهذه تُلحظ، ولا تشاهد بالعينين. والطلاق كموضوع هو الآخر يُلحظ، ولا يشاهد، وهكذا تكمن الأسرة والمجتمع في عناصرهما المكونة لكل منهما، ولا يخضعان للمشاهدة، لأن الذي يشاهد هم الأفراد، كبارا وصغارا، ذكورا وإناثا، وحشودا من البشر، وهؤلاء لم يكونوا هم الأسرة، ولا المجتمع، مع أنّهم عناصر تكوينهما، فبدون علاقات مشتركة ذات معنى لا يمكن للعناصر المشاهدة أن تعطي معنى للأسرة، أو المجتمع، ولهذا تتكون معارفنا من ظاهر وكامن وتوحُّد بينهما. فنحن نعرف الأبوة، والأمومة، والأخوة، ونعرف الخال والجد، ونعرف أيضا أن هذه المفاهيم جميعها لا تشاهد، لأنها كامنة ومترتبة على علاقات يمكن ملاحظتها.

هكذا النية تكمن خلف كل ظاهر من القول أو العمل أو السلوك أو الفعل، ولا وجود لصدق إلا بالنية التي لا يعلمها إلا صاحبها والله عزّ وجلّ، ولذا يقال إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.

الكامن، غير متيسر للمشاهدة مع أنّه يشغل حيّزا وقابلا للظهور: وهكذا النية تشغل حيزا ولا تقبل المشاهدة، إنها ذات علاقة بالضمير الذي يَكِنُّ في الصدور، ولأن النية كامن والكامن غير متيسر للمشاهدة برغم أنه يشغل حيزا، إلا أنه السابق على القول والفعل. فلو لم يكن الكامن ما كان الظاهر، الفكرة أولا وإظهارها والعمل بها ثانيا.

ولهذا فالكمون هو الأصل (النية هي الأصل)، حيث تكمن الأعمال في النيات، كما النخلة في النواة.

لذا: الظاهر هو النواة، والكامن هو النخلة. مثلما الزيت هو الكامن وثمرة الزيتون هي الظاهرة.

وعليه كل كامن قابل للظهور كلما توفرت اشتراطاته. وقابل للاستقراء والاستنباط كلما لوحظت ردود أفعاله، وقابل للإثبات والمقارنة كلما تلمسنا الأثر وشاهدناه.

ولهذا فالقاعدة هي:

1 . الكامن غير متيسر لمشاهدة.

2 . الكامن يشغل حيزا.

3 . الكامن قابل للظهور كلما توفرت معطياته.

والاستثناء هو:

1 . تيسر الكامن للمشاهدة.

2 . أن لا يشغل الكامن حيزا.

3 . انعدام قابلية الكامن للظهور.

وعليه:

1- يسِّر الأمر تُيسَّر لك الأمور.

2- يسِّر يتم تقبلك.

3- يسِّر تُغرس الثقة فيك.

4- يسِّر يتم الاعتراف بك.

ولهذا فالتيسير يُمكن من الآتي:

. التيسير يُمكِّن من نيل الاعتراف.

. التيسير يُمكِّن من غرس الثقة.

. التيسير يُمكِّن من إنجاز الأهداف.

. التيسير يُمكِّن من المشاركة والتفاعل.

. التيسير يُمكِّن من التقبل المتبادل.

. التيسير يُمكِّن من بلوغ الأغراض والغايات.

. التيسر يُمكّن من أحداث النقلة.

اعرف الكامن تعرف الحقّيقة في النية:

وبما أنه لا يمكن أن تعرف الحقّيقة إذا لم تعرف الكامن من أمرها.

وبما أنّ الفعل والسلوك ظاهرين والحقّيقة موضوع احتمال (في حالة شك) إذن قد تُرتكب الأفعال والسلوكيات وهي لا تحمل أو تُجسِّد حقّائق (بلا مصادق) ولهذا فلا يغرّك الظاهر.

إذن الظاهر قد يُغرر بمن يضع الثقة فيه.

وعليه:

ـ تأكد قبل أن تَقدِم.

ـ تبّين قبل أن تتخذ قرارا.

ـ خطط قبل أن تعمل.

ـ فكر حتى تعرف.

ـ لا تتسرع فالتسرع مصيدة.

ـ تأنى فكل شيء ممكن.

ـ تحقّق بمقارنة.

ـ دقق بملاحظة.

ـ استنبط بفطنة.

ـ حلل بمنهج.

ـ ابحث بطريقة ووسيلة وأسلوب.

ـ شك حتى ترى الحقّيقة بين يديك.

ولأجل أن يُسهم الخليفة في غرس الثقة، ويُسهم في إحداث النقلة، وفي صناعة المستقبل المفيد والنافع، عليه بمراعاة الآتي:

- التقصي والتتبع الدقيقين.

- الوقوف عند كل ردة فعل.

- تقييم السالب وتقويمه.

- اعتماد الموجب وعرضه.

- تحديد الأهداف بكل وضوح.

- الإصرار وإن واجهته الصعاب.

- تنفيذ الأهم قبل المهم.

الظاهر قابل للمشاهدة والملاحظة والكامن من ورائه ساكن:

كل خاضع للمشاهدة أو الملاحظة هو ظاهر، قولا كان أم فعلا أم سلوكا أم أثرا. وكل ما خُفي عن ذلك في حيز الوجود هو كامن كمثل كمون النية في الحقّيقة. فعندما تكون الفرحة ظاهرة على السطح، يكون الحزن فينا كامنا، وعندما تتوفر اشتراطاته أو معطياته يفور من حينه ليعلُن أنه قوّة قادرة على مداهمة واختراق كل الحواجز التي سترته قبل الظهور.

الحواس هي المِمكِّنة من الإدراك العقلي لكل ما هو ظاهر وما هو كامن، وحيث ما يكون الظاهر في الصدارة متحركا يكون الكامن من ورائه ساكنا، وقد يتماثل الظاهر مع الكامن وقد لا يتماثل، فعندما يكون القول كاذبا بطبيعة الحال يكون مخالفا للحقّيقة. وعندما يكون صادقا يصبح ممّاثلا لها، وهكذا في كل أمر. وعندما تُترجم الأقوال الظاهر في سلوكيات وأفعال تمر شخصية الإنسان حسب مواقفها من الحقّيقة بخمسة مستويات قيمية هي:

1 . الاتزان الانفعالي لا سالب ولا موجب (ذاتية حيث التمركز على قيم المجتمع).

2 . الميل لأخذ المواقف السالبة (الميل إلى ما لا يُرضي الآخرين، حيث الانسحاب من بعض القيم الاجتماعية).

3 . بلوغ قمة المواقف السالبة (الشخصانية حيث ظهور السلوك الأناني والتفكير في الأنا فقط).

4 . الميل لأخذ المواقف الموجبة (التطلّع لكل مرضي حيث المنطق والحُجة).

5 . بلوغ قمة المواقف الموجبة (الموضوعية حيث العقل سيد الميدان مع الرقي في حُسن التصرف).

وبناء على ما سبق فإن القاعدة هي:

1 . الظاهر يُشاهد.

2 . الظاهر يُلحظ.

3 . الكامن ساكن.

4 . وراء كل ظاهر كامن.

والاستثناء هو:

1 . انعدام مشاهدة الظاهر.

2 . انعدام ملاحظة الظاهر.

3 . انعدام سكون الكامن.

4 . أن لا يكون وراء الظاهر كامن.

الظاهر مُثبت بالقول والفعل والسلوك والأثر:

بما أنّ الظاهر قابل للمشاهدة والملاحظة، ومثبت بالفعل والسلوك ويترك أثرا.

إذن فهو قابل للنفي والإثبات.

ولذا فالقاعدة هي:

1 . الظاهر مُثبت بالقول.

2 . الظاهر مُثبت بالفعل.

3 . الظاهر مُثبت بالسلوك.

4 . الظاهر مُثبت بالأثر.

والاستثناء هو:

1 . الظاهر لا يُثبته القول.

2 . الظاهر لا يُثبته الفعل.

3 . الظاهر لا يُثبته السلوك.

4 . الظاهر لا يُثبته الأثر.

ولذا، فالقواعد تُثبت وجود قضايا، والاستثناءات تنفي وجودها. ومع ذلك تخضع أدلة الإثبات إلى التقويم في دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع).

ولهذا ليس كل فعل أو سلوك يُحّث أو يُحّرض عليه فهناك البعض السلوكي يُنهى عن ارتكابه، وهناك المحرم منه، حيث لا يُحرِّض عاقل على فعل مُشين، ولا يُحرِّض خليفة على محرم أو منهي عنه، إنه المتقي لله في كل

قول، وبما أنه لا يتم التحريض من قبل عاقل على كل فعل أو سلوك لا يليق بالخلق.

إذن الانتباه إلى القواعد هو الأساس في التمييز بين ما يجب وما لا يجب. فالقاعدة تتمركز على التبيّن. والاستثناء يتمركز على الغموض.

وعليه:

- تبيّن قبل أن تَقدم.

. تبيّن قبل أن تَنسحب.

- تبيّن قبل أن تَفعل.

- تبيّن قبل أن تَسلُك.

- تبيّن قبل أن تحكُم.

- تبيّن قبل أن تَقدِم.

- تبيّن لتقف على اليقين.

يخرج الظاهر من الكامن:

يتداخل الظاهر مع الكامن في علائق قيمية وترابط متين مثلما يتداخل المتوقّع وغير المتوقّع في دائرة الممكن. وعليه يكون الإيمان سابقا على السلوك والفعل المترتب عليه، كما تسبق الخيانة أو الردة السلوك أو الفعل الذي يرتكبه الخائن أو المرتد.

ولأنّ علاقة قوية تربّط دائرة الظاهر والكامن، بدائرة المتوقّع وغير المتوقّع، لذا فبالضرورة أن يكون في دائرتيهما ما هو محتمل بالسالب وما هو محتمل بالموجب.

ولذلك فعلى الخليفة أن يضع في حسبانه واحتمالاته ظهور السالب والموجب المتوقّع، وأن يضع في حسبانه أيضا ظهور السالب والموجب غير المتوقّع. وفي مقابل ذلك يتوقع الكامن السالب والكامن الموجب، وكذلك غير المتوقّع السالب وغير المتوقّع الموجب.

وعليه إذا لم يضع في حسبانه واحتمالاته كل ذلك سيفاجأ بما هو غير متوقع وبالتالي لن يتمكن من ترسيخ القيم والفضائل التي تجعل من البشر خلائف في الأرض مصلحين غير مفسدين ولا سافكي دماء بغير حقّ، ولذا:

- في حالة التماثل العلائقي، يتماثل الفعل الموجب مع الكامن الموجب.

- في حالة عدم التماثل العلائقي، يختلف الفعل السالب مع الكامن الموجب.

- في حالة عدم التماثل العلائقي، يختلف الفعل الموجب مع الكامن السالب.

الثقة في حالة اهتزاز بين كامن وظاهر:

الثقة قيمة أخلاقية تُغرس فيمن يستطيع حملها، وتُنزع ممن لا يستطيع. ومع أنّها لا تُغرس بقرار، إلا أنها قد تنزع به. غرسها يحتاج إلى زمن ومعطيات مرضية وقبول إرادي، أما نزعها فمترتب على فعل أو سلوك سالب أو مجموعة أفعال سلبية، مرتكبة عن وعي وقصد.

ولهذا يتضح اهتزاز الثقة وثباتها في الآتي:

قول موجب + فعل سالب. لا يؤدّي إلى غرس الثقة.

قول سالب + فعل موجب. لا يؤدّي إلى غرس الثقة.

نية صادقة + قول صادق + فعل صادق = حقّيقة نافعة. تؤدّي إلى غرس الثقة.

نية كاذبة + قول صادق (ظاهريا) لا يساوي حقّيقة.

بلا شك هناك علاقة موجبة أو سالبة تربّط الظاهر بالكامن.

في حالة التماثل العلائقي يتماثل الفعل الموجب مع الكامن الموجب.

في حالة عدم التماثل العلائقي لا يتماثل الفعل السالب مع الكامن الموجب.

في حالة عدم التماثل العلائقي يختلف الفعل الموجب مع الكامن السالب.

وعليه أينما يكمن السالب يكمن الضعف فيه.

وأينما يكمن الموجب أو يظهر تكمن القوّة فيه.

يستقرأ الكامن من الفعل الظاهر:

اللسان ينطق يتكلم وقد يقسم لك بما يعتقد أنه مُمَكِّن لك من تصديقه، ومع ذلك قد لا يكون صادقا.

المزوّر أو الخائف قد يُظهر لك الوثوق وعدم الخوف في نفسه، ومع ذلك بالملاحظة ينكشف سره أو أمره.

وعليه لحن القول علامة تستوجب أخذ الحيطة من الذي يَلحَنُ في قوله.

عدم الثبات أثناء الحديث الموضوعي يستوجب وضع علامة الشك على صاحبه.

جفاف الحلق، واصفرار الوجه، وتصبب العرق، وعدم السيطرة على حركة اليدين (ارتعاشهما) أثناء المواجهة التقييمية أو الاختبارية لما هو كائن، هي

علامات دالة على الخوف والارتباك في اتخاذ المواقف والتردد عنها. ولذا فهي تتأرجح بين المتوقّع حينا وبين غير المتوقّع حينا آخر.

ولذا فالقضايا الصادقة ذات الحقّائق الظاهرة تُمكّن من الآتي:

1 . نيل الاعتراف.

2 . غرس الثقة.

3 . إنجاز الأهداف.

4 . المشاركة الفعّالة.

5 . التقبل المتبادل.

6 . بلوغ الأغراض والغايات.

ثانيا: الإدراك عن وعي: يعد الإدراك شرطا من شروط التوبة، وإلا هل يظن بأن يتوب الإنسان وهو لا يدرك الأمر الذي به يؤمن؟ الإدراك استيعاب عن وعي، وهو قيمة معرفية تربّط الوجود بالمكانة، كما يرتبط التاريخ بالعبر. النظر فيها لا يُغض بين الأنا والآخر، في قاموسها الاجتماعي لا مكانة للاستهانة التي تُفرِّق بين المرْء وزوجه. ونتيجة لقيمة الاعتبار وتقديرها لا يُغيِّب أنا آخر، ولا يسعى لتجاهله في كل أمر يتعلق بهما، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. من خلال حقّوق تمارس وواجبات تؤدى ومسؤوليات يتم تحملها.

الاعتبار مكانة تُعطى لمن يستحقّها من الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولذا لا يتم الإغفال أو غظ النظر عمن هو ذو مكانة اجتماعية أو علمية أو نفسية أو أخلاقية أو دينية إيمانية. فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تُخفى

أبدا، ولذا فهي تُقدّر. والقاعدة تقول اعتبرني أعتبرك وإذا تجاهلت وجودي أتجاهل وجودك.

ثالثا: التفهم: التفهم إلمام بالموضوع والظروف المحيطة به والمعطيات التي أظهرته على السطح أو أنتجته بين الأيدي، وهو دراية عن كثب ومعرفة تامة بأسبابه وعلله ومبرراته وخفاياه المؤلمة والمفرحة السالبة والموجبة.

إنّه تقدير للظروف التي أثرت في الحالة أو أثرت على السلوك والفعل، وهو دراية بما ينبغي أن يتم حيالها، وكيف ومتى وأين يتم؟

التفهم قيمة تقديرية يُقدِّر فيها الأنا الآخر. ويفسح له مجالا واسعا يسمح له بالحركة والامتداد الحر، وباعتماد التفهُّم قيمة بين الأفراد والجماعات والمجتمعات تقدّر ظروف كل خصوصية وتحترمها ممّا يؤدّي إلى تفعيل مبدأ التقبل الذي يترتب عليه تأثير وتأثر موجب، وتخفيف للآلام وعلى ضوئه يتحقّق التوافق الاجتماعي. ولذا فالتفهم لا يتم إلا بالتبيُّن الذي هو مأمور به في القرآن الكريم مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}814

ولأن التفهم قيمة ذات فضائل محببة بين المستخلفين فيها لذا لا إكراه في الدين مصداقا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}815.

---

814 النساء 94.

815 البقرة 256.

رابعا: الاعتبار: الاعتبار فيه الانتباه وأخذ العبر ممّا سبق وهو مفيد لأن يوضع في الحسبان في الوقت الحاضر والمستقبل فيكون للخليفة نصب العينين، فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، فلا تغرنّك أيها الخليفة بالله الغرور، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}816. والخليفة المعتبر هو الذي ينال التقدير والاحترام من الآخرين عندما يكون قدوة لهم في القول الحقّ والفعل الحقّ، ولهذا كان جميع الأنبياء والرّسل قدوة حسنة في شعوبهم وبلدانهم وقراهم وأممهم وكان محمد عليه الصّلاة والسّلام قدوة حسنة للكافة، فمن اقتدى بسنّة محمد كان معتبرا ومن لم يقتدِ بعد هو في حاجة لمن يهديه للحقّ، وهذه رسالة الخليفة فلا ينبغي أن يتأخر عنها بالتي هي أحسن. قال تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا}817، وقال تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُلْ ربّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ ربّ أَنْ يَحْضُرُونِ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ ربّ ارْجِعُونِ}818.

خامسا: التوفيق للتوبة: قال تعالى: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التوّاب

816 الحشر 2.

817 الإسراء 53، 54.

818 المؤمنون 96 ـ 99.

الرّحيم}819. وقد وفق التوّاب آدم إلى التوبة بأن تلقى آدم من ربّه كلمات" الكلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنّك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربّي إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الرّاحمين. اللهمّ لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربّ إنّي ظلمت نفسي فتب عليّ إنّك أنت التوّاب الرّحيم"820.

خامسا: الترك المطلق للفعل، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، وهذا الأخير هو التوبة، والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة. قال تعالى: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرّحمن قُلْ هُوَ ربّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}821.

والتوّاب من العباد هو العبد الكثير التوبة، وذلك بتركه كل الوقت بعض الذنوب على الترتيب حتى يصير تاركا لجميعه، وقوله: {ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا}822، أي: التوبة التامة، وهو الجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل823.

819 البقرة 36-37.

820 تفسير الطبري، ج 1، ص 545.

821 الرعد 30.

822 الفرقان 71.

823 مفردات ألفاظ القران الكريم، ج 1، ص 149.

سادسا: الإنابة إلى الله: فالتوبة إلى الله، تقتضي الإنابة. نحو: {فتوبوا إلى بارئكم}824، ونحو قوله تعالى: {وتوبوا إلى الله جميعا}825، حيث يشعر العبد أن لا أحد يستطيع إنقاذه ممّا وقع منه من عمل إلا التوّاب فيعود إليه: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التوّاب الرّحيم}826.

سابعا: التصدق: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التوّاب الرّحيم}827، فليس المراد من الصدقة، الصدقة المفروضة أعني الزكاة لكونها مأمورا بها وإنما هي على ما قيل كفارة لذنوبهم حسبما ينبئ عنه قوله عزّ وجلّ تُطَهِّرُهُمْ أي عمّا تلطخوا به من أوضار التخلف. تُطَهِّرُهُمْ بمعنى طهره، وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا أي وأنت تزكيهم بها فتنمي بتلك الصدقة حسناتهم وأموالهم أو تبالغ في تطهيرهم، وكون المراد ترفع منازلهم من منازل المنافقين إلى منازل الأبرار المخلصين ظاهر في أن القوم كانوا منافقين، وبِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ أي ادع لهم واستغفر828.

وكما للتوبة شروط فإن لها موانع، ومن أهم موانعها الإصرار، وهو أنواع، كالإصرار على الكفر، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التوّاب الرّحيم إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ

---

824 البقرة 54.

825 النور 31.

826 التوبة 118.

827 التوبة 102-104

828 تفسير الالوسي، ج 7، ص 351.

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنّاس أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرّحمن الرّحيم}829، واضح من سياق الآية أن الكلام فيها يخص نوعين من العباد، نوع لم يصر فكانت له توبة، والآخر أصر على الكفر فليس له إلا العذاب الأليم.

ومن موانعها التأخير وهو وجه من وجوه التهاون والإهمال في طاعة التوّاب الرّحيم فقابله بمثله: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}830.

والإشراك بالله من موانع التوبة: {قَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}831.

والنفاق من موانعها أيضا: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ}832، ويقترن النفاق بالعقيدة إذ أن هذا التردد بين التوبة وعدمها من خلال العودة إلى الذنوب السالفة مرده فساد الاعتقاد عند العبد، فتراه يظن بالله ظنا لا يليق بجلاله: {يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحقّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى

829 البقرة 160-163.

830 النساء 18.

831 المائدة 74.

832 التوبة 125-126.

مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}833، بينما يذهب بعض فُساد العقيدة إلى نفي الوجود، فلا جنة في اعتقادهم ولا نار وإنما هي الحياة الدنيا فيها محياهم وفيها مماتهم: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}834، ودور الخليفة يكمن في مراقبة العقائد من حوله والأخذ على الفاسد منها بالحسنى أولا: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}835، ومناصرة عقيدة الحقّ عقيدة التوحيد والإخلاص لله وحده.

من ذلك كله يجب أن يفهم الخليفة أن من مهماته أن يقبل التوبة، وأن يشيع التسامح، وألا يميز قريب بالقبول، ويحرم بعيد بالرفض بل يكون عادلا في النظرة إلى العباد فيساوي بينهم إلا بالعمل الصالح لأن التوّاب الذي استخلفه يقول: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ}836.

**من صفات النبي هود:**

1 ـ رسول الله، {قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ}837

2 ـ نبي الله.

3 ـ متوكّل على ربّه، {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا}838

833 آل عمران 156.

834 الجاثية 24.

835 النحل 125

836 غافر 58.

837 الأحقّاف 23.

وَقالَ تَعَالىَ فِي هُوْدٍ عَليْهِ السَّلامُ: {وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ}

4 . داع لله، {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}839.

5 . مجادل، {أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ}840

6 . مبشّر، {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}841

7 . شهيد مستشهد بقوله تعالى: {إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}842

8 . متحدٍّ، {أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ}843 أي كلّما ازداد قومه عنادًا واستكبارًا عن الحقّ تحداهم هود عليه السّلام وتحدّى أصنامهم معلنًا براءته منها؛ وهو المتوكل على الله المتفرد بالألوهية والقاهر لمن لم يؤمن به الحقّ.

9 . متوكّل على الله، {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}844

---

838 هود 56.

839 الأعراف 56.

840 الأعراف 71.

841 الأعراف 69.

842 هود 54.

843 هود 54، 55.

844 هود 55، 56.

10 .كاشف الحقّيقة لقومه، {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}845.

11 . ناصح قومه، {وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ}846

**دعوة هود:**

دع هود قومه إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام، وقد ذكّر هود قومه بنعم الله عليهم ليوصلهم إلى وجوب شكر المنعم بتوحيده، ومن هذه النعم استخلافهم بعد قوم نوح وزيادة أجسامهم بسطة في الطول والقوّة وإرسال المطر وغيرها من النّعم، ولكن كل هذا التذكير بنعم الله عليهم وبقوم نوح من قبلهم الذين دمرهم الله بشركهم وكلّ التخويف من بأس الله لم يزدهم إلا استكبارًا وعنادًا للحقّ {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة}847. ومن هنا كانت السفاهة فيهم حتى أنّهم قد وصفوا هودًا عليه السّلام بالسفاهة وأنّ بعض آلهتهم أصابته بسوء، وأنّهم لن يتحوّلوا عن دين آبائهم.

ويبين لهم هود عليه السّلام أنّ هذه الأصنام ليست إلا مجرّد أسماء ولا حقّيقة لمسمياتها وليس لها صفة الألوهية؛ لأنّها من اختراع آبائهم فيقول لهم: {أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}848. ومع ذلك أزداد قومه عنادًا واستكبارًا عن الحقّ؛ فتحدّاهم هود عليه السّلام وتحدّى أصنامهم معلنًا براءته منها؛ لأنّه متوكّل على الله

845 الأعراف 71.

846 الأعراف 68.

847 فصلت 15.

848 الأعراف 7.

المتفرّد بالألوهية: {قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}849. وهكذا أستمرّ قوم هود على عنادهم وفرارهم من التوحيد متمسّكين بأصنامهم إلى أن أنزل الله بهم العذاب بالرّيح العاتية الشديد بردها وصوتها وهبوبها: قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاس كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}850. وهكذا كانت النهاية رحمة للمؤمنين، وهلاك للكافرين851.

وعليه:

أرسل الله عزّ وجلّ نبيّه ورسوله هودا عليه الصّلاة والسّلام إلى قومه عاد وكانوا يسكنون الأحقّاف. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "وادٍ بين عُمان وأرض مَهْرَه". وقال ابن إسحاق: "الأحقّاف رمال فيما بين عُمان إلى حضرموت". وقال قتادة: "الأحقّاف رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن". ولا خلاف بين هذه الأقوال، فهي تدلّ على مكان واحد جنوب الجزيرة وقربّ حضرموت. وقد ظهر فيهم الشرك بالله تعالى وكانوا أوّل من أظهره وعبد الأصنام بعد هلاك قوم نوح عليه السّلام بالطوفان، فأرسل الله تعالى إليهم رسوله هودا عليه السّلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهاهم عن عبادة غيره"852.

بداء هود دعوته الكريمة بالدّعوة إلى توحيد الله تبارك وتعالى، كما هي بداية دعوة جميع الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام، قال الله عزّ وجلّ:

---

849 هود 54، 55.

850 القمر 19 . 21.

851 عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، ص، ص 211.

852 حماية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حمى التوحيد، ص، 65.

{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ ربّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ ربّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}853

تبيّن هذه الآيات أنّ بداية دعوة هود عليه السّلام كانت الدعوة إلى توحيد الله عزّ وجلّ وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له، وردّهم إلى الصّراط المستقيم الذي انحرفوا عنه. ولذلك جاء إعلامه لقومه أنّه لا طمع له في أجر منهم إنّما أجره على الله جلّ جلاله. ومن ثمّ كان سؤاله لهم الاستجابة لأمر الله، {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ}854. ومع ذلك كذّبون ووصفوه بما لم يكن فيه. وفوق ذلك كان صبورا من أجل الحقّ والعمل على إحقّاقه.

فقد ناصبوه العداء واتهموه بالسفه وضعف العقل، وكذّبوا دعوته، وأصروا على ما هم عليه من الشرك والضلال، وهو صابر على أذاهم، مستمرّ في دعوتهم إلى الله تعالى مرشد لهم إلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدّنيا والآخرة، محذّر لهم من عذاب الله الأليم في حالة ما إذا أصرّوا على إعراضهم وكفرهم وتكذيبهم له عليه الصّلاة والسّلام.

وعليه كانت نهاية قوم هود بما فعلت أيديهم؛ فهم مَن أشرك واتخذ من دون الله أربّابا، وذلك بعد أن هلك الفساد والمفسدين والكفرة من على الأرض على يد معجزة نوح عليه الصّلاة والسّلام، أي ظهر الفساد والشرك من بعده على أيدي قوم هود عليه السّلام.

---

853 الأعراف 65 . 69.

854 هود 51.

ومع ذلك فقد حاول هود أن يغيّر أحوالهم من الكفر والشرك إلى الإيمان، فذكّرهم بنعم الله عليهم وحذّرهم من عذابه، ومع ذلك لم يزدادوا إلا عتوا واستكبارا وسخرية به وبدعوته واستهزاءا، فأرسل الله تعالى عليهم عذابه ريحا شديدة، وسحابا ظنوه مطرا ورحمة وهو العذاب الأليم. قال الله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}855.

إنّه رحمة الله على عباده الذين أمنوا مع هود عليه السّلام، أي أنّ إهلاك الفساد والمفسدين في الأرض لا يكون إلّا رحمة. {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}856.

**هود متوكّل متحدّ:**

قال ابن كثير في تفسيرها، عندما لا تستطيع شيئا من الأمر. قل: {حَسْبِيَ اللَّهُ}، أي: الله كافي مَن توكل عليه، و(عَلَيْهِ يتوكل الْمُتَوَكِّلُونَ)، كما قال هود عليه السّلام حين قال له قومه857: {إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا}858

855 الأحقّاف 34 . 26.

856 فصلت 46.

857 تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حقّ الله على العبيد، ص، 120.

858 هود 54.

هود عليه السّلام قال له قومه: {مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ}859 وفي هذا يقول شارح العقيدة الطحاوية: "إنّ الآية التي جاء بها هود هي أنّه جاء إلى أمّة طاغية باغية قويّة، وكان مستضعفا، ومع ذلك وقف أمامهم متحديا وغير خائف، وجاءهم بأدلة مقنعة من حيث توحيد الله عزّ وجلّ، واتباع المرسلين"860.

**منهج هود الدعوي:**

وقد سلك هود عليه السّلام في دعوة قومه منهجا راشدا وطريقا واضحا، يمكن تلخيصه فيما يلي:

ضربّ لهم المثل بما أصاب قوم نوح من قبلهم، وما وقع منهم من عناد ومكابرة، وإصرار على الزيغ والضلال، وكيف دمّر الله عليهم سعادتهم حينما بغوا وتجبّروا، وأصروا على الباطل والاستكبار، مذكرا إيّاهم بنعم الله عليهم، إذ زادهم في الخلق بسطة، وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}861، وذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم محاولا إقناعهم بالرجوع إلى طريق الحقّ، مبيّنا لهم أنّ الله تعالى جعلهم وارثين للأرض من بعد قوم نوح، الذين أهلكهم الله بذنوبهم، وزادهم قوّة في السلطان وفي الأجسام، وذكّرهم بإعطائهم الخيرات الجليلة من الأنعام والبنين، والحدائق والمياه، وخوفهم من العذاب الأليم، وانقلاب النعمة إلى نقمة إذا لم يؤمنوا بالله وحده.

ومن منهجه عليه السّلام القول اللين، والخطاب الجميل، وعدم مقابلة الأذى بمثله، ويتضح ذلك عندما رماه قومه بالسّفه والكذب، حيث ردّ

859 هود 53.

860 أصول العقيدة – عبد الرّحيم السلمي، 9، ص 6.

861 الأعراف 69.

عليهم قائلا: (يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن ربِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ ربِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ).

وقد استعمل معهم أسلوب الجدل عندما أصر زعماؤهم على عبادة الأوثان، وقالوا للنبي هود عليه السّلام أنّه لم يأتهم ببيّنة واضحة على صحّة ما يدعو إليه، وقالوا له: إنّهم غير تاركي آلهتهم، ولن يؤمنوا به، وزعموا أنّ آلهتهم قد مسته بضرّ، فصار يتكلّم بأقوال باطلة، فأجابهم هود عليه السّلام بأنّه يشهد الله، ويشهدهم بأنّه بريء من الشّرك الذي هم فيه"862، فقالوا له: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ربِّي وَربِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ ربِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ ربِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ ربِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}863، ولما ضجرت عاد من نبيها هود عليه السّلام، تحدوه أن يقع فيهم إنذاره ووعيده، عند ذلك قال لهم هود عليه السّلام لابدّ أنْ يقع عليكم غضب من الله تعالى فانتظروا عذاب الله، وإنّي معكم من المنتظرين. قال تعالى: {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن ربِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَب"864.

وعليه فالمنهج هو نتاج التدبّر الفكري والعقلي الذي به يتمّ الاسترشاد بما يجب إلى ما يجب، ومن هنا ترك النبي هود منهجا عقليا وفكريا فيه من الحوارات والمجادلات ما يكفي لمن أراد أن يتجنّب الوقوع في الأخطاء أو

---

862 منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 181.

863 هود 53 . 57.

864 منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 181.

المخالفات أو الجرائم والمعاصي والمنكرات إذا أراد أن يبني له مستقبلا يمكّنه من بلوغ الغايات ونيل المأمولات.

ومن ثمّ فبالمنهج تتضح الرّؤية، عمّا هو كائن وعمّا يجب أن يكون، مع تقديم بدائل وفقا لكل أولوية ولكل تداخل وتتابع في الفكرة والكلمة والجملة والنصّ أو الخطاب.

فالمنهج لا يستقل عن النصّ بأيّ حالة من الأحوال، ولهذا لا يمكن كتابة المنهج فالمنهج لا يُكتب ولكن يكتب عنه. مثلما نفعل الآن نكتب عن المنهج لنُعرِّفَ به الآخرين مثلما عرفنا نحن ممّا ترك النبي هود عليه السّلام.

ولهذا؛ فالمنهج لا يمكن أن يستقل بذاته عن غيره رسالة أو نبأ أو نظرية أو نصٍ أو خطاب، ولذا مع أنّ المنهج لا يُكتب، إلا أنّه يُكتب عنه.

به تُستبين المسارات الفكرية والاتجاهات المحمولة فيها، وبهذا فهو الكيفية التي بها تتم صياغة الموضوع وكيفية تقديمه للقراء والمستمعين أو المتعلمين حتى يتمكنوا من استنباطه ومعرفته عن كتب، وهكذا يتم إدراك المنهج استقراء واستنباطا بما يُكتب به وبما يُكتب عنه.

ويكون المنهج متينا بقوّة رسالته وترابط أفكاره وبناء قواعده، ويكون ضعيفا بتفكك أفكاره وبنيان قواعده، فالمنهج هو الذي يمدّ المفكرين والباحثين بما يُمكِّنهم من استقراء الفكرة وما تدل عليه وما تحمله من متوقّع وغير متوقّع سواء أكان سالبا أم موجبا، ويمدّهم بكيفية التمسك بما هو موجب والحياد عمّا هو سالب.

إنّه ناظم المعلومة في الفكرة وناظم الفكرة بالمعلومة، وناقلها بها إلى الطريقة المترجمة له في كل خطوة من خطواتها في الحجّة والفعل والسّلوك.

وهنا؛ فالمنهج هو الكيفية التي بها يتمّ توليد الفكرة من الفكرة، وتوليد الحُجَّة من الحُجة، من أجل رؤية المستقبل والتطلّع له قبل وصوله، كما كان يجادل النبي هود من أجل حياة آمنة وعادلة ومستقبل كلّه جنّة، وهكذا يكون المنهج من أجل التطوُّر والتقدم إلى ما هو أفضل وأجود وأنفع.

وبما أنّ المنهج هو الذي به تُفكك المعلومة وتُركَّب. إذن فهو الذي به يتم الانتقال من الكلّ إلى الجزء ومن بعده يتم الانتقال إلى المتجزئ. وبناء على هذه القاعدة كان جدل هود عليه السّلام من أجل معرفة الحقّيقة الكامنة في الكلّ والحقّيقة الكامنة في الجزء والحقّيقة الكامنة في المتجزئ. وعليه أصبح البحاث يمتدون في تقصيهم المعرفي من كلٍ إلى جزءٍ إلى متجزئ منه، وحسب خصوصية كل موضوع وكذلك منهم من يمتد في بحثه بداية من المتجزئ إلى الجزءٍ ومن ثم إلى الكل.

والمنهاج هو الذي يُعلِّمنا:

.كيف نفكّر؟

.كيف نتعلم؟

.كيف نشاهد ونتابع عن وعٍ؟

.كيف نُلاحِظ ونستقرأ الفعل وردود الفعل؟

. كيف نربّط علاقة بين متغيرين أو أكثر، أو كيف نكشفها للآخرين ونيسّرها لهم؟

ولهذا؛ فالمنهج لم يعد كما يظن البعض قالبا ثابتا لصهر الأفكار مثل القوالب التي تُصهر فيها المعادن تحت درجات حرارة عالية، بل أصبح المنهج اليوم قواعد معيارية يُمكن أن تقاس به الأقوال والأفعال والسلوكيات، وتحدد على ضوئه الاتجاهات وتستقرا نتائجها المستقبلية ممّا يجعل البحاث

يرسمون لها الخطط في دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع). ولهذا فالمناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع لتبحث فيها، هذه المناهج اجترارية، فهي كمن يَلُكّ العِلكة أكثر من مرّ ثم يرى غيره ليلكّها من بعده، فهذه المناج لا تُمكِّنَ الباحث من توليد الفكرة من الفكرة، والمعلومة من المعلومة، والأحدث من الحديث، والأجد من الجديد، والأنفع من النافع. فالمناهج التي تُمكّن من كل هذا هي التي تجعل المجتمع بأسره في حالة حركة متجددة، وفي حالة تسابق ومنافسة وتطلّع من أجل بلوغ أمانيه وغاياته بكلّ رغبة مع أخذ الحيطة والحذر من كلّ انتكاسة.

ولأنّ البحوث تختلف باختلاف مواضيعها، ودرجة اهتمام الباحثين أو المجتمع بها، لذا فهي تتطلب مناهج علمية مرنة تُمكِّن الباحثين من الوصول إلى أهدافهم العلمية بأقصر الطرق، وأقل التكاليف، وتقدم الموضوع بخطوات يمكن مراجعتها والتأكّد منها، ومع ذلك لم تكن المناهج قوالب جاهزة كما يعتقد البعض، بل أنّها ذات الأساليب المتنوعة والمتعددة، ولهذا لا داعي إلى فرضها على الآخرين نتيجة خصوصياتهم وخصوصيات مواضيعهم، التي تتطلّب أساليب مرنة تراعي خصوصياتهم التفافية والتعليمية والدينية والعرفية أثناء تجميع المعلومات، وتحليلها، وتشخيص حالتهم، واستخلاص النتائج منها.

ونحن في هذا العصر يجب أن تكون مناهجنا موضوعية مفتوحة وغير مقفلة (استيعابية وتطلّعية)، فالمناهج المقفلة مناهج استهلاكية غير منتجة، تتقيد بالتكرار الذي لا يفتح آفاق التعلم واكتساب الخبرة أمام منتهجيه، أمّا عندما تكون المناهج مفتوحة ومُتقنة فإنّها تكون مناهج استيعابية، تستوعب تطلعات الباحثين وحتى شطحاتهم، ممّا يجعل بحوثهم إبداعية، أو التي منها يأتي الجديد.

وكما أنّ لكل فرد منهج خاصّ به في حياته العادية يسير عليه سلوكا وأسلوبا في تعامله مع الآخرين، ويتميّز به عنهم، كذلك الباحث ينبغي أن يكون له منهجا يصطبغ بخصوصية موضوعه، وعليه ينبغي أن يهتم الباحث بالمنهج الذي يستوعب شطحاته التي منها قد يأتي الابدّاع، وكثيرا ما يوصف إبداع المبدع في البداية بأنّه شطحات، ويكون في النهاية إضافة علمية جديدة، ممّا يبطل آراء البعض المنادين بالتقيد ببعض الاتجاهات المنهجية التي لا تنتج إلا التكرار. ولهذا فلا داعي للتمسّك بالمألوف كما تمسّك قوم عاد بكفرهم؛ فالمألوف الذي أصبح متآكلا بالزّمن ولا يقضي منفعة ولا يشبع حاجة ولا يهدي للتي هي أحسن وأقوم ينبغي تجاوزه بحلول تصنع المستقبل وتحدث النُقلة وتمكن من بلوغ المأمول ونيلة أو الفوز به.

فالمنهج مع أنّه يَنْظِمُ المعلومات تحليلا وتعليلا إلا أنّه قد لا يكون فعَّالا، أي يمكن أن يتّبع الباحث خطوات البحث العلمي بكلّ دقة، ولكنّه قد يكون مقفلا على تعاليم سابقة وغير قادرا على الخروج عنها بما يُمكِّنه من أن يكون مبدعا.

إنَّ اقتصار التفكير العلمي على ما تسمح به اللوائح والقوانين الوضعية، هو تفكير استهلاكي لا يحقّق الابدّاع، ولا يرتقي بالمبدعين، فالذي يرتقي بالمبدعين هو ألا يُحدَّ من تفكيرهم بسقفٍ يقفون عنده أو دونه، لتكون آفاق الخيال العلمي مفتوحة أمامهم، وهكذا من الواقع، والخيال، والحدس، يصل العقل المبدع إلى الجديد المفيد.

وهنا فالمنهج العلمي يرتبط بالموضوع، ولا يحيد عنه؛ فالموضوع هو الذي يحدد المنهج المناسب للبحث فيه أو لدراسته، ولهذا لا يمكن أن يكون المنهج سابقا على الموضوع؛ فلولا الموضوع ما كان المنهج، ولولا المنهج ما سُبرت أغوار الموضوع وكُشفت أسراره، ولهذا أقول: لكلّ موضوع منهج

خاصّا به، فلا داعي لتسويق المناهج الجاهزة التي تُسهم في خلق التُّبع ولا تُسهم في خلق المبدعين.

وعليه، فبالمنهج نستطيع أخذ العبر من الماضي، ونستوعب الحاضر الجميل من أجل المستقبل الأكثر أهمية، ولكيلا تكون المناهج تكرارا مملّا نتيجة اقتصارها على الجاهز فقط ينبغي أن تكون مناهج تطلّعية تفتح آفاق الابدّاع أمام البحاث في جميع مجالات العلوم وميادينه الواسعة، وذلك باستيعابها تطلعات المجتمع وأمانيه المرجوة.

ومن ثمّ؛ فالمنهج هو الفن العلمي في تحديد المواضيع وسبر أغوارها عللا وأسبابا وتحليلا وتشخيصا ونتيجة أو استنتاجا، ويتضح الفن المنهجي لدى الباحث عندما يتمكّن من ضبط قدراته العقلية والفكريّة مع الموضوع قيد البحث أو الدراسة، لأنّ المناهج هي المفاتيح التي تدخل الباحث إلى الموضوع للتعرف على إسراره وخفاياه، ثمّ تخرجه منه نتيجة مضافة. وبذلك المنهج هو الذي يُمكِّن من اكتشاف الأثر سواء أكان اثر ماديا أم فكريا.

إنّ المناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع للبحث والدراسة هي بحقّ مناهج عقيمة وقوالب جاهزة لا طعم ولا رائحة ولا لون لها، فألاهم أن تكون مناهجا تطلعية لكي تكون سبّاقة لتحقّيق أماني المجتمع وواقية له من التخلف والمرض ومندفعة به إلى التقدّم والرّقى؛ وأخذة الحيطة والحذر من أن ينتكس إذا ما تم علاجه من مرض قد سبق له وان شفى منه.

ولهذا لا ينبغي أن تقف المناهج عند الذي كان، أو عند ما هو كائن، بل يجب أن تتطلَّع إلى ما هو ممكنا (متوقّع وغير متوقّع) من أجل المستقبل الأفضل.

والمنهج العلمي هو الذي يُمكِّن من إحداث النُقلة التي بها يُصنع المستقبل، ولهذا ينبغي على الباحث ألا يستهين بالزّمان، ولكيلا يستهين بالزّمان عليه أن يُعطي قيمة له، وإن لم يفعل ذلك يجد نفسه قد أسهم في ضياعه وضياع مستقبله ومستقبل أبناءه من بعده.

وقد يتساءل البعض:

. إذا كان للزّمن قيمة فما هي قيمته؟

. هل لأنّه ضرورة بالقوّة في ماضيه، وحاضره، ومستقبله؟

. وهل هذه الضّرورة نخافها؟

. وهل نخاف الزّمن بكامله؟

نعم إنّه ضرورة بالقوّة، ونعم أنّنا نخافه، وبخاصة المستقبل منه، لأنّه غير معروف لنا بعد، ممّا يُحفِّز الباحث لأن يصوغوا له الفروض والتساؤلات العلمية بموضوعية، ولهذا لا ينبغي أن يتمّ التوقّف البحثي عند حدود ما هو ماض من الزّمن وما هو حاضر منه، بل يجب أن يتعدّاه للزمن الأهم (المستقبل الذي يُصنع)، ذلك لأنّ المستقبل هو الآخر سيأتي بالقوّة شئنا أم أبينا، ولهذا فلا داعي للغفلة التي لا يكون من بعدها نتيجة سوى النّدم (الخسارة بعينها).

وبما أنّنا نعرف أنّ المستقبل سيأتي بالقوّة، إذن لماذا لا نبحث من أجله عيشا رغدا؟ أي يجب أن نتعلم من أجل المستقبل الذي لم نعرف مضمونه، مع أنّنا نعرف أنّه سيأتي إن لم تقم السّاعة، ولهذا فنحن الذين أسلمنا وجوهنا لله تعالى، نصلّى، ونصوم، ونحجّ، ونزكّى، ونجاهد يوم أن يأتي الجهاد فريضة، وكذلك نعمل، ونتزوج، ونوأمّن على ممتلكاتنا، ونأكل

ونشربّ، ونتعلم ونبحث ونفكر ونتذكر ونعتبر، كل ذلك من أجل المستقبل، ولم يكن من أجل الماضي والحاضر.

وقد يتساءل آخر:

. وما الحكمة من كلّ ذلك؟

لأنّنا نجهل المستقبل، ولا نثق فيه، كما لا نثق في الماضي والحاضر، لانّ الماضي تركنا دون أن يأسف علينا، ولا على الماضيين، وكذلك الحاضر مصرّا على ذلك بتنازله عنا ثانية بثانية، ولا يودّ الاستمرار معنا، ولهذا انعدمت الثقة في الزّمنين (الماضي والحاضر)، ممّا يجعلنا لا نقصر تفكيرنا عيهما إلا لأخذ العبر والموعظة الحسنة، ولذا فنحن نفكّر في غيرهما، ولا غير لهما إلا المستقبل مع أنّه شقيقهما الذي قد يغدر بنا إذا لم نحتاط من غدره، وعليه: لا ثقة في الزّمن على الإطلاق، الثقة في العمل دون سواه، وعليه ينبغي أن نعمل دون تردد، نبحث، نتعلم، نتعرَّف، ونصحح أخطاؤنا أوّلا بأول ونتطلَّع إلى حياة المستقبل ونعمل على صناعته دون توقف، ولذا فمن يتوقف قليلا يتأخر كثيرا؛ فلا داعي للتوقّف ولو لبرهة.

إنّ المناهج العلمية هي المناهج التحسينية التي لا تقف عند قبول الواقع فقط بل تعمل على تحسينه إلى ما ينبغي أن يكون عليه، حتى لا تكون بمرور الزمن جامدة لا مرونة فيها، وتصبح هرمة كالعجوز لا حيوية لها، متكئة على عصا لا غاية من ورائها إلا إثبات عدم قدرة من يتكأ عليها، فهي لم تكن عصا إظهار القوّة كما هي عصا موسى عليه الصّلاة والسّلام.

ولأنّه المنهج إبداعا؛ فلا ينبغي أن يصاحبه أسلوبا ركيكا، بل يجب أن يكون مليئا بعناصر التشويق (فكرة وحجّة وفنا)، بغاية تحفيز القراء على البحث، وتُمكِّنهم من التعرُّف على أسراره وخفاياه وكنوزه الثمينة، ولهذا لم

تكن المناهج قوالب ثابتة تستوجب التقيد بها كما يعتقد البعض، بل لها من الأساليب المتنوّعة التي بها تتنوّع البحوث وتتزين بموضوعية.

وعليه فإنّ المنهج هو العملية الشاملة التي بها تحلل المعلومات والمعارف والقضايا والعلوم والأفكار، وهذه العملية هي التي تُمكِّن طرق البحث من بلوغ النتائج، فالطريقة التجريبية لن تنجز أهدافها إلا بكشف العلائق الدالة على حلقات الترابط بتحليل الظاهر والكامن أو الصريح والضمني، وهكذا الطريقة التاريخية وطريقة المسح الاجتماعي لن تتما كطريقتين بحثيتين إلا بالمنهج التحليلي.

لذا إنْ حُدِدَ المنهج من قبل الباحث لابدّ وأن تكون من ورائه حكمة، وتتضح الحكمة من ورائه بالإجابة على السؤال لماذا يختلف البحاث أو يتّفقون في التعرف على الموضوع الواحد، وكيف؟

بشكلٍ عام يختلف البحاث ويتّفقون حسب المواضيع، والفلسفات والأهداف المرجوة من كل باحث وكذلك الأغراض والغايات التي من ورائها، والإطار المرجعي لكلّ منهم أيضا.

أمّا بشكل خاصّ فلكلٍّ شِرعة ومنهاجا، أي أنّ المنهج هو المتغير الرّئيس في التباين بين الباحثين فمنهم من تُنْظم فرضياته وتساؤلاته وأفكاره على قواعد، ومنهم من يتخلى عنها أو عن بعض منها، ولهذا لا يستوون في علاقاتهم البحثية مع الموضوعية التي تسنّها الأخلاق المهنية والحرفية والعلمية وضرورة التقدّم والارتقاء علما ومعرفة وإيمانا.

ولهذا تستمدّ حكمة المنهج وفلسفته من حكمة الموضوع وفلسفته، فيُصبغ المنهج بفلسفة الموضوع كما تُصبغ الأشياء بالألوان؛ ممّا يجعل وحدة بينهما لدرجة تصعب علينا الفصل بينهما فالورقة الخضراء من أية شجرة إذا غمرناها مثلا في محلول كيميائي قد يتغير لونها الأخضر إلى لون سماوي أو

برتقالي أو أيّ لون آخر طبيعي كمّا تحول لون مايكل جاكسون من اللون الأسمر إلى اللون الأشقر فأصبح موضوع بلا منهج لأنّه فقد الحكمة من وجوده باللون الأسمر الذي ارتضاه الله إليه، حتى وإن كانت له حكمة من وراء تغير لونه. وهكذا إذا غمرنا قميص ورديا في محلول كيماوي فإنّه سيفقد لونه الذي أصطبغ به، والذي ميّزه عن غيره من ألوان القمصان، وعندما تزال الألوان عن أوصولها تصبح كالمواضيع بلا منهج ذلك لأنّ المنهج هو الطّابع المميز للموضوع أو وسيلة إبرازه علميا من خلال السُبل الفنيّة التي تُتّبع من قِبل الباحث أثناء تجميع المعلومات والبيانات وانتظامها تحليلا وتعليلا واستنتاجا وتفسيرا، ولهذا إذا كان غير مؤسّس على المنهج فهو عبارة عن مشروع ارتجالي لم بُين على قواعد موضوعية يمكن الاحتكام بها والاحتكام إليها.

إذن المنهج هو الذي به نتعلّم كيف نتعلم، إنّه المنهج المِمكِّن من المعرفة الواعية، والمناهج المخالفة لذلك هي المناهج الإعلامية الإبلاغية، ولذا فالفرق كبير بين المناهج التي تُعلِّمنا كيف نتعلَّم، وبين المناهج التي تُبلغنا أو تُعلِمُنا بما عَلِمت به، فالأولى: تُفسِح الطريق أو المجال أمامنا بما يظهر إبداعاتنا العلمية، والثانية: تُفسِح الطريق أمامنا بما يجعلنا نردّد ما تم إعلامنا أو إبلاغنا به، ولا تُحفِّزنا على سواه.

ولهذا فالمنهج العلمي هو الذي يُمكِّن الباحث من كشف العلاقات بين المتغيرات والعلل والأسباب مع المقارنة لأجل التفصيل والتدقيق والتقصي الواعي بموضوعية، ممّا يؤدّي إلى معرفة العلاقات بين الكلّ، والجزء، والمتجزئ، وأثر كل منها على الآخر وفقا لمتغيرات البحث المستقلة والتابعة والمتداخلة والدّخيلة.

وعليه لكي تكون مناهج البحث العلمي مبدعة ينبغي أن تتحرّر من طرقها وأساليبها التسليمية والسردية التي لا تمكّن من استيعاب الخصوصية الزّمانية والمكانية والظرفية.

إنّ انتقادنا للمناهج التسليمية، لأنّنا نريدها أن ترتقي إلى استيعاب المستقبل الأفضل الذي يأمله النّاس، ويكفيها القصور عند الماضي أو الحاضر فقط، وهذا لا يعني أنّها تنفصل عن ميز الماضي ومميزات الحاضر الجميل، بل يعني أن تُستمد القوّة منهما لبلوغ ما هو أقوى وأعظم وأهم. ولهذا التسليم بكل ما يُكتب، أو يُقال لا يعدّ ميزة، بل يُعدّ عيبا إن لم يتم التفحُّصَ بعد شكٍ بغرض اليقين، ولذا لا تسليم إلا بمسلمات يدركها العقل الواعي وتثبتها التجاربّ الاجتماعية، أو المعملية المختبرية، ولا تسليم إلا لمطلق، ولا مطلق إلا من عند الله عزّ وجلّ، وبما أنّنا نعترف أنّ البشر غير معصومين من الخطأ، فلماذا إذا لا نشكّ في آرائهم إلى أن نتبيّن أنّه الحقّ اليقين؟

فالمناهج العلمية هي التي تبني الثّقة في المعلم والمتعلم، وتحررهما من التبعية وهمومها التي تطمس شخصية كلّ منهما.

ولهذا؛ فالمناهج العلمية استفسارية تساؤلية، وذلك عندما تستفزّ القارئ والمتعلم علميا، وتحفّزهما على الاطلاع والتساؤل، وتشوّقهما إلى المعرفة الواعية، التي لا تجعل من العلم طلاسم أمام البحث والنقاش والحوار والجدل بالتي هي أحسن، ولهذا لا يمكن أن يحس المعلم بالتعالي ولا يحس المتعلم بالغربّة، وتنتهي النظرة التلقينية التي تعتبر المعلم طرفا موجبا، والمتعلم طرفا سالبا، والمعلم مُرسل للمعلومات، والمتعلم مستقبل لها، ويصبح التعليم متحررا من القيود وفيه تتساوى كفتا الميزان بين المعلم والمتعلم، فمع أنّ العملية التعليمية يقودها المعلم إلا أنّ المستهدف بالتعلّم هو المتعلم ممّا يستوجب مشاركته وعدم تغييبه.

وعليه ينبغي أن تبدأ المناهج مع المبحوثين والمتعلمين من حيث هم، لكي تدفعهم وتحفّزهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه أقوياء وفاعلون ومبدعون، وذلك باستيعاب أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية، بمعرفة المستويات التي هم عليها، لتكون البداية منها كواقع اجتماعي وإنساني، مع مراعاة الفروق في القدرات، والاستعدادات بين الأفراد والجماعات والمجتمعات. ولذا فإنّ البداية مع النّاس أو المتعلمين من حيث هم تحليلا وتشخيصا، يُمكِّنهم من استيعاب الرّسالة الموجهة إليهم. إلّا إذا كانوا كافرين بالحقّيقة كما كفر بها قوم هود عليه الصّلاة والسّلام.

ومن هنا؛ فالمنهج يُعتبر هو الوعي بالموضوع من خلال الوعي بالحكمة والحجّة التي يحملها رسالة كما هو منهج هود عليه الصّلاة والسّلام.

**مساكن قوم هود:**

كانت مساكن عاد عليه السّلام كما سبق ذكره في أرض الأحقّاف، من جنوب شبه الجزيرة العربيّة. والأحقّاف شمال حضرموت، وشمال الأحقّاف الرّبع الخالي، وفي شرقها عُمان. وموضع بلادهم اليوم رمال قاحلة، لا أنيس فيها ولا ديار.

وكان قوم هود من عبدة الأصنام بعد الطوفان وكانت أصنامهم ثلاثة: (صدا وصمودا وهرا) وقد يكون المقصود بالأحقّاف الموجودة في جزيرة العربّ أو غيرها من الأماكن وهي عديدة، وقد ذُكر في القرآن أن مبانيهم كانت شديدة الضخامة.

**هلاك عاد:**

بعد أن أعلن هود براءته من قومه ومن آلهتهم؛ وهو المتوكّل على الله الذي خلقه، أدرك العذاب الذي سيقع بمن كفر منهم؛ فالله تعالى لابدّ وأن يعذب الذين كفروا، مهما كانوا أقوياء أو أغنياء أو جبابرة أو عمالقة،

وانتظر هود وعد الله. فبدأ الجفاف في الأرض؛ فالسماء لم تعد تمطر. فهرع قوم هود إليه. ما هذا الجفاف يا هود؟ قال هود: إنّ الله غاضب عليكم، ولو آمنتم فسوف يرضى الله عنكم ويرسل المطر فيزيدكم قوّة إلى قوّتكم. ومع ذلك سخر القوم منه وزادوا في العناد والسّخرية والكفر. وزاد الجفاف، واصفرت الأشجار الخضراء ومات الزّرع. وجاء يوم فإذا سحاب عظيم يملأ السّماء. وفرح قوم هود وخرجوا من بيوتهم يقولون: (هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا). ولكنّ الجو فجأة تغيّر. وبدأت الرّياح تهبّ. ارتعش كلّ شيء، ارتعشت الأشجار والنباتات والرّجال والنساء والخيام. واستمرّت الريح. ليلة بعد ليلة، ويوما بعد يوم. والبرد يشدّ بردا. وبدأ قوم هود يفرون، أسرعوا إلى الخيام واختبئوا داخلها، اشتدّ هبوب الرّياح واقتلعت الخيام، واختبئوا تحت الأغطية، فاشتد هبوب الرياح وتطايرت الأغطية. كانت الرياح تمزق الملابس وتمزق الجلد وتنفذ من فتحات الجسم وتدمره. لا تكاد الريح تمس شيئا إلا قتلته ودمرته، وجعلته كالرّميم.

استمرّت الرّياح مسلطة عليهم سبع ليال وثمانية أيام لم تر الدنيا مثلها قط. ثم توقفت الرّيح بإذن ربّها. ولم يعد باقيا ممّن كفر من قوم هود إلا ما يبقى من النخل الميت. {كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاس كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}865 وبحمد الله وفضلة كانت نجاة هود ومن تبعه آية، ومن هنا دائما يأتي الحقّ ويُزهق الباطل.

### هود مجاب الدّعاء:

الأنبياء جميعهم دعائهم مستجاب كونهم لا يدعون إلّا في مرضاته تعالى، ومن ثمّ فلا استغراب أن لا يكون هود مستجاب الدّعاء "ولما تمادى قوم هود عليه السّلام في الباطل والضلال، باتخاذ آلهة ما أنزل الله بها من

865 القمر 18 . 21.

سلطان، دعا ربّه أن ينصر دينه، وقد أجاب الله تعالى دعوته، {قَالَ ربّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالحقّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}866 لقد أرسل الله عليهم الرّيح العقيم، فأهلكهم الله وأبادهم، وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ونجى الله هودا والذين آمنوا معه برحمة منه867: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ ربّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحيم}868

عن أَسْبَاطُ بْنُ نَصْرٍ، عَنِ السُّدّيّ، قَالَ: "كَانَ قَوْمُ عَادٍ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، كَانُوا بِأَحقّافٍ، وَالْأَحقّافُ: الرّمَالُ، فَأَتَاهُمْ فَدَعَاهُمْ وَذَكَّرَهُمْ بِمَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْكَ فِي الْقُرْآنِ، فَكَذَّبُوهُ وَكَفَرُوا، وَسَأَلُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِالْعَذَابِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَصَابَهُمْ حِينَ كَفَرُوا قَحْطٌ مِنَ الْمَطَرِ، فَجُهِدُوا جَهْدًا شَدِيدًا، فَدَعَا عَلَيْهِمْ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرّيحَ الْعَقِيمَ الَّتِي لَا تُلْقِحُ"869. {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}870.

**نسب هو بين عربّ وعاربّة:**

العربّ ينقسمون إلى قسمين: قسم يعود إلى يعربّ بن يشجب الذي ينتهي نسبه إلى هود عليه السّلام، وهؤلاء هم الذين يسمون العربّ العاربّة. وقسم آخر ينتهي نسبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم871.

ويقول ابن هود:

---

866 المؤمنون 39. 41.

867 منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 185.

868 منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 185.

869 العقوبات لابن أبي الدنيا، ص، 85.

870 الأحقّاف 24.

871 شرح فتح المجيد للغنيمان، 66، ص 8.

أبونا نبي الله هود بن عابر.......... ونحن بنو هود النبي الطهر

لنا الملك في شرق البلاد وغربّها... ومفخرا يسمو على كلّ مفخر

فمن مثل كهلان القواضب والقنا... ومن مثل أملاك البرية حمير

**معجزة هود:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: "ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إليَّ، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"872

وهنا أقول:

علينا أن نفرّق بين العقاب الإلهي وبين معجزات الأنبياء؛ فالعقاب الإلهي إعجاز ربّاني، أمّا معجزات الأنبياء فهي التي يكونوا الأنبياء عليها أثناء النبأ أو الرّسالة، ومن هنا؛ فالأنبياء جميعهم متحدّون للظلم والظّلمة ولا يستسلمون وهذه آية.

. أنّهم مناصرون من الله تعالى وهذه آية.

. يمتلكون الحجّة والحكمة مع صبر على الأذى، ولا يستسلمون لغير الحقّ وهذه آية.

. أنّ جميع الأنبياء مصلحون ومستخلفون في الأرض وهذه آية.

. مصطفون من الله تعالى وهذه آية.

. لم يهزمون أبدا وهذه آية.

872 قد روى أَبِو هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلّم قَالَ: الجنة والنار، ص، 208.

ولكن لأنّ الكفرة لا يؤمنون إلّا بآية شاهدة يبصرونها؛ فجعل الله عزّ وجلّ للأنبياء آيات على الخصوصيات الظرفية والمكانية والزّمانية. ومن ثمّ جاءت معجزة هود إلى جانب ما يشترك فيه مع جميع الأنبياء، أن يكون مصرّا على التحدي وهو واثق من المناصرة وانهزام أو هلاك الكافرين، ومن هنا كانت الرّيح استجابة لسؤال هود ربّه آية؛ فعَنْ جُوَيْبِرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو دَاوُدَ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ عزّ وجلّ: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ}873. قَالُوا: غَيْمٌ فِيهِ مَطَرٌ، قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، فَلَمَّا أَنْ رَأَوْا مَا كَانَ خَارِجًا مِنْ رِحَالِهِمْ وَمَواشِيهِمْ تَطِيرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِثْلَ الرِّيشِ، دَخَلُوا بُيُوتَهُمْ، وَأَغْلَقُوا أَبْوَابَهُمْ، فَجَاءَتِ الرِّيحُ فَفَتَحَتْ أَبْوَابَهُمْ، وَمَالَتْ بِالرَّمْلِ، فَكَانُوا تَحْتَ الرَّمْلِ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا لَهُمْ أَنِينٌ، ثُمَّ أَمَرَ الرِّيحَ فَسَكَّنَتْ عَنْهُمُ الرَّمْلَ، وَأَمَرَهَا فَطَرَحَتْهُمْ فِي الْبَحْرِ"874، فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ}875

**وصية النبي هود:**

وحدثنا علي بن محمّد، وأسند الحديث عن جده الدعبل بن علي الخزاعي مجال الاختصار، وذكر الدعبل بن علي أنّ هود النبي صلّى الله عليه وسلّم قد وصى بنيه، فقال لهم: "يا بني أوصيكم بتقوى الله وطاعته والإقرار بالوحدانية له، وأحذّركم الدّنيا، فإنّها غرارة خداعة غير باقية، ولا أنتم باقون عليها، فاتقوا الله الذي إليه تحشرون، ولا يفتننكم الشيطان، إنّه لكم عدو مبين"876.

873 الأحقّاف 24.

874 العقوبات لابن أبي الدنيا، ص، 84.

875 الأحقّاف 25.

876 المنتخب في ذكر نسب قبائل العربّ، ص 3.

**وفاة هود:**

يقال أنّه عليه السّلام توفي بالعراق، وهناك من قال توفي بدمشق، وآخرون قالوا: "إنّه مات باليمن، وقيل: بمكّة، فإن مبعثه كان باليمن ومهاجره بعد هلاك قومه إلى مكة"877، ولذلك فهناك عدة مواقع يعتقد أنّها قبر النبي هود.

877 منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس (ص: 144)